حنّا مينه

المغامرة الأخيرة

رواية

欢迎



علي مولا

دار الآداب

المغامرة الأخيرة

حنّا مينة

المغامرة الأخيرة

دار الآداب - بيروت

المغامرة الأخيرة
حنا مينة/روائيّ سوريّ
الطبعة الأولى ١٩٩٧
الطبعة الثانية ٢٠٠٢

دار الآداب للنشر والتوزيع
ساقية الجنزير - بناية بيهم
ص.ب. 4123-11
بيروت - لبنان
هاتف: 861633 (01) - 861632(03)
فاكس: 009611861633
e-mail: d_aladab@cyberia.net.lb

- ٢١ -

بعد ذهاب جيفرسون مع الميتر، إلى باب المطعم الخارجي، كان ثمة من ينتظره. وكان الميتر، ذو الشعر الرماديّ، رصينًا، قويّ القبضة على ساعد جيفرسون، ليشعره بأنّ الإفلات غير ممكن. وكان جيفرسون ينقاد له طائعًا، خائفًا، دائرًا معه حول صالة المطعم، كيلا يستلفت أنظار الطاعمين، إلاّ من كان حول المائدة، التي حاول جيفرسون، أن يحطم ما عليها دون نجاح. هنا الصين! وهنا العربدة ممنوعة، وكل شيء يتم بهدوء، وعبثًا راح جيفرسون يشرح نفسه قائلاً:

- لم أكن اقصد... صحيح أنني رفعت قبضتي، إلاّ أنّ رفعها كان عفويًا، ولم أكن أنوي الإهواء بها على المائدة، عندما أمسكت بي من ساعدي، لذلك أرجو منك، تونجي، أن تدعني أذهب إلى البيت، وأعدك أن هذا لن يتكرر، في المطعم أو خارجه.

قال الميتر بما يشبه الهمس، دون أن تختلج عضلة في وجهه:

- أعرف كل هذا الذي تقوله.. إخراجك من المطعم من باب الاحتياط ليس إلاّ. الزم الصمت، وهذا أفضل لك.

- لكنّني..

قاطعه الميتر، بعد أن ضغط على ساعده بقوة:

- قلت لك الزم الصمت.

- وإذا لم أفعل؟

- أنت، رغم سكرك، عاقل بما فيه الكفاية كي تفعل.

- لست سكرانَ!

- هذا واضح!!

- إنني..

ـ ولا كلمة أخرى!
ـ لا حقّ لك أن تقبض عليّ.
ـ أنا أساعدك على الخروج من المطعم.
ـ وبعد ذلك؟
ـ أنت حر!
ـ تدعني أذهب إلى البيت.
ـ طبعًا! ولكن مع الرفيق الذي سيوصلك إليه بأمان.. انظر! إنه هناك! هيّا..

تقدم الرفيق الصيني، الذي على الباب الخارجي، وتبادل كلمات مع الميتر، ثم قال لجيفرسون بالإنكليزية:

ـ لا تخف! سر معي وهذا كل شيء.
ـ إلى أين؟
ـ ستعرف بعد قليل.

قال جيفرسون بتعتعة:

ـ أنا.. لم.. أفعـ..ل.. شيـ..ـئًا!
ـ نعرف هذا!
ـ إذن لماذا تقبضون علي؟
ـ نحن لا نقبض عليك.
ـ الميتر، في المطعم، قبض عليّ..
ـ فعل ذلك حتى لا تسقط وأنت تترنّح..
ـ لكنني قادر على السير وحدي..
ـ ها أنت تسير وحدك..
ـ اذن دعني أسر في طريقي..
ـ ليس قبل أن تستريح قليلاً لدينا..
ـ أين لديكم هذه؟
ـ في الإدارة!
ـ أنا لا أستريح إلاّ في بيتي..

ـ الإدارة مثل بيتك.. نتحدث قليلاً ثم تذهب.

ـ نتحدث حول أيّ شيء!؟

ـ حول راحتك في بيتاخو!

ـ ولماذا لم تتحدّثوا مع الآخرين!؟ زبيد ومارلين والسيدة نلسون..

ـ سنتحدّث معهم واحدًا واحدًا.. وبهدوء تام.. ها قد وصلنا.. تفضّل إذا أردت.

دخلا مبنى الإدارة. جلس جيفرسون على كرسيّ في إحدى الغرف. عاملوه بلطف. كانوا يريدونه أن يستريح فعلاً. طلب ماء، شرب حتى ارتوى، اقترحوا عليه، بعد قليل، أن يستلقي على سرير في الغرفة. رفض أوّلاً، تركوه وشأنه، كان تعبًا أغفى وهو على الكرسيّ، عندئذ ساعدوه في الانتقال إلى السرير، وبعد أن تمدّد، بكامل ثيابه، أغفى.. تركوه ينام.. ولم يفعلوا سوى إغلاق الباب، دون رقابة أو حراسة.

على الطاولة، في المطعم، خيّم صمت ثقيل بعد ذهاب جيفرسون مع الميتر. راقبهما زبيد من طرف خفي إلى أن خرجا. بعد لحظات عاد الميتر وحده. الذين انتبهوا إلى ما جرى كانوا قلة وحتى مع الانتباه ظنوا ان جيفرسون انصرف إلى بيته، وهو في حالة سكر، وهذا مألوف في المطعم، ويتمّ، دائمًا، دونما عربدة. زبيد وحده أدرك دقّة الموقف. الميتر تدخّل في الوقت المناسب تمامًا. كان يراقب. إنّه يعمل ويراقب. أمسك بساعد جيفرسون في اللحظة المناسبة. لولا ذلك لحدثت فضيحة. كان جيفرسون في حالتين من يأس وسكر. قال إنّه يريد مارلين! كيف!؟ لماذا!؟ بأيّ حقّ!؟ هذه أسئلة غير واردة مع عاشق شارف حدّ الجنون. لولا الميتر لحطّم جيفرسون الطاولة وما عليها. زبيد ما كان ليقف مكتوف اليدين طبعًا، لكنه لن يضرب جيفرسون بأية حال. هذا، في رأي زبيد، مسكين. إنّه سريع الانفعال، انفعاله يصل إلى درجة الهسترة. يشرب أقلّ من الآخرين، يسكر قبل كل الآخرين، يعربد، يتصرّف بتهوّر، يثور، يبكي، يشتعل من الداخل، يرتعد شبقًا، يحبّ مارلين حبًا مهووسًا، حبًا جارفًا، عنيفًا، يزداد ما ازداد تمنّعها عليه، وهي تتمنّع لأنها لا تحبه، ولأنها تكرهه، وكذلك تخافه، وفي الاستبدال، يكون تعلقها بزبيد استبداليًا فهي تحبه، ويزداد حبها طردًا،

لأنه لا يحبها، الا أنها لا تثور عليه، لأنها ترتوي معه، وفوق ذلك تجد فيه، الآن، حاميًا لها، وهذا يخفف من غلوائها والجموح، مؤقتًا على الأقل.

بعد فترة من صمت، قالت السيدة نلسون، التي جلست مكانه، مواساةً لمارلين:

ـ هذا ما يسمّونه، يا مارلين، يا عزيزتي، حبًا صاعقًا! جيفرسون ليس سيِّئًا، بعد كل شيء، لكنه عاشق، ويسكر بسرعة، فكيف صار واجتمعتم أنتم الثلاثة حول طاولة واحدة؟ قالت مارلين شبه باكية:

ـ لقد فرض نفسه علينا، زبيد وأنا!

ـ وماذا في ذلك لو لم يسكر!؟ هذا من طبيعة الحياة هنا. الكل يجالس الكل، لا تنسي أننا رفاق، وزملاء عمل في الصين.

ـ لكن جيفرسون لا أخلاقيّ، وقد رأيت تصرفه الأحمق، فماذا في وسعي أن أفعل؟

ـ في وسعك الكثير، والكلمة الطيِّبة أوّلاً.. أنت تعرفين ما قاله السيّد المسيح.. الإنسان، يا صغيرتي، لا يحيا بالخبز وحده.

نبرت مارلين:

ـ تريدينني أن أذهب إلى البيت معه!؟ أن أقدِّم له الخبز وغيره؟

قالت السيدة نلسون وهي تشرب ما تبقّى في كأسها:

ـ ولَم لا؟ كنت سأقترح أن نذهب معه كلنا، لو لم يسبقني بطيشه، الأرعن! هَذا ما يسمونه تهدئة الثور عندنا! ما رأيك عزيزي زبيد؟ كن صريحًا وعادلاً.

ابتسم زبيد وقال:

ـ أنت على حق سيدة نلسون! هذا ما يسمُّونه تهدئة الثور عندكم، وما أشكّ في أن خبرتك جيدة في هذا المجال!! ما رأيك بقليل من الكونياك؟ إنَّه مفيد في مثل حالنا.

ـ لا مانع، عزيزي زبيد، لا مانع.. لكنني أقول لك، وأمام صغيرتي مارلين، عجوزي يراقبنا!

ـ لكنّ السيد نلسون تناول عشاءه وانصرف.

ـ مع ذلك لا بدّ من الحذر. انتبه! سأقول لك شيئًا مهمًا، ولتغفر لي

عزيزتي مارلين صراحتي: إنّني أبادلك المشاعر نفسها! لكن! ـ انتبه إلى «لكن» هذه، فهي ليست مجّانيّة! ـ لكن أية مشاعر؟ إنّها المشاعر النبيلة، المشاعر الغنية المجيدة، التي تربّيت عليها. قال زبيد بعد أن طلب الكونياك:

ـ إلى أين تريدين الوصول سيِّدة نلسون؟

ابتسمت السيدة نلسون، وشفتاها تلتمعان:

ـ اوه زبيد، عزيزي، لا تكن دبلوماسيًا معي.. أنت تعرف، فلماذا تتجاهل؟ أنا لست تلك المتصابية الاويس.. ومشاعري تختلف! فكِّر في هذا! أرجوك!

قال زبيد وقد راق له أن يتسلّى كي ينسى:

ـ أفكِّر بماذا سيدة نلسون؟ ماذا بعد المشاعر النبيلة، المشاعر الغنيّة المجيدة!؟ وما هي حدود هذه المشاعر كي التزمها؟ إنّني، بعد كل شيء، لست «جيغولو»، ولن أكونه، مع السيدة الاويس أو غيرها.. أما الموقف، بالنسبة إليك، فإنّه يختلف! أنا..

قاطعته محذِّرة:

ـ هسّ.. ولا كلمة أخرى.. الحب، في نظري، شيء مقدّس، لا يتحدّث المرء عنه أمام الآخرين، ألستِ معي عزيزتي مارلين؟

قالت مارلين وهي تحاول إخفاء ابتسامتها:

ـ أنا معك، سيدة نلسون!

غمزت السيدة نلسون زبيد وسألت:

ـ معي بماذا!؟ أنت لست خبيثة، اليس كذلك يا مارلين؟

ـ لا! قالت مارلين: أنت لست خبيثة! أنا معك في أن الحب مقدس، ولا يقال أمام الآخرين.

ـ وأيضًا؟

ـ هذا كل شيء!

ـ لا! ليس كل شيء.. هناك نقطة حسّاسة جدًا هي الغيرة.. هل أنا على خطأ عزيزي زبيد؟

ـ لست على خطأ أبدًا.. الغيرة والحب متلازمان، ولكن عن أي غيرة تتحدثين؟ غيرة مَنْ وممَّن؟

- غيرتك من جيفرسون.. وغيرة مارلين منّي مثلاً.. انتبه! أنا أقول مثلاً.. أين الكونياك؟

صب زبيد كأسًا للسيدة نلسون وقال:

- في صحة حب ما، في مكان ما.. مثلاً!

ابتسمت السيدة نلسون، شربت جرعة من كأسها وقالت:

- هذا نخب يُشرب! «حب ما، في مكان ما»! هذه توريةٌ جيدة، الإنسان، مهما تقدّم في العمر، يظل يحلم، وأنا إنسانة وأحلم، أليس هذا من حقّي؟

قال زبيد:

- هذا من حقك تمامًا.. أنت تحلمين بالعودة إلى الأوبرا، وآمل أن يتحقق هذا الحلم، وكذلك مارلين.. أم ماذا؟

وضعت السيدة نلسون إصبعها على فمها، وقالت وهي تغمز بعينها اليمنى:

- هس زبيد.. نحن في مطعم! توريتك جيّدة، هذه المرة أيضًا! وأنتِ، عزيزتي مارلين، تحلمين بماذا؟ بمنْ؟

ضحكت مارلين وقالت:

- ليس بجيفرسون طبعًا!

- ولماذا طبعًا.. هذه؟

قال زبيد:

- لأنّ الوقت تأخّر سيدة نلسون، ولم يبق في المطعم سوانا.

نظرت في ساعتها، تلفّتت حولها، شربت بقيّة كأسها، قالت وهي تنهض:

- صحيح عزيزي زبيد صحيح.. الوقت تأخّر جدًا، وعجوزي ينتظر فارغ الصبر، لأننا..

قال زبيد ضاحكًا:

- ستلعبان تلك اللعبة الصغيرة..!

- أوه زبيد، صديقي، هذه أشياء لا تقال علنًا.. هناك دائمًا ألعاب صغيرةٍ في غرف النوم، وفي كل مكان، ولو كان بإمكان النظر أن يخترق الجدران، لرأى أشياء طريفة جدًا، ولكانت فضائح.. لماذا تفكر على هذا

النحو؟ هل هذا من الحرمان؟ إنني، الليلة، لا أستطيع لأجلك شيئًا.. آسفة! عجوزي، من هذه الناحية، ملحاح كأنه مراهق، وأنت تعرف.. يُقال إنّ انغرين آلاويس تكرهك جدًا، لماذا؟

ـ لأنّها عنصريّة، وهي من الشباب المنحرف! هناك، في ألمانيا، نازية جديدة، تُشجِّع من الداخل والخارج، وهذه حقيقة.. انغرين تكره الاتِّحاد السوفياتي، تقول إنّ ألمانيا ستنتقم لهزيمتها في الحرب العالميّة الثانية، تأملي!

ـ نعم! نعم! نلسون يلاحظ هذا الانبعاث النازي أيضًا.. تعرف، زبيد، أنّ الفاشيّة، في إيطاليا، تنبعث أيضًا، وهذا مؤسف.. هناك تضليل للشبيبة.

ـ ليس كل الشبيبة.. هيّا نخرج.. سأدفع فاتورة المطعم والحق بكما..

سارت السيدة نلسون وهي تتأبّط ذراع مارلين. دفع زبيد الفاتورة وقال للميتر:

ـ أعتذر! تأخّرنا قليلاً! لكن السمكة كانت جيّدة التحضير، شكرًا على كلّ شيء.

قال الميتر:

ـ انتبه تونجي زبيد.. لا تخرج كثيرًا في الليل، باتجاه البحر..

ـ لماذا؟ هل هناك خطر ما؟

ابتسم الميتر:

ـ سايجين (مع السلامة)!

قال ذلك، ثم أدار ظهره وانصرف. توقف زبيد للحظة. كان يرغب في أن يعرف سبب هذا التحذير، الذي تكرر هذه الليلة، لكن الميتر اختفى. فكّر زبيد في الرجل الذي كان يتبعه، والحارس الصيني الذي نبهه إليه، وتساءل: «ما هناك!؟» ثم حثّ الخطى ليلحق بالسيدة نلسون ومارلين، اللتين كانتا تنتظرانه، في أوّل الطريق، خارج المطعم. إنّه يستشعر خطرًا ما، لكن ما هو!؟ من أي جهة؟ ولماذا؟ هذا ما يجهله، لكنه لا يخافه، ليس لأنّه في الصين، بل لأنّه يثق بقوّته. فكّر: «هذا لا شيء. عليَّ أن أوصل السيدة نلسون إلى بيتها، وكذلك مارلين، ثم أعمل قليلاً في إصلاح ترجمة المجموعة القصصية».

فكر في ذلك للحظة، وبعمق، مشى مسرعًا ليلحق بهما.. كان يألم لما حدث، ويحسّ بأنّ روحه مجرّحة، هو أيضًا، وقد صاحت السيدة نلسون منذ رأته قادمًا:

ـ هالو زبيد، عزيزي، لماذا تأخرت؟ مارلين فتاة طيبة، لكنها قلقة.. اسمع! علينا، أنت وأنا، أن نزيل الجفوة بينها وبين جيفرسون، هذا المسكين، الذي سيضيع نفسه بسببها، وهذا لا يجوز! قلت لها هذا فرفضت، قالت إنها تكرهه، هو المتيّم بها، فماذا نفعل؟

قال زبيد:

ـ وما أدراني!؟

ـ كيف ما أدراك وأنت السبب؟ مارلين تحبك، فهل ترغب في الزواج منها؟ اذا كنت لا ترغب فإن جيفرسون يريد أن يتزوجها، وفي هذه الحال تفعل معروفًا اذا أخليت له الطريق.

«بليّة!»

ـ عن أي طريق تتحدثين سيدة نلسون!؟ إنني لا أسدّ أيّما طريق على أيّما أحد، مارلين راشدة، ولها كل الحرية في أن تفعل ما تريد، لنسرع.. السيد نلسون ينتظرك، وأنا لدي عمل لا بد من إنجازه.. كفى كلامٌ في هذا الموضوع!

قال ذلك وأمسك بالسيدة نلسون من ساعدها كيلا تقع. الناس يشربون لينسوا، وهي تشرب لتتذكر، ماكينة كلام! إنّها طريفة، عذبة، فنانة، مثقفة، لكنها، عندما تسكر، لا تكفّ عن الكلام، وهذا ما يزعجه فيها. عليه أن يسرع بها، أن يجرّها جرًا، وهذا ما فعله، وعندما أوصلها إلى بيتها، تنهّد بارتياح، وعاد من الطريق نفسها، ملتزمًا الصمت، راغبًا في أن يتخلّص من مارلين أيضًا، وبأسرع ما يمكن، وهذه تحاول أن تتباطأ، أن تضع ذراعها في ذراعه، ان تتنزّه معه، في هذا الليل الساجي، كحبيبين، غير عابئة بالعيون الخفيّة التي تراقب، والتي لا تتدخّل، لكنها تبلغ الإدارة، كالعادة، بكل ما يجري، وبكل ما ترى.

سألته، فجأة:

ـ إلى أين!؟

ـ إلى بيتكِ!

ـ لا! إلى بيتكَ.. أريدك أن تحبّني قليلاً.

ـ هذا مستحيل، مع أنني أرغب كما ترغبين. فكّري بعقلك لا بعاطفتك يا مارلين، لا أريد أن يرانا الصينيون معًا، في بيتك أو بيتي، هذا ليس في مصلحتك، ونحن في هذا الوقت المتأخر من الليل.

ـ هل تخاف الصينيين؟

ـ تعرفين أنني نادرًا ما خفت أحدًا، لكنني، في مثل وضعنا، أخاف عليك، لست بالأناني أو النذل، وأحسب أنك تعرفين هذا.

توقفت مارلين ورنت إليه، شدت على يده وقالت:

ـ أعرف يا حبيبي، ومن أجلك، من أجل نبلك وشجاعتك، أترك الدنيا وأتبعك لو أردت.

ـ اذن تذهبين إلى البيت؟

ـ وإذا قلت لك إنني، في هذا الوقت من الليل، أرغب في أن أتنزه معك قليلاً؟ ألا يحق لنا أن نفعل حتى هذا؟

فكّر زبيد وقال:

ـ في وسعنا أن نمشي قليلاً، هذا من حقّنا، ولكن دون أن يلتصق أحدنا بالآخر، وبذلك نتجنب استفزاز أحد، نبدو كصديقين لا أكثر، وهذا من الاحترام لك، ومن أجل الحفاظ على سمعتك، وتاليًا من أجل حمايتك، هنا في الصين! إننا، يا مارلين، لسنا في لندن أو باريس، ولا بد من أخذ كل شيء في الحسبان.

قالت مارلين وهي تمشي إلى جانبه:

ـ أوافق، ولكن على مضض.. أنت تفكّر كعاقل، وأنا أفكّر كمجنونة، ولا حلّ لمشكلتنا إلاّ بالزواج. لماذا، يا زبيد، لا نتزوج ونسكن معًا، كالآخرين؟

ـ لأنّني لم أخلق للزواج.. قلت لك هذا مرات عديدة.

ـ ولكنّنا نمارس الحب كزوجين، فماذا بعد؟

ـ الرباط! تعرفين رأيي في المؤسّسة الزوجية. أن نتزوج يعني أن يحب أحدنا الآخر، ومن القلب، وهذا ما أفتقده..

ـ تريد إقناعي بأنّ لا قلب لك؟ وماذا هناك، في الجانب الأيسر إذن!؟

ـ كرة زجاجية! حطّميها وعندئذ نتزوج!

ـ ولماذا لا تحطّمها أنت؟

ـ حاولت بغير نجاح، وإلا فلماذا هذه الجروح على جسمي!؟

قالت مارلين بنبرة شجن:

ـ أنا لا أفهمك كما ينبغي.. لماذا كل هذا الغموض؟

ـ لأنني عاقل مجنون!! أشقى بعقلي وبجنوني، ولست سعيدًا كما تتصوّرين.

ـ ولهذا تغامر؟

ـ ربّما! المغامرة في دمي!

ـ هذا لأنك لم تتزوّج.. تزوّج تعقل!

ـ شكرًا على هذه النصيحة، لا أريد أن أجني على أحد! شاعرنا، المعرّي، قال: «هذا جناه أبي عليّ، وما جنيت على أحد» مات دون أن يتزوج وينجب.. كان منطقيًا مع نفسه!

ـ أليس هو الفيلسوف العربيّ الضرير، الذي حدثتني عنه وعن فلسفته؟

ـ هو ذاته!

ـ ولكنك، أنت، لست ضريرًا، وهناك فارق كبير..

ـ نعم يا مارلين! المسألة، هنا، لا تتوقّف على البصر، بل على الحب.. عندما أحب سأتزوج، وليس قبل ذلك.

ـ والكرة الزجاجيّة التي تقول إنها في صدرك؟

ـ هذه ستتحطّم تلقائيًا، في يوم من الأيام! حين أعثر على ما أبحث عنه.

توقفت مارلين وسألت:

ـ أنت لا تريد إخافتي، أليس كذلك؟ لماذا تتحدث على هذا النحو؟ تحسبني لا أعرف لماذا كانت تلك المغامرة، وهذه الجروح؟ كن عاقلاً! لا تؤذ نفسك لأجلي، أنا التي تحبك بزواج أو دونه.. هل تعدني؟

فكّر زبيد وقال:

ـ أعدك!

ـ وهل تلك المغامرة هي الأخيرة؟

ـ ما دمت في الصين نعم! إنها المغامرة الأخيرة هنا.

ـ وهل تعالج جروحك كما ينبغي؟

ـ أحاول!

ـ ولماذا لم تبق في المستشفى؟

ـ عندما قلت «لا!» للمستشفى، قال الصينيون «نعم!» وعندما قلت «نعم!» قالوا «لا!» أليست هذه مفارقة؟

ـ مفارقة كبيرة، ولكن لماذا؟

ـ هذا ما أتركه لفطنتك.. تذكّري دائمًا أننا في الصين، وتصرّفي على هذا الأساس!

ـ أنت لا تتصرّف دائمًا على هذا الأساس!

ـ لأنّني مجنون!

ـ لكنّ الصينيين، العاقلين جدًا، يحترمون جنونك هذا، وهذه مفارقة أخرى!

ـ أنا استثناء!!

ـ وهل أنت كذلك في كل مكان؟

ـ تقريبًا!

ـ لماذا؟

ـ لأنني كثير الأخطاء! ودائمًا هناك من يغفر لي أخطائي، أو يتغاضى عنها لأمر ما.. ظنّي أنّ الصينيين يتغاضون عن أخطائي مؤقّتًا!

ـ ولو حدث العكس؟

هزّ كتفيه وقال:

ـ الدنيا واسعة!

ـ هذه اللامبالاة فيك قاتلة يا زبيد!

ـ أنت على صواب!

قالت مارلين:

ـ تبدو، من هذه الناحية، كأنّك مقامر!

ـ تمامًا!

ـ تقامر على مستقبلك!؟

ـ على حظّي!

ـ وتربح دائمًا؟

ـ ليس دائمًا، ولكنّي محظوظ دائمًا، ولا أحد يريد أن يصدّقني.. وهذه مفارقة ثالثة!

ـ أنا أصدقك يا حبيبي! أنت تعمل كثيرًا، وتكسب كثيرًا، وتنفق كثيرًا.

ـ هذا من الجنون يا مارلين!

ـ لكنّني، أنا، وربّما غيري، نحبّك بسبب هذا الجنون، وهذه مفارقة رابعة!

قال زبيد بارتياح ملتبس:

ـ ولكنّها مفارقة خطيرة يا مارلين.. مَنْ يصارع القدر لا يكن في مأمن! إن نُحَبَّ، بسبب من جنوننا، فهذا طريف، لكن ماذا بعد الطرافة؟ كل ما نصنعه بعفوية يكون صادقًا، لكن الجنون، أو بعض مظاهره، يكلّف صاحبه غاليًا حتى مع صدقه. لنأخذ جنون الشجاعة مثلاً. هذه حالة معروفة في علم النفس، وهي، في مقياس الشجاعة، تأتي في الدرجة العُلْيا، لكن ما هي العواقب؟ اذا تساءل مجنون الشجاعة عن عواقب أفعاله المجنونة يدخل منطقة الحذر، والحذر هو التهيّب، ومن يتهيّب لا يقدم!

برقت عينا مارلين، تحت ضوء الشارع، وقالت:

ـ أنت، يا زبيد، لا تتهيّب، لذلك تُقدم، تُغامر، لا تُبالي، وهذا أعرفه، وصار يعرفه الآخرون، بعد تلك المغامرة الرهيبة، التي أرتعش لمجرد تصوُّرها، لكنني، مع ذلك، أو بسبب من ذلك، أحببتك أكثر، عشقتك إلى الحد الذي أتعذب من أجله، ومن أجله قلت لك إنني على استعداد لاتّباعك حيثما تذهب، كما فعلت حبيبة راسكولنيكوف، التي تبعته إلى المنفى في سيبيريا، حسب رواية «الجريمة والعقاب».

ابتسم زبيد بحنان وقال لمارلين:

ـ أنت الآن تتبعينني على طريق المنفى، مثلها تمامًا.. إنّني، هنا، في

منفًى اختياريّ لأسباب قاهرة، وقد أطرد في يوم ما، وعندئذ أتشرّد، أساق كما ورقة في مهب الريح، وهذا عامل آخر، ثانويّ، لعدم تفكيري في الزواج والاستقرار كما غيري.. ولكن انظري هناك، وراء السياج، ثمة من يراقبنا!

نظرت مارلين بخوف، لكنّها لم تر أحدًا. كان الذي يراقبهما قد اختفى، انجرد زبيد وراءه، ركض في كل الاتجاهات دون طائل، وعندما رجع إلى مارلين وجدها ترتجف خوفًا، تريّث للحظة قربها، ابتسم لها مشجّعًا وهو يقول:

ـ لنتابع طريقنا.. قد يكون وهمًا ما رأيت!

قالت مارلين في محاولة لطمأنة نفسها:

ـ إنّه وهم بغير شك! نحن في الصين يا زبيد، والحراسة قوية، خاصة على الأجانب!

ـ هو ما تقولين يا مارلين، ولكن..

سألت هلعة:

ـ لكن ماذا؟

ـ لا شيء! انسي «لكن» هذه؛ إنّها سخافة، زلّة لسان!! هيّا نَعُدْ إلى البيت، يكفي ما تنزّهنا وثرثرنا الليلة.

أمسكت مارلين بذراعه وقالت:

ـ لا! ليس إلى البيت.. لا أجرؤ على البقاء وحدي، ابق معي ولو في الشارع، إلى أن يطلع الضوء.. في النهار فقط يمكن بقائي وحيدة، في بيتي.. نحن في خطر يا زبيد، قد يكون هذا جيفرسون، وربّما كان مسلّحًا بسكين، كما حدث أوّل أمس، عند آل بروك!

قال زبيد مشدّدًا على الكلمات:

ـ هذا ليس جيفرسون، إنّه وهم، صدِّقيني!

ـ لا أصدّق أنك تتوهم.. هناك من يراقبنا فعلاً.

ضحك زبيد وقال:

ـ طبعًا هناك من يراقبنا، وإلا فماذا يفعل الحرّاس الصينيّون في بيتاخو؟ إنّهم يسهرون على سلامتنا.

ـ حدسي يقول إنّ الذي كان يتبعنا متخفّيًا ليس صينيًا.. إنّه جيفرسون!

ـ وعلى فرض أنّه جيفرسون، ماذا بوسعه أن يفعل؟

ـ يقتلك! وقد يقتلني أنا أيضًا.. إنّه مجنون، بدقة الكلمة.

ـ جيفرسون يعربد ولا يقتل.. يعرف أنّ حبل المشنقة في انتظاره لو فعل! ألم تقولي، قبل قليل، إنّنا في الصين؟

ـ قلت! إلاّ أنني، الآن، خائفة.. انظر من هناك! يا إلهي!

نظر زبيد حيث أشارت. كان هذا صينيًا يتقدم نحوهما. استدار نحوه دون أن يعبأ به، فلمّا وصل اليهما قال بإنكليزية مفهومة:

ـ ماذا هناك؟

أسرعت مارلين إلى القول:

ـ إنسان ما يتبعنا.. مع أنّنا نتنزّه قليلاً، قبل النوم!

قال الحارس الصينيّ:

ـ تابعا نزهتكما.. أنتما في أمان.

قال زبيد:

ـ أعرف أننا في أمان، لكن تونجي مارلين خائفة دون سبب، ولا تجرؤ على البقاء وحدها في البيت.

قال الحارس الصينيّ وهو يتوجه بالكلام إلى مارلين:

ـ غريب ما أسمع! تخافين وأنت في الصين؟ كيف هذا؟ من يضايقك؟ تخافين ممّن؟

ـ من جيفرسون!

ـ ها! جيفرسون!؟ سمعت في الإدارة شيئًا ما حوله.. لكنّه، الآن، ينام، ولن يفيق إلى الصباح.. كوني مطمئنّة!

قال زبيد:

ـ جيفرسون غير سيّئ، لولا أنّه يسكر بسرعة.

لم يعلّق الحارس الصينيّ بشيء. حيّا وانصرف. هذه أوّل مرّة يتكلّم فيها حارس صينيّ مع زبيد، في أي وقت من ليل أو نهار. إنّهم عادة،

يراقبون من بعيد، فإذا مرّ بهم أحد يكتفون بالتحيّة. هذا الحارس كان موجودًا ورأى. زبيد لم يسأله عن الذي كان يتبعهما، وهو، الحارس، لم يشر إليه، في محاولة للتجاهل ليس إلاّ.. هذا، ربما، بسبب وجود مارلين، حتى لا تخاف أكثر. حسنًا فعل! مارلين غدت أقلّ خوفًا، قالت:

ـ الآن أستطيع التأكيد أنّ ما رأيته كان وهمًا يا زبيد. في بيتاخو كما في الدروجبا، الحراسة جيدة، لكنني لم أفهم قولك «جيفرسون غير سيّئ!» تريد تبرئته بعد كل الذي فعل؟

قال زبيد وهما في طريق العودة:

ـ لا أميل إلى الطعن في الخصم، على فرض أنّ جيفرسون خصم! الاستقواء بالسلطة ليس شيمتي، إضافة إلى أنّ جيفرسون يحب، وما يفعله، بل كل ما يفعله، بدافع من هذا الحب، لذلك فإنّه معذور... عندما نجد إنسانًا يغرق ننقذه أوّلاً، ونحاسبه ثانيًا، وليس العكس.

قالت مارلين:

ـ أخالفك الرأي يا زبيد. الحبّ ليس جنونًا.

ـ الحب نوع من الجنون، عندما تصدّ المرأة من يحبها.

ـ وإذا كانت هي لا تحبّه؟ وإذا كانت قد أفهمته ذلك مرارًا، وبقي كالأصمّ؟

ـ يكون الأمر طبيعيًا.. من يحبّ لا يسمع!

ـ وما العمل في هذه الحال؟

ـ الصبر!

فجأة توقف زبيد وقال:

ـ اسمعي جيّدًا يا مارلين، افهمي ما أقول: الحب مرض، ومن يحب أكثر يمرض أكثر، وتاليًا يضعف أكثر. وكما يتطوّر المرض إذا لم يعالج، فإنّ الحب يتطوّر أيضًا اذا لم يجد استجابة. جيفرسون يحبك منذ التقاك في الدروجبا، وحبه لقي صدمة منك في بيتاخو، فتحوّل الحب عشقًا، ومع العشق ارتفع حبه درجة إلى أعلى، نحو الخطر، وأمام تمنّعك عليه، وبضغط من حرمانه، ارتفع عشقه درجة أخرى فأخرى، نحو خطر أشد، وهكذا، ساعة فساعة، يومًا بعد يوم، ومع السكر المتواصل، أصبح

جيفرسون أقرب إلى الجنون، لا ينفع معه النصح، لأنّه لا يسمعه، ولا ينفع معه العذل، لأنه يولعه، وفي وضع نفسيّ مماثل لوضعه، يكون الاهتياج متوقّعًا، إنّه بداية جنون، والمجنون، كما تعلمين، لا مسؤوليّة عليه قانونًا، لذلك علينا أن نصبر، كيلا ندفع جيفرسون إلى ما هو أخطر: الجنون الكامل، الجنون الذي يكون أحيانًا عدوانيًا في اتّجاه النفس والآخر.. هل كلامي واضح؟

قالت مارلين:

ـ واضح تمامًا.. ولكن ماذا عليّ أن أفعل؟

ـ أن تدفعي ضريبة جمالك. لماذا أنت جميلة؟ ستقولين: «هكذا خلقت!» هذا صحيح، غير أنّ الآخرين، يحبّون الجمال، لأنّهم «هكذا خلقوا أيضًا!» فمن المسؤول؟

ـ أنت! لماذا لا تتزوّجني؟

ابتسم وقال:

ـ هذه قصّة فرغنا منها، ما تبقّى أن نطوي الكتاب، مرة وإلى الأبد.. تصبحين على خير.. ادخلي وأقفلي الباب وراءك، ورقم هاتفي معك، دقائق وأكون عندك في حال الضرورة، في حال الضرورة فقط، وهذا لن يحدث، كوني مطمئنة، نامي جيدًا، مع أحلام ذهبية..

ـ وأنت؟ ستعمل أم ستنام؟

ـ سأعمل قليلاً.

ـ لا تعمل، أرجوك، أنت في حاجة إلى الراحة.. عدني بأنّك ستنام!

ـ لا أستطيع! هناك الواجب يا مارلين.

ـ أيّ واجب وأنت في إجازة؟

ـ سبق وتكلّمنا حول هذا الموضوع.. إلى اللّقاء غدًا! هيّا ادخلي وأقفلي الباب وراءك، سأكون سعيدًا اذا ما فعلتِ.

فتحت مارلين الباب. دخلت وأغلقته بالمفتاح. أنارت المصباح في غرفة نومها. أدرك أنّ كلّ شيء على ما يرام، وعندئذ استدار ومشى في اتّجاه بيته، محاولاً نسيان كلّ ما حدث، إلاّ أنّ سؤالاً ظلّ يلحّ عليه: من هذا الذي كان يتبعك يا زبيد، هذه الليلة، مرتين!؟

اليوميّة العشرون ٥ أيلول ١٩٦٠

ماذا تقول الصاعقة للشجرة قبل أن تحرقها؟ ماذا يقول القدر للإنسان قبل أن يدمّره؟ في أي درج يضع المستقبل ما يخبّئه؟ لماذا نعجز عن معرفة ما ينتظرنا؟ الحياة جميلة، وكذلك قبيحة، لكنها صمدت في الحالتين، فمتى يكون في وسعنا أن نتحادث معها؟ ان نتفاهم ولو قليلاً، فلا يكون ثمّة غادر ومغدور؟ أسئلة! دائمًا أسئلة، فمتى الأجوبة، ونحن نقرع باب المجهول كلّ يوم؟

فراغ! سافر برهان مخلص وترك فراغًا. الخبراء السوفيات يرحلون، يتركون وراءهم فراغات، هم يحسّون بوطأة الفراق مرّة، لكنّنا، نحن، نحسّها كلّ مرّة، وفي كل يوم، وفي كل ما تقع ابصارنا عليه. لقد كانوا هنا، أمس، الآن صاروا... رحلوا! وحدها الذكريات بقيت، ليتهم أخذوها معهم، رحمةً بنا كيلا نتألم. الحلف المقدس أصبح غير مقدّس، هُدم، فجأة، كبناء من كرتون! وبعد!؟ نرحل نحن أيضًا؟ إلى أين؟ هم عادوا إلى وطنهم، نحن، الآن، لا وطن لنا، نحن محرومون من العودة إلى وطننا، فما هو مصيرنا؟ ولماذا الغربة هنا وهناك؟ يا للمنفى من مهنة شاقّة، قال ناظم حكمت، تراه كان يفضّل السجن على المنفى؟ السجين في وطنه ليس رقمًا، أمّا خارجه، وفي المنفى، فإنّه ليس أكثر من رقم «يا زبيد، يا بنيّ، أنت هنا رقم، مهما تحاول، فكفّ عن تعذيب نفسك، بما لا يجدي. أنت اشتراكيّ، هذا جيّد، ولكنك لا تجد الطمأنينة حتّى في بلد اشتراكيّ، سواء كان اسم عاصمته بكين أو موسكو أو بوخارست! هذا درس للحفظ، ويا لكثرة الدروس التي على المرء أن يحفظها، حيثما كان!»

اليوم، صباحًا، قمتُ بجولة حول الدروجبا. كنت حزينًا، كان البولفار مقفرًا؛ قلّة من الأجانب تتمشّى، تتريّض، تركض، تجلس، دون أن تستشعر أسفًا. لكلّ منهم وطنه، فلماذا الأسف إذن؟ وحدي، مع العجوزين الأرمنيّين، كنّا نحسّ، وبعمق، أنّ رحيل الخبراء السوفيات يعنينا، أنّ الخلاف، بين بكين وموسكو، يضرّ بقضيّتنا، وأن هذه المهزلة أضحت تراجيديا، يترصّدنا القدر من خلالها، كما تترصد الأفعى، في الدغل، العصفور الذي على غصنه.

قلت وانا اجلس بجوار العجوز قره بيت على المقعد:

ـ فيم تفكر؟

أجاب:

ـ في الذي تفكر فيه أنت.

ـ والبسطرمة؟

ـ اللعنة!! هناك، الآن، ما هو أهمّ.. أرمينيا أضحت بعيدة جدًا.. من كان يظنّ!؟

قالت زوجته التي تجلس معنا على مقعد واحد:

ـ كفى يا قره بيت! لا تقتل نفسك حزنًا، وما النفع؟ لقد رحلوا وانتهى الأمر!

رد بنبرة يأس:

ـ ليتهم رحلوا دفعة واحدة، حتى لا نتعذّب أكثر.

ـ وإذا كان القطار لا يتّسع لهم جميعًا؟

ـ يسيّرون قطارات إضافيّة..

ـ ألم تقل إنّهم عشرة آلاف!؟ فكّر في هذا العدد الكبير!

ـ ليفكّر الآخرون، في موسكو وبكين.. هؤلاء الذين أضاعوا عقولهم، وأضاعونا معهم.

التفتت العجوز اليّ وقالت:

ـ هكذا هو دائمًا! إنّه نكد إلى درجة لا تطاق، منذ بدأوا بالرحيل.

نبر قره بيت:

ـ اسكتي أنت! دعيني على حالي! هذه كارثة يا بلهاء!

ـ وماذا نستطيع أن نفعل؟

ـ نسكت!

ـ أراك تموت كمدًا وأسكت؟

ـ وماذا يفعل المرء اذا كان يرى قبره قد فُتح، وهو على قيد الحياة!؟ يضحك!؟ لقد عشنا، عمرنا كلّه، على أمل، وها هم يقطعون حبل هذا الأمل ببلطة.

ـ وما هو أملُك؟ أن يأتوا بأرمينيا إلى الصين؟

خبط العجوز قره بيت الرصيف بعصاه وقال:

ـ المسألة ليست هكذا يا غبيّة!

ـ وكيف هي إذن؟

التفت إليّ وقال:

ـ اشرح المسألة لهذه العجوز.. أنا يئست منها.

قلت:

ـ هوّن عليك يا عم قره بيت. إنّها نكسة! لكن القضية لن تموت بالسكتة القلبيّة بسببها. سيأتي يوم..

قاطعني بحدّة:

ـ عن أي يوم تتحدّث أنت أيضًا!؟ كنّا نقول سيأتي يوم، والآن؟ أين صار هذا اليوم!؟ إنّني عجوز، ولن أراه أبدًا! عندما تحرّرت الصين رأيت بصيص النور يكبر، وفي ضوئه رأيت المستقبل.. قلت في نفسي: ها هي الصين، بمئات ملايينها، وبإمكاناتها الكبيرة، تأتي إلى الاشتراكيّة، وها هو الحلف الجبّار: الاتّحاد السوفياتي والصين، فمن يقف في وجههما؟ أميركا؟ خسئت! نحن الأقوى، لكنّنا، الآن، صرنا الأضعف، صار الرجوع إلى اسطنبول مستحيلاً، والذهاب إلى أرمينيا أكثر استحالة، والثقة بالانفراج في تركيا انعدمت.. أين نذهب من هنا؟ ومن يعيد اليّ شبابي الذي أفنيته في السجون؟ آثار القيود لا تزال في يدي، لقد عشت يا بنيّ، ناضلت بنفسي وبأسرتي، وما هي النتيجة؟ خلاف خطير لا يصدّق، ليتني متّ قبل أن أرى هذا الخلاف، وقبل أن يصير الاشتراكيّ عدوّ الاشتراكيّ، وقبل أن نصير، نحن الاشتراكيين، غرباء في بلد اشتراكيّ. إنّه الزلزال الصغير، وبعده ماذا؟ الزلزال الكبير، وأنت تهوّن عليّ!! كفى! إنني ذاهب إلى البيت.. هناك لن يراني أحد أبكي أحلامي!

قال ذلك ونهض. كان حزينًا أكثر من أب فقد ولده الوحيد. وكانت زوجته حزينة مثله، لكنّها تتماسك إشفاقًا عليه، وقبل أن يودّعني سأل باهتمام غير عاديّ:

ـ وأنتم!؟ هل سترحلون أيضًا!؟ سمعت أن الأحزاب الشيوعيّة قرّرت

سحب أعضائها أيضًا، تضامنًا مع الاتحاد السوفياتي! جنون! سنُجنّ كلّنا وهذا أفضل! نعم أم لا!؟

ـ لا أدري! أمس وصلتُ من شنتاو، كنت في اجازة هناك، على البحر، لكنّني حدست أنّ أمرًا ما خطيرًا قد حدث، لذلك قطعت إجازتي وعدت.. إنّني مثلك، حزين جدًا، هل نشرب معًا قليلاً من الكونياك مع القهوة التركيّة؟

ـ كونياك صيني!؟ بَهْ! هناك كونياك واحد في العالم، هو الكونياك الأرمنيّ! ومع ماذا؟ مع البسطرمة! هل تفهم ما أقول!؟

ـ تمامًا!

ـ إذن إلى اللقاء.. تعال إليّ، في بيتي، إنّني أتلهّف على خبر ما طيّب.. ماذا تتوقع أنت؟ نرحل، نحن أيضًا، فجأة كما حدث مع الرفيق مالك، الذي سافر بسرعة، خلال ساعات، وبالطائرة؟ علينا أن نتوقّع الأسوأ، هذا هو رأيي، ولكن ما قيمة رأيي أنا العجوز؟ وإلى متى أتجرجر، في هذا العالم الظالم؟ الموت راحة لمن هو في عمري، لكنني أرغب في أن أموت وأدفن في بيريفان، هناك فقط ترقد عظامي بسلام، وإلى الأبد!

قالت زوجته وهي تمسك بذراعه:

ـ كفى تخريفًا! أنت بسبعة أرواح، كالقطط!

ابتسم قره بيت لأوّل مرّة، وهو يغمز بعينه اليمنى:

ـ هل سمعت!؟ هكذا الإنسان، وفي كلّ مكان، لا أحد يطيقه، إذا ما صار عاجزًا بسبب الشيخوخة! هذه المهرة، في شبابها، كانت تموت حبًا بي، أنا الحصان الفحل.. مرة أخرى إلى اللقاء، وأعتذر لأنّني قلت تفاهات!

صافحت العجوزين وبقيت واقفًا، نظرت إليهما بأسىً؛ إنّهما يدبّان تقريبًا! لكنّ ذهنهما غاية في الصفاء.. ما قاله قره بيت حقائق! أحدنا يفهم الآخر لأننا من العالم الثالث، المتخلّف في كلّ شيء، باستثناء أجهزة القمع. ضربة الخلاف قاصمة. إنها بِزنة ألف طن من النحاس. إننا، هنا، نحسّها بقوّة أكبر، لأنّنا نعيشها.. العجوز يتوقّع الأسوأ، فماذا يحمل الغد لنا!؟ ضربة أشدّ!؟ إنّني متفائل بطبعي، لكنّني لست بالأحمق. هناك ضربة

ما أشدّ، حدس العجوز هو حدسي، لكنني مثله، لا أريد الموت في الغربة!

أكملت جولتي حول الدروجبا، تحاشيت الدخول إلى وسطها، يكفي ما رأيته أمس من مشاهد الرحيل، والوداع، والعناق، والحزن. لو لم يسافر مالك لاتّصلت به فورًا، بكيت عندما ودعته ليلة أمس في المطار، سألته:

ـ لماذا هذا الاستدعاء على عجل؟

قال:

ـ لا أدري! أقدّر أن هناك مشاورات بين الأحزاب العربيّة في موسكو.

ـ سمعت أنّ هناك نيّة في التضامن مع الاتّحاد السوفياتيّ.

ـ هذا أقلّ ما يجب.

ـ على الأحزاب العربية ألاّ تتسرّع في قراراتها.

ـ في مسألة التضامن لا بدّ من التسرّع، الصين تلعب لعبة خطرة وستندم.

ـ والاتّحاد السوفياتي؟

ـ أنت تعرف رأيي: حزب لينين لا يخطئ!

ـ لا أنكر أنّه متمرّس، وتجاربه موضع إعجاب.. يكفي أنّه هزم الجيوش الهتلريّة وانتزع النصر، لكن إيجاد مخرج للحفاظ على العلاقات مع الصين ضروري.

ـ ليس قبل أن تعود الصين عن أخطائها.

ـ أخطائها وحدها!؟

ـ طبعًا يا زبيد!

ـ لديّ شكّ!

ـ الشكّ بماذا؟ ألا ترى!؟ ألا تسمع!؟

ـ أرى وأسمع جيدًا، لكن هذا لا يمنع أن يكون لي رأي.

نبر مالك:

ـ المسألة محسومة! أنت مع الاتحاد السوفياتي أم مع الصين؟ هذه هي المسألة!

قلت جادًا:

ـ مع الاتحاد السوفياتي قطعًا.. رغم ملاحظاتي التي تعرفها.. لكنّني لست ضدّ الصين، رغم ملاحظاتي أيضًا!

ـ احتفظ بهذه الملاحظات لنفسك.

ـ سأفعل، ولكن لي رجاء: انقل هذه الملاحظات إلى الرفاق العرب المسؤولين في موسكو.

احتدّ مالك:

ـ ما شاء الله! ماذا تريدني أن أقول لهم؟ الاتّحاد السوفياتي مخطئ أيضًا؟

ـ بعض الخطأ! هناك تسرّع في سحب الخبراء.. الصين دولة اشتراكيّة كبرى، ولن تركع بأيّ حال! ثم لماذا نريدها أن تركع؟ هذا في مصلحة مَنْ!؟

ـ في مصلحة الحركة العالمية كلها!

ـ أشكّ في ذلك!

ـ وأنا أعدك بنقل شكّك هذا، وكذلك بعض ملاحظاتك التي قد تكون مفيدة.

شددت على يده وقلت:

ـ نحن متّفقان إذن.. كم أنت إنسانيّ ونبيل يا مالك! سأحسّ بعدك بفراغ قاتل هنا! ما أروع نكاتك اللاذعة!

ضحك مالك ضحكته المجلجلة وقال:

ـ إذن تذكّرني بها. اكتب إليّ على العنوان الذي سأبعث به إليك ما إن أستقرّ.

ـ سأتذكّرك بكل شيء.. بكل شيء.. وسأكون كما ينبغي، وكما عرفتني، ثق بما أقول.

ـ أنا واثق آمل أن نلتقي في موسكو أو في الوطن.

ـ في الوطن يا مالك! لديّ حنين مرضيّ إليه.. ولكن متى!؟

كنّا نجلس في إحدى زوايا قاعة الانتظار في المطار. وكانت عائلته على مبعدة، فلمّا حان وقت الصعود إلى الطائرة، فتح ذراعيه وضمّني، وكذلك فعلت أنا، قبّلني وأنا أبكي. تلجلج صوتي. صافحت السيّدة زوجته. قبّلت

أطفاله، عدت أعانقه وأقبّله، فلما صعد درج الطائرة لوّح لي بيده، لوّحت بيدي حتّى دخل، وغاب في الطائرة، عندئذ انكفأت راجعًا، مستشعرًا مرارة الوحدة في غربتي التي خيّل إليّ أنها بدأت الآن، وبشكل حقيقيّ وموجع!

أعترف. أنا عاطفيّ بأكثر ممّا يجب. هذه نقطة ضعفي! إنّني طيّب دائمًا، وحازم في وقت الحزم، إلاّ أنّ الغربة تملي على الإنسان أخلاقيّاتها وسلوكيّاتها. الطيبة تحتاج إلى حماية، وفي المنفى تصعب هذه الحماية، أحيانًا! المنفى له قانونه: ألاّ تنمّي شعور الحنين المرضيّ في ذاتك، أن تتلاءم، وأن تنسى، لكنّك، برغمك، تحمل وطنك في قلبك، بسبب من أنّك مبعد عنه، قسرًا لا اختيارًا.. الاختيار سهل، وبعكسه القسر، إنّه صعب وإلى أبعد الحدود.

سافر مالك وبقيت وحيدًا، حزينًا، متعبًا!

وليلة البارحة، وبعد عودتي من المطار، شعرت بتفاهة كلّ ما حولي. دور مَنْ بعد مالك؟

ربّما الجميع! كل الرفاق العرب قد يرحلون، أحزابهم ستستدعيهم، واحدًا بعد الآخر، وربما دفعة واحدة إلاّ أنا؛ لن يستدعيني أحد، بعد أن فصلت من الحزب هنا، في المنفى! عليّ، إذن، مواجهة مصيري بمفردي، دون سند من أحد، دون مساعدة من أحد، فإذا ما طردت من الصين يومًا، فسأجد نفسي في قارب التشرّد، يبحر بي وسط الأنواء، وإلى غير ما هدف معيّن.. المدن كلّها، المرافئ كلها، مغلقة في وجهي، وفي المقدّمة مدينتي، دمشقي، فإلى أين!؟ وما هو المصير!؟ وهل أبقى متأرجحًا، لا مع الصين ولا مع الاتّحاد السوفياتي!؟ ولماذا أُحشر هكذا، في زاوية حادّة!؟ هل هذا كله بسبب أفكاري المستقلّة؟ بسبب اقتناعاتي المغايرة؟ قدر! هذا قدري، وما تبقّى هو المواجهة بشجاعة، وهذه لا تنقصني، ولكن أن أرى الصينيين، في تفانيهم، في نكران ذاتهم، لأجل بناء الصين، وأنا خامل، منعّم، «دون جوان»! فهذا ليس من الشجاعة، ومن الشرف، وبكلمة، من المبدأ!

نمت على وسادة المساءلة، سؤال يذهب وآخر يجيء، رأسي والشوك،

وسادتي شوك! في الظلمة بقيت مفتّح العينين، أتقلّب دون جدوى. متى أغفيت؟ وهل أغفيت؟ النوم عدوّي، لماذا، يا نوم، أنت عدوّي!؟ لا جواب! يا لقسوة السؤال، عندما يكون بغير جواب، ولشدّ ما تساءلت، عمري كله، ولشدّ ما افتقدت الأجوبة، عمري كله، إلاّ أنّ السؤال، في الغربة، يكون سؤال الغربة، يكون أقسى الأسئلة، وأكثرها تجريحًا للروح! هكذا أفقت، بعد إغفاءة مع الفجر، معذّب الروح، وزاد العجوز قره بيت، أمس، في تعذيب روحي، لذلك لذت ببيتي، وبالصمت المتمدّد في فضائه.. عالجت نفسي بالشراب، إلى أن جاءني عبد القادر، ضاحكًا كعادته، فقال:

ـ ستكون هناك حفلة فنّيّة بعد الظهر، هل تحضرها؟

ـ ولماذا الحفلة الفنية، وبأيّ مناسبة؟

ـ كيف بأيّ مناسبة!؟ لأجل الرفاق السوفيات!

ـ تقصد حفلة وداع؟

ـ لا! حفلة فنية لكي يكونوا مسرورين.

ـ من الذي سيكون مسرورًا، أنتم أم هم؟

ـ كلّنا!

ـ ما أظن!

ـ كيف لا تظن؟ هناك حفلة كل يوم، على شرف المسافرين، وقد أهدينا إليهم أوسمة.

ـ وما نفع الأوسمة؟

ضحك عبد القادر وقال مستغربًا:

ـ كيف ما نفع الأوسمة؟ إنها تعلّق على الصدر!

«أبله!»

ـ أعرف أن الأوسمة تعلّق على الصدر، لكنّها، الآن، فقدت الرمز الذي كان لها في الماضي.

ـ لا! الأوسمة لا تباع، فكيف تفقد قيمتها!

«بليّة هذا العبد القادر!»

ـ اسمع! أنا لن أحضر أيّة حفلة.

ـ لماذا؟ ألا تريد أن تكون مسرورًا؟

«سرور؟ ومع هذا الرحيل!؟»

ـ في البيت سأكون مسرورًا أكثر.. أرتاح قليلاً!

ـ لكنك، في شنتاو، كنت ترتاح جيّدًا.. لماذا هربت!؟

ـ هكذا!

ـ تحبّ الدروجبا أكثر؟

«كانت الدروجبا! والآن!؟»

ـ دعني يا عبد القادر.. اذا لم يكن هناك ما هو مهمّ، فإنّني سأشتغل.. مع السلامة!

ـ أنت حزين؟

ـ جدًا!

ـ وبسبب رحيل الخبراء السوفيات؟

ـ نعم! وأنت يا عبد القادر!؟

ـ أنا أعمل لبناء الصين الاشتراكية!

ـ والاتّحاد السوفياتي.. أليس دولة اشتراكية!؟

ـ ولكنّ قيادته، بعد ستالين، أصبحت بورجوازية.

ـ من قال هذا!؟

ـ نحن!!

ـ تعرف ما هي البورجوازية؟

ـ إنّها ضد البروليتارية!

ـ وأيضًا؟

ـ كيف وأيضًا؟ أنا لا أفهمك.

ـ ليس من الضروري أن تفهمني يا عبد القادر، الآن على الأقل!

ـ وأنت لا تصدق أنّ المسؤولين في الاتحاد السوفياتي أصبحوا أغنياء جدًا.

صحت به:

ـ هذا اتّهام! هذا ادّعاء!! انت تردّد ما تقرأ، أو ما تسمع، بصرف النظر عن رأيي في هذا كله!

ـ وأنت!؟

ـ هل تحقّق معي!؟ إنني أعمل في الصين، وهذا يكفي!

ـ ونحن نشكرك على المساعدة التي تقدمها لنا، لكنّنا نريدك مسرورًا، لأجل صحّتك، لأجل أن تعمل جيّدًا، ولكي تعرف أنّنا نحبّ الاتّحاد السوفياتي مثلك، وأننا نحذّره حتى لا تقتله أخطاؤه!

ـ ربما، ولكن..

ضحك عبد القادر وقال:

ـ لا تكن متعصّبًا (عصبيًا!) يا أستاذ! أعمل بقدر ما تستطيع.. أنت الآن في إجازة!

ـ انتهت الإجازة!

ـ لا! لم تنته.. الإجازة من حقّك.

ـ وإذا قلت لك إنّني أتنازل عن حقّي، وسأعود غدًا إلى العمل!؟

ـ والعطلة الصيفيّة في الجامعة؟

فكّرت. هذا صحيح! الجامعة في عطلة. لكنّني، أنا، سأضع برنامج الدراسة للعام المقبل، فما هو هذا البرنامج!؟ إنّهم يفرضون عليّ أن أدرّس بياناتهم السياسيّة، بكل ما فيها من أشياء ضد الاتّحاد السوفياتي! هذا مستحيل! سأرفض! وإذا رفضت؟ نعم إذا رفضت؟ يطردونني من الصين؟ ليكن.. سأرحل إلى الجحيم، نعم! أرحل إلى الجحيم ولا أخون صداقة الاتحاد السوفياتي.. فلو قبلت هذا ما خرجت من وطني، وما تغربت، وتشردت، فهل يعقل، وأنا في بلد اشتراكيّ، أن أخون بلدًا اشتراكيًا آخر؟ أن أعضّ اليد التي تقدم المساعدة لنا، نحن العرب؟ لا! وألف لا! هناك أخطاء؟ نعم! وقد ندّدت بها علنًا، قلت: حزب لينين غير معصوم عن الخطأ، ولينين، نفسه، لم يقل بهذه العصمة! فلماذا الملكية أكثر من الملك!؟

قلت لعبد القادر:

ـ هل تريد شيئًا آخر غير الذي قلته؟

ـ الرفيق تشوتن، مسؤول دار النشر باللغات الأجنبيّة، يشكرك على مساعدتك في إصلاح بعض الترجمات للدار، ويسألك: هل تقبل، وأنت في إجازة، أن تصلح كتابًا ترجمه أحد الرفاق العرب؟ هذا الكتاب، كما يقول، مهم جدًا، وضروري..

ـ ما هو هذا الكتاب يا عبد القادر؟

ناولني المغلف الذي يحمله وقال:

ـ إنّه، كما قال الرفيق تشوتن، عن نضال العمّال في كانتون، قبل تحرير الصين.

فتحت المغلف، تناولت الكتاب باللغة الإنكليزيّة. كان فعلاً عن نضال العمال في كانتون، النضال السرّيّ والثوريّ، نظرت في الترجمة العربيّة وضحكت: يا للتخبيص! المترجم يخطئ حتى في الإملاء، فكيف المعاني!؟ كنت أعرف أن الرفيق ليوتشاوشي، رئيس الجمهوريّة، هو من قاد نضال الطبقة العاملة الصينيّة في المدن، وبشكل موازٍ لنضال الفلاّحين الصينيين في المسيرة الكبرى بقيادة الرفيق ماوتسي تونغ، وباقتران نضال الفلاّحين والعمّال تحرّرت الصين.. إذن هو كتاب مهمّ فعلاً، وضروريّ راهنًا، بالنسبة إلى نضال العمال العرب، الذين سيقدم لهم، في ترجمته العربية، خبرة ثمينة، هم في حاجة إليها.

وضعت المغلّف ومحتوياته على المكتب وقلت:

ـ لماذا كلّفوك أنت بهذه المهمّة يا عبد القادر؟ أنت لا تعمل في دار النشر، فلماذا لم يأت رئيس القسم العربيّ في الدار بنفسه؟

قال عبد القادر بارتياح، بعد أن وجدني قد هدأت:

ـ الرفيق هادي، رئيس القسم العربيّ في دار النشر، موجود في الدروجبا.. إنّه ينتظر هاتفًا منّي ليأتي بنفسه.

ـ ولماذا لم يأت مباشرة؟

ـ لأنه! لا بأس يا استاذ! سيأتي فورًا، اذا أردت.

فكّرت: «في دار النشر يحتاجون إلى مساعدتي! سيحتاجون أكثر اذا رحل الرفاق العرب، وفي مثل هذه الحال عليّ أن أعمل كثيرًا.. لا بأس! إنّه، بالنسبة إليّ، واجب، أزداد معه اطلاعًا، وأؤدّي مهمّة، وهذا يعزّيني قليلاً، يخفّف من شعوري المعذّب، لكوني لا أعمل لأجل القضية عملاً نافعًا، مباشرًا.. لكن لماذا لم يأت هادي مباشرة؟ إنّهم لا يخافونني، ما داموا لم يخافوا حتى مجابهة الاتحاد السوفياتي نفسه، غير أنّهم يعرفون أنّني في إجازة، وأنّني قطعت هذه الإجازة وعدت خفية من شنتاو، دون أن أبالي بأحد، ولهذا يحملون عن سلوكي العصبيّ فكرة مضخّمة، وهذا

سيّئ، وقد أرسلوا عبد القادر، مرافقي، لجسّ النبض، خاصة في هذه الظروف، ولا بدّ أن يكون هادي قد أبلغ قيادة الدروجبا بمهمّته، وعليّ، بصرف النظر عن كل شيء، ألاّ أردّه خائبًا، لأنّ هذا لمصلحتي، في دار النشر، والدروجبا، والجامعة أيضًا! سيعرفون أنني، هنا، لأداء واجب، لا للتسلية، أو الراحة، أو اللجوء السياسي!».

قلت لعبد القادر:

ـ اهتف للرفيق هادي أن يأتي.

قال عبد القادر:

ـ أبلغُه أنك قبلت بإصلاح الترجمة؟

قلت صارمًا:

ـ أبلغه أن يأتي فقط.. ها هو الهاتف!

رفع عبد القادر السمّاعة، أدار القرص على الرقم المطلوب، أما أنا فقد نهضت وأحضرت زجاجة الكونياك مع كأسين.. سألت:

ـ هل تشرب معي قليلاً يا عبد القادر؟

ضحك وقال:

ـ ولكن كيف هذا؟ تشرب الكونياك قبل الغداء؟

ـ اشربه في كل وقت.. إنّه لذيذ جدًا.

ـ وإذا كسرت (سكرت!)؟

ـ لا! لن أسكر! أنا لا أسكر أبدًا، أنعش نفسي فقط.

ـ هذا جيّد يا أستاذ.. اشرب أنت.. هادي في الطريق إليك.. أنا سعيد لأنّك وافقت!

«يظنني وافقت كرمى له! هذا، بالنسبة إليه، علامة ممتازة، دلالتها أنّه يجيد العربيّة، ويحاور بشكل ذكيّ ومقنع! وما الضرر في ذلك؟ وجود عبد القادر يروق لي، إنّه ليس أبله تمامًا، ويعرف أشياء كثيرة، مفيدة!».

قُرع الباب فركض عبد القادر وفتحه. هادي شابّ هادئ، ذو مكانة حزبيّة محترمة، لأنّه شارك في النضال السرّيّ. لا يحسن العربيّة، لكنّه يتكلّم الإنكليزية، وهذا هو المطلوب. وقفت أستقبله كما يحسن بمضيف، وبعد التحيّة، والمصافحة، جلس وسألني عن طريق عبد القادر:

ـ هل أنت بخير؟
ـ بخير تمامًا!
ـ لماذا لم تبق في شنتاو؟
ـ لا أعرف..
ـ هذا غير مهم، ما دمت بصحة جيدة.
ـ تشرب قليلاً من الكونياك؟
ضحك عبد القادر وقال:
ـ كيف هذا يا أستاذ؟ هادي في مهمّة!
قال هادي:
ـ شي شي ني تونجي زبيد (شكرًا رفيق زبيد) نحن نشرب الماوتاي، وفي المناسبات الرسميّة فقط.. ما رأيك في إصلاح الترجمة؟ أم أنك ترتاح وأنت في إجازة؟
رشفت جرعة من الكونياك. كان عليّ، في هذا الوقت العصيب، أن أبدو رائق المزاج، متفهّمًا للموقف، مستوعبًا له.. من يعمل في السياسة، يتحمّل كلّ طارئ بصبر، وبشيء من دهاء. السياسة بغير دهاء لا سياسة. هذه قاعدة أساسيّة، لا بدّ أن تؤخذ في الحسبان، شرط أن يكون الدهاء فهمًا لا كيدًا، مفيدًا لا مبتذلاً، وفيه، ومعه، التعلم بإتقان، ألا نستعجل النصر.. التسرع في الطلب، وفي تحقيقه، مقتل في العمل السياسي، والأهمّ، مقتل في جانبه النضاليّ! أخذت جرعة أخرى من الكونياك وقلت:
ـ ما رأيك أنت، تونجي هادي، أعمل أم أستريح؟
ـ هذا عائد إليك.
ـ ولو كنت مكاني؟
ـ هناك فارق بيننا، أنا صينيّ، وهذا بلدي، ونحن نخرج من قمقم، وكيلا نعود إليه، لا بدّ من الكفاح، والبناء هو الكفاح الأصعب! إذن لا راحة بالنسبة إلى الرفيق الصينيّ المخلص، هناك الواجب.
ابتسمت وقلت:
ـ أنا هنا لأداء هذا الواجب، ودونما راحة، اذا كانت الصحّة تسمح، وصحّتي، كما ترى، لا بأس بها.

ـ هذا كـلام فـيـه وعي وإخـلاص، ونحن نـعـرف وعـيك وإخـلاصك، ونقدّرهما.

ـ لامشكلة إذن! سأصلح هذه الترجمة، لكنّها سيّئة جدًا، من الذي قام بها؟

ـ رفيق سودانيّ، كان يتعامل مع دار النشر سابقًا، وقد اكتشفنا أنّه لا يُحسن الترجمة.

ـ لديه أخطاء حتّى في الإملاء، فكيف الأمر مع المعنى؟ الترجمة غير أمينة، وتحتاج إلى وقت طويل.. إعادة ترجمة تقريبًا!

ـ أفهمك جيّدًا، لكننا أمام واقع وضرورة، لذلك لجأنا إليك، بنصيحة من الأستاذ مكين.

ـ سأبذل كل جهدي، وستصبح الترجمة جيّدة.

ـ شكرًا! (قالها بالعربية) هل أنت مرتاح بالإقامة في الدروجبا؟ إذا ما كان هناك إزعاج، أو طلب، فإننا على استعداد لمعالجتهما مع قيادة الدروجبا.

ابتسمت:

ـ لا طلبات خاصّة لديّ، وليس هناك إزعاج.. الإزعاج قد يصدر عنّي!

ـ نحن نقدّر ظروف الغربة القاسية، ونقدر ظروفك تمامًا.. سايجين (إلى اللقاء)!

ـ سايجين!

عندما بقيت وحيدًا، بعد ذهاب هادي وعبد القادر، تساءلت: «ما هي ظروفي التي يقدرونها!؟ هل هذا تلميح إلى موقفي الانتقاديّ من «باي لي»!؟ هربي من شنتاو كان سلوكًا غير مقبول هنا، وحديثي، اليوم، مع عبد القادر، اتّسم بالقسوة، فما هو ردّ الفعل؟ اتهام القيادة السوفياتية بالبرجزة والإثراء اتهام خطير، فهل هو تجنٍّ أم معرفة بما لا نعرف، نحن الذين نرى الأشياء، كل الأشياء، في الاتحاد السوفياتي، حسنة جدًا؟ أين الحقيقة؟ ولماذا، قادة أحزابنا، لا يمارسون أيّ انتقاد، ويرون أنّ حزب لينين لا يخطئ؟! من يعمل يخطئ! هذه بدهيّة، فلماذا يتجاهلونها، ويقفزون عليها، ونقفز نحن معهم!؟ الصين لم تكن من رأينا، ومن رأي قادة حزبنا

في موضوع الوحدة بين سورية ومصر، وهي في هذا على حق.. الوحدة العربية حلم العرب الثوري النبيل، وكان يجب على حزبنا، ونحن في البرلمان السوري، أن يصوت مع الوحدة، وبعد ذلك ننتقد أخطاءها، لا أن نتغيب عن جلسة الموافقة عليها، ونشرع، من موقف ضعيف، بانتقاد أخطائها، فندفع الثمن غاليًا، بعضه السجن، وبعضه التشرد، وبعضه الموت، في الوطن أو الغربة!

هذه الآراء جالت في خاطري وأنا في سورية، وازدادت إلحاحًا عليّ وأنا مشرد في لبنان، ولم أجاهر ببعضها، لأن أحدًا لم يطلب رأيي فيها، ولو جاهرت لطردت من الحزب، بذريعة خرق الانضباط (الديسبلين)، ورغم ذلك، وخلافًا للرفاق الآخرين، المشرّدين مثلي في لبنان، عشت منبوذًا، لاجترائي على البوح، بقليل جدًا من أفكاري، لرفيق مشرّد مثلي، ولم يكن خروجي من لبنان، وتسفيري إلى الصين، إلاّ بمسعى من كاتب لبنانيّ كبير، صديق للحزب، وكلمته مسموعة، وإنّي لأحفظ له مسعاه، بكبير الامتنان[1].

غير أنّ الذي لم يحدث في لبنان حدث هنا في بكين، الفرقة الحزبيّة انتقدتني على بعض أفكاري، وبعض سلوكي، ولم تطردني بقرار علنيّ، إنّما عزلتني، وكان هذا العزل صادرًا عن حقد شخصيّ من رئيس الفرقة، ولم تكن المناقشة مجدية، فعددت نفسي خارج الحزب، مع الالتزام الكامل بمواقفه، إلاّ من التبعية الكاملة للاتحاد السوفياتي، فأنا لست مع الصين، إلاّ أنني لست مسعورًا في عدائي لها، واذا ما طلب الحزب خروجي منها فسأخرج، لأنّ له الحق في ذلك، ولن أخالف إرادته، حتّى مع فقدان عضويته تعسفًا. آه يا وطن! أنت كنور العين، فعلام عقابك لي؟ وآه يا غربة! إنّني، معك الآن، في غربتي! لقد رسم رفاقي حولي علامة استفهام، والويل لمن ترسم هذه العلامة عليه، فهو متّهم، وتاليًا مُقاطَع، وهذا ما حدث لصديقي رئيف خوري تمامًا!

لملمت أحزاني وذهبت إلى المطعم. جلست وحيدًا إلى طاولة صغيرة ومنعزلة. شربت زجاجة بيرة. تناولت بعض الطعام بصعوبة، لفقدان

---

١ ـ هذا الكاتب والصديق الكبير هو الدكتور جورج حنا.

الشهيّة، وقبل أن أنهض جاء إليّ أبو المجد، رحّبت به كما يليق، اقترحت أن نشرب قليلاً من النبيذ الأبيض المبرّد فوافق، سألني بعد تمهيد:

ـ لماذا هربت من شنتاو؟

ـ ضجرت منها!

ـ كان يمكن أن تأتي بمعرفة الصينيّين، وبشكل نظاميّ.

ـ أخطأت!

ـ أخطاؤك صارت كثيرة.

ـ أعرف.

ـ لا تخاف أن تطرد من الصين؟

ـ لم أعد أخاف شيئًا!

ـ هذه جناية مالك عليك!

ـ ليكن! مالك يبقى صديقي، وهو يعرف أفكاري.

ـ وإذا سحب الحزب أعضاءه من الصين؟

ـ أمتثل للقرار!

ـ في الوقت الحاضر لا شيء... حزبنا طلب منّا التريّث.

ـ هذا موقف صائب.

ـ أبلغوك ذلك؟

ـ لا! أنت تعرف وضعي.

ـ كان عليهم أن يبلغوك.

ـ أعذرهم في عدم إبلاغي.

ـ لكنّني، أنا، أتفهّم موقفك، ولهذا أبلغتك.

ـ أشكرك على ذلك، وسيبقى الأمر سرًّا بيننا.

ـ يقال إنّك بكيت عند فراق مالك!

ـ نعم بكيت!

ـ أنت طيّب.. لكنّه، هو، لا يستحقّ.

ـ أرجوك! ولا كلمة واحدة ضدّه أمامي!

عمل زبيد حتّى الفجر، انهى إصلاح المجموعة القصصيّة، أحسّ بصداع وتعب شديد، تناول قرص اسبرين، نظّف جروحه بالمطهّر، دهنها بالمرهم حسب إرشاد المشفى، بعد ذلك تمدّد في فراشه، أطفأ الضوء، فكّر قليلاً حتى اغفى. كان في حالة إرهاق نفسيّ وجسديّ. الحياة، في هذه الغربة، ارهقته، ولما يلح فجر الخلاص، وليس، في المدى المنظور، ما يشير إلى أيّ فرج قريب. انتهت الوحدة السورية ـ المصرية بالانفصال. رغب في العودة، لكن الظروف ما لبثت أن تطورت بشكل سيّئ، فاضطر إلى تجديد عقده مع الصينيين لمدة عامين. عاش غربة قاسية، في الأعوام الثلاثة التي مضت على وجوده في الصين. احسها بطيئة، ثقيلة، مزهقة للروح، دفعته دفعًا إلى التماس العزاء في الخمرة والمرأة، بعد أداء واجبه الذي رفعه إلى مرتبة القداسة أكثر فأكثر. تجلى ذلك في عمل متواصل، تدريسًا وترجمةً واصلاحًا للترجمات، مع رجاء رفعه إلى القيادة في دار النشر، كتابةً وشفهيًا، ولعدّة مرّات، أن يُعفى من أخذ الأجر، لأنه ليس بحاجة أولاً، ولأنه يرغب أن يُرضي ضميره ثانيًا، وفي كل مرة كان الجواب واحدًا: «من كل إنسان حسب طاقته، ولكلّ إنسان حسب عمله» وفق شعار النظام الاشتراكيّ المعمول به في الصين، وبدقّة تامة.

وكما يشعر الكاتب بالارتياح، عندما يضع نقطة النهاية لعمل ما، كان زبيد يشعر بالارتياح، حين ينجز عملاً ما، اترجمةً كان أم إصلاحًا لترجمة. هذا كله جعل له دالة عند الصينيين، فأُعفي من كلّ عمل فيه حرج كبير، وكُلِّف بتدريس وترجمة المواد التي فيها نقاش نظريّ، أو التي تتحدّث عن نضال الصين، قبل التحرير، وعن بنائها بعده. وقد التزم الطرفان، بغير اتفاق مكتوب، بمراعاة هذا الوضع، ما دام زبيد ليس ضدّ الصين،

وليس ضدّ الاتحاد السوفياتي أيضًا، ومُنح ما يشبه الامتياز، في سلوكه الخاص، الذي لا تسيّب فيه، ولا تزمت، مع الخشية عليه من الإجهاد، ومن المغامرة، لأنه ذو كفاءات يحسن الإفادة منها، ويحسن عدم هدرها، ما أمكن ذلك.

لكنّ زبيد، رغم التحذيرات من كل جهة، كان يغامر، يهدر صحته، باندفاع ملحوظ، لسبب ما في الداخل، وما مرحه إلاّ ستارة لهذا الذي في داخله، والذي، بسببه، كان شقيًا، راغبًا عن متاع الدنيا، وعن الحياة، لا مباليًا، بشكل صادق، بالمال أو المرأة! الليلة، رغم الوقت المتأخر، عمل إلى ما قبل الصباح، مصرًا على إنجاز العمل، في إصلاح المجموعة القصصية، كي يهنأ، وينام مرتاحًا، وقد حصل، بعناده، على الهناءة والرّاحة معًا، فنام إلى ما قبل الظهر، نومًا مستمرًا، إلاّ أنّه مضطرب، متقطع، منغّص بالكوابيس، هذه التي لا يدري لها سببًا، رغم كينونتها وديمومتها، في أكثر لياليه، واذ يفيق في حال من الإنهاك، كان يتمنّى لو لم يفق، لو ظلّ نائمًا النومة الأبديّة، وعندما أفاق، اليوم، كان تعبًا، سئمًا، ففكّر، كعادته، تفكيرًا ساخرًا، قائلاً «عليك، يا ابن الأفاضل! دخول «غرفة الإنعاش!، كما بعد عمليّة جراحيّة، فأنت تخضع، كل ليلة، لعملية مماثلة، ولا بد لك من إنعاش! لا بد لك، كي تصحو، وتسترد بعض نشاطك، وبعض مسرّتك، من قليل من الكونياك، وبإذن من الإله باخوس، حسب تعبير السيدة نلسون!».

جلس في الفراش، مدّ يده فتناول زجاجة الكونياك، كرع جرعات منها، أشعل سيكارة، استعاد، في ومضات استرجاعيّة، بعض ما جرى له أمس، هزّ رأسه مبتسمًا، قال بغير صوت: «أحسنتِ يا مارلين، يا دميتي الصغيرة والجميلة، في عرضك الزواج عليّ! إنّني زوج صالح جدًا! الرجل، عادة، هو الذي يقدم عرضًا كهذا! أنتِ يئست من انتظار ما لا ينتظر، فتقدمت بعرضك الرائع: «أن نتزوج، ونسكن معًا، كالآخرين يا زبيد!» شكرًا على هذه الأريحيّة، إنها من النبل، فهل أنت، يا محترمة، سليلة نبلاء؟ قد يكون هذا وقد لا يكون، إلا أن زبيد، يا سيدتي الجميلة، يحار بأمر النعمة، وبما يفعل بها، لذلك يردّها لأصحابها مع انحناءة بوذية، واليدان مضمومتان! أعرف أنك ستبتسمين من إشفاق وعتب، لأنك

في غير حاجة إلى أيّة تحيّة لائقة، كونفوشيّة كانت أم بوذية! أنت، يا سمكتي الذهبية الرائعة، بحاجة إلى زوج، وما دام ذلك كذلك، فإن جيفرسون على استعداد، وبالزواج منه تقدّمين له معروفين: المتعة ونعمة العقل، قبل أن يُجن تمامًا في هواكِ! أمّا أنا، الذي من سلالة غير نبيلة، حتى لا أجرّح نفسي أكثر، فإنني أكره المؤسسة الزوجية، كما أكره الآنسة باي لي في الدروجبا، ومن اللاجدوى الحديث الضائع، والوقت الضائع، في أمر كهذا!»

نهض من الفراش، الإنعاش تمّ، خرج من غرفته المعقّمة بعناية. الآن لا بدّ من القهوة، ومعها قليل من الكونياك، إرضاء لباخوس، وللسيدة نلسون التي لا يدري اذا ما كانت، بعد عودتها المتأخرة ليلة أمس، قد لعبت «لعبتها الصغيرة» تلك، مع السيد نلسون الذي لا يحتاج إلى نبات الجنسنغ، حسبما زعمتْ. زبيد سيحتاج إلى هذا النبات الطبّي، الموصوف شعبيًا في الصين، وخلال كل الأنظمة التي تعاقبت عليها. نعم! نبات الجنسنغ، فقد كبر زبيد، في ثلاث سنوات، كما لو في ثلاثة عقود. أرهق نفسه، أرهق أعصابه، أحرق سفنه، وفي المضطرب الذي هو فيه، كان يستشعر كأن دوّامة نهرية تشدّ به شدًا قويًا نحو الأعماق، نحو الغرق، مع الشعرات البيض التي تكاثرت في رأسه، ومع الهموم التي لا يدري بها أحد، لكنّها مترسّبة في أعماقه، تطفو في لياليه السود، آن يفتقد الأنيس، ويفتقر إلى الزوج والولد، وإلى الاستقرار الذي هو الأهمّ دائمًا، لكنه الأصعب، أو المستحيل دائمًا!

كان فطوره القهوة والكونياك، الأجانب، العرب، الآخرون، يفطرون في البيت أو المطعم، أما هو فإنه غير الآخرين، غير الجميع، الطعام آخر ما يفكر فيه، ولو كانت الحياة ممكنة دونه لاستغني عنه، ولطالما نُصح بأن يفكر في صحته، ألاّ يعمل كثيرًا، ألاّ يشرب حتى لا يُدمن، فكان يجيب: «أعرف ما يجب وما لا يجب.. الحياة محتملة، بالنسبة إليّ، على هذا الشكل فقط!» أو يضحك قائلاً: «أنتم تريدون أن تعيشوا طويلاً، وهذا من حقكم، وهذا هو الصواب، لكنني، أنا، لا أريد أن أعيش طويلاً، وهذا من حقي، وأعرف أنه خطأ.. أمّا الإدمان فغير وارد.. أنا أشرب الكحول وليست هي التي تشربني!» فاذا قالوا له: «أنت تنفق كثيرًا، لأنك تكسب

كثيرًا، لكن انتبه! هناك القرش الأبيض، لليوم الأسود!» أجابهم: «كنت أنفق مما أكسب، قبل الصين، وسأظل كذلك بعدها.. أنا لا أخاف الفقر، وأعرف الحديث الشريف: «أخشوشنوا فإنّ النِّعَم لا تدوم» لكنني أعرف، أيضًا، أن أعيش على الخبز والزيتون، كما أعيش على الزبدة والعسل، معدتي لا تدخل في دائرة اهتمامي!» ومرة، أو أكثر، تجرأ عليه بعضهم قائلاً: «هذا بطر! ما تفعله هو البطر! أنت تمالئ الصينيين حتى تكون لك هذه الحظوة عندهم، وحتى يعطوك الشغل فتكسب من ورائه.. أنت تنجز في يوم ما ينجزه غيرك في أسبوع، لأن الصينيّين لا يفرّقون بين العمل المتقن، وغير المتقن!» فرزّت عيناه شعاعًا غاضبًا وقال «نعم! أنا هكذا! فماذا بعد!؟ لولا أننا في الصين، ولولا أننا زملاء، لأريتكم نجوم الظهر، وجعلتكم تفرقون بين الكرامة والممالأة.. أوغاد!!». ثم أدار لهم ظهره وانصرف. غير أنه، وخاصة عندما يرتكب بعض الأخطاء، من جراء الطيبة في غير مكانها، وغير أوانها، كان يعترف: «نعم! هذا غير لائق!» أو «هذا إسراف لا مبرّر له!» أو «هذا طيش أضعت معه صوابي!» وعندئذ تأخذه نوبة ندم فيقول: «أنت، يا أبله، لم تستفد من تجاربك.. أنت إنسان سخيف وغبي!».

هذا الصباح، وهو يشرب القهوة، لاحظ في سرّه «أنّ المزاح يحط من الهيبة!»أضاف بصمت: «مزحت أكثر ممّا يجب مع السيّدة نلسون، وللمرّة الثانية! وكان عليّ، في المرتين، أن أوصلها إلى بيتها في حالة سكر، فماذا يقول زوجها، وهو قياديّ في حزبه؟ وماذا يقول الصينيّون، وأنا بين عجوز متعتعة، وصبية يانعة، في منتصف الليل؟ وقبل ذلك كان جيفرسون إلى طاولتي، وعليها شرب وسكر، والنتيجة؟ عربدة ومحاولة تحطيم، لولا تدخّل مدير المطعم! هذا السلوك، ومن أيّة وجهة، غير مقبول!».

ولأنّ الندم هو التجربة ذاتها، مرة أخرى، فإنّ زبيد كان يندم كي يجرّب، ويجرّب كي يندم! ولم ينقذه من حلقته المفرغة هذه سوى هاتف من عبد القادر:

ـ أين أنت يا أستاذ؟

ـ في البيت طبعًا!

ـ أعرف أنك في البيت، لكنّني أسأل أين كنت ليلة أمس؟

نبر زبيد:

ـ ولماذا هذه الأسئلة يا عبد القادر!؟ أنا لست قاصرًا وأنت لست وصيًا عليّ!

ودون أن يفهم عبد القادر، أجاب ضاحكًا:

ـ لا بأس! لا بأس يا أستاذ.. أنا أهتم بك، وفي دار النشر يسألون عن العمل.. متى ينتهي؟

ـ المجموعة القصصية انتهى إصلاحها.. سهرت عليها ليلة أمس حتى الفجر. تعال خذها!

ـ هذا جيّد يا أستاذ. لكنّك ترهق نفسك.

ـ تعال خذها والسلام.. إنّني أنتظرك!

جاء عبد القادر سريعًا وضاحكًا، قابله زبيد بفتور، في العلاقات الشخصيّة، خارج إطار العمل، لا أسئلة ولا مجاملات، عبد القادر يعرف أنّه كان أمس في البيت، وفي المساء كان في المطعم، وأنّ الحراس الصينيين حذروه مرتين، من رجل كان يتبعه وظلّ مجهولاً، لا لأنه هرب قبل أن يلحقوا به، وإنما لأنّهم لم يلحقوا به، وتاليًا لم يقبضوا عليه لسبب لا يعرفه، وإن كان يخمّنه تخمينًا! إنهم يريدون إخافته! إلا أن زبيد أظهر لهم أنه لا يخاف، لذلك لم يخبر الإدارة في بيتاخو، التي هي على علم بكل شيء، وهذا الأبله عبد القادر ليس، أكثر الأحيان، بأبله، إنه يعرف ويتجاهل، لكن ماذا لو عرف أو تجاهل؟ سيّان! نعم! سيّان!!

ناوله زبيد المغلف وقال:

ـ أوصله اليوم إلى دار النشر.

أجاب عبد القادر بملاطفة:

ـ سأفعل يا أستاذ.. هناك رفيق مسافر في قطار الواحدة بعد الظهر، وفي دار النشر سيكونون مسرورين.. الرفيق تشين تن، المسؤول الأول في الدار، اتصل بالإدارة في بيتاخو، وطلب الاهتمام بك..

قاطعه زبيد:

ـ لا أريد اهتمامًا خاصًا، أنا خبير كغيري في الصين، وأعمل، وقتي كلّه، لا لإرضاء أحد، بل لإرضاء ضميري، بدافع من شعور بالواجب.

ـ لا بأس! لا تزعل يا أستاذ.. كيف تقول أنت كالآخرين؟ أنت تقدم لنا مساعدة كبيرة.. تشتغل وأنت في إجازة، بينما الخبراء الآخرون يسبحون ويستريحون.. هل راجعت المستشفى كما أوصاك الطبيب؟

ـ لا ضرورة للمراجعة.. أعالج جروحي كما أوصاني الطبيب تمامًا.

ضحك عبد القادر وقال:

ـ ولكن كيف هذا يا أستاذ!؟ الطبيب، في المستشفى، سيقلق عليك، أنت بحاجة إلى أدوية جديدة.

ـ ولماذا الأدوية الجديدة؟ مع ذلك سأراجع الطبيب.. مع السلامة.

ـ وجيفرسون؟

ـ ما به أيضًا!؟

ـ موجود في الإدارة، وهو يطلبك، وكذلك مدير الإدارة، أنا ذاهب إلى هناك.. لأجل الترجمة!

قال ذلك عبد القادر وانصرف «هناك مشكلة جديدة»! فكر زبيد «مشكلة قذرة، لا علاقة لي بها، ويصرّ جيفرسون على إشْراكي في مشاكله التي من هذا النوع.. لماذا!؟ يحسب أن كلمة مني تنقذه؟ وهل يعرف، هذا المجنون، ان كلمتي تحمّلني مسؤوليّة أنا بغنى عنها؟ الربط بيني وبينه ليس في مصلحتي، يجعلني متورطًا في حبه لمارلين، وهو حب ملتهب، قد يحرقه ويحرق مارلين ويحرقني معهما! أفٍّ! أي بلوى هذه!؟ جيفرسون يحبّ مارلين، وهذه تزعم أنّها تحبّني، وهي خائفة، تطلب حمايتي، لكن إلى متى؟ كيف أنفض يدي من هذه القضية كلها؟ ألا تكفيني همومي؟ همومي!؟ آه! نعم! لكن أحدًا لا يدري بها، بسبب ذلك التمويه الذي أبدو معه سعيدًا، وأنا شقيّ إلى أبعد حدّ، شقيّ إلى حد البكاء، ليلاً، لو أستطيع! الدمع، أحيانًا، تمرد.. هل يبكي الإنسان تمرّده؟ ربما!»

حلق ذقنه، طهّر جروحه، ارتدى ثيابًا خفيفة، ذهب إلى الإدارة ليعرف ما هناك، وما إذا كان جيفرسون قد ارتكب حماقة جديدة! «إنه إنسان هالك! في طريقه إلى الموت أو الجنون، وعلي، من باب الشفقة، وكذلك من ناحية العلاقة الإنسانية، ألا أدعه يموت أو يجنّ! وهذا ليس في وسعي.. لماذا؟ لأن دواء جيفرسون في بلوغ إربه من مارلين، بالزواج أو بغيره، المحبّ يفتش عن الدواء، وحبّه هو الدواء، شرط أن يكون متبادلاً، وأن

يتحقّق، بطريقة ما، فهل أنصح مارلين بأن تكون له؟ وكيف تكون له وهي تكرهه؟ وكيف لا تكرهه وهو يتهالك عليها!؟ لو لم يكن الحب أعمى، كما يقولون، لرأى جيفرسون الخطر المحدق به، لابتعد عنها، لصبر أو تصابر، ولمجّد هذا الحب، كاتمًا إيّاه في كبده، مهما تكن المعاناة قاسية.. قرأت، يومًا، عن الحب القاتل! ضحكت! كيف يقتل الحب؟ كنت، ولا أزال، على خطأ! ها أنا أرى الحب القاتل بعينيّ، ولكن ما أدراني أنّ هذا القتل، حقيقةً كان أم مجازًا، ليس فيه متعة ما؟ لو لم يكن الحب، لما كانت للحياة قيمة، لما كان لها معنى، أنا هو الذي يعيش بلا معنى، اذن أنا هو التعيس، لا جيفرسون! أنا، في حرماني من مرض الحب اللذيذ، أعيش بلا مرض لذيذ، فماذا لو حدث وصار؟ ليكن، ليحدث، ليقع هذا الحب، وليحدث لي ما يحدث لجيفرسون، وعندئذ يمكنني القول، عن تجربة: «حقًا لقد عشت!»

في الإدارة، وبعد انتظار قصير، استقبله مدير بيتاخو وهو يبتسم. كانت هناك فتاة صينيّة تجيد الإنكليزيّة، وهي التي ستتولى الترجمة، وقد ارتاح زبيد لذلك، حرصًا منه على نقل الحوار، بينه وبين مدير الإدارة، بدقّة وأمانة، لا يستطيعهما عبد القادر. قال المدير خيو وهو يرحّب به، متابعًا الابتسام، كأنما يريد أن يعبر به عن تفاهة الموضوع:

- أتعبناك للمرة الثانية! إنه جيفرسون أيضًا!

سأل زبيد:

- وما هي مشكلته أيضًا!؟

- كيف تسأل وأنت تعرف؟

- أعرف ماذا؟ جيفرسون رغب في الجلوس إلى طاولتي في المطعم.. لم أمانع لأن المطعم للجميع، ولأن الرفاق الأجانب يجالس بعضهم بعضًا.. هذه عادة جيدة، شعور بالرفاقية، ولهذا كان من اللياقة أن أرحّب به، وأن أدعوه، أو أدعه، يتصرف بحرية، فهذا من الديمقراطية الشعبية المعمول بها في الصين.

قال الرفيق خيو بعد أن أشعل سيكارة:

- تونجي زبيد، أنت غير ملوم، والأمر جرى كما تقول، لكن تونجي مارلين كانت معك، ولهذا أقحم جيفرسون نفسه عليك.

أشعل زبيد سيكارة أيضًا وقال:

ـ هل هناك مانع في أن تكون مارلين معي أو أكون معها؟

ـ لا، طبعًا..

ـ إذن أين المشكلة!؟

ـ بالنسبة إليكما لا مشكلة! لكنّ جيفرسون يشرب كثيرًا، ويسكر بسرعة.

ضحك زبيد وقال:

ـ الحق على «الكامبي» (شرب الكأس دفعة واحدة) وعلى الماوتاي.. جيفرسون تعلّم منكم!

ضحك خيو بدوره وقال:

ـ لكننا، نحن، نشرب في المناسبات، ولا نسكر أبدًا.

ـ لا أحد لا يسكر، أحيانًا، وجيفرسون يفعل هذا، مثل غيره.

ـ لكنّه يسكر ويعربد، لأن مارلين ترفض أن تتزوجه

قال زبيد ضاحكًا:

ـ لديّ اقتراح، تونجي خيو، زوّجوه فتاة صينية!

ـ وإذا كان يرفض الزواج إلا بمارلين، التي يحبّها؟

ـ وإذا كانت مارلين لا تحبّه؟

ـ ولماذا رغبنا في التحدث اليك؟ أليس ذلك لأننا نريد أن تساعدنا في حل هذه المشكلة؟

عاد زبيد إلى الجدّ وقال:

ـ ما دام الأمر كذلك، اسمح لي، تونجي خيو، أن أزيل التباسًا حول هذه النقطة. إنكم، ضمنا، تتهمونني بعرقلة هذا الزواج، أو بعبارة أوضح، تتّهمونني بأنني أقف حائلاً بين جيفرسون ومارلين، وهذا خطأ! مارلين تحتمي بي خوفًا من جيفرسون، وأنا أحميها بالتعاون معكم، لا أكثر.

ـ نحن نعرف كيف نحميها دون تدخّل من أحد!

ـ هذا جيّد، ومعناه انتهى الحديث، شكرًا!

قال زبيد ذلك ونهض. لكن المدير خيو استبقاه.. قال موضحًا:

ـ نحن نثق بك تونجي زبيد. نعرف أن مارلين، وهي رفيقة جيدة، تأنس بك. في هذا الموضوع لا دخل لنا ولا اعتراض. موقفنا دقيق ومحدّد: لا تدخّل في شؤون الذين يعملون في الصين من الرفاق الأجانب، إلاّ اذا حصل اعتداء.. جيفرسون هو المعتدي.

ـ جيفرسون يعاني الغربة، والحب، والضياع.. وهو معذور، في رأيي، لأنه يتصرف مدفوعًا بالعاطفة لا بالعقل، وفي مثل هذه الحال علينا أن نساعده، إلى أن يقتنع بعدم الجدوى فيهدأ! إنه، الآن، مريض نفسيًا، وكل ضغط يزيد من مرضه النفسي، لذلك أرى مفيدًا أن يدخل المستشفى، وأن يعالج فيه بالمهدئات التي تخفف من هياجه، فيعود، تدريجيًا، إلى حالته الطبيعية.

تأمله المدير خيو، مستغربًا ما يسمع، قال:

ـ لو تعرف رأي جيفرسون فيك، لما قلت هذا الكلام الطيّب في حقّه.

أجاب زبيد بنبرة ساخرة:

ـ أعرف رأيه! يعدّني عدوّه!

ـ ويريد التخلّص منك، بأيّة طريقة.

ـ وهذا أعرفه أيضًا.

ـ ومسألة السكّين التي أراد طعنك بها؟

ـ هذا لا شيء، مجرد محاولة لإخافتي.

ـ ألم تخف؟

ـ ليس من إنسان لا يخاف.. لكن جيفرسون يعرف جيّدًا أنّه في الصين، ويحسب لذلك حسابًا كبيرًا، مثلنا تمامًا.

ـ ولماذا لم تخبر الإدارة بمحاولة جيفرسون؟

ـ لأنّها محاولة تافهة.. إضافة إلى أنكم تعرفون كل شيء.

ابتسم خيو وقال:

ـ في كلامك، تونجي زبيد، بعض المبالغة.. ماذا تعني بقولك إننا نعرف كل شيء!؟

ـ أعني الذي تعرفه جيدًا..

ـ هل تثق بنا إلى هذا الحد؟ تحسب أننا نراقب كل تصرفات الرفاق الأجانب؟

ـ أعرف أنّ الانضباط كامل، والأمن مستتبّ، لذلك نعمل باطمئنان.

ـ خن خاو! (جيّد جدًا) أنت لمّاح! ولكن ما رأيك بتصرف جيفرسون ليلة أمس في المطعم؟ نعاقبه أم نسامحه؟

ـ هذا يعود إليكم، ما عدا ذلك فإنني أعرف، وأثق، أنكم لا تعاقبون رفيقًا لاجئًا لديكم، خاصة إذا كان صديقًا لكم، ويعمل لديكم، وفعلته غير سياسيّة، ولا تتسبّب بأيّ أذًى، وهي، فوق ذلك، شأن خاصّ، تتعلّق بعلاقة حبّ، بين شاب وشابة غير صينيين!

ـ لكنّنا مسؤولون عن الجميع، أولاً وأخيرًا، وهذا واجبنا، ومن صلاحيّتنا في ضبط الأمور!

ـ وإذا كانت الأمور منضبطة ولا تحتاج إلى استعمال الصلاحيّة؟ ما حدث في المطعم أمس كان طبيعيًا، فالأجانب يشربون في بلادهم وخارجها، ومن وقت إلى آخر يسكر أحدهم، فماذا يعني هذا؟ جيفرسون في إجازة، وهو لا يؤذي أحدًا، وكل فعلته أنّه أراد التعبير عن حبه بطريقة غير لائقة، وقد حسم الموضوع مدير المطعم، وجيفرسون أراد أن يكون ضيفًا، عليكم في الإدارة، وأنتم، بدماثتكم المعروفة، تقدّرون الأمور بشكل صحيح، لذلك وفّرتم له الراحة، وقد ارتاح ونام.. فأين هو الآن؟ رأيي أن تنصحوه بالذهاب إلى المستشفى، كزيارة لا أكثر، وهناك يفحصه طبيب مختص، ويعطيه الدواء اللازم.

فكّر الرفيق خيو قليلاً. أشعل سيكارة لنفسه وأخرى لزبيد قال بتأنٍّ:

ـ جيفرسون حالة نادرة، لا سابق لها في بيتاخو.. الرفاق الأجانب يأتون للراحة هنا، ونحن نبذل جهودنا لتوفير الجوّ الملائم، كي يستمتعوا بإجازتهم، ولم يحدث أن وقع إشكال، بسبب الحبّ أو غيره، ولو لم تكن طرفًا في الموضوع، لعالجناه بشكل آخر، أما وأنت رفيق عزيز علينا، فإنّ اقتراحك لا بأس به، ولكن للمرّة الأخيرة.. آمل أن تفهمني جيّدًا.. سايجين!

ـ سايجين!

خرجا من الإدارة، جيفرسون وزبيد، دونما ممانعة. كان الجو الصيفيّ، في انقشاع الغيم مؤقتًا، يعطي للشمس أن تسطع بكلّ بهائها، وهذا ما أكسب الجوّ جمالاً أخاذًا، يبدّد كل جهمة في النفس، ويبعث على

النشـوة الكاملة. وكـان المصطافـون، الذين يرغـبـون في اكـتـسـاب اللون البرونزي، يجدون في الشمس فرصـة مؤاتية، كي يتعـرّوا، الا من المايو، ويعرّضوا جسـومهم للأشـعة اللاذعة قليلاً، في البلاج أو أمام مسـاكنهم، وخاصة النسـاء منهم. ولم يكن جيفرسون معنيًا بهذا، كان نهبًا للندم، وقد اطمـأنّ إلى أنّ عقابًا لم ينزل به، ورضـي، بطيبة خـاطر، أن يذهب مع زبيد إلى المستـشـفى، حيث أُخضـع لفحص دقيق، ولأسـئلة كثيرة، تتـعلق بما ينتـابه من قلق، ومن قلّة النوم، وانتفاء الشـهيّة، وأعطي الدواء اللازم، من مهدّئات وفيتامينات ونُصح، بتشديد، أن يتناول حبوب الدواء في أوقاتها، وألاّ يشـرب، وأن يرتاح في منزله، ويتنزّه، ويسـبح عندمـا يريد، ويراجع الطبيب، في وقت محدّد، مرّة كلّ يومين.

قال جيفرسون للطبيب:

- سـأفـعل كل مـا طلبـتـه مني، وأتناول الدواء في المواعـيـد المحـددة، لكنني، الآن، أرغب في التحدث إليك على انفراد.

خرج زبيـد من قاعة العـيـادة فورًا. وجد أنّ جـيـفرسـون على حق في طلبه. المريض نفسيًا، بصرف النظر عن القرابة أو الصداقة، بحاجة إلى خلوة مع طبيبه، كي يقول له الأشياء التي لا تقال أمام غيره. زبيد دخل لأن الطبيب رغب في ذلك، وكان الطبيب مخطئًا، وكذلك هـو. قد يكون هناك سرّ، وقد يرغب جيفرسون في كلام يريحه الإفضاء به، وربما كان الحوار، حـول عـلاقـتـه بمارلين، ضـروريًا مع الطبيب المعـالج، لأن منشـأ الحـالة النفسية التي يعانيها، تعود إلى هذه العلاقة «ومـهـمـا يكن، فكر زبيد، فإنّ هناك، لدى كلّ إنسان، خصوصيّة تتوضّع في اللاشعور، لا بدّ من الكشف عنهـا، ودون هذا الكشف، لا يتـوصّل الطبيب، مـهـمـا يكن بارعًا بالتـحليل النفسيّ، إلى مـعرفة العلّة الأساس، التي عنها تصدر التصـرّفات، وإليها تعود النتائج، باعتبارها المركز المحوريّ، وكلّ عصـاب أو ذهان، يدور على محور هذا المركز.

جلس زبيد في غرفة الانتظار وراح يدخّن. كان يأمل، بعد الحـوار بين جيفرسون والطبيب، أن تتوضّح الأمور، كلّ الأمور، بشكل جيّد، فقد تكون حالة هذا المريض ذات صلة بسبب آخر، غير الحبّ، وهذا السبب يتمظهر

في الحب، كنوع من الاستبدال ليس إلاّ، كقشرة تخفي ما تحتها، في تمويه يلجأ إليه العقل في مرونته، فيخيّل للرائي أنّ السبب الأقرب، المباشر، هو مصدر هذا الانفعال الذي يدفع إلى السكر والعربدة، وإلى التحرّش لإشباع اللذّة، بديلاً للألم الذي يعانيه المريض، ويبحث للخلاص منه، أو يندفع لإسكاته، باللذة، وهذه هي ثنائيّة الألم واللذّة في تناوبهما الذي يدوم في الإنسان ما دام على قيد الحياة.

فتح الباب، خرج جيفرسون ووراءه الطبيب، وقف زبيد، سأل جيفرسون عن حاله، لم يجب هذا بكلمة، مضى خارجًا من المستشفى، وعلى وجهه أمارات كره، لم تخف على زبيد، إلاّ أنّه لم يستغربها، فمن عادة جيفرسون أن ينقلب، فجأة، من ودود إلى مجافٍ، حسب الواقع غير المعروف، الذي يقبع في الداخل، ويتحرك، نفسيًا، حركة لا واعية، تعبّر عن ذاتها في سلوك قُلّب، يشتد عندما يهتاجه السكر.. لذلك فكر زبيد أن يسأل الطبيب، إلاّ أن هذا سبقه بالكلام قائلاً:

ـ هل لديك بعض الوقت لنتحدث قليلاً؟

وافق زبيد دون تردّد، دخل غرفة الطبيب، ابتسم هذا بعد أن أغلق الباب وجلس إلى مكتبه قائلاً:

ـ جيفرسون مصاب بحالة ذهانيّة متحوّلة، وقد تكلم كثيرًا، وشجعته على المزيد، إلاّ أنّه فجأة، لاذ بالصمت، ولم يجب، إلا بصعوبة، عن بعض الأسئلة، إلاّ أنّ الدواء الذي وصفته له، اذا ما تناوله بانتظام، سيجعله يسترخي، وينام لفترات طويلة.

أضاف الطبيب بعد أن أشعل سيكارة:

ـ هذه حالات نفسيّة معروفة جدًا، يدخل فيها الحنين المرضيّ إلى الوطن، ويتبدّى في حالة اكتئاب يشتد، اذا لم يعالج، فينقلب إلى هياج، قد لا يكون عدوانيًا بالضرورة، إلاّ أن له اندفاعات، منها كثرة الكلام، نشاط الحركة، العربدة، الرغبة في التحطيم، الضحك الهستيريّ، وبعد ذلك الصمت، وأحيانًا البكاء، وكرّة أخرى الهياج.. وقد أحسن جيفرسون بالمجيء إلى المستشفى، واتصل بي الرفيق خيو، قبل وصوله، شارحًا لي وضعه، وأفادني أنك أنت صاحب الاقتراح في ذلك، وأنّك تعرف وضعه

جيّدًا، ويمكن أن تقدّم لي بعض الملاحظات المفيدة، إذا ما رويت لي قصّته بتفصيل.

سأل زبيد:

ـ هل جيفرسون الآن، في حالة هَلْوسة؟

ـ أبدًا، إنّه في كامل قواه العقلية، بعد أن نام جيّدًا، وندم على فعلته أمس في المطعم.. هذه صحوة جيّدة، وسيساعد الدواء، تدريجيًا، على دوامها.. ماذا بشأن قصّته؟ إنّني مصغ، وسأدوّن بعض الملاحظات.

روى زبيد قصّة جيفرسون منذ الْتقاه في الدروجبا، وعرف منه أنه يعمل في دار النشر باللغات الأجنبية، في الدار نفسها التي تعمل فيها مارلين، ولكن في قسم آخر، وكان هادئًا، لطيفًا، صموتًا، يشرب الماوتاي مع الطعام الصيني، في مطعم الأجانب في الدروجبا، ولم تكن بينهما صداقة أو عداوة، انما معرفة زمالة، ولم يكن، زبيد، يعرف شيئًا عن علاقة جيفرسون بمارلين، وما اذا كان يحبها، أو كانت هي تبادله هذا الحب، وما إذا كانت بينهما علاقة جنس، أو كان جيفرسون محرومًا لأنه أعزب، أو كان يشكو من مرض ما، إلى أن التقاه في بيتاخو، وكانت سهرة السبت التي أمضياها معًا، جيفرسون ومارلين، ورغب بعد السهرة في أن يناما معًا، فامتنعت مارلين، وأغلقت الباب في وجهه، وفي اليوم التالي تحرش بها، وراح جيفرسون يلاحقها في كل مكان، ومارلين تخاف منه وتكرهه، وتطلب منه، هو زبيد، أن يبقى إلى جانبها، أن يحميها، ولا يرفض حبّها، إلى آخر القصّة.

دوّن الطبيب هيو بعض الملاحظات، طالبًا من زبيد حتّى التفصيلات الصغيرة، وبعد ذلك سأل:

ـ ما هي علاقتك بمارلين، ومنذ متى؟

أجاب زبيد:

ـ إنها علاقة حبّ طبعًا، ومنذ حوالى العام.

ـ قلت إنّ مارلين كانت تطلب منك ألاّ ترفض حبها، لماذا؟

ـ لأنّني لا أبادلها الحب!

ـ والسبب؟

ـ هذا شأن خاصّ جدًا، لكنّني، رغم ذلك، أصدقك القول أنني لا أعرف الحب، لأنني محروم منه، وأتعذب بسبب من ذلك، راغبًا في أن أكون عاشقًا مثل جيفرسون..

ضحك الطبيب وقال:

ـ مثل جيفرسون تمامًا؟

قال زبيد وهو يضحك أيضًا:

ـ نعم! مثل جيفرسون تمامًا، كي أعرف هذه التجربة.

ـ تجربة الحب أم تجربة المرض؟

ـ الحب، تونجي هيو، هو مرض، لكنه مرض لذيذ، كما أقرأ في القصص، والمفارقة، هنا، أنّ جيفرسون يحب مارلين، ومارلين تؤكد أنها تحبني أنا، وهذه حال مركّبة، ومعروفة حتى في شعرنا العربي القديم.

قال الطبيب هيو:

ـ هذه الحالة المركّبة موجودة في الصين، وفي العالم كله، ومنذ وعى الإنسان وجوده، إلاّ أن الحب ليس شرطًا في الزواج، هناك كثيرون يتزوجون دون حب، فلماذا لا تتزوج مارلين وهي تحبك، وتؤكد هذا الحب كما سمعت منك؟

ـ لأنني أخاف مؤسسة الزواج إلى درجة كبيرة، بل إنّني أنفر منها وأكرهها.

ـ ولماذا ترفض مارلين الزواج من جيفرسون وهو يحبّها إلى درجة المرض؟

ـ لأنّها تقول، وتؤكّد، أنّها تكره جيفرسون وتخشى حتى رؤيته!

ـ هذا بسببك طبعًا!

ـ ولماذا لا يكون بسبب الحب!؟ مارلين لا تحب جيفرسون، وهو يضغط عليها بعنف، كي تفعل!

نقر الطبيب بأصابعه على مكتبه، وقال بعد تفكير:

ـ نعم! الأمر كذلك، وهذه حالة مركّبة كما قلت، فالحب لا يكون بالإكراه، بل إنّ الإكراه يزيد في الكفّ عن الحب، ومن هنا منشأ بعض

الأمراض النفسية، قبل الزواج أو بعده، وغالبًا بعده، إذا ما كان الزواج ناتجًا عن القوة أو الضغط، لأسباب مختلفة، خاصة في البلدان التي تسمّى متخلفة، حسب اصطلاح الغرب.. لكن المشكلة التي نحن بصددها ليست هنا، إنّها في عدائك لجيفرسون كما يزعم، وفي محاولاتك المتعدّدة لاغتياله!

صاح زبيد بردّة فعل عنيفة وعفوية:

ـ عدائي أنا!؟ هو يقول ذلك!؟

ـ نعم مع الأسف! فهل حدث أنّك حاولت الاعتداء عليه؟

ـ أبدًا!

ـ وهل حاولت اغتياله، أو هددته بهذا الاغتيال؟

ـ أبدًا أيضًا! وادارة بيتاخو تعرف.

ـ المدير خيو يقول عكس ما يدّعيه جيفرسون، ويؤكّد أنك تدخّلت لدى الإدارة، مرات عديدة، لمصلحته، وإنك، قبل أن تأتي به إلى المستشفى، دافعت عنه كثيرًا، وبذلك نجا جيفرسون من العقاب.. إنّني، الآن، مطّلع على كلّ شيء، على ما قلته، وما قاله الآخرون، لذلك أشكرك كثيرًا على صراحتك.

قال زبيد وهو ينهض مودّعًا:

ـ وما الدافع، تونجي هيو، إلى مثل هذا الاتّهام السخيف والكاذب، أهو المرض أم الحقد؟

أجاب الطبيب هيو وهو يشدّ على يد زبيد:

ـ هناك مرض، وهناك حقد ضخّمه المرض! جيفرسون خبيث ومراوغ، أحذره، وانتبه جيّدًا، الاحتياط ضروريّ، في كل الأحوال، وبالنسبة إلى الجميع!

سأل زبيد وهو على عتبة غرفة العيادة:

ـ الحذر من جيفرسون مفهوم، لكن الانتباه، وبالنسبة إلى الجميع، غير مفهوم، ماذا هناك؟

ربت الطبيب هيو على كتف زبيد وقال:

ـ كلمة انتبه هذه عابرة.. سايجين!

ـ سايجين!

خرج زبيد من المستشفى دون أن يراجع طبيبه، بشأن جروحه التي لم تشف تمامًا بعد. كان غير مبال، كعادته، وكان يعرف، من تجاربه، أنّ الصينيّين لا يقولون كلماتهم جزافًا، لذلك أسرّ في نفسه:

ـ كلمة انتبه هذه غير عابرة!!

أضاف وهو يتّجه إلى منزله:

ـ لا! ليست عابرة، وأنا متأكد من ذلك!

ثم هزّ كتفيه قائلاً:

ـ ليكن ما يكون، الآن، وكذلك في المستقبل، الحياة، في هذه الغربة، ليست عزيزة علي كما يتصوّرون!!!

اليوميّة الحادية والعشرون ٢ أيلول ١٩٦٠

رحل جميع الخبراء السوفيات، الموجودين في الدروجبا، مع عائلاتهم. أغلقت المدرسة الروسيّة. فرغت الأبنية السبعة، الكبيرة، ذات الطوابق الستة، وفي كل طابق عشرات المساكن. بدت مقفرة، مهجورة، مظلمة في الليل. خلا النادي الواسع جدًا من لاعبي البليارد. طاولاته الكثيرة، ذات الأغطية الخضراء، والكرات البيضاء والملوّنة، غدت عاطلة. عصيّ البليارد معلقّة في أماكنها، أو مركونة في الزوايا. ماتت الحركة، الضجة، البهجة، وطواها النسيان. العدم خيّم على هذه المدينة الصغيرة، الّتي كانت تمور بالحياة. أطلال! الآن عرفت معنى الأطلال، ومعنى الوقوف عليها، والبكاء على من ترحّل عنها. «يا دار ميّة بالعلياء فالسند» أين مية وأين دارها؟ صمت! وحدي، ربما، أفهم هذا الصمت، الذي أصغي إليه، وأكلّمه، وأسائله، دون جواب، بعد أن عيّ جوابًا «وما في الربع من أحد!»

إنّني حزين على غير عادتي. الماضي لم يكن يعني لي شيئًا ها هو يعني لي كل شيء. صدمة! إنّني مصدوم جسدًا وروحًا. مجرّح مشاعر وعواطف. أحس احساسًا غريبًا بالوحدة. ادرك أن «بنيان قوم تهدّم» كما أدرك، ذلك، الشاعر الجاهلي، قبل مئات الأعوام. الخلاف كان كارثة،

وخاصة بالنسبة إلينا، نحن الذين كنا نأمل التعاون بعمق، فكانت خيبتنا بالعمق نفسه. ومع ذلك لا يزال علينا أن ننشئ حلمًا جديدًا، بعد أن صارت حياتنا مصنعًا للأحلام، ننتج منها الكثير، ونفقد منها الكثير، الواحد بعد الآخر!

لم أكن في حالة ضياع. كل شيء، تقريبًا، كان واضحًا. اتهامات الصينيين، ردود فعل الاتحاد السوفياتي، مواقف الأحزاب المتضامنة معه، وجهات نظر الخبراء العرب والأجانب، عدم اكتراث أعضاء الأحزاب الأوروبية. قلق أعضاء الأحزاب في العالم الثالث، وخاصة في البلاد العربية وأميركا اللاتينية. وصول الخلاف إلى نقطة اللا عودة، انعكاسه علينا، نحن المنفيين لظروف قاهرة، الّذين، وحدهم، لا يعرفون مصيرهم، بين بقاء أو رحيل. هذا هو وضعي الخاص، كإنسان ملتزم، دون أن يكترث أحد بالتزامه، لطيرانه «خارج السرب!» كما يظن، مع انقطاع أخبار الوطن، لاستحالة سماع الإذاعات العربية، وحرماني من قراءة صحيفة الحزب، أو معرفة التوجيهات التي يتلقّاها أعضاء الفرقة الحزبيّة!

معاقب دون ذنب، متّهم بالخروج على الانضباط (الديسبلين) هذا الذي كان صارمًا، شديدًا في صرامته، لا تستطيع معه أن تجهر برأيك، أن تحاور من أجله، أن تناقش في موضوعه، حتى مع رفاقك مطلوب منك أن تقول «نعم» دائمًا، فاذا تجرّأت وقلت «لا» رُسمت حولك إشارات الاستفهام، وبعدها يأتي الرجم بحجارة الاتّهامات الظالمة، ومعها العداوات، والشكّ فيك، لمجرّد أنك مثقف، ولأنّك لست مهرّجًا عند «السلطان»، ولأن هذا السلطان لا يثق بالمثقفين، باستثناء الذين ينافقون له، ويتمدّحون أقواله وأفعاله كلها.

عرفت وأنا في الصين، كما يقول ألبير كامو «ما كنت أعرفه، مرة أخرى» ومِمَّنْ؟ من حزبي ورفاقي، لكن الحق، بعد كل شيء، على مَنْ؟ ربما عليّ، دون أن أدري، ولا شفيع، في هذه الحال، الا الانتقاد الذاتيّ، الانتقاد الانتحاري، باعترافك بذنوب لم ترتكبها، وعليك أن تختلقها، كما فعل رفيق قيادي كبير وشهيد، حرصًا منه على الاّ يُطرد، ولا يُحرم من العضويّة التي كانت، بالنسبة إليه، أثمن ما في الوجود. رفضت، وأنا في الوطن، مثل هذا الاعتراف التجريحيّ للذات، ورفضته، أيضًا، وأنا مشرّد في لبنان،

ورفضته، كذلك وأنا في الصين، ونلت جزائي نبذًا، وتقبّلت بصبر، «إسفنجة الخل» وأنا على صليب إشارات الاستفهام، التي رسمت، قبلي، على كثير من المثقفين، ضاع بعضهم أو مات.

«أنا لا أحارب من أجل عمر». استعادة، لا إعادة، لما قاله خالد بن الوليد، قديمًا في التاريخ العربيّ. لقد وُضعت خارج السرب، إلاّ أنّ طيران السرب كان طيراني، وفي هذا بعض العزاء، وبعضه الآخر في العمل أيضًا، وفي الحفاظ على استقلاليّة الموقف، بالنسبة إلى الخلاف الذي تفجّر، وكان له دويّ كبير، ونتائج سيّئة وخطيرة أيضًا، بالنسبة إلى الطرفين، تمامًا كما تنبّأ العجوز قره بيت، الذي قتله الحزن، لأنّ أرمينيا أضحت بعيدة، وليس من «بسطرمة» في الصين!

وضعت، خلال اسبوع، برنامج الدراسة للعام المقبل، أنجزت اصلاح بعض الترجمات الصغيرة لدار النشر. قرأت كلّ كتاب حصلت عليه بالإنكليزية والفرنسية، وبالعربية طبعًا. عشت وحدة قاتلة، رفضت دعوات غير قليلة، للمشاركة في الرحلات، ولرؤية بعض الحفلات الفنية، ومنها عروض أوبرا بكين، ولحضور الحفلات الراقصة، كل ليلة سبت، وللترفيه، كما توقّيت الإدمان، فلم أغرق في الشراب، ولم اتهالك في طلب الجنس رغم الحرمان الذي أعانيه؛ صرفت وقتي كله، في إنجاز بعض الترجمات، وكتابة اليوميات، والبحث عن التحف، التي من أجلها قرأت بعضًا من تاريخ الصين، وبعض الكتب عن الكونفوشيّة والبوذية، وعن السلالات الصينية، وسلالة المينغ بشكل خاص.

هذا كله نفعني جدًا. ساعدني في التأقلم، في تحصيل المعرفة، في قضاء النهارات والليالي بغير ملل، بغير حنين مرضيّ إلى الوطن والأهل، ودون فرض نفسي على الآخرين، من عرب وأجانب، وتجنب المناقشات السفسطائية، المماحكة، في السياسة، وفي مشاكل العمل، وتزمّتات الصينيين، والعلاقات الخاصة بين الخبراء، والفضائح الصغيرة، التي تثار من حين إلى حين، وتشمّم الأخبار، كما يفعل سواي، والاكتفاء ببعض الزيارات، سواء للرفاق العرب أو الأجانب، والعيش الرومانتيكي، هذا الذي حماني، كشاب أعزب، من أيّ تورّط، في علاقات محرجة، كما من الحرص على جمع المال، ومن التفكير المعذب في الفرج المنتظر، والتسرع في طلبه،

والاعتقاد الأحمق بأنّ الاشتراكيّة، في العالم، ستحقّق في حياتي، وأنّ عدم تحققها، في هذه الحياة، سيثبط عزيمتي في الكفاح لأجلها، في الحدود المتاحة، أو الوقوع في تفاؤل أرعن، أو تشاؤم أبله، يقود إلى يأس من أي نوع.

هكذا مضت أيّامي في يسر ودعة. كان عبد القادر يزورني من حين إلى حين: وكذلك هادي، رئيس القسم العربي في دار النشر. وعندما بدأت السنة الدراسية، استأنفت العمل في الجامعة، ومع اطلالة العام الجديد، ١٩٦١، وبفواصل زمنية قصيرة، طرأت ثلاثة احداث في حياتي، حرّكتها تحريكًا قويًا: تطورتْ، مع الوقت، علاقاتي مع أسرة بورجرون، دخلت مارلين تشارلز عالمي الخاص، عادت تشين لاو إلى الدروجبا، كمسؤولة عن العلاقات العامّة! ورغم أن برنامج الدراسة، الذي وضعته بدقّة وانتباه لطلابي في القسم العربي، جرى عليه بعض التعديل، لم يكن الخلاف حادًا، بيني وبين الرفيق ليو، المسؤول الحزبي في الجامعة، ولم يؤدّ إلى صدام عنيف، أترك معه العمل وأرحل.

ففي بدء الدراسة، وبعد أن انتظمت الأمور، وجدت على مكتبي في القسم العربي، ذات صباح، بيانًا ناريًا ضد الاتّحاد السوفياتي، وقال المسؤول عن الطلاب في القسم، إنّ الرفيق ليو يطلب إدخال هذا البيان في موادّ الدراسة، وإنّه، أي البيان، هو الأهم من كل المواد الأخرى، التي هي أمالٍ أدبية، ومقتطفات من الكتب العربيّة المترجمة عن الصينية، حول المسيرة الكبرى، والنضال التحرري في الصين، وبعض التعريفات الضروريّة، لفهم الاصطلاحات الديبلوماسية العربية بعد التخرج، وحين العمل في الخارج، أو حين الترجمة للوفود الأجنبيّة العربيّة التي تزور الصين.

قلت للمسؤول عن الطلاب في القسم:

ـ تدريس هذا البيان السياسيّ، وكلّ مفرداته معروفة، لا يفيد الطلاب في شيء.

أجابني:

ـ نحن نعرف ما هو مفيد، وما هو غير مفيد.

سألته:

ـ هذا الكلام منك، أم من الرفيق ليو؟

ـ إنّه من الرفيق ليو، وهو مصرّ على تدريسه.

ـ وإذا لم أدرّسه؟

ـ نرفض تلقّي الدروس!

قلت بهدوء:

ـ وأنا أرفض تدريس البيانات السياسيّة التي من هذا النوع، لأنّها غير مفيدة في تطوير لغتكم العربية، وهي لا تدخل في البرنامج المقرّر.

رد بقسوة:

ـ تستطيع إدخالها، منذ اليوم، في البرنامج المقرر.

ـ أرفض!

ـ ونحن نرفض أخذ الدروس، وننصرف إلى قراءة افتتاحيّة جريدة «الشعب».

قال ذلك وانصرف، مع بقيّة الطلاّب، إلى قراءة الافتتاحيّة، وبقيت جالسًا إلى مكتبي، في صمت مطبق. انتظرت ساعتين، في جو مكهرب، وانسحبت بعد ذلك، لانتهاء الوقت المقرّر للدراسة، لكنّني، عندما عدت صباح اليوم التالي، وجدت البيان نفسه على مكتبي، والوضع نفسه في الصف. داومت، على هذه الحال، ثلاثة أيّام، دون تبديل أو تغيير. إنّه العناد الصيني، الذي سمعت به، ولمسته، الآن، بالتجربة. ولأنه لم يكن لي مَنْ أتحدّث معه حول هذا الموضوع، بعد سفر الرفيق مالك إلى موسكو، كتمت الأمر في نفسي، وعانيت منه معاناة شديدة. فكّرت: «إذا كانت الصين قد جابهت الاتحاد السوفياتي، ومعه الحركة العالمية، وإذا كانت قد قاومت سنوات الجفاف، وانخفاض الناتج الاقتصاديّ إلى أدنى درجة، كما واجهت الكوارث الطبيعيّة من كل الأنواع، وتحمّلتْ شدّ الأحزمة على البطون طول هذا الوقت، ولم تتراجع، ولم تهادن، ولم تتخلّ عن عنادها، فمن أنا حتى أعاندها في قلب بلادها؟ ماذا أكون بالنسبة إليها، حتى لو امتلكت مواهب وكفاءات استثنائية؟ إنّني أواجه أزمة حقيقيّة، وأنا الآن، على حدّ الحدّ منها، فإمّا الرضوخ وإمّا الرفض، ولا خيار ثالثًا!».

ذهبت إلى رئيس الفرقة الحزبية، شرحت الأمور بموضوعية، ناقشت مع الرفاق العرب المأزق الذي أنا فيه، مؤكّدًا التزامي، وإيثاري الرفض، حتى لو طردت من الصين، وتشردت في الآفاق، فكان الجواب متلعثمًا. كان بين بيْن. قالوا: «موقفك جيّد، التزامك بموقف الحزب تُشكر عليه، لكنّك تتحمّل المسؤولية بصورة شخصيّة، لأنّك لم تعد، باختيارك، عضوًا في الحزب، وتاليًا في الفرقة الحزبية في الصين، ولا نملك صلاحيّة أن نقول لك اقبل أو ارفض!» تفهّمت الموقف على نحو جيد: لا مساعدة! هم يتريّثون باتّخاذ موقف، حسب التعليمات، ولا يواجهون مأزقًا حادًّ كمأزقي! إذًا غادروا الصين، فإنّ الحزب يتكفّل بهم، باعتبارهم أعضاء فيه، وسيجد لهم إقامة، وكذلك عملاً، في بلد اشتراكيّ آخر، ريثما تسمح الظروف بعودتهم إلى الوطن، أما وضعي فإنّه يختلف، لأنه فرديّ، وشخصي تمامًا. حسنًا! الأمور كلها في الضوء، والقرار قراري، وعليّ أن أتصرّف وفق اقتناعي. «شكرًا لهذا الإيضاح، ولهذه الحرية المتاحة، دون وسائل ممارستها، وشكرًا لكلمات المجاملة: سنبقى أصدقاء! ونأمل أن يتغيّر الموقف منك في المركز، ونرحّب بأن تكون معنا، وإلاّ تنعزل عنا، ونثق بأنّك ستتمسك بصداقة الاتّحاد السوفياتي، لأنّها معيار الموقف الوطني، ونحن نشهد بصدق وطنيتك، رغم التباين في موقف كل منا من مسألة الخلاف العارض، الذي سيزول في المستقبل، ولعلك تراجع أفكارك، وتتقدّم بانتقاد ذاتيّ، كما يليق برفيق مثقّف مثلك!» انتهت الديباجة!!!

عدت إلى البيت، القهوة والكونياك والسكائر. إنضاج أعصابي على نار هادئة. مثقف! وماذا في ذلك!؟ غرامشي، في إيطاليا، كان يعطي الدور الأهمّ للمثقّفين، لأنّهم يحملون الوعي إلى الطبقة العاملة. أن تعرف فهذا جيد، أن تشرح فإن شرحك يجد من يصغي إليه، امّا أن تُقنع فهذا أمر آخر. الاقتناع يأتي من فوق، وفوق لا يُخطئ، كما أن خروتشوف لا يُخطئ، الصين مخطئة، وستركع! هذا درس للدول الاشتراكية الأخرى. لغو! في وسعك، أويجب عليك، أن تبلع هذا اللغو، وإلاّ فإنّك منحرف! «أنت، يا زبيد، منحرف! والطفراء الحميديّة وضعت على اسمك، فابحث عن اسم آخر، وجه آخر، قول آخر، وإلاّ فَتَحَلَّ بماء البحر!»

قررت، بعد تفكير متأنّ وطويل، الإصرار على موقفي: رفض تدريس أو

ترجمة أو إصلاح أي ترجمة، فيها عداء للاتّحاد السوفياتي، ولو أدّى ذلك إلى طردي من الصين. كنت أمام عدة إشكالات، أولها وأصعبها، أنني لا أملك جواز سفر، ورقة خروجي من لبنان انتهى مفعولها منذ وصولي إلى الصين، والسفارة السوريّة في بكين، خلال الوحدة القائمة بين سورية ومصر، لا تمنحني جوازًا، باعتباري من الفارّين، ومن المطلوب القبض عليهم. وحتى لو تدبّرت أمر خروجي من الصين، فليس ثمة دولة تسمح بدخولي اليها دون جواز سفر، وفيزا من سفارتها في بكين. لم يبق إلاّ اللجوء السياسي، ولكن على أي أساس وكيف!؟ أن أسافر وأسلّم نفسي في المطار، أيّ مطار، طالبًا اللجوء، فاذا لم يُقبل طلبي أغادر إلى بلد آخر، إلى أن أجد الملجأ الذي أبحث عنه.

مغامرة! هذه هي الكلمة. ومع أنّني لا أتهيّب المغامرة، يختلف الأمرُ هذه المرّة! ظهري إلى الجدار! لا يمكن الرجوع أكثر، ما تبقى هو الاقدام، بغير تهوّر.. إذا لم تُطرد فلا تحرك ساكنًا. دعهم يفكروا ما شاءوا. إذا رغبوا في الحديث اليك كن صريحًا، كن منطقيًا، حاذر الاستفزاز.. لا قرار في الصين الا من القيادة، الرفيق ليو سيرفع تقريرًا بما جرى، والقيادة ستدرس التقرير، وستعود إلى أضبارتك، لتعرف كل شيء عنك، قبل أن تبتّ في أمرك.

استرخيت بعد هذا الرأي الذي توصلت اليه. كل الاحتمالات قائمة. لم يبق احتمال الا أُخذ في الحسبان. نجحت في السيطرة على أعصابي. وُفقت في الكفّ عن التفكير، عن الدوران في حلقة الأسئلة وأجوبتها، استشعرت الراحة، تمددت على السرير طلبًا للنوم، كنت تعبًا، مرهقًا، لذلك أغفيت سريعًا، وعلى غير العادة، رحت في سبات عميق إلى ما بعد الظهر، حين قرع جرس الباب قرعًا متواصلاً أيقظني، تحاملت على نفسي، فتحت الباب، فاذا عبد القادر ووراءه هادي، رحّبت بهما كما يليق، أعتذر عبد الهادي عن الإزعاج، جلس وهو يبتسم الابتسامة التقليدية، ويسأل الأسئلة المعتادة، عن الصحة والنشاط والعمل، وعبد القادر يترجم، فأفهم نصف فهم، محتملاً هذا الواقع الذي ألفته.

قال هادي:

ـ الرفيق تشوتن يقدم تحياته اليك، ويشكرك على المساعدة، ويسأل ما اذا كنت بخير.

قلت:

ـ أنا بخير، وعبد القادر يعرف.

سأل عبد القادر:

ـ لماذا لا تذهب إلى الجامعة يا أستاذ؟

ـ لأنّني في إجازة!

ـ كيف هذا في إجازة؟ التدريس بدأ في الجامعة!

ـ أعرف، لكنّني، في الوقت الحاضر، أشعر بحاجة إلى الراحة.

ـ الرفيق خيو يسأل عنك كل يوم، يخشى أن تكون مريضًا.. ثم لماذا انقطعت عن إعطاء الدروس؟

ـ وأنت لماذا انقطعت عن المجيء اليّ؟

ارتبك عبد القادر وأجاب:

ـ خفْت أن أزعجك!

ـ أنت لا تقول الحقيقة! تعرف ما جرى معي في الجامعة.

ـ ولكن هذا لا يهمّ يا أستاذ.

غيّرت مجرى الحديث بسؤال مفاجئ:

ـ هل تونجي هادي في زيارة أم مهمة؟ إنه صامت لا يتكلم، فماذا هناك!؟

قال هادي:

ـ أنا في زيارة ومهمة.. لكنّني فهمت من الرفيق عبد القادر انك منزعج من التدريس، لهذا أتردد في طرح الموضوع الذي جئت من أجله.

ـ وما هو هذا الموضوع؟

ـ إصلاح ترجمة كتاب نظريّ.

ـ وماذا أيضًا؟

ـ معرفة سبب انقطاعك عن التدريس في الجامعة.

قلت وأنا أروزه بنظرة حادّة:

ـ لماذا تسأل اذا كنت تعرف؟ ألم يخبرك الرفيق تشوتن؟
ـ يخبرني بماذا؟
ـ بسبب انقطاعي عن التدريس في الجامعة؟
ـ الرفيق تشوتن كلفني بحمل هذه الترجمة مع الأصل الإنكليزي إليك.
أضاف:
ـ نحن بحاجة إلى مساعدتك، ونأمل أن تتعاون معنا كما اعتدنا.. أنت رفيق جيّد.
ـ سأقدم هذه المساعدة بطيبة خاطر، بعد قراءة الكتاب بنصّه الإنكليزي.
ـ إذن أنت موافق؟
ـ ليس قبل أن أقرأ الكتاب والترجمة.
تدخّل عبد القادر في الحديث قائلاً:
ـ الكتاب جيّد، والرفيق هادي يأمل أن توافق الآن.
قلت بحسم:
ـ ليس الآن..
ـ متى؟
ـ حسب الظروف!
ـ ومتى تعود إلى التدريس؟
ـ لن أعود إلى التدريس.
ـ لماذا؟
ـ الرفيق خيو يعرف!
وقف هادي مودعًا، تمنى لي الصحة والمزاج الرائق، سألني ما إذا كنت أريد ابلاغ الرفيق تشوتن شيئًا، قلت لا شيء!» صافحني ومشى إلى الباب، وعبد القادر وراءه. كنت واثقًا من استنتاجي؛ إنهما يعرفان سبب انقطاعي عن التدريس، واعتكافي في البيت، وإن الرفيق ليو يحاول ان يفرض عليّ ما أرفضه. هذه المراوغة في الأسئلة، وهذه التلميحات، وغياب عبد القادر لأيام، دون أن يتصل بي ولو هاتفيًا، مؤشرات كافية كي أفهم

أن وضـعي في الصـين، يدرس من قـبل الجـهـة المخـتـصـّة بالأجـانب في القيادة، وأنّ الموقف مني يتأرجح، وأن هـذا الصمت ضـغط نفسيّ، يمارس عليّ قصـديًا، لحملي على قبول ما لا أقبل به، وأنه سيدوم لفترة مـا أيضًا، تنهار فيها طاقتي على الاحتمال، فاتّصل بهم، لمعرفة ما هناك، وعندئذ تبدأ المساومة، من منطلق نفاد صبري، هذا الذي يراهنون عليه، بدهاء يحسبون انني على جهل به.

غير أن سؤالاً يبقى: لماذا يعرضون عليّ إصـلاح ترجمة كتاب نظريّ؟ ولماذا الإصـرار، ولو بشكل غير مباشـر، على إعطاء موافقتي، أو رفضي، آنيًـا، ودون إمـهـالي لقـراءة النصّ وترجمـتـه؟ هذا، بحـسب تجـربتي، ليس عفويًا، ولا تلـقائيًا، إنّه تدبير ما، لهدف ما، غايته تتجاوز جسّ النبض، إلى مـعـرفـة الموقف من الـفكر النظريّ الصـيني، وهل أرفض الـتعـامل مع هذا الفكر، ولي منه موقف مضاد، كموقفي من تدريس بيان سياسي فيه عداء صريح، واتـهامات شـديدة ضد الاتحـاد السوفياتي؟ أم أنني أفرق بين فكر نظري، يعد من الأدبيات الفكرية، وبين فكر سياسي آني، اقتضـاه الخلاف، وهو زائل بزوال الأسبـاب التي فـرضـتـه؟ هنا دهاء أيضًا، الأفضـل لو لم يكن، فقد فكرت في هذه النقطة، قبل عرض الكتاب عليّ، وانتـهيت إلى رأي جليّ: ثمة فرق بين مقولة نظرية بحتة، وبين شتيمة سياسية مكشوفة حينًا، ومقنّعة بقشرة نظرية حينًا آخر! استمهالي في اعطاء الجواب، لم يرق لهم، فـهـموا أنني أريد الاطّلاع قبل الموافقة أو الرفض، وكـان عبد القـادر، هذا الذي كنت أحـسـبـه سـاذجًا، ومع شيء من بله، هو الأشـدّ إلحـاحًـا على الجـواب الفـوري، فـمـن كلّفـه بذلك؟ ولماذا هـو لا هادي؟ وهل يكون عـبـد القـادر، في الموقع الحزبيّ، متـقدّمًا على هادي؟ ولماذا اختاروا عبد القـادر ليكون مرافقي، ومـترجمي، مع أنّه لا يحـسن الترجمـة؟ الاعتبـاط، هنا، إلى انتـفـاء، كل شـيء بتـدبيـر، ومن حـسن الحظ أنني انتبـهت إلى هـذا، فلم أتزحزح عن موقفي: الجواب بعد الاطلاع!

مـضـى يوم وآخر وآخـر، قـرأت الكتـاب الـنظريّ، كـان اسـم المؤلف، في حدود معرفتي، غير مشـهـور خارج الصـين، أبحاثه النظريّة سابقة لمثيلاتها، إنها من المصـادر اللازمة للأبحاث اللاحقة، وفيـها إشارات مهمة، إلى دور الفـلاحين في حـركة تحـرير الصـين.. نظرت في التـرجمـة، سبـرتهـا، وجدت

فيها اختلالاً! المترجم غير متمرس، يجهل حتى الاصطلاحات النظرية، فلسفية أو اقتصادية أو اجتماعية. لا يميّز بين الطبقة أو الفئة، بين الكولونيالية والامبريالية، بين التراكم الكمي والتحوّل النوعيّ. بكلمة: الترجمة سيئة جدًا، لكن المضمون، في النصّ الأصلي، مهمّ، وضروري بالنسبة إلى حركة التحرر الوطني العربية، والجهد الذي يُبذل في إصلاح هذه الترجمة، يستحقّ العناء تمامًا، لذلك قررت الموافقة على التكليف، إذا ما فُوتحت، مرّة أخرى، في أمره، وإذا ما أصرّت دار النشر، على قيامي بالمهمة، وتفهّمت جيدًا أخطاء الترجمة، وما تحتاج من وقت للإصلاح.

هتف إليّ أبو المجد، في اليوم الثالث لزيارة هادي وعبد القادر، يسألني ما إذا كنت باقيًا في البيت، ولديّ الوقت للزيارة. رحّبت به، وكنت مشوقًا لرؤية أي رفيق عربي، لأنني، منذ انقطاعي عن الجامعة، فضلت تناول طعامي، في المطعم الصغير المجاور لبيتي، الذي يقدم الطعام الصيني فقط ولا يرتاده الرفاق العرب، الذين يأكلون في بيوتهم، ويفضلون المطعم الكبير، الذي يعد وجبات على الطريقة العربية والإيرانية، وكذلك الطعام الغربي!

تعانقنا، أبو المجد وأنا، عناقًا حارًا، وجلسنا ندردش، مستعيدين ذكريات الوطن، وما استجدّ من أحداث في الصين، ونحن نشرب بعض النبيذ الأبيض، الذي أعرف أنه يحبه، ويفضّله على الكونياك الصيني. سألني:

ـ هل من جديد في قضيّتك؟

أجبته بالنفي، قال:

ـ هل صحيح أنك منقطع عن العمل؟

ـ صحيح!

ـ وماذا بعد هذا الانقطاع؟

ـ الجواب عند الرفاق الصينيين.. وأرجّح أنه الطرد من الصين!

فكّر قليلاً وسأل:

ـ إلى أين؟

ـ أرض الله واسعة.

ـ لماذا لا تذهب إلى موسكو وتشرح وضعك لقيادة الحزب؟
ـ قيادة الحزب تعرف وضعي، ولا حاجة إلى تحميلها عبئي.
ـ عنيد!
ـ وملتزم!
ـ ولكنّهم، في الفرقة الحزبيّة، تركوا لك حرية التصرف.
ـ دون وسائل ممارستها! شكرًا لكم على كل حال.
عاد إلى التفكير قبل أن يدخل في الموضوع الذي جاء من أجله. قال:
ـ أنت تعرف أفكاري، لكنني لا أجرؤ على الجهر بها.
نظرت إليه نظرة حادّة:
ـ من لا يجرؤ على المجاهرة بفكره لا فكر له!
ـ أنا لديّ عائلة!
ـ ولديك جنسيّة أجنبيّة، ممَّ تخاف؟
قال مداورة:
ـ لا أخاف، لكنني أراعي «الديسبلين»!
ـ هذا جيد! وبعد!؟
ـ هل من خدمة أقدمها لك؟
ـ أن تشرب زجاجة النبيذ معي، وتطمئن إلى أنني بخير!
ابتسم وقال:
ـ وأن تعتبرني صديقك، وتزورني ما دمت في الصين!
«اللعب على الحبلين!»
ـ أقدر صداقتك، وأعرف أفكارك المعلنة والمضمرة! ابعدْ عني تبعد الشبهة عن نفسك!
ـ أنت لست مريضًا، وأنا لا أخاف العدوى.. وبالمناسبة: آل بورجرون يفتقدونك!
ـ بلِّغهم تحياتي.
ـ هل نزورهم معًا؟
ـ لا! في الوقت الحاضر على الأقل!

ـ تحدثت مع السيد بورجرون حول موضوعك مطولاً.. إنه يقدر أفكارك! والسيدة بورجرون دعتنا إلى سهرة في بيتها غدًا، وترغب في حضورك.

ـ هاتفي معروف، وأرحّب باتّصالها في أيّ وقت.

ـ والسهرة؟

ـ آسف يا صديقي!

ـ إذن إلى اللقاء!

ـ إلى اللقاء.. في الوطن!

ارتحت لهذه الزيارة التي لم تأت بجديد. أبو المجد لن يعود إلى سورية. أُرجّح أنه سيعيش في بلد زوجته الأجنبية، لذلك لا يريد أن يقطع مع الصينيين. إنّه غير معني بالخلاف بين بكين ومسكو، لأن إقامته، خارج الصين، مؤمنة، ومن هناك يراسل دار النشر هنا، ويعرض عليها خدماته، مثل ترجمة بعض الكتب، التي يتحرج من ترجمتها هنا! هذا ما يسمّونه التلبسة!

لا بأس! لكلّ إنسان أسلوبه في الحياة، كما لكلّ كاتب أسلوبه في الكتابة. المرء هو ذاته، لا ذات الآخر، هذه قاعدة، ومن العبث تجاهلها.. الأسماء تتشابه، والوجوه تتشابه، لكن النفوس تتغاير، وإلى حد بعيد. لن أبدل اسمي، أو وجهي، مهما تطل المقاطعة، ومهما يضغط المسؤولون في الجامعة، ومهما تعددت وسائل الضغط! هذا هو اليوم العاشر على وقف الدراسة، وعلى وجود ذلك البيان السياسي على مكتبي في القسم العربي، وعلى رفضي تدريسه، والنتيجة؟ عناد متبادل؟ فليكن. لم أعد راغبًا في البقاء، أو العمل، في هذا الجوّ المسموم! سأشرع بحزم أمتعتي، ومنذ الغد!

- ٢٣ -

بعد القيلولة، وحوالى الساعة الخامسة، تلقّى زبيد هاتفًا غير متوقع، كـان ينتظر هاتفًـا من السـيّدة بورجـرون، أو من الآنسـة مـارلين، إلاّ أنّ الهاتف فاجأه! الآنسـة إيتوال بروك هي المتكلمة، وهي التي تسـأله ما اذا كان لديه وقت، لزيارة قصيرة، ترغب فيها للاطلاع على ما عنده من تحف صينيّة! وافق مع غير قليل من الاستغراب «بيتي، أسرّ في داخله، ليس متحفًا، وما فزت به في بيتاخو، من تحف صينية، يكاد لا يذكر، فمن أخبر إيتـوال بروك أنّ لديّ مـثل هذه التـحف، أم أنـهـا، في هذه الـزيارة شـبـه المسـتـعجلة، تريد إبلاغي خبـرًا مـا؟ وهل تكون ضـجـرة، أو في وضـع لا يسمح لها بالسباحة، فآثرت أن تتحدّث إليّ، لوصل ما انقطع من حديث الشرفة، عشيـة الاحتفال بميلاد امها؟ أضـاف بعـد أن أعدّ زجاجة من النبيذ «مـهـمـا يكن، مـهما يكن، فإنّ طلبًا من هذا النوع، من آنسـة رصينة مـثل ايتوال، لا يمكن ردّه، أو الاعـتذار عنه لأي سبب، فكيف وأنا لا عـمل لديّ، ولا أنوي الخروج، ولست جلفًا كي أقابل الرقة بالخشونة!».

أكمل ارتداء ثيابه الخفيفة، رتّب سريره بقدر مـا استطاع، ألقى نظرة على مكتبه، واخرى على تحفه القليلة، ابتسم وقال: «الآن لا بأس، وعسى ألا تطيل الزيارة، اذا لم يكن لديها ما تقوله». بعد دقائق قرع الباب قرعًا خفيفًا، فتحه مرحبًا، مبديًا سعادته، وعند المصافحة، أعطته إيتوال خدها، بلبـاقة فرنسـيـة، فقبّله، داعيًا إياها إلى الجلوس، ورفع الكلفة، كما بين صـديقين، وجلس قبالتها مـبتسمًا، منطويًا على دهش، من هذه العفوية العذبة، ومن مـلاحة إيتـوال، التي اتخـذت كـامل زينتـهـا، رغم أنّ الحـيـاة الحرّة، في هـذا المصيف، لا تتطلب أي تبرُّج، كما في الدروجبا مثلاً.. قال مرحًا:

ـ هذا هو بيتي المتواضع، وأمل أن تكوني فيه، كما في بيتكم!

قالت ايتوال:

ـ هذا مؤكد، نحن أصدقاء، وإني لأذكر سهرة السبت في النادي، والحديث في شرفة بيتنا، بكثير من المودّة والتقدير.. لكنني أستغرب انقطاعك عنا، وأعذرك اذا ما كانت لديك مشاغل خاصة، فقد أخبرتني السيدة بورجرون أنك تعمل وأنت في إجازة.

هتف زبيد بعفوية:

ـ أوه! السيدة بورجرون! كيف حالها، وكيف حال الوالدين، والشقيقة سوزان؟

ـ كلهم بخير، وما كنت أعلم أنك لا ترى السيدة بورجرون، في البلاج أو المطعم أو البيت.. إنها سيدة رائعة.

ـ يكفي أن تكون باريسية راقية، ولها هذا الذوق الارستقراطي في كل شيء.. ما رأيك بكأس من النبيذ؟ إنه من النوع الفاخر!

ابتسمت بدلّ وقالت:

ـ ليس هذا وقت الشراب، ولم أعتد الشرب إلا في المناسبات، لكنني، معك، سأكون سعيدة بأخذ كأس واحدة، في نخب جروحك التي شفيت تمامًا كما سمعت.

صبّ زبيد كأسين، رفع كأسه وقال:

ـ في صحة آنستي الجميلة، وكذلك صديقتي!

قرعا الكأسين وقالت إيتوال:

ـ في صحة صديقي الذي كلّفته تلك المغامرة المشؤومة الكثير من العناء.

قال ضاحكًا:

ـ مغامرة نعم! ولكن مشؤومة لا!

ـ معنى هذا انك ستعيد المحاولة.. أرجوك! يكفي! لتكن هذه المغامرة، هي الأخيرة!

ـ ولماذا الأخيرة؟

ـ كيلا تعرض نفسك للأذى، ولا أقول أكثر! كيف تقضي أوقاتك؟

ـ في العمل، والقليل من النزهة، وفي معالجة هذه الجروح التي لا تريد أن تشفى!

هتفت:

ـ ألم تشف بعد؟ هذا ليس بالخبر الحسن! هل في وسعي أن أفعل شيئًا لأجلك؟

ـ إدخالي المستشفى من جديد!؟

ضحكت إيتوال وقالت:

ـ لتهرب من جديد؟

ـ كي أقول «نعم»! بعد أن قامت الدنيا عليّ لأنّني قلت «لا!»

ـ حقًا!؟ هذا تضخيم للأمور، وتدخّل في الشأن الخاص! مع أنك رفيق طيب، في رأي الصينيين، كما بلغني!

قال وهو يقدم لها سيكارة:

ـ ما بلغك مبالغ فيه.. لكن من أين لك كل هذه المعلومات؟ هل تتتبّعين أخباري؟

سحبت نفسًا من سيكارتها وقالت:

ـ وهل يزعجك إذا ما قلت: نعم!؟

هتف زبيد:

ـ بالعكس، يفرحني!

ـ ويفرح صديقتك مارلين؟

قالت ذلك وهي تضع ساقًا على ساق، كاشفة عن ركبتين بيضاوين، جميلتين، وتنفث دخان سيكارتها في الهواء. فكّر زبيد: «ما وراء هذا السؤال؟ وهل الزيارة بريئة أم بقصد؟ وهل هي بدفع من السيدة بورجرون؟ وهل تتوسط، كما فعل والدها، بيني وبين جيفرسون!؟» ولماذا كل هذا العداء لمارلين؟ أهي الغيرة أم الحسد؟»

ملأ الكأسين من جديد، رفع كأسه وقال:

ـ لنشرب!

قالت إيتوال:

ـ ليس قبل أن تخبرني بماذا كنت تفكر؟
قال زبيد من فوره:
ـ فيكِ!
شربت جرعة طيبة من كأسها وهتفت:
ـ فيّ!؟ وتريدني أن أصدق!؟
ـ وما الغرابة؟
ـ الغرابة في أنك مشغول عني بسواي! من أكون أنا! وأين لياليّ البيض من لياليك الحمر؟
سأل زبيد بخبث:
ـ تستبعدين أن يفكر الصديق بصديقته!؟
ـ لا أستبعد، ولكن أنت لا وقت لديك لمثل هذا التفكير!
ـ وقتي لأي تفكير إذن؟
ـ اسأل نفسك!
ـ سألتها قبل أن تأتي.
ـ وبماذا أجابت؟
ـ بأن ماء البحر مالح!
ـ هذه تورية! أنت أذكى من أن تقول الأشياء الحقيقية..
قاطعها ضاحكًا:
ـ ومن الزيارة الأولى!
قالت جادة:
ـ هذه ثالث مرة نلتقي فيها.. تذكّر!؟
ـ وهل تُنسى مثل هذه اللقاءات؟
ـ نعم بالنسبة إلى مغامر مثلك!
ـ وماذا أفعل اذا كنتِ ترفضين المغامرة؟ أو لا ترتاحين إليها.. على أقلّ تقدير؟
قالت ضاحكة:
ـ برافو! لقد كشفتني.. ومن الزيارة الأولى!

جاراها في الضحك قائلاً:

ـ ومـاذا وراء هذا الكشف؟ أية فـائدة؟ أية مكافـأة على الذكـاء، على فرض أنه موجود!؟

ـ المكافـأة هي الشكر.. أشكرك على هذا الاستـقبال، وآمل أن نتزاور قريبًا جدًا.

قالت ذلك ونهضت. نهض لوداعها. لم يقبلها في خدها أو يدها. توقفت على العتبة وسألت:

ـ هل سمعت؟ هناك علاقة ما، بين انغرين وألدو!

ردّ بلا مبالاة:

ـ وما أهميّة ذلك؟ هذا طبيعيّ، ويحدثُ كثيرًا!

ـ لكن انغرين تكرهك!

ـ وهذا لا شيء! أنغرين طفلة بعد!

قالت قبل أن تتوارى:

ـ لا! انغرين ليست طفلة، وأنت لا تعرف!

أغلق البـاب وقال بغير صـوت «بلى! أعرف: نازيّة وفـاشيّ! هذا هو مكر التاريخ! محـاولات جديدة لبعث النازية والفـاشيـة، لا في ألمانيا وإيطاليا وحدهمـا، بل في كلّ مكان. إنه التشـويه المتعمد، لبعض الشبـاب الحـاقد والمضـلل، في أوربا وخـارجـهـا. هـناك من يظن أن العـالم دمـيـة، ويمكن تحـريكهـا بالخـيوط، ولمصلحـته حتى النـهـاية! وها هو الخـلاف الصـينيّ ـ السوفياتي، يصب في المجرى الذي يخدم ذلك! ثم ماذا؟ مكر آخر للتاريخ، ومصـائب أخرى قادمة!»

أعدّ لنفسـه فنجـانًا من القـهوة. تسـاءل: «ألاويس يعرف تفكير انغرين المنحرف، فهل يعرف أنجيلو، تفكير ألدو المنحرف أيضـًا!؟» اختراق! وأين؟ في الصـين! ولماذا لا؟ اذا صـدق مـا يقـوله الصـينيّون، عن البـرجـزة وعن الغنى، في قيـادة الحـزب في الاتحـاد السـوفيـاتي، فـإنّ ثمّة اختـراقًا، هناك أيضـًا! وأحسب أن هناك اختراقـات، في كل الأحزاب الأخرى التـابعة، وأنا هنا معاقب، لأنني تجرأت وعبرت عن بعض أفكاري «الاختراقية»!؟

الألم يأتي على قدر الإخـلاص، زبيد كـان يتـألم صـامـتًا، ليس له، في

بيتاخو، من يفضي إليه بالأفكار التي تعذبه. الرفيق مالك، الصديق العزيز، الحبيب، في موسكو، وهو يتعذب بدوره، ويفكر، كما في آخر رسائله، ان يلتحق بالثوار في الجزائر، أن يحمل السلاح ويقاتل ضد الفرنسيين المستعمرين، إلاّ أن الطريق، للوصول إلى الجزائر، ليس سهلاً، رغم أن مالك يحمل جواز سفر نظاميًا، فكيف الأمر إذن، بالنسبة إلى زبيد، الذي لا يحمل أيّة وثيقة شخصية!؟

تذوّق، على مهل، ما تبقى من القهوة، ومعها جرعات صغيرة من الكونياك، لإنعاش نفسه، ونسيان همومه! الآخرون، الذي يعرفونه في بيتاخو، يظنونه سعيدًا لكونه محظوظًا، وضعه النفسي الآن، أفضل بكثير مما كان عليه في العام الأول لوجوده في الصين. لم يتبدّل شيء، في فكره ومسلكه؛ الموقف ذاته، الالتزام عينه، هناك اقتناعٌ متطوِّر، بأنّ الصين لم تكن وحدها على خطأ! وهناك شعور أفضل في أنه يؤدي عملاً نافعًا فيها! إنه يعرف لماذا يشتغل، وهو، كإنسان حر، لديه أكثر من سبب للفخر، لايمانه بما يقوم به، وبما يقدمه من مساعدة، لبلد عانى كثيرًا، وقدم تضحيات لا عدّ لها، حتى تمكن من تحرير وطنه، وشرع ببناء هذا الوطن، ومساهمته، هو زبيد، مهما تكن متواضعة، فإنها ذات قيمة ما، للتعريف بهذا البلد، فكرًا وتجربة وكفاحًا على كل الجبهات.

خلع قميصه، عاين جروحه، سُرّ لأنها تقترب من الالتئام، قام بتطهيرها، دهنها بالمرهم، لم يكن لديه ما يعمله، استشعر فراغًا بسبب من اعتياده العمل، وفيما كان يهم بالخروج، جاء عبد القادر ضاحكًا:

ـ أين أنت يا أستاذ؟ لماذا لم تراجع الطبيب في المستشفى؟

ـ المراجعة غير ضرورية يا عبد القادر، ثم إنني أرتاح قليلاً، لأنه لا عمل لدي.

ضحك عبد القادر وقال:

ـ ولكن كيف هذا؟ كنت في المستشفى ولم تراجع الطبيب.

ـ قلت لك لا ضرورة لهذه المراجعة! كنت في المستشفى لسبب آخر.

ـ أعرف.. أخذت جيفرسون إلى الطبيب هيو.. لكن جيفرسون قال عنك أشياء سيئة!

حدّق زبيد إلى عبد القادر، محاولاً استشفاف ما في داخل جمجمته المحدّبة. «هذا الماكر يعرف كلّ شيء، فمن أين له هذه المعرفة؟ الطبيب، في كل بلاد العالم، مؤتمن على السر، وخاصة الطبيب النفساني، فكيف سمح هيو لنفسه بإشاعة ما قاله له جيفرسون!؟»

سأل زبيد:

ـ ما هي الأشياء السيئة التي قالها جيفرسون؟

ـ هذا غير مهم يا أستاذ! غير مهم!

ـ ولماذا قلته إذن!؟

عاد عبد القادرإلى الضحك وقال:

ـ كنت أمزحك (أمازحك)!

ـ وماذا تريد؟

ـ كيف ماذا أريد؟ عليّ أن أزورك وأهتم بك.

ـ وإذا كنت لست بحاجة إلى هذا الاهتمام؟

ـ ولماذا أرسلوني معك إذن!؟ أنت تخرج في الليل، وتبقى إلى وقت متأخر، وهذا لا يجوز، لأجل سلامتك!

ـ اسمع يا عبد القادر! كفّ عن الاعيبك هذه. لا أريدك حارسًا خاصًا لي، ولا أهتم بما يقوله جيفرسون، ولا بسلامتي.. هل تفهم ما أقول!؟

ـ نعم! نعم يا أستاذ! لكنه واجبي!

ـ واجبك أن تراقبني!؟ مع السلامة!

ـ وإذا احتجتَ إلي؟

ـ أعرف كيف أجدك!

ـ هذا جيّد. لا تزعل، ولكن انتبه! مع السلامة.

قال ذلك عبد القادر وخرج. جلس زبيد وقد اعتكر مزاجه. «من أين لعبد القادر هذه المعلومات؟ الحرص على سلامتي مبرر، وقد يكون هذا من واجبه كما قال، باعتباره مرافقي.. إلا أن رقابته، هو أو سواه، لا معنى لها، وإذا كان غيري يقبلها فأنا أرفضها. «إنني حر في الخروج، في النهار والليل، وإلى الوقت الذي أشاء، ومع من أشاء، ولا أشك في أنّهم، في الإدارة، لا تخفى عليهم خافية، فلماذا يصرّ عبد القادر، على تعريفي

بما أعرف؟ ولماذا يعاديني جيفرسون؟ وهذه الافتراءات اللئيمة؟ كل ذلك من أجل مارلين؟ طيب! مارلين لي، ما دامت هي تريد ذلك، وسأحميها متحدّيًا، وليذهب جيفرسون وهيو وعبد القادر إلى المكان الذي خرجوا منه! كفى! لم أعد قادرًا على الاحتمال أكثر من ذلك! خطر!؟ وعليّ!؟ لماذا!؟ وممّن!؟ وهذا التنبيه المستمر!؟ إنه تحذير تكرّر إلى درجة لا تطاق.. هل يريدون إخافتي؟ وما هي مصلحتهم في ذلك؟ وعلى فرض أن هناك خطرًا، فهل يظنون أنني سأختبئ في بيتي؟ لا! إنهم واهمون!!»

ذهب زبيد، في غرفته، وجاء، دخّن كثيرًا وهو يمشي ويفكر، أخذ يهدأ مع الوقت، فتح النافذة المطلة على الحديقة. الطبيعة جميلة، نادرًا ما رأى مثل هذا الجمال! الطبيعة، بعمق سكينتها، سيدة الحكمة. الطبيعة تنشئنا، لنعود نحن فننشئها، بصورة أبهى. تعطينا القدرة على النطق، على الكلام معها، عندما نتعلم أن نصغي إليها جيدًا! أصغى زبيد، بكثير من الحنان، إلى الطبيعة من حوله، مستمدًا السكينة من سكينتها، ولما تحوّل عن النافذة، وجد نفسه في حال أفضل، لتفكير أفضل، هادئ، صافٍ، يتناغم مع ما في داخله من شعور طيّب، نحو الآخرين، كل الآخرين، بمن فيهم جيفرسون «هذا الإنسان المنسجم، في حبه، مع الناموس الأزلي، الذي هو حب، بداية ونهاية، بخلافي أنا، الذي أفتقر إلى الانسجام، لأنني عاجز عن التلاؤم مع هذا الناموس!» جلس زبيد، ورأسه بين يديه، يتأمل الأشياء في ضوء حقيقة جديدة، حقيقة أنه لا يستحق مارلين، ما دام لا يحبها، بينما يستحقها جيفرسون لأنّه يحبها، وكلّ ممارسة خارج هذا الحب، هي اغتصاب، هي استغلال للآخر، هي الأنانيّة التي تشوّه أنبل عاطفة لدى الإنسان، إذا ما عاش، وبوعي، هذه الأنانية، وأمعن فيها، بذريعة التحدّي الكاذب! التحدّي لمن؟ ولماذا؟ للصادق حتى درجة الجنون، ولامتلاك مارلين التي تعيش نزوة، غدًا أو بعده، تتلاشى، وعندئذ تستفيق على واقع، نسيجه وهم المتعة العابرة، حين تصل غريزتها حد الإشباع!»

قرر زبيد، وبتصميم كامل، أن يصارحها. أن يفتح عينيها على واقع الوهم الذي تعيشه، دون أن تراه، لأن صاحب النزوة لا يرى، وهي تحبه مدفوعة بنزوتها، وقد آن أوان إيقاف لعبة الغش هذه، من طرفه تحديدًا، لأنه الأوعى، الأوفر تجربة، وعليه، كصاحب مبدأ، أن يكون مبدئيًا في كلّ شيء، وفي هذا وحده إرضاء للضمير، وللراحة النفسيّة!

رفع سماعة الهاتف، أدار القرص وسأل:

ـ مارلين؟

ـ أنا هي! زبيد! آه! كنت على وشك الاتصال بك!

ـ هل أستطيع أن أراكِ لوقت قصير؟

ـ ولماذا لوقت قصير؟ أريدك لوقت طويل جدًا.

ـ تعالي إذن، إذا ما كنت جاهزة للخروج، وسنتكلم قليلاً.

ردت مارلين:

ـ أنا قادمة وبسرعة.. تعرف أن هذا أول هاتف أتلقاه منك، لذلك فإنّ سعادتي لا تقدّر، يا إلهي! كم انتظرت هاتفًا كهذا دون جدوى!

ـ أنتظرك!

ـ أقبّلك!

أغلق الهاتف، أرتدى قميصًا حريريًا خفيفًا. حاول ترتيب أفكاره من جديد، وبسرعة. «هذا هو اللقاء الأخير! الليلة أنام هانئًا. انتهى الكابوس الذي كان ينتابني، في يقظتي والمنام. لا أشك في أن مارلين ستتفهم دوافعي. إنّني أريد خيرها، ولديّ المبررات الكافية لإقناعها».

عندما وصلت مارلين وجدت الباب مفتوحًا. كان زبيد على العتبة، من الداخل، ينتظرها، فتحت ذراعيها واحتوته، قبلته في كل مكان من وجهه وعنقه، تركها تفعل كما اعتادت، بادلها العناق، اعتصرها كما في اللقاء الأول، انبهر بزينتها وجمالها، فتنته بعفويتها واندفاعها، خاف أن يتراجع عما اعتزم، تماسك بقوة إرادة مستنجدة، جلسا متقابلين أمام المكتب، سألها:

ـ ماذا تشربين؟

ـ الذي تشربه أنت!

أضافت بعد أن رأت زجاجة النبيذ الفارغة على مكتبه:

ـ من كان عندك؟

ـ لا أحد!

ـ وهذه الزجاجة الفارغة؟

ـ شربتها وأنا أقرأ.

ـ بودي أن أصدقك.. ماذا هناك؟

ـ لا تتعجلي! ما رأيك بقليل من الكونياك؟

ـ مشروبك المفضل!؟ لا بأس! ولكن علينا ألاّ نكثر.. سنشرب على العشاء أيضًا.. أنا جائعة!

صب قدحين من الكونياك. رفع كأسه وقال:

ـ في صحة الإنسانة العزيزة علي!

ـ في صحة حبيبي! أنا سعيدة اليوم كما لا تتصوّر! ألست بشوق إليّ؟

ـ أنا بشوق دائم، ولكن أرجوك أن تصغي إليَّ جيّدًا، وبغير مقاطعة..

هزت براسها مبتسمة، شرع يتكلم متلجلجًا، أحست مارلين أنَّ هناك جديدًا، مع ذلك استمعت إليه بانتباه، لكنها، مع تطاول الكلام، غاضت ابتسامتها، تجهّمت، انكمشت، وأخيرًا بكت، تاركة دموعها تسيل، كأنها تتلقّى نبأ وفاة أمها أو أبيها.. وعندما فرغ زبيد من عرض أفكاره، وشرْحِ نفسه بأشدِّ ما يكون المنطق إقناعًا، صاحت به:

ـ كفى! قل إنَّك لا تريدني باختصار! قل إنَّك خائف! قل إنَّ الضغوط التي مارسوها عليك فوق طاقتك على الاحتمال، عندئذ أعذرك! إنَّني مثلك، لا أريد أن أكون أنانيَّة، أمّا الذرائع التي سقتها، والتي هي صحوة ضمير، حسب تعبيرك، فإنَّها واهية جدًا.. تقول إنَّك دون حب، تشعر وكأنَّك تغتصبني، فلماذا لا أشعر أنا أيضًا بهذا الاغتصاب، مع رجل لا أحبه، سواء كان جيفرسون أم غيره؟ إنني أحبُّك، وهناك فارق بين الحب والنزوة، وقد تفحَّصت مشاعري جيدًا، وطويلاً، وتوصلت إلى اقتناع تامّ، بأنَّني أحبُّك، لذلك منحتك نفسي، لذلك أشتهيك، وليس العكس، أمَّا إذا كنت راغبًا في التخلّي عني، وتركي لمصيري، لقدري، فإنَّ هذا يعذبني، لكنَّني على استعداد لتحمل هذا العذاب، ولن أهادن جيفرسون أو سواه، ولن يستطيع أحد أن ينالني بالقوّة.. أنت، يا صديقي الذي كان، لا تفهمني، لا تفهم المرأة، بينما أنا أفهم الرجال، المرأة تفهم الرجل بأكثر مما يفهم الرجل المرأة، وهذه حقيقة برهن عليها الزمن، ومن المؤسف أن تفوتك هذه البدهيَّة، رغم بساطتها وشيوعها. لكنَّني، أنا لا أصدِّق أن المسألة صحوة

ضمير، أو أنّها نبذٌ للأنانيّة، المسألة هي أنك خائف.. ودليلي على ذلك هو استدعاؤك إلى الإدارة، وذهابك مع جيفرسون إلى المستشفى، وما وقع لنا أمس ليلاً، وهذا التحدِّي الذي تواجهه، والذي هو حقيقي، وأنا ألاحظه! لن أطيل عليك أكثر، لأنّه ما من أحد يضحِّي بكل شيء، مقابل لا شيء، مقابل امرأة تحبُّك، وحبُّها لا يعني لك كثيرًا أو قليلاً، لأنّ هناك فارقًا في العقليّة، فأنا، كفتاة إنكليزية، لا تهمني، ولا تهم مثيلاتي، مسألة الزواج، بينما أنت كرجل شرقي، تربط بين الحب والزواج، هذا الذي لا أطالبك به، ولا أريده، وقد قلت لك ذلك مرارًا! أعطني قليلاً أيضًا من الكونياك، ولنقلب هذه الأسطوانة اللعينة، مع اعفائك من الكلام، اذا كان الصمت لا يزعجك، وإذا كان بقائي عندك قليلاً أيضًا، لا يسبب لك المتاعب!!

تجمّدت ملامح زبيد كما لو كانت في ثلاجة، مارلين أزرت بمنطقه كله، عابت عليه ما يخاف عيبه حتى الموت: الجبن! كشفت، بكلام مركز، واضح، صريح، ما في دخيلة نفسه، وبسهولة تامة. قالت مشاعر امرأة تحب، حقيقة لا وهمًا، زادت فقالت مشاعر المرأة تجاه الرجل، رمته، هو والرجال كلهم، بنبلةٍ نافذة حتى العظم، خارقة حجاب الادعاء بأنّهم يفهمون المرأة، كالمرأة نفسها. لا! المرأة ليست لغزًا، لكنها ليست صفحة مقروءة أيضًا، هذه قضية خلافية، كانت وستبقى، غير أن مارلين، وبيسر، أظهرت له أنّه لم يفهمها، حين لم يفهم أنّها ذات عقليّة مغايرة لعقلية الفتاة في الشرق، وأنّ الزواج، في ضوء هذه العقليّة، ليس مشكلة، فالممارسة الجنسية، وحتى الانجاب، امر طبيعي، حتى دون زواج، لأن سيف العار، المعلق فوق رأس المرأة الشرقية، ليس هو ذاته فوق رأس المرأة الغربية، والمجتمع، في موقفه من العار، وفي نظرته إليه، يختلف في أحكامه، وفي رؤيته، ما بين غرب وشرق. لكنّ المشكلة الأساسيّة، الكبرى، الأليمة والمؤلمة، تكمن في الجواب عن هذا السؤال: هل خاف، حقيقة، الضغوط الممارسة عليه، وخشي التحدي، الذي لا طاقة له عليه!؟ والتواري، خلف مقولة ناموس الحب، أكان فيه على صواب أم خطأ؟

نهض، وهو يدفع عنه ما استشعر من انكسار، راح يقطع الصالون، جيئة وذهابًا، دون أن يتفوّه بكلمة! هو، لا هي، بحاجة إلى الصمت. بعض القول، في بعض المواقف، نقمة، لولا أن هناك نعمة الصمت. إنّه، أكثر من

أي وقت مضى في حياته هنا، مفتقر إلى فترة هدوء لا تعكرها نأمة، كي يتمكَّن من السيطرة على انفعاله المكتوم، وترتيب أفكاره التي تشوّشت بما سمع، وخاصة في موضوع الخوف، هذا الذي عاش طويلاً، وفي مواقف متعدّدة، متنوعة، على يقين من أنه بعيد عن شرفه! إنه لا يذهب، حتى في ادعائه، إلى أن الخوف لم يكتنفه، في هذه اللحظة أو تلك، في هذا التواجه، بينه وبين الخطر، أو ذاك، إلاَّ أن جسارته كانت تتغلّب دائمًا، وكانت إلى ثبات، بينما لحظة الجبن إلى تخلخل، إلى زوال!

ذهب إلى المطبخ، أعدّ فنجانين من القهوة، قدّم أحدهما لمارلين، والآخر له، ملأ كأسي الكونياك، دون أن يبالي بالسكر، منها أو منه. الحياة، في هنيهة ما، تبدو تافهة، إلى حد عدم الاكتراث الكامل، وهو، زبيد، مستعد، الآن تخصيصًا، للاعتراف اللامتحفّظ، بأنّ بعض ما قالته مارلين، حول مفهومه للشرف، صحيح، وأنَّ ثمة فارقًا، بين عقلية وأخرى، لا يجوز معها التعميم، وأنَّ صحوة الضمير المفاجئة، قد يكون مبعثها التعب، لا نبذ الأنانيّة، إلا أنَّ اتِّهامها له بالارتداد أمام التَّحدي، غير صحيح، وغير مقبول، وإلا فلماذا هذه الجروح على جسمه؟ ولماذا المغامرة ومعاينة الخطر؟ ولماذا يخرج في النهار والليل دونما مبالاة بكل التحذيرات التي تتتالى عليه، وتلاحقه حيثما اتّجه؟ لا! بعض النوايا الطيّبة لا تُفهم أحيانًا، يغتالها سوء الظن، يئدها الرمل، تذهب بها ريح الشكوك، أو تحولها إلى نقيضها! لا بأس! مع ذلك لا بأس، فقد عرف كثيرًا من حالات ارتطام نواياه الصادقة بصخرة الجمود، وتناثرها رذاذًا أسود، في فضاء أسود، خاله عتمة ليل، لن تنجلي أبدًا، ثم انجلت، أشرقت الشمس، تبدد الأسى، وما فيه من ألم النكران، لأعز الأماني! ما حدث قد حدث، لا ندم! في وسع مارلين أن تذهب وقت تشاء، وبذلك ينتهي ما بينهما، مرة وإلى الأبد!

اليوميّة الثانية والعشرون ٧ تشرين الأول ١٩٦٠

لم تهتف السيدة بورجرون، داعية زبيد إلى السهرة عندها، حسبما قال أبو المجد، وحتى لو هتفت فسيكون جوابه الرفض، لا لأنَّه حزين، معتكر المزاج، بل لأنَّه، أيضًا، راغب عن حضور عرس في يوم القيامة! من حق بورجرون، السيدة الباريسية، أن تقيم هذا العرس، وأن تدعو له من

تشاء، وحتى أبو المجد وزوجه، ومن حق هذا الأخير أن يلبِّي الدعوة، لأنَّه في أعماقه، راغب في الاستمتاع، كالسيدة بورجرون والسيد جاك زوجها، ما دامت هناك باريس، وفي أي وقت يمكن الخروج من بكين والدخول إليها، فأبو المجد متزوج من سيدة فرنسية، ويحمل جواز سفر فرنسيًا نتيجة هذا الزواج، وليس ثمَّة مشكلة بالنسبة إليه، ومن المرجح أنَّه، في سريرته، غير معنيّ بالخلاف السوفياتي الصيني، وغير آسف، وحتى غير آبه، بعواقب هذا الخلاف على حركة التحرُّر الوطني العربية بعامّة، وعلى بلده سورية بخاصة، هو لن يعود إليه، وبذلك يتخلى، تلقائيًا، عن عضويّته في الحزب، وما تجره هذه العضوية من مصاعب عليه، ويعيش في باريس بدل دمشق، وفي الشانزليزيه بدل حديقة السبيل، وفي هذا يتساوى مع السيدين بورجرون، اللذين لن يسحبهما حزبهما من الصين، لأنَّه، في حضارته، وثقافته، وتجربته، حزب يفرِّق بين الأممية والتبعية، وينتقد بجرأة، دون رفع شعار مسمل العينين، شعار تعميمي، فارغ، مؤذٍ، هو «إن معيار الوطنية صداقة الاتحاد السوفياتي» وجعل هذه الصداقة عشقًا مشبوهًا، يوافق فيه العشيق عشيقه موافقة عمياء، كما تفعل بعض الأحزاب الشيوعية هنا وهناك، وفي إخلاص لهذا العمى، تُنزِّه عن الخطأ ما هو غير مُنَزَّه: الحزب الشيوعي في الاتِّحاد السوفياتي!

وكما توقَّع تمامًا، لم تهتف السيدة بورجرون لزبيد، بعد خروج ابو المجد من عنده، كما وعد هذا الأخير، لمعرفته أن زبيد سيرفض، وبعناد، أن يرقص مثل الآخرين، رقصة الأشباح البيض، على «قبور» الراحلين، التي لم يجف ترابها بعد، وربما كان أبو المجد، في تستُّره على أفكاره وأعماله، هو الذي طلب ألاَّ يُدعى زبيد إلى السهرة، وكذلك أي عربي، تجنُّبًا للحرج، وقد ارتاح زبيد لأنَّ آل بورجرون لم يهتفوا له، وقال في نفسه: «هذا من الكياسة!»، متابعًا شرب جرعات من الكونياك، مع رشفات من القهوة، في حال من الاسترخاء واللامبالاة التامين، سواء بالنسبة إلى الجامعة التي انقطعت صلته بها، أو بالنسبة إلى رفاقه العرب الذين نبذوه، أو بالنسبة إلى من يقيمون الأفراح، غير مستشعرين، ولو بحد أدنى، وقع كارثة الخلاف، وما تبعها من رحيل الخبراء، وهم معذورون، بشكل ما، لأنَّ لهم بلدانهم، وأحزانهم، غير التابعة، وغير المتضامنة، بشكل أهوج، مع الاتحاد

السوفياتي، أو مع رعونة خروتشوف، لذلك رفضت هذه الأحزاب سحب أعضائها العاملين في الصين، لأنَّها لم تكن قليلة الإدراك كي تعتقد، أنَّ سحب هؤلاء الأعضاء، يقدم أو يؤخِّر، أو أنَّ تنزيه موسكو عن الخطأ، وتحميله للصين وحدها، هو من الموضوعية في كثير أو قليل!

وبينما كان زبيد يستعد بهدوئه المغلف بالكآبة، للخروج في نزهته المسائية حول الدروجبا، وحيدًا، منكسرًا، بَرِمًا بكلّ ما حوله، قُرع الباب قرعًا لجوجًا، ورن جرس الهاتف في وقت واحد، فظن أن بورجرون هي التي تهتف، لذلك رفع السماعة وأعادها دون أن يرد، ومشى إلى الباب ليرى من هناك، فإذا المفاجأة غير المتوقعة، وغير الرافّة، حتى في الخاطر، رفيفًا عابرًا، تطالعه على الباب: كانت هذه السيدة بورجرون، وهي في كامل زينتها، وكامل ابتهاجها، وكامل شوقها، وقد ابتسمت، وهي تدلف إلى الداخل، ابتسامة إغراء، وقالت وهي ترفع شالها الحريريّ عن كتفيها:

ـ جئت إليك بنفسي، رغم ظني أنَّك قد لا تستقبلني، وقد تتصرّف، كعادتك معي، بغير لياقة، حتى لا أقول بجلافة، وإنَّ مزاجك مسودّ بحزنك الذي أحترمه، لكنني لا أرى مبرّرًا له، فما حصل كان لا بدَّ أن يحصل، وأنت تعرف هذا بأكثر مما أعرفه.

تأمّلها زبيد، بعد أن جلست واضعة رجلاً على رجل، وفستانها ينفتح من أعلى عن عنق جميل، أبيض، موشَّح بالبرونز الشمسي، وفي عينيها تلتمع نظرات، ماؤها زجاجيّ، صارخ الإثارة، وشعرها ينسدل، في تثنيًّات كبيرة، مؤطّرًا وجهًا للرغبة، حتى ليحسّ الرائي أمامه بالحيرة في إرسال أصابعه تتخلّل هذا الشعر، أو في إرسال هذه الأصابع لترفع خصلاته إلى وراء، كي يبدو الوجه، أو ينفتح، على بهائه كله، بينما الساقان، المصبوبتان في قالب فني، لنحات ماهر، ينشمر الفستان عن ركبتيهما المدوّرتين، وفي نهاية الساقين، من أسفل، قدمان جميلتان، يزيدهما الحذاء المصنوع من جلد أفعى مرقّش جمالاً، يضرم شهوة مرمَّدة، تغري بفجّ الرماد عنها، كي تتوهّج، وترسم في المخيلة المحرومة، أشكالاً لرؤى هاتين القدمين، وهما حافيتان، تسعيان بين المقعد والسرير، أو تتجولان في القاعة، بكل عريهما الفتان، الصارخ الفتنة، كأنَّما السيدة بورجرون، في تعارفها مع زبيد خلال ما يقرب من عام، قد أدركت، بحسّ الأنثى، أن أكثر

ما يفتن هذا الشرقيّ، المتوسطيّ، هو جمال الساقين فجاءت الآن تكشف هذا الجمال، وتجعله مباحًا له.

توقّف زبيد عن السير، منذ دخلت السيدة بورجرون، كفّ عن التحديق، عن التفكير، تاركًا لرماد سيكارته أن يسقط حيث يشاء، دون اعتذار، دون مجاملة، لأنه فهم، من مجيئها إليه، في زيارة مؤقتة، أنها تقنص، أو تسعى لقنص إنسان في ذروة مأساته، المتجلية في وحدته، وألمه، وحاجته إلى من يتكلم معه، كي يخفف قليلاً عنه ما به من شجن! مفاجأة! مفاجأة مذهلة! حتى إن زبيد، في اقصى مناه، لم يكن يتصوّر أنّها ستحدث، وأنّ السيدة بورجرون ستأتي إليه، مانحة السعادة لإنسان غير سعيد، لإنسان مدعوّ إلى وليمة دسمة، تُتاح فيها كل المحرّمات، دفعة واحدة، وتُكشف كل المفاتن، دفعة واحدة أيضًا، وعليه، هو المضيف، أن يحسن التصرف مع ضيفته، دون أن يفوته، للحظة، أن هذه الضيفة، تقف في الطرف الآخر المقابل، الطرف اللاهي في موقف هو للجدّ تمامًا، وهو للشعور الذي يستدعي عدم الانسياق مع شعور آخر، من أجله كانت هذه الزيارة.. وعندما ضاقت السيدة بورجرون ذرعًا، ونفد صبرها حيال هذا الصمت الذي جاءت لاختراقه، سألته وهي تبتسم:

ـ هل تأمّلتني جيدًا؟

ردّ زبيد:

ـ جيّدًا جدًا!

ـ وبماذا خرجت من هذا التأمُّل؟

ـ بالإعجاب طبعًا!

ـ ولماذا «طبعًا» هذه؟

ـ لأنّ الإنسان قد يخرج، أحيانًا، من تأمله بما يخالف الإعجاب، حتى لو كانت الزائرة الكريمة هي السيدة بورجرون نفسها.

ـ أفهم من هذا انك تستقبلني؟

ـ وبترحاب يا سيدتي!!

أضاف:

ـ لن أعتذر عن سهومي فقد تطلّب الانتقال، من حالة نفسيّة إلى أخرى بديلة، وقتًا ما، كنت فيه مُسامحةً وكريمةً.. والآن؟ ماذا تشرب سيدتي؟

ـ كأسًا من الكونياك، الذي أعرف أنّك تكثر منه، إلى درجة الإدمان هذه الأيام!

ـ هذا صحيح، وصديقنا المشترك، الرفيق عيّاد أبو المجد، يعرف هذا، وهو من أخبرك به.

قالت السيدة بورجرون وهي تتناول كأس الكونياك:

ـ هذا صحيح أيضًا، وهو السبب الذي دعاني إلى المجيء، بدل أن أهتف اليك.. قدّرت أنك بحاجة إلى المواساة، فجئت مواسية، لكنك استقبلتني ببرود، حتى كأنّك ترغب في انصرافي.. وفورًا!

شرب زبيد كأسه في صحة ضيفته وقال:

ـ لست من الجلافة بالقدر الذي تتصوَّرين.. أهلاً بك في بيتي!

قالت ضاحكة:

ـ فاجأتْك زيارتي فارتبكت، وهذا يحدث دائمًا، فلا تبال به.. نحن صديقان، ورفيقان، وجاران في مدينة دروجبا، هذه، الرائعة.. إذن لنتكلّم بصراحة، ولنرفع الكلفة بيننا، وليقبّل أحدنا الآخر، تدْشينًا لمرحلة جديدة من الصداقة!

تبادلا القبل، على الخدين، والسيدة بورجرون جالسة، تهفّ منها رائحة العطر الفرنسيّ المنعش، وبأناملها الرخصة، الرشيقة، تردّ شعرها إلى وراء، وهي تنظر في عيني مضيفها مباشرة، كما يفعل المنوِّم المغناطيسيّ، في محاولة تهيئية لتقبّل ما تريد قوله، بشكل مباشر ودون مواربة، وكي تقطع عليه سبيل الاعتذار، عندما ابتسمت، ثم وجّهت اليه الدعوة قائلة:

ـ جئت بنفسي لاصطحابك إلى السهرة المتواضعة، التي نقيمها، زوجي وأنا، الليلة في بيتنا، لأنّك فرضت على نفسك عزلة غير مبررة، فيها شيء من هشاشة أمام الظروف الطارئة، وأمل أن تتقبّل صراحتي هذه برحابة صدر، إذا ما كانت كلمة هشاشة نابية!

قال زبيد:

ـ نعم! نابية يا سيّدتي، ولن أقول أكثر، حتى لا أقع في الخطإ الذي وقع فيه غيري!

قالت السيّدة بورجرون:

ـ اعتبر نفسك قد قلت الذي تريد قوله، أم أنّ لديك أكثر!؟

ـ في الوقت الحاضر لا!

ـ وفي المستقبل!؟

ـ ربّما!

أضاف زبيد بعد تردّد:

ـ ألست معي في أن الكلام، أيّ كلام، له زمانه ومكانه؟

فكّرت، ابتسمت، ردّت شعرها عن الخد الأيسر، قالت:

ـ أعترف! أنا معك في هذا.. كيف أقول؟ لا بأس! الصراحة لها أناقتها أيضًا!

ابتسم زبيد، تناول جرعة كونياك، نظر إليها كأنه يراها للمرة الأولى، جلس قربها، وضع رجلاً على رجل، قال كأنه يكلم نفسه:

ـ أناقة الصراحة! نعم! نعم! أناقة الصراحة، اسمحي لي أن أبدي إعجابي بهذه العبارة المبتكرة، المنتقاة بلطف باريسي خلاّب!

ـ تسخر؟!

ـ وهل أجرؤ!؟

ـ قيل لي إنك تجرؤ، ولم استبعد ذلك، رغم أن معرفتنا عابرة بعد، وهذا ما يدعو إلى الأسف، لأنه كان علينا أن نعمّق هذه المعرفة، ما دمنا زملاء، وجيرانًا أيضًا!

قال زبيد ضاحكًا:

ـ يبدو أن الحقّ على الجيرة، فما يلفت النظر هو في البعيد دائمًا، أم أنني مخطئ؟

ضحكت السيدة بورجرون وقالت:

ـ هذه حقيقة أنيقة أيضًا، تعرف لماذا؟ لأنني لست في البعيد الذي تقصده!

ـ ما دمنا على هذا القرب، وهذه اللفتة الكريمة منك، فإنّ البعيد لم يعد له شأن! اسمحي لي، سيّدتي الجميلة، أن أشرب نخب زيارتك اللطيفة و...

قاطعته:

ـ غير المتوقعة!

ـ تمامًا!

كشفت بحركة رشيقة، عن ركبتها، اعتذرت، رفعت ذيل فستانها قائلة:

ـ أنا مغرمة بالحرير الصيني، لكنه أملس، يكاد لا يستقر على الجسم.. تقول إن زيارتي كانت غير متوقّعة تمامًا؟ في هذا أنت على صحة كاملة، لكن أياد خرج من عندك قلقًا، قال لي: «زبيد حزين بأشدّ ما يكون الحزن، وقد ترك التدريس في الجامعة، إلى أن يُحل الإشكال حول موادّ الدراسة، وهو عنيد، مغامر، وقد يندفع حتى إلى الإضرار بنفسه!!» آمل أن يكون في هذا القول بعض المبالغة، فأنت عزيز عليّ.. عفوًا، أنت عزيز علينا، أم تشك في ذلك؟

نهض زبيد ليأتي بزجاجة الكونياك، كان هذا تعلّة ليفكر قائلاً: «ماذا تريد هذه السيدة؟ الحرير الصينيّ، أملس، لكن جسمها، في ما أقدّر، أكثر ملاسة، ولقد لفتتني إليه بذكاء، ثم ماذا؟ قلقة عليّ؟ خافت كما خاف أياد أن أرتكب ما يضرّ بي؟ قد أكون عزيزًا عليها، لكن «عفوًا» هذه الكلمة الاستدراكية، لم تكن بغير قصد!»

جاء بزجاجة كونياك جديدة، من أفضل الأنواع المنتجة في الصين، تظاهر بأنّه يحاول فتحها حتى يفكر بكل ما قالته، كما جاء بكأسين وهو يقول:

ـ أطلب رأيك، أنت الذوّاقة، بهذا الكونياك الصينيّ!

تمنّعت السيدة بورجرون في البدء، بذريعة السهرة، الليلة، في بيتها، أصرّ زبيد على أن تتذوّق هذا النوع من الكونياك، أخذت قليلاً وهي تقف قائلة:

ـ هل تسمح لي بأن أعاين، عن قرب، هذه التحف الصينيّة، وخاصة عصا المينغ، هذه المعلقة بشكل مائل، فنّي، على الجدار؟

هتف زبيد باستغراب:

ـ عصا المينغ!؟ أي مينغ هذا؟ أنا من أطلق هذه الإشاعة!

ردت السيدة بورجرون وهي تميس بقدّها المتّسق، الملفوف بغير سمنة:

ـ ولماذا هي إشاعة؟ قد تكون عصا من أسرة مينغ فعلاً.. في الصين

تجد، أحيانًا، تحفًا من كل العهود، تحفًا حقيقية، ثمينة جدًا، ممنوعًا إخراجُها، إلاّ إذا أخفيت جيدًا عند التوضيب، ولم يكتشفها الخبراء الصينيون المكلفون بمراقبة التحف قبل توضيبها.

ـ إلى هذه الدرجة؟ شكرًا لهذه المعلومة، لكن هذه العصا ذات الرسوم الدقيقة، والرأس المتوّج بعصفور الهدهد، لا يعقل أن يعود تاريخها إلى ما قبل ٥٠٠ سنة، إبّان حكم أسرة المينغ.. تفضلي اطّلعي على هذه المقتنيات، التي لا تمتّ إلى التحف الحقيقية بصلة، فقد اشتريتها متسرّعًا، عديم الخبرة، بقصد تزيين بيتي بأيّ شيء، حتى لا يبقى عاريًا!.

قالت وهي تقلّب «فازًا» صغيرًا بلونيه الأبيض والأزرق:

ـ التجارب لها ثمن يا سيدي، وقد دفعناها كلنا في أول مجيئنا إلى الصين.

قال زبيد منتشيًا:

ـ لماذا لا نختصر الطريق يا سيدتي، فأستفيد من تجاربك في هذا المجال؟ ثمّ لي ملاحظة صغيرة أرجو أن تستجاب فكرتها: اسمي الصغير زبيد، ولا حاجة إلى كلمة «سيدي» بعد الآن، موافقة؟

ـ موافقة على التماثل، اسمي الصغير مارغريت...

ـ أنت السيدة بورجرون، مهما ارتفعت الكلفة بيننا.. والآن، ما رأيك بفنجان من القهوة؟

ـ هوْ هوْ! القهوة التركيّة شديدة التأثير، بسبب ما فيها من «كافيين» مع ذلك لا بأس، اذا ما سمحت لي برؤية تحضيرها.. هيّا يا صديقي العنيد والمغامر.. وبالمناسبة، هذا ليس اكتشافي، أنا أردّد ما أسمع، وصدقني إنني مثلك، أحبّ المغامرة..

قاطعها زبيد سائلاً:

ـ بكل أنواعها؟

طبطبتْ على ظهره وهما يسيران إلى المطبخ، قالت بإغراء:

ـ لا تكن خبيثًا بأكثر ممّا يجب.. سؤالك جوابه معروف: المغامرة إلى حدّ ما!

ـ ومن يعيّن هذا الحد؟

ـ ليس الآخر طبعًا! انتبه.. القهوة تفور!

ـ وماذا لو فارت؟

ـ لا شيء.. بعضهم يحبها فائرة.

ـ وأنتِ؟

ـ ماذا تقدِّر؟

ـ لست منجّمًا!

ـ المسألة ليست بهذا التعقيد، ولا تحتاج إلى تنجيم من أي نوع..

أضافت وهما يشربان القهوة، مع رشفات من الكونياك:

ـ بالنسبة إليّ، الحياة بسيطة، لا تعقيد فيها ولا تنجيم، وأحبّ أن تفهمني!

قال زبيد:

ـ أجتهد لكي أفهم، لكنني، صدقيني، لست على ذكاء كاف لكي أفهم من الوهلة الأولى.

ـ أصدّقك، ولكن التواضع، في غير محله، لا يريحني.. أنت ذكي بأكثر من الكفاية لكي تفهمني أو تفهم غيري.. هذه ليست الوهلة الأولى لتعارفنا، ولا حاجة إلى الاجتهاد كي تتذكّر ذلك.. قلت لك: الحياة بسيطة بالنسبة إليّ! ورحت أنت تتحدث، مناورًا، عن التعقيد والتنجيم، وترى إليّ كأنّني قادمة من عالم آخر، تجهله كل الجهل.. فما هو، في كلامي أو سلوكي، هذا الذي تجهله؟

ـ العالم الباريسي الذي قدمت منه، والذي أخشى أن أخرق بروتوكوله، أنا الشرقيّ، الغرّ.

قاطعته:

ـ الغرّ أحيانًا! وعندما تريد، والأصح عندما تتعمّد أن تبدو غرًا.. لماذا هذه الازدواجية؟ ولماذا نتكلم بصوت مسموع، ونفكّر، في الوقت نفسه، بكلام غير مسموع؟ لقد جئت إليك بنفسي، واستقبلتني على نحو جيّد، وقد استمتعنا، معًا، بالكونياك والقهوة، فهل تريدني أن أنصرف؟ قُلْ ذلك بشجاعة أدبيّة..

فوجئ زبيد بهذا الهجوم الصاعق، ابتسم وقال:

ـ أنا أريدك أن تنصرفي!؟ وأنا مزدوج التفكير!؟ إذن عليّ أن أعتذر.

سألته:

ـ وهل تراني أطلب اعتذارًا منك؟ ثم ما نوع هذا الاعتذار؟ وكيف يكون؟ وما حاجتنا إليه؟ كفّ عن هذا اللعب... انه لا ينفع في مثل وضعنا!

قال زبيد:

ـ أعرف! لنجدّد كأسينا، ولنشرب، ما دام هذا يلذّنا، وبغير حدود، انتظري..

جدّد الكأسين، شربا، التمع بارق في العيون، مدّ يده وأنهضها، احتواها بين ذراعيه، غمغم:

ـ آمل ألا يزعجك هذا الهصر القوي.

قالت:

ـ ليس بالقويّ حتى الآن!

ـ وعظام ظهرك التي تطقطق؟

ـ وماذا في ذلك؟ زوجي، أيضًا، يسمع ما تسمعه، لكنك، أنت.. كفى كلامًا.. احذر من عضّ شفتي، وتبقيع جسمي بالأزرق، كن عنيفًا دون أن يترك عنفك أثرًا.. هل نسيت أن لدينا سهرة الليلة، وسيكون ثوب السهرة مكشوفًا؟

ـ حبيبتي!

ـ حبيبي!

ـ كنتُ أشتهيكِ، ومن اللقاء الأول!

ـ وكنت أعرف ذلك من اللقاء الأول!

ـ ولماذا عذّبتني إذن؟

ـ حتى أشفق عليك.

أمسك بها زبيد من شعرها، رفع رأسها إلى أعلى، قبّلها بعنف وهو يجمجم:

ـ لا أريد شفقة! هل تسمعين!؟

ـ أسمع، لكنني غير مقتنعة بأنّك لا تحتاج إلى شفقة.. لماذا كل هذا الحزن؟

قال وهو يخلع عنها ثيابها قطعة قطعة، ويرميها على المقعد:

ـ تعالي إلى السرير، وبعد ذلك نتكلم.

قالت وهي تحدق إلى عينيه:

ـ عندما أموت لا أستطيع الكلام!

قال زبيد وهو يقبّلها في كل مكان من جسمها:

ـ على يديّ ستموتين موتًا مريحًا!

وفعلاً، حدث هذا، ماتت السيدة بورجرون موتًا مريحًا حقًا، لكنها قالت وهي ترتدي ثيابها:

ـ لولا العجلة، بسبب السهرة اللعينة، لكان عليك أن تميتني مرّات ومرّات..

ضحك وسأل:

ـ بشكل مريح؟

ـ بالشكل الذي تجيده.. نعم! بهذا الشكل، أيها المغامر الذي يتوارى وراء حزنه المصطنع!

قال زبيد بحسم:

ـ حزني غير مصطنع، ولا بأي شكل.. إنّه حزن حقيقي!

ـ ولماذا!؟

نظر إليها وهي تدخّن وقال:

ـ تسألين بعد!؟

ـ ولماذا لا أسأل؟

ـ لأنّ لك عينين!

ـ ماذا تقصد؟ تحسبني لا أرى؟ الذي يدور في ذهنك، دار في ذهننا، جاك وأنا، ولكن ما علاقتنا؟ نأسف للخلاف، لقد أسفنا! وبعد؟ قل أنت، أيها الذي يكاد يقتل نفسه حزنًا، ماذا علينا أن نفعل، اذا كان حزبنا لا يرى ضرورة لسحبنا من الصين، ولو فعل لكان مخطئًا؟ نعم! لكان مخطئًا، لأن الصين، في خلافها مع الاتحاد السوفياتي، لا تتحمّل التبعة وحدها، وأنت من رأينا، وبخلاف رأي حزبك الذي تجنّى عليك، وأنت في هذه الغربة، فحرمك من عضويته، ووضعك في هذا الحرج الذي تعاني من

جرّائه معاناة شديدة، دون أن تتخلى أنت، حتى في معاناتك هذه، عن التمسّك برأي حزبك، ومن أجل ذلك رفضت تدريس موادّ موجّهة ضدّ الاتحاد السوفياتي، وهذا هو النبل، الا أنّ هذا يجانب الصواب، فإذا كنت تقف ضد اقتناعك، فإنّ هذا شأنك، إلاّ أنّ هذا الموقف يضر بقضية الاشتراكية، التي تشردت، وانت مستعدّ، الآن ايضًا، إلى التشرُّد في سبيلها!

نظر إليها زبيد نظرة ملتبسة وقال:

ـ أعرف، دون حاجة إلى ايّ شرح، كل هذا الذي قلته، وأعرف أن أياد، في السر، من هذا الراي، وهو الذي حدثك عني بكل ما سمعته منك الآن، لكنّ المسألة ليست هنا.. المسألة هي: اذا لم نحزن، فهل نفرح؟ وهل إقامة حفلة ساهرة، في هذا الوقت بالذات، بالأمر المناسب، أنا لا أتصوَّر ابدًا رفيقًا جيّدًا، يغني ويرقص، والأسى يخيِّم على الدروجبا كلها.

أشعلت السيدة بورجرون سيكارة، وضعت، باسترخاء تامّ، رجلاً على رجل، ابتسمت بإشفاق، وقالت بنبرة ساخرة:

ـ وهل رأيت رفيقًا جيّدًا، يمارس الحب بهذا العنف، ويستشعر سعادة غامرة، في هذا الوقت بالذات؟ ومع من؟ مع زوجة رفيق له؟ الا تحسّ بالتناقض، إذا لم أقل بالخجل؟ هيّا أجب!

اطرق زبيد براسه مصدومًا، غاضت نشوته، تعرّق حياءً، فكّر وهو يذهب ويجيء، توقف وقال:

ـ أتقبّل هذا الذي تقولين دون مناقشة، من ناحية واحدة فقط، كوْنك زوجة رفيق لي، كما ترغبين بتذكيري، على فرض أنني لا أذكر، ما عدا ذلك كله سفسفة، ينطوي على ما يجب أن تخجلي أنت منه، لأنَّك جئت إليَّ، وأغريتني إغراء لا يقاوم، مع أنه مبتذل، حسب رأيي الآن، بعد أن جرى ما جرى.. إنّني اسف!

قالت السيدة بورجرون بنبرة هازئة:

ـ أعطني كاسًا صغيرة من هذا الكونياك الجيّد، الجيّد لأنّه من اكتشافك فقط، وخذ لنفسك كاسًا مثلها، وعندئذ يزول خجلي، ويتلاشى، كدخان هذه السيكارة، اسفك المفتعل كله!

ردّ زبيد بنزق:

ـ أسفي ليس مفتعلاً، ولا رغبة لي في تأكيد ذلك.

ـ أعطني، إذن، قدحًا من الكونياك، كي يزول خجلي غير المفتعل، أنا الأخرى.

قالت ذلك واستوت في جلستها، بعد أن أعطاها ما طلبت، تابعت هزءَها باقتراحها أن يشرب نخبها، وأن يصغي إليها، دون توتّر أو نزق، لأنّه من اللياقة، حسب تعبيرها، أن يكون الرجل الشهم، كيّسًا، وأن يمتلك الحس السليم، أمام امرأة تمرغ معها بحمأة ممارسة الجنس، قبل قليل... وعندما رفض زبيد أن يشرب نخبها، قالت مع ابتسامة:

ـ أنت، يا سيد زبيد، كلاسيكي جدًا، لم تتجاوز الماضي الذي صار في ذمّة التاريخ. تعرف لماذا؟ أنا أقول لك: النقطة التي أثرتها ضعيفة جدًا من الناحية الأخلاقية، فلا موجب للخجل أو الأسف، لأنّ ممارسة الحب مع الذي لا نحبه، هي النقيصة، بينما ممارسة هذا الحب، مع الذي نحبه، هي العكس تمامًا، بصرف النظر عمّن يكون.. إنّني أعزّ جاك، زوجي، بأكثر مما أعزُّك، لكنّني أحبك بأكثر مما أحبُّه، فما رأيك؟

قال زبيد:

ـ رأيي أننا نسوّغ لأنفسنا ما لا يسوغ، تبريرًا للخطإ!

ـ وأين هذا الخطأ؟

ـ في ما حدث بيننا!

ـ ما حدث كان طبيعيًا جدًا، لأنّني حصلت على ما كنت أريده، وهذا ينطبق عليك أيضًا، وبنفس القدر!

ـ أنا لا أقول خلاف ذلك، وأعرف ثنائيّة الألم واللذة، فعندما نجوع نحسّ بالألم، ولا يُزال هذا الألم إلا بلذة الشبع، وكذلك الأمر في ألم الحرمان ولذة الوصال، غير أنّني أرفض، بشكل قاطع، أن يسخَرَ أحد من حزني، لأسباب كثيرة، منها هذا الخلاف بين الصين والاتحاد السوفياتي، الذي ستكون له عواقب ضارة جدًا بالنسبة إلى حركة التحرُّر الوطني، هذه لا تعني لك، باعتبارك من بلد أوروبي، شيئًا كثيرًا، أما بالنسبة إليّ فهي كارثة، تتجاوز شخصي، تتجاوز كثيرًا ما هو ذاتيّ، إلى ما هو عامّ، إلى

القضيّة التي ناضلت كثيرًا من أجلها، وكنت أحسب، كما غيري، أنها إلى انتصار وشيك، فإذا العكس هو الذي حدث، والانتصار صار بعيدًا، بعيدًا بأكثر مما تتصوّرين يا عزيزتي، رغم الدماء المشتركة التي سفكت، من قبل الطرفين، في النضال المشترك، على الأرض الصينية ذاتها، لأجل تحرير الصين نفسها.

قالت السيدة بورجرون:

ـ كل هذا صحيح، حدثّني جاك عنه..

قال زبيد:

ـ رحيل الخبراء السوفيات هو أكثر من رحيل عادي، إنه فاجعة، ومتى؟ في هذه الظروف الدولية البالغة الخطورة، كأنما الذين اختلفوا تعمدوا أن يقدموا، بخلافهم، خدمة مجانية لأعدائهم، وفي المقدمة الولايات المتحدة الأميركية، بكل ما تنبض به شرايينها من حقد علينا، فتأمّلي: كنتُ أمس أقرأ في كتاب، وقد اذهلتني تضحية نادرة جدًا، قام بها رفيق روسي، في سبيل إنقاذ مناضل صيني، فقد نودي على اسم تشن تو ليقاد إلى الإعدام، في مدينة كانتون، إلاّ أنّ ثوريًا روسيًا، له ملامح صينيّة، خرج من بين الصفوف، وقال: «حاضر!» فسيق إلى الإعدام، ونجا تشن تو، الذي سيكون له دور مهمّ في نضال الطبقة العاملة في كانتون، خلال حرب التحرير الصينيّة، التي تتوّجت بالنصر.. تلك، يا سيدتي، كانت أيّامًا مجيدة وها نحن نعيش أيامًا سافلة، في هذا الخلاف الذي أحزنني جدًا، فهل أُلام على حزني؟

وقفت السيدة بورجرون بحركة عفوية، احتضنت زبيد وقالت:

ـ لا! أنت محقّ في هذا الحزن، لكن إلى متى؟

ـ لندع هذا للأيام!

ـ تحسب أنّ الأيّام القادمة ستكون أفضل؟

قال زبيد:

ـ بل أسوأ، بالنسبة إليّ، اذا ما طردت من الصين، وهذا متوقّع جدًا.

ـ وماذا بشأن قلقنا الشخصيّ عليك؟

ـ اطمئنوا، لن ننتحر حتى لو وضعت على الحدود!

ـ أنا، شخصيًا، متأكدة من شجاعتك وصلابتك، وما دمت كذلك، فما المانع أن تحضر السهرة، فتشرب قليلاً، وتتسلّى مروّحًا عن نفسك؟

ـ إذا كانت السهرة للشرب، فها أنا أشرب، فماذا بقي للتسلية؟ الرقص!؟

ـ لا! لا ترقص، ولن أدع أحدًا يحرجك من هذه الناحية، ستكون بيننا على ما يرام، وتستمع إلى شيء من الموسيقى... موافق!؟

ـ آسف!

ـ حتى مع الرجاء، ومنّي شخصيًا؟

ـ رجاؤك مقبول، ولديّ من الشعور بالامتنان لزيارتك ما لا مجال لوصفه الآن، الآن بالذات وبعد أن قلتِ الكثير عمّا يعذّبني، ويجرّح روحي.. كوني سعيدة، وثقي أنني سأكون مبتهجًا لسعادتك، ولو عن بعد!

ـ ولماذا ليس عن قرب، إذا كنت تحبّني؟

ـ لندع الكلام على الحب لفرصة أخرى، شكرًا لك، فقد أنعشتني زيارتك، وكلماتك، وكل هذا اللطف الباريسي غير المستغرب من سيدة باريسية مثلك.

ـ قبّلني إذن!

قبّلها، انصرفت، لكن العطر الذي خلّفته وراءها، ظلّ يتضوّع في الغرفة إلى وقت ليس بالقصير، وهذا ما أنعشه جدًا، وهو يستعيد وقائع الزيارة لحظة بلحظة، منذ فتح لها الباب، إلى أن أغلقه وراءها!

«جميلة، رائعة، قال زبيد في نفسه، ولديها نظرتها، هي الأخرى، لما يجري، لكنّها نظرة اوربية، وهذا طبيعي، فالأحزاب الشيوعية الأوربية، تتمتّع بنوع من الاستقلالية في موقفها من الخلاف الصيني ـ السوفياتي، وهي لا تحمّل الصين وحدها تبعة هذا الخلاف، لذلك لم تسحب اعضاءها منها، وهو موقف صائب، بخلاف موقف الأحزاب الشيوعية العربية، التي بدت في حالة تبعية كاملة، تبعية لا أممية، بالنسبة إلى الاتحاد السوفياتي، فتسرعت، باسم التضامن، وباسم الصداقة بسحب أعضائها، محملة الصين كل التبعية، في الخلاف الجاري. وهذا موقف خاطئ، لكنني سألتزم به، حتى وأنا مفصول من عضويّة حزبي، وعلي، في ضوء كل ما

سمعت من السيدة بورجرون، أن أعذر الآخرين، اذا لم يحزنوا كما حزنت، وإذا كان لهم المزاج الحسن، المؤاتي، لإقامة الحفلات في بيوتهم، والتمتع ببعض الفرح، في هذه المدينة الصغيرة التي أسمها «الدروجبا» والتي كانت مكرسة لصداقة انتفت الآن، و«للحليف الكبير» الذي لم يعد حليفاً. وهذا، من وجهة نظري، بداية لما هو أكثر سوءًا من النكسات في المستقبل!».

أضاف زبيد بحرقة كاوية، كالسهم في الكبد: «لماذا يكون على الصغار، أن يتحمّلوا نتائج أخطاء الكبار دائمًا!؟ نحن ضحايا، وبصورة مجانية، وأنا ضحية مفجعة، أنظر إلى الواقع من حولي بيأس شديد، لكنني لن أؤذي نفسي، قررت أن أصمد، ووعدت السيدة بورجرون بأن أصمد، وسأكون عند وعدي، إلاّ أن مكافأة القدر، في العلاقة مع هذه السيدة، جاءت متأخرة، متأخرة جدًا، لا تصلح إلاّ لذكرى جميلة.. أحملها معي كما يحمل المسافر المسكين، زادًا ناحلاً، وهو في طريقه إلى سفر بعيد!»

- ٢٤ -

لم تذهب مارلين كما توقّع، عز عليها أن ينتهي ما بينها وبين زبيد في فورة غضب، كانت تحبه، تحبه في كل حالاته، تقدّر أنّ الجروح التي في روحه، أعمق وأوجع من الجروح التي على صدره، وأن عليها، لا أن تدافع عن حبها فحسب، بل أن تساعد زبيد لشفاء الجروح التي في داخله أيضًا، الجروح التي لا يتحدث عنها أبدًا، في اصرار غريب على الكتمان، كأنما معاناته، من الداخل، أمر يخصه وحده، راغبًا في توكيد أحقيته المبدئية، أمام أيّة نظرة مريبة، من أي كائن، في أنه بوهيمي، وذو ترسبات بورجوازية، تدفع به إلى التسيُّب، وتاليًا إلى نسيان أنه ماركسي، مناضل، وصلب في نضاله، إلى الحد الذي لا يرقى اليه الآخرون، الذين يمالئون الصينيين، طلبًا للكسب، وللعيش الرخي، والتنعّم بما توفره لهم كلمة خبيرٍ، من امتيازات لا يحلم أي صيني، في أي منصب، أن يحظى بعشرها على الأقل، وهو، زبيد، يرى ذلك بألم، وصمت، يتبدّيان في نظراته الملأى بالاحتقار، لسلوكيات من هذا النوع، راميًا إلى البرهنة، من خلال العمل وحده، على أنه ماركسي أصيل، واشتراكي مخلص، ورفيق كوته التجارب، وفولذته في آن واحد.

مارلين تعرف كل هذا، لا سمعًا بل عيانًا، ولشد ما نصحته بأن يترفّق بنفسه، وأن يتوقّف، ما بين فترة عمل وأخرى، طلبًا للراحة، فيكتفي بابتسامة ودود، قائلاً بجد:

ـ أني لا أفعل إلا ما يمليه عليَّ الواجب، مع شعور دائم بالتقصير، والسعي الدائم لتلافيه، دونما تفكير في المادة، لأنني في غنًى عنها، ولو سعيت إليها في وطني، لكنت من الأثرياء، ومن المستقرّين في بيوتهم الفخمة، والمترفّهين بمالهم الوفير، المسروق من عرقِ الشعب، ولكنت من الجالسين على مؤخراتهم المترهلة، جراء كسلهم والتبلّد.

وتقول مارلين:

ـ أنا لا أثنيك عن القيام بالواجب، لكن ما تفعله يفيض عن هذا الواجب، ويضرّ بصحتك ضررًا خطيرًا، فأنت مرهق يا زبيد، يا حبيبي، والإرهاق واضح في تجمّد التعب في عينيك، فإلى متى!؟

وكان زبيد يضحك ويجيب:

ـ إلى ما لا نهاية له. لا أريد أن أنزل في قبري جديد الجسد، كي أوفر وجبة دسمة للديدان، أنت، يا مارلين، تشفقين عليّ من مظاهر التعب الخارجي، وهذا، صدّقيني، لا يهمّ كثيرًا، هناك ما هو أشدّ هولاً منه.. لكن كفى! ماذا قلت؟ ها! قلت كفى، أي لا شيء! إنني، أحيانًا، أكلّم نفسي بصوت عالٍ.. ما هي وجبة الغداء التي ترغبين فيها!؟

فتضحك مارلين بدورها قائلة:

ـ على أي غداء تتكلم ونحن الآن، في المساء تقريبًا!؟ ماذا بك؟

ـ عته شيخوخة مبكر!

ـ لا تجعلني أصدّق!

ـ صدّقي!

ـ لا! أنت تقول هذا لتخيفني!

ـ خطأ! نعم! هذا خطأ يا مارلين، ماذا كنت أقول؟ ها! تذكرت! أنا، يا حسنائي العزيزة، لا أحرر شيكات بالخوف المجاني.. ما رأيك في أن نشرب عصير التفاح؟

تذكرت مارلين كل هذا، وهي جالسة إلى مكتب زبيد، بينما هذا يذهب ويجيء، بخطًى عصبيّة، والصمت يخيّم على الصالون، بكثافة كآبيّة، وهي، غير المرغوب في بقائها، تتساءل في ذاتها: «ماذا فعلت؟ بأي كلام جرحته حتى أثارته بهذا الشكل؟ وكيف السبيل إلى تهدئته؟ وهل يهدأ بعد هذا الهيجان الثوري؟ إنني أرغبه، أحيانًا، منفعلاً، لكن ليس بهذا الشكل الشيطاني المرعب.. لا بد أن أفعل شيئًا، شيئًا يرضيه، يضحكه، يجعله يشفق على سخفي، وعلى جهلي حتى بالتافه من شؤون المطبخ!»

وقفت مارلين وأخذت تتمطّى، أدار لها زبيد ظهره كي تفتح الباب وتخرج بهدوء، دون أيّما كلمة، لكن الباب لم يفتح، مارلين دلفت إلى المطبخ،

فحسب زبيد أنها ستشرب، لكنها تأخرتْ، فكرتْ أن تعد له فنجانًا من الشاي، لكن زبيد يشرب القهوة، وهي نفسها ترغب، الآن، في القهوة مع شيء من الكونياك، أشعلت السخّانة الكهربائية، تناولت ركوة القهوة، ملأتها بالماء، وبعد؟ تحولت مارلين من الدعابة إلى الجد، رغبت حقيقة في أن تعدّ القهوة لزبيد ولنفسها، لكن المشكلة ان إعداد «النيس كافيه» غير إعداد القهوة التركيّة، والحيرة في مسألة البن، تضعه بعد أن يغلي الماء وتحركه حتى يذوب، أم تضعه في الماء البارد، وتذوبه أولاً؟ تناولت علبة البن، وضعت القهوة بكثرة، حاولت تذويبه دون أن تنجح، فظنّت أن القهوة تذوب بالماء الساخن، رفعت الركوة إلى السخّانة، انتظرت حتى يغلي الماء ليذوب البن، وعندما وصل الماء إلى درجة الغليان، أسرعت إلى تحريك البن، الا أن الماء فار، وساح على السخّانة والطاولة والأرض، وبلل يدها وفستانها، أحدث نشيشًا خافت معه من إحداث حريق، وعندئذ نادت:

ـ زبيد! زبيد! تعال، أسرع، حريق..

أسرع زبيد مغضبًا، لكنه ما إن دخل المطبخ حتى فوجئ، فبادر إلى سحب «فيش» الكهرباء، ونظر إلى حالة مارلين مستنكرًا، ثم مستغربًا، وبعد ذلك قهقه ضاحكًا ومارلين تبكي، تبكي حقيقة من احتراق كفها، وهو لا يدري ماذا يفعل وسط هذه اللخبطة، والتلوّث الذي طال كل شيء، الطاولة والأرض والثياب، امّا التهاب كف مارلين فقد جعلها تصرخ من الألم، بعد أن انقلب الموقف من الدعابة إلى المأساة! سحبها زبيد إلى الحمام، انقادت له دون ممانعة، ودون أن تكف عن البكاء، وهو يقول لها:

ـ لا تخافي! ما حدث بسيط جدًا، هاتي يدك، هاتيها، ضعيها تحت صنبور الماء، كفّي عن البكاء لأن روما لم تتخرّب بعد!

صاحت مارلين من بين دموعها:

ـ أعرف أن روما لم تتخرب، ولكن هل كنت تتمنى أن أتخرّب أنا؟ أن أحترق كلّي حتى تستريح مني؟ سأريحك تمامًا، وأحقق رغبتك اللعينة والحقود!

كان جواب زبيد المزيد من الضحك، بعفويّة كاملة، فالذي حدث كان طريفًا، طريفًا جدًا، رغم أسفه لما أصاب يد مارلين من حروق، وما لحق

بفستانها من تلوّث، وكل ذلك مقابل أيّ شيء؟ مقابل أن تعدّ له فنجانًا من القهوة، تعرف أنه سيكون سعيدًا به، وأنه قد يهدأ بعد انفعاله وغضبه الشديدين، غير المبررين من وجهة نظرها، لأنها، بحاسّة الأنثى، أدركت منذ استدعائها على عجل، أنه سيقول لها شيئًا على غاية الأهمية، متوهّمة، للحظة، أنه سيفاجئها بما يسعدها سعادة العمر، وهو الزواج بها، كما اقترحت عليه مرارًا، لينتهيا من وضعهما القلق، ومن ملاحقة جيفرسون وإلحاحه، ومن كل المضايقات وكل الأقاويل، حول حبهما الأكيد، ولو من طرفها هي، فالزواج يعني، من جملة ما يعنيه، أنّ زبيد يحبها أيضًا، وأنّه كان يتكتم على هذا الحب، كيلا يصادر حريتها في الاختيار، بينه وبين جيفرسون، وها هي، كما حدست، أمام مفاجأة، ولكن بشكل معكوس، فبدلاً من طلب الاقتران، صدمها بطلب الافتراق، وهذا ما أثارها، ودفعها إلى غلظة في القول، وإلى اتّهامه بالخوف، وبالارتداد عن وقوفه معها، وإلى جانبها، هربًا من تحدّيات لم يعدْ قادرًا على احتمالها.

قالت مارلين ويدها تحت صنبور الماء:

ـ أنا أخطأت يا زبيد!

قال زبيد:

ـ الذي أخطأ هو أنا، أنت، يا مارلين، لا تخطئين!

سحبت يدها بعصبية وصرخت:

ـ كفى سخرية يا زبيد، ارحمني! أقول لك ارحمني! أرجوك.

قالت ذلك وانفجرت باكية، على نحو مباغت، أدهش زبيد، آلمه، فحاول تدارك الموقف، دون أن يقول لها:

ـ لماذا هذا البكاء؟ كفي عنه يا مجنونة، طرافة ما حدث هي التي أضحكتني.

كان يعرف جيدًا أن البكاء مفيد لها، وأنه وحده يفرّج عنها، ويخفّف من الاحتقان الذي يكاد ينفجر، ولولا أنّها تماسكت، ضاغطة على أعصابها، كيلا تبدو ضعيفة أمامه، حفاظًا على كرامتها الجريحة، بسبب رعونته، وما أحدثت هذه الرعونة من صدمة لها، هي الرقيقة، الشفّافة، الحريصة على أن تكون شجاعة، وفي كل المواقف، وأمام كل الناس، إلاّ

أمامه، ثقة منها به، وبأنه يتفهمها في كل حالاتها، ولا داعي للمراوغة مع حبها النبيل ولكن الجارف، الذي من المفروض أن يقدّره، ويحترمه، ويكفّ عن علاقاته المهينة لها، وخاصة علاقته بالسيدة بورجرون، هذه التي تكنّ لها كرهًا شديدًا.

بكت مارلين بالقدر الذي أراحها، وبعد أن غسل يدها من آثار القهوة، وخفّف الالتهاب بالماء البارد، طلب منها بلطف أن تجلس إلى جانب المكتب، كعادتها دائمًا، وجاء بمعجون الأسنان فدهن مكان الالتهاب، آملاً في أن تمنع هذه المعالجة البدائيّة ظهور الفقاقيع، لأنّه من غير اللائق أن تذهب إلى المستوصف، وفستانها ملوّث، مبقّع بالقهوة، وقال لها ضاحكًا برغمه:

ـ لولا خطأ بسيط، لشربت من يدك الكريمة ألذ فنجان من القهوة التركية! دعيني ألحس البقع التي على فستانك، كنوع من التعويض!

نظرت إليه مارلين وضحكت بدورها، تفحّصت فستانها وقالت:

ـ يا إلهي! إنه خرقة ملوّثة بالسواد! ما العمل الآن؟

قال زبيد:

ـ العمل أن تخلعي هذا الفستان، كي أتمتع برؤية المفاتن التي تحته، كنوع من التعويض أيضًا!

ـ وإذا لم أفعل، كنوع من القصاص أيضًا وأيضًا!؟

ـ أن تتدوشي والفستان عليك، ثم تنتقعي تحت هذه الشمس الحارة حتى يجف!

ـ وإذا قلت لك شكرًا أيها الوغد، على هذه النصيحة البائخة!؟

ـ أجيبك تفضلي واخلعي هذا الفستان الرائع، وشرّفيني بالرقاد في هذا المستشفى المتواضع الذي هو بيتي، إلى أن أغسل الفستان، وأجففه، وأكويه، وتُشفى يدك الكريمة شفاء تامًا.. مع ملاحظة بسيطة: هي التمنّي لو أنّ غيرك تجرأ وقال لي: «أيُّها الوغد!»

ـ زعلتَ؟ آسفة، اعتذر، ما كنت أقصد!

ـ أعرف، ومن أجل هذا أصرف النظر عن قولتك هذه.

ـ لشدّ ما أنت معتدّ، أيُّها المجنون الذي أحبُّه، والذي كاد يفجعني بأعزّ أمانيّ: حبِّي الكبير الكبير له! ماذا فعلت حتى تعاقبني بهذه القسوة!؟

قال زبيد:

لو كنت تعرفينني حقًا، بعد كل هذه العشرة الطويلة، لأدركت أنني كنت أعاقب نفسي! أنت، يا مارلين، طيّبة، رائعة، وأنت أيضًا معتدّة، لكنّك متسرعة في قذف الآخر بكلام جارح، باتّهامات غير صحيحة، تغتال أفضل نواياه.. هاتي يدك لأرى، ابسطيها جيّدًا، هناك بقع حمراء لا أكثر.. هذا جيّد، لديّ مطهّر، ومرهم للحروق، وشاش وكل ما يلزم.. ولكن لديَّ ما هو أهم: الامتنان! فقد أقدمت على تضحية لإرضائي، وكلّفتك هذه الترضية، غير الضرورية، ثمنًا من الخوف والألم، شكرًا!

قالت مارلين:

ـ لو كنت تحبّ يا زبيد، ولو كان لك قلب، لا كرة زجاجية، حسب تعبيرك، لعذرتني. سأقول لك شيئًا: ما هو في رأيك، المقدّس في هذا الوجود، غير اللّه؟

رد زبيد:

ـ الكلمة!

ـ ماذا تعني؟

ـ أن نحترم الكلمة، أن نفي بها، أن نترجمها إلى واقع، لأنّها البدء كانت، والختام ستكون، وبهذا المعنى تتقدّس الكلمة، ونتقدّس معها، لا من الوجهة الأخلاقية وحدها، وإنّما من الوجهة الإنسانية، من وجهة الكرامة في قول الحق، والالتزام به، فالكذب هو المعصية التي تتفرّع عنها كل المعاصي.. إنّني أرفض الكذّاب بأكثر من رفضي للشرير.. أدركتِ الآن لماذا أردت أن أعاقب نفسي؟

قالت مارلين:

ـ لا!

قال زبيد:

ـ لأنّني أغشّ في علاقتي بك.. أضع أوراقي تحت الطاولة.

ـ وإذا كنت، أنا، أعرف ذلك، وأرضى به؟

ـ تبقى مسؤولية استغلال حبك، لإشباع نزواتي الجسديّة، فماذا يعني هذا؟ النذالة! نعم النذالة، هذه هي الكلمة المناسبة.. أنت تحبين، في هذه

الحال، نذلاً، هل يرضيك هذا؟ وإذا أرضاك، مؤقّتًا، بحكم العاطفة لا القلب، فهل يرضيني أنا؟ ربما نعم، مؤقّتًا أيضًا، إلا أنّ التنقّل، من امرأة إلى أخرى، ليس من الرجولة في شيء، والأمر نفسه بالنسبة إلى الأنوثة.. أنت وفيّة، وفي مرآة وفائك أرى نفسي خائناً فاخجل، إنّني، يا مارلين، صاحب مبدأ، صاحب قضية، والمرأة ليست جزءاً من هذه القضيّة، إنّها القضية كلّها، وعندما نكذب على المرأة، لا بدّ أن نكون كاذبين مع القضية، فماذا يتبقى، عندئذ، لإنسان كرّس نفسه لأجل قضيّته، قضية العدالة الاجتماعية؟ لاشيء! قد تكون هذه الصرامة غير مبرّرة، غير واقعية، غير صالحة للجميع، لأنّ جورج ديمتروف نفسه قال: «تسلّوا أيُّها الرفاق، فالدرب طويل» وقد أمعنت، أنا، في التسلّي، لا من جانبه الفاضل الذي عناه ديمتروف، بل من جانبه غير الفاضل الذي أعيشه محكومًا باعتبارات اللياقة، المجاملة، إرضاء الجسد ما دمت عازبًا، إلاّ أنّ الإيغال في هذا يجعلني، وربّما جعلني فعلاً، دونجوانًا، وربما ينظر الآخرون إليّ الآن على هذا الأساس، إنّما، صدقيني، إنّ دور الدونجوان لا يصلح لي، وعليّ أن أنفيه من خلال السلوك العمليّ، لا من خلال النوايا الحسنة، التي تبقى، في هذه الحال، نوايا حسنة وساذجة! إن ما يليق بي هو المطابقة بين السلوك والقول، بقدر المستطاع، وهذا ما أنا مصمِّم عليه، منذ اليوم.

قالت مارلين:

ـ انتبه، يا حبيبي، إلى عقدة تعذيب النفس، لا تدعها تنمو حتى لا تصاب بالمازوخية... أريدك سليمًا، معافى، صادقًا، شريفًا، مناضلاً، كما أنت الآن، وأنتظر بصبر نافد أن تندمل جروحك، كي نتعمّد معًا بزرقة البحر، ونسأل هذه الزرقة ان تباركنا، وما أشكّ في أنّها ستفعل، ما دمنا، أنت وأنا، على صدق مع أنفسنا ومع الآخرين، وهذا الكلام الذي قلته جعلني أعرفك، وأفهمك أكثر، وأحبّك أكثر، ولكم كان جميلاً قولك «المرأة ليست جزءًا من القضية، إنّها القضية كلّها» فهذا تعبير جيّد، بل هو رائع، لم أسمعه من قبل، ولم أقرأه في كل الأدبيّات التي طالعتها، لكنك تسرف على نفسك، أكثر من ذلك، تتشدد في القسوة عليها، لأنّك تعمل دائمًا، بغير كلل، وحتى خلال إجازتك هذه، وتقدم مساعدة طيبة، ومعترفًا بها، لبناء الصين الجديدة، وهذا هو الحقل الوحيد المتاح، الآن، للنضال، فاقنع

به، وصدقني أنّني غير أنانيّة، ولا أطلب منك الرهبنة في علاقتنا، ففي وسعك، مع هذا الجهد البالغ، أن تتسلى كما قال جورج ديمتروف، هذا القائد النادر في الحياة الحزبيّة والسياسية، والذي تعذب أكثر من كل قادة الأحزاب الآخرين، فلما تحررت بلغاريا، لم يهنأ طويلاً في رئاستها، لأنّه كان تعبًا ونام.. نعم! نام ديمتروف على هناءة النصر، وآمل أن يكون، في حياته قد تسلّى قليلاً، كما أوصانا، وكما شرحت أنت وصيته بذكاء وعمق، ولي طلب واحد: أن تبقى إلى جانبي، وألاّ تحرمني متعة حبّك، إذا ما كنت أنت غير قادر على الحب، بسبب تلك الكرة الزجاجية في الجانب الأيسر من صدرك، وأن تكون موقتًا، وبغير حد، أنني سعيدة معك، فلا حاجة إلى استشعار الغش، أو الخداع، أو هذه الكلمة المروعة: النذالة، ولا حاجة كذلك إلى معاقبة نفسك، والعودة، مرة بعد أخرى، إلى محاسبة هذه النفس، ومحاكمتها، ومعاقبتها، وأخذها ببراءتها، فالمهم، الآن ماذا نفعل، في الورطة التي أنا فيها؟

سألها زبيد:

ـ هل تحسّنت حالة يدك، وخفّ ألم الالتهاب فيها؟

ـ هناك ألم خفيف.

ـ سيزول كلّيًا، ما دامت الحروق لم تحدث فقاعات، سآتي بالمطهّر، والمرهم، والشاش، وأعالجها كما عالجت جروحي!

ضحكت مارلين وقالت:

ـ لا! لا تعالجني كما عالجت جروحك، التي لم تشف نهائيًا حتّى الآن، أيها الطبيب الشعبيّ الجوّال، و...

قاطعها زبيد:

ـ الدجّال!

أغرقت مارلين في الضحك وقالت:

ـ الدجّال قليلا!

ـ إذن اخلعي هذا الفستان، لأعالجك بغير دجل!

ـ ساعدني على خلعه، أرجوك.

ساعدها على خلع فستانها، بهره بياض صدرها وعنقها وكتفيها

وظهرها، رآها، اليوم، أشدّ جمالاً وفتنة، من كل ما سبق، اشتهاها، كبت شهوته، طهّر البقع الحمراء في يدها، مرحها بالمرهم، لفّها بشاش ناصع البياض، قال لها:

ـ انتهت المعالجة! الأجرة مئة يُوَنّ...

قالت:

ـ سأدفع ولكن بعد الشفاء.

ـ بأيّ عملة؟

ـ بالعملة التي هي قطع نادر، ودون انتظار الشفاء.

ـ مجنونة!

ـ حبيبي!

ـ ماذا أفعل بكِ؟

ـ ما تشاء!

ـ هذا ليس جوابًا.

ـ تحبّني قليلاً إذن.

قال زبيد:

ـ ليس هذا وقتًا للحبّ! هذا وقت للتفكير في كيفيّة خروجك من عندي، ووصولك، دون لفت انتباه أحد، إلى بيتك.

ـ ووجبة العشاء؟

ـ تفكّرين في العشاء وأنت على هذه الحال؟ ماذا يقولون عنك في المطعم؟

ـ كل خير.. نجلس هكذا، أو نستلقي هكذا، ونتناول وجبتنا!

قالت مارلين ذلك واستلقت على السرير، نظر اليها بدهش تبعه ابتسام، تأمّل جسمها مفكّرًا في إبليس، متسائلاً عن الغواية التي راودته وردعها، عندما خلعت فستانها عنها، مستغربًا ألاّ يفهم، هو الذي يدّعي الخبرة، امرأة مقروءة كصفحة كتاب، يعرف كلّ كلمة فيها، ويحفظها تمامًا، والآن يجد نفسه وكأنّ كل ما قرأه في هذه الصفحة، هو السطور وليس ما بينها، وحتى لو قرأ ما بينها لظلّ هناك ما بينها أيضًا، إلاّ أنّه مكتوب بالحبر السرّيّ، ويحتاج إلى تظهير بحبر آخر، لم يفطن كنهه، ولا يملكه، فهذه

الشابة الصغيرة، قياسًا إلى عمره، شابة تملك من التجربة ما يفوق فهمه، وإنّه غبيّ إذ نسي أن في صُلْبها، من ثعلبة أفعى الجحيم، عقب المراوغة التي لا يدركها الرجل بالسهولة المتصوّرة، مهما ادّعى هذا الرجل من فَهْمٍ للمرأة.

كان زبيد يفكر، وكانت مارلين تنده:

ـ تعال! لا تفوّت عليَّ وجبة العشاء.

راح ينظر إليها صامتًا، يتأرجح بين التلبية والتأبّي، يرى إلى جسمها الأبيض الورديّ، تتشهّى رغبته، تنزلق فوق قوامها المرمري، المصبوب في قالب فني، في استداراته كلها، خاصة الصدر، البطن، السرّة الشهّاء، الحوض، الساقين، القدمين، صعودًا إلى الشعر العسليّ، الوجه الجميل، النهدين العاريين، الكتفين المكلثمتين، ونداء مارلين يتواصل:

ـ تعال!

ويتكرّر:

ـ تعال حبّني قليلاً!

ويعلو:

ـ تعال حتى لا يطول انتظاري وعذابي.

ويفحّ:

ـ ماذا بك؟ ماذا تنتظر؟ ماذا جرى؟ أين رغبتك، شبقك، عنفك!؟

ـ ألا تريدني؟ قل إنّك لا تريدني، قل إنّك تعاقبني، قل إنّك تنوي قتلي خزيًا وعارًا، لماذا لا تجيب؟ لماذا لا تتكلّم؟ قل أيّ شيء، أيّ كلام، كفّ عن هذا الصمت فقط، اللعنة! حقود ولا فائدة! حقود بأكثر ممّا كنت أتصوّر، أنا ذاهبة، ذاهبة ولن أعود، اطمئن!

قفزت مارلين من السرير مستثارة، لقد أهينت، المرأة تفضل الموت على الإهانة، مارلين امرأة، امرأة محبّة، امرأة بذلت كل ما في وسعها لإرضاء زبيد، وهو، زبيد، جامد كالصنم، في حال غير طبيعيّة، ليس معقولاً أن يكون طبيعيًا، عليها أن تفعل أيّ شيء لمساعدته، لإسعافه، مارلين هدأت، مارلين تبدّلت، مارلين نسيت، سامحت، جزعت، انقلب موقفها، استيقظ حنان الأنثى فيها، حنان الأم، الأخت، الصديقة، الحبيبة، العشيقة، كل ما

فكرت فيه وهي في السرير، كل ما قالته وهي متألمة، كل الثأر الذي صممت عليه، كل هذا زال، امّحى، تصفّى، العكر ترسب في القاع، طفا على السطح ما هو صافٍ، شفاف، رقيق رقّة الحرير، ناعم كالمخمل، نقيّ كالثلج، في الذروة الشمّاء، لجبل عالٍ، عالٍ فوق التصوُّر!

فتحت مارلين ذراعيها، احتضنت زبيد، قادته إلى كرسي المكتب، رشت الماء البارد على وجهه، جاءت بزجاجة الكولونيا، أدنتها من أنفه قائلة:

ـ تنشَّق يا حبيبي، افعل هذا لأجلي، تنشَّق بأعمق ما تستطيع، بعمق أشدّ، ألا تشعر بالانتعاش؟ ماذا في وسعي أن أفعل؟

قال زبيد بوهن:

ـ لا شيء!

أضاف بِونّى:

ـ تحسَّن وضعي قليلاً، إنني بخير، شكرًا يا مارلين، يا عزيزتي! أرغب بكأس من الكونياك فقط!

سألته:

ـ مع القهوة؟

ابتسم وقال:

ـ لا! مع أنّك ماهرة في إعدادها!

ضحكت وقالت:

ـ كم انا بلهاء! كل ما حدث سببه مهارتي في إعداد القهوة!

قال زبيد وهو يمسد شعرها:

ـ السبب ليس القهوة، صدِّقيني!

ـ اذن الإرهاق.

ـ هذا هو.. لم انم ليلة أمس، اشتغلت حتى الصباح، وكان عليَّ أن أستريح، أن انام بعد الظهر، لا بأس! كيف حال يدك؟ هل هناك الَمٌ التهابيٌّ بعد؟

قالت مارلين واجفة:

ـ إنني بخير، لكنني لا اريد أن تُستغل اكثر، انت في إجازة، وهم

يُلحّون عليك بالعمل، غير مكترثين بصحتك، وهذا لا يجوز، صارحهم بذلك، قل لهم: كفى! قل لهم: تعبت، أتسمع؟

ابتسم زبيد وسأل:

ـ خفت عليَّ يا مارلين؟ الشقيّ يكون طويل العمر عادة، إرهاقي ليس في الجسد، إنه في الرُّوح!

ـ وهل هذا بسبب الانفعال؟

ـ الانفعال عنصر وارد، لكنه غير الأساس، التعب الروحي هو الأساس، تحسبينني سعيدًا بما أتنعَّم به، بينما الشعب الصيني يعاني؟ الزمن المبهظ ينمو في روحي وأنا أعيش مرفّهًا، الزمن يتسَرْطَن في هذه الرُّوح يا مارلين، لا بسبب الخلاف الذي تعرفين، وأثره الفاجع، على نضال الشعوب في العالم الثالث تخصيصًا، وإنَّما لأنَّ الصين تمر بأزمة اقتصاديَّة حادَّة، أزمة غذاء بسبب الجفاف الذي أثَّر في المحاصيل، وفي رأسها محصول القمح، والشعب الصيني يشدّ الأحزمة، يكافح كفاحًا بطوليًا دون هوادة، في تصميم عنيد للخروج من الأزمة، وسيخرج أكيدًا، ولكن متى؟ بعد سنوات على الأرجح، إنَّني أعرف، يا مارلين، أكثر ممّا تعرفين، وإعجابي بصبر الإنسان الصيني لا يحدّ.

ـ وصبرك على هذا العمل المتواصل؟

ـ إنه الواجب!

ـ لم تقل جديدًا عليَّ يا زبيد، الواجب نعم، والصحة!؟

ـ صحتي جيدة.. ما أصابني إرهاق عابر، بسبب قلة النوم.

ـ وبسببي أيضًا، لكنّ الحق، بعد كل شيء، على مَن؟ لماذا طلبت حضوري؟ ولماذا لم تؤجّل الصدمة الكهربائية التي أعطيتني إيَّاها إلى الغد؟ كان عليك أن تنام، لا أن تزفّ اليَّ بشرى رغبتك في الابتعاد عني، وأن تنفعل من ردّي الذي أهاجك! هل كنت تريد، أو تأمل، أنّ بشراك ستسعدني؟ إنَّني امرأة محبَّة، وباخلاص، وكان عليَّ أن أدافع عن حبِّي وقد فعلت، فاعذرني إذن، تجاوز كل ما قلته لك من اتّهامات غير صحيحة، غير مبرَّرة، دافعها كان الصدمة التي رجّتني رجًا، وأنا أسمع أنَّك ستنفصل عنِّي، ستتركني بذريعة واهية، هي أنَّك لا تحبّني، ولا تريد أن

تغشّني، وأن يكون الحب بيننا من طرف واحد، طرفي أنا، وهذا جيّد منك، هذا من الاستقامة، من الأمانة، من الشرف، إلاّ أنّه من تحصيل الحاصل بالنسبة إليّ، ولأنّه كذلك فإنّه ليس غشًا، إنّه واقع أرتضيه، فقد أحببتك باختياري، وكنت صريحًا معي فازداد حبِّي لك، آمنت أنّك تريد خيري، وأنّك ترغب في سعادتي مع من يبادلني الحب، وفي هذا ابراء لذمتك.. حسنًا! أنت بريء الذمة، وأنا أحبُّك رغم أنّك غير قادر على أن تحبّني، وهذا ليس هَبَلاً مني، وإنّما ثقة، أو أملٌ، في أن كرة الزجاج التي في صدرك ستزول، عندما تؤمن بعمق، وبعد الاختبار والتجربة، أنّني مخلصة في حبّك، وأن هذا الإخلاص يعطيني الحق في إبقائك إلى جانبي بأيّة وسيلة.

قال زبيد:

ـ ما رأيك في أن تقفزي إلى السرير، مرة أخرى، وتستلقي على ظهرك أيتُّها اليمامة الوديعة؟

قالت مارلين:

ـ ولماذا أفعل ذلك يا طبيبي العزيز؟

ـ كي أعاين يدك، واطمئن إلى حسن معالجتي لها!

ـ يدي أم سرّتي؟

ـ لا فرق ما دام الكشف الطبّيّ سيكون كاملاً... وشاملاً أيضًا!

ـ الكشف الطبي مؤجل إلى وقت آخر بالنسبة إليّ.. أنا لست مريضة، أنت هو المريض، فاقفز، كالغزال، إلى السرير، ودعني أر جروحك، بصفتي طبيبة، واسمي لودميلا التي تخصّصت في معالجتك، وهذا، كما في الدروجبا، من المشاكسة، لأنّ الطبّ الصينيّ لا يلائم مزاجك المتقلّب!

ـ وكذلك الطب السوفياتي!

ـ وأيُّ طب، إذن، يريحك؟

ـ الطب الإنكليزي! إنّني، يا عزيزتي، مغرم بجودة الإنتاج الإنكليزي، وأنتِ هو النموذج، أنتِ انتاج زواج سعيد، إنتاج مشغول على مهل، وبصياغة غاية في الإتقان، أنت لديَّ أفضل من امبراطوريتك العجوز، أيتُّها القطعة الفولاذية المخروطة بمهارة، ووفق الطلب، طلبي أنا، والمفصّلة حسب مواصفات دفتر الشروط، الذي وضعته أفضل مؤسسة للدراسات

الصناعية في طوكيو، وقد تسلّمتك، بعد المعاينة الفنية، الدقيقة، سالمة، وأجريت عليك، وفيك، بعض التعديلات.. أمّا الإنتاج الصناعيّ السوفياتي غير الثقيل، فإنّه متخلّف قليلاً، ولم أجرّبه أبدًا، لأنني أفرّق بين الصداقة والسرير.. والآن حان وقت خروجك، وبفستانك نفسه، لأنّ أحدًا لن يرى لطخات القهوة عليه، بعد أن هطل الليل... اذهبي، خذي حمامًا فاترًا، تشيّكي، تعالي إلى المطعم، حيث أكون في انتظارك، وعلى استعداد لتحمل بعض الغلاظات، من جيفرسون أو سواه!

اليوميّة الثالثة والعشرون ٥ كانون الثاني ١٩٦١

ركبني العناد، هل العناد أنثى؟ ربما، في هذه الحال، أنا الخاسر، أنا المركوب، يحدث هذا أحيانًا، فالفرس يطيب لها، وهذا من حقّها، أن ترمح على صدر الحصان، و«العتيق الأصيل»، الذي يأنف شوطًا مع غير «العتيق الأصيل» يرضخ للفرس، حتى غير الأصيلة، لأنّها انثى، وللأنثى حقوق الاعتبار، فإذا أُذّيت، طالبتْ بحقوق الاحترام، ونالتها عنوة، برغم الذكر!

لم أتوقّف كثيرًا، في عنادي، حول هذه النقطة، لم أعد إلى مرحي، إلى نزهاتي المسائية حول الدروجبا، انشغلت، وهذا من حظي، في اصلاح الكتاب الذي حمله إليّ هادي، مع تحيّات الرفيق الصيني، مدير مؤسسة النشر باللغات الأجنبية، التي يترجمها رفاق عرب، عن إحدى اللغات الحيّة إلى العربيّة، يجري عليها السبر، وفق النص الصيني، من قبل رفاق صينيِّين، تخرّجوا من القسم العربي في جامعة بكين، ويشرف على هذا القسم المستشرق الصيني الأستاذ مكين، الذي يجيد اللغة العربيّة، وأنا، المدِّرس في هذا القسم، الرافض تدريس مواد فيها هجوم على الاتّحاد السوفياتي، أستعد للرحيل، لا يهمّ إلى أين، ما إن يُبتّ في أمري، ويرضخ الرفيق ليو، المسؤول الحزبي في الجامعة، أو أرضخ أنا، ومن المشكوك فيه أن يقبل الصينيُّون، الذين تحدّوا الاتحاد السوفياتي، والمنظومة الاشتراكية والأحزاب الشيوعية كلها، تحدِّي مدرّس مثلي، موجودٍ في الصين نفسها، أي في بلدهم، وتحت إمرتهم، من ناحيةٍ العمل فقط، ومن ظروفه القاسية المعروفة من قبلهم جيدًا.

الأمور، إذن، على حد الحد: مع أو ضد، وأنا لا مع ولا ضد، إلاّ أنّ تدريس ما فيه قدح بالاتحاد السوفياتي، وبهذه اللهجة العنيفة، لا يتّفق مع صداقتي، وصداقة حزبي للاتحاد السوفياتي، بلد الاشتراكيّة الأول، صديق العرب الاستراتيجي.. ومع أن منظمة حزبي في الصين طردتني، وحرمتني من شرف العضوية، فقد أخذت عهدًا على نفسي أن ألتزم مواقف هذا الحزب، وما يتّصل منها بصداقة موسكو خصوصًا، دون تبديل في اقتناعي القائم على أنّ الطرفين المختلفين، المتعاديين، يحملان وزر هذا الخلاف، وأضراره، بالتساوي، وأنّ من غير المقبول أن تحمل الصين وحدها هذا الوزر.. ولم يفلح عبد القادر، الذي لا يربط ولا يحلّ، في إقناعي بالعودة إلى التدريس، وفق شروط الجامعة، المرفوض بعضها رفضًا باتًّا، لا عودة عنه... ولأن الأيّام تمرّ، ووضعي لم يبتّ به، ولم يهتم أحد بأمري، أو يطلب خروجي من الصين إلى بلد اشتراكيّ آخر، كما طُلب من رفاقي، فإنّ حزني الدفين، أخذ منسوبه يرتفع، مع سفر كلّ رفيق عربي آخر، جاءه الطلب بمغادرة الصين، وبين هؤلاء أياد ابو المجد، الذي كان آخر المغادرين، وبعده بقيت، أنا، الرفيق العربي الوحيد في الصين، أتأرجح في فضاء من انعدام الوزن، مترقّبًا، كلّ يوم، أن أوضع على الحدود، لأنني لا أملك جواز سفر، أو أيّة وثيقة تثبت شخصيّتي، بعد أن فَقَدَ إذْنُ السفر، الذي خرجت به من لبنان، صلاحيّته، وفوق ذلك ضاع، أو تسلّمه رئيس الفرقة الحزبية وأخفاه، انتقامًا من «تمردي» المفترض، التمرُّد الذي لا يتجاوز الخلاف في وجهات النظر، وكان هذا، في تلك الأيّام من بداية الستينات، من الكبائر، ومن الأخطاء التي لا تُغتفر!

بقيت وحيدًا، منبوذًا، محاصرًا، مهدّدًا، بسبب من عنادي، وكي أجد من أنس إليه، هتفت إلى العمّ قره بيت العجوز، وزرته في بيته، متفقّدًا أحواله، مستمعًا إلى رأيه، في هذا الذي جرى ويجري! ولشدّ ما أنعش روحي استقباله الحارّ، عناقه، أسفه للوضع الذي أنا فيه، تشجيعه، صراحته، طيبته، دموعه، لأن أرمينيا صارت نائية، بعد هذا الخلاف المدمر.

قلت له باللغة التركيّة:

ـ كيف حالك يا عم قره بيت؟

قال:

ـ حالي، يا بني، سيّئٌ جدًا، جسديًا ونفسيًا... قررت ألاّ أخرج من البيت إلاّ إلى القبر، أو إلى حيث لا أدري، إذا ما طُردنا من الصين... مثلك تمامًا!

دهشت! من نقل إليه أخباري؟ من قال له إنّني مهدّد بالطرد من الصين، إلى حيث لا أدري؟

أضاف العم قره بيت بعد نوبة سعال:

ـ ابني، جاك، هو الذي أخبرني بالخلاف بينك وبين حزبك، وبينك وبين الصينيين. دنيا! من كان يصدّق؟ ابني جاك وزوجته يشتغلان في الإذاعة، في القسم التركي، تأمّل! نحن أرمن لا أتراك، ولكنْ ماذا نفعل اذا لم يكن هناك قسم، في الإذاعة، للّغة الأرمنيّة!؟ يبدو أنهم، هنا، لا يرون الخرائط جيدًا، أو أنّ أرمينيا امّحت من هذه الخرائط، تأمّل!

قلت مداريًا مشاعر عجوز أرمني، يرى العالم كله من خلال أرمينيا، التي كان يأمل السفر إليها، والاستقرار فيها، إلى أن يضمه ثراها:

ـ أرمينيا، يا عم قره بيت، مأخوذة كما يبدو، كجمهورية سوفياتيّة، لا لذاتها!

ضرب بعصاه الأرض بقوّة وأجاب:

ـ هنا البلية! أرمينيا تابعة، وييريفان ملحقة بموسكو، تأمّل أيضًا!

ـ وماذا تريد أنت؟

ـ لا أريد شيئًا، لأن أحدًا لم يخيِّرني بين ييريفان ونيويورك.

ـ ولو خيّروك؟

ـ متى؟ عندما أرى نجوم الظهر؟

ـ أقصد خيَّروك افتراضًا.

ـ كيف افتراضًا؟ هل أنا مخبّل!؟

ـ حاشاك! سؤالي، يا عم قره بيت، من باب التمنِّي!

ضحك وقال:

ـ أو من باب البسطرمة! تذكّر حديثنا في الأيام الأولى لوصولك إلى الصين؟

ضحكت وقلت:

ـ اذكره تمامًا، ولكن ماذا حشر البسطرمة في السياسة؟

ـ الذي حشر السكر بالسمك، هنا يأكلون السمك المغطس بقطر السكر، تأمل مرّة أخرى!

ـ هل ذقته أنت؟

ـ هذا القرف؟ لا والحمد للّه! طعامي هو الأكل المصنوع على الطريقة العربية أو الإيرانية،

ـ والطعام الصيني المشهور؟

ـ هذا يحبه، ويفضله، ابني جاك وزوجته، عجوزي تطبخ لي طعامًا أرمنيًا أحيانًا، وهي بيني وبينك، تجيد الطبخ، لكنّها، مثلي، شاخت، أو تتظاهر بذلك حتى لا أقترب من فراشها، ما رأيك؟ هل لديك عجوز أنت الآخر؟

قال ذلك العم قره بيت، وهو يغمز بعينه اليمنى ويضحك، كأنه نسي حزنه «لأن أرمينيا صارت بعيدة!» فلمّا عدنا إلى الكلام عليها، تنهّد بحرقة وقال:

ـ أنت تتحدث عن نيويورك، وأنا أتحدّث عن بيريفان، ألا ترى أن المقارنة تدعو إلى العجب!؟ هناك، يا بني، رب واحد، وبيريفان واحدة، هل تفهمني؟

ـ أفهمك!

ـ كيف؟

ـ بيريفان تساوي الدنيا كلها، وتزيد، والمقارنة بينها وبين باريس أو نيويورك غير واردة!

ضحك العم قره بيت وقال:

ـ لا! هذا كثير! عمك يا بني يعرف ما يقول، ولكن ما رأيك؟ يطردوننا؟

ـ إذا رفضنا التعامل مع منطق إعلامهم!

ـ وأين هذا الإعلام؟ الكلام في الإذاعة «صب بيطون»! (اسمنت)

ـ وفي غير الإذاعة؟

ـ الحال من بعضه!

ـ وما ترى أن نفعل؟

ـ الذي فعله غيرنا! لقد رحلوا، استدعتهم أحزابهم، ولكن نحن أرمن، فأين الحزب الأرمنيّ الذي يستدعينا؟ عشنا في اسطنبول، كنت عضوًا في الحزب الشيوعي التركي، وكان الحزب سرّيًا، وظروفنا شاقّة، ولما كبر ابني انضمّ إلى هذا الحزب أيضًا، وهو الذي أرسلنا إلى هنا، لكنه، الآن، في وضع صعب، لا يستطيع أن يفعل لأجلنا شيئًا، والعودة إلى تركيا تعني العودة إلى السجن، هل نفعلها، بعد هذا العمر، هل أموت كالكلب في إحدى الزنزانات؟ قل أنت!

تأثّرت جدًا. «وكل غريب للغريب نسيب»، نحن أنسباء، العم قره بيت أبي، زوجته أمي، ابنه أخي، وفي الوضع الذي نحن فيه، نحس جميعًا، بالعلاقة الإنسانية الحميمية، وقد أحزنني هذا العجوز الضاحك، الساخر رغم المصاعب، الشاعر، مثلي، بتراجيدية وضعنا، دون أن يكون في وسعنا أن نفعل شيئًا اذا ما طردنا، وخاصة أنا، الذي لا يحمل ورقة واحدة، يستخدمها في تخطّي حدود الصين، ولا يستطيع أن يلجأ إلى سفارة بلاده، الهارب منها في هذا المنفى الاضطراريّ الذي يعيشه في الصين. قلت للعم قره بيت:

ـ أنت لك أرمينيا، وعلى جاك أن يسعى للذهاب إلى هناك، عن طريق السفارة السوفياتية!

أجابني:

ـ هذا ما نسعى له، والأمل الوحيد الباقي يتمثّل في نجاح هذا المسعى.. وأنت!؟

ـ لم يبتّوا في أمري بعد، وضعي صعب جدًا؛ لا أملك أيّة وثيقة تثبت شخصيّتي، القدر يلعب لعبته المعروفة معي، لكنني لا أبالي، هناك مثلٌ عربي يقول: «أنا الغريق فما خوفي من البلل!»

وضع العجوز قره بيت ذقنه على مقبض عصاه، فكّر قليلاً، تجهّم وجهه، قال بنبرة غضب:

ـ نعم يا بني، نحن، جميعًا غرقى، ولكننا لا نستحق أبدًا هذه العقوبة، بعد هذا النضال الطويل الشاق.. لست بخائف، وممّ أخاف؟ إلا أنّ العقوق

حكم جائر، هل تعرف من علّم الآخرين، في الشرق والغرب، الاشتراكية؟ نحن الأرمن!

ـ أعرف هذا، بالنسبة إلينا، في سورية ولبنان، الرفاق الأرمن، في اسكندرونة وبيروت، كانوا الأوائل، ولهم فضل كبير، من الجحود نكرانه.

ـ وكذلك الأمر في فلسطين، وحتى مصر والعراق، ولا تنسَ تركيا وإيران، الأرمن مَنْ نَقَل، وبشّر، بأفكار ماركس وانجلز، في كل هذه البلاد، وفي روسيا ذاتها، قبل ثورة اوكتوبر!

لم أقتنع بهذا التعميم. لا أنكر أحقّيّة الرفاق الأرمن الأوائل، إلاّ أنّ مبالغة العجوز دافعها الاعتداد، ومن الإنصاف، والإشفاق أيضًا، الا أسلبه بعض هذا الاعتداد، وهو عزاؤه الوحيد في شيخوخته. وعندما نهضت مودعًا، طلب مني البقاء لنأكل معًا، وأصرّ على ذلك، فقبّلته، في وجهه ويديه، وكان هذا آخر العهد به، فقد كنت معتكفًا في بيتي، وقيل لي إنّ عائلة العم قره بيت سافرت فجأة إلى موسكو، وسررت لذلك سرورًا بالغًا، لأنّ الطريق إلى ييريفان يمر بالعاصمة السوفياتية! هكذا، بعد رحيلهم بقيت وحيدًا، إلاّ أنّ المصادفة، أو رحمة السماء، أنقذتني من وحدتي، فقد التقيت، في النادي، بشابّ يلعب البليارد بشكل بارع، يتكلّم اللغة الفارسية، مع رفيق له، ولما انصرف الذي كان يلاعبه، التفت اليَّ وقال بالروسية:

ـ هل تلعب؟

أجبته بالعربية:

ـ لا أتقن هذه اللعبة!

ردّ عليَّ بالعربية، مع لكنة واضحة:

ـ أنت عربيّ؟ هذا جيّد! من أيّ بلد؟

ـ من الشام!

ـ شام شريف!؟ أهلاً فسهلاً...

ـ وأنت؟

ـ من إيران، مدينتي تبريز!

تصافحنا، ترك عصا البليار وقال:

ـ تعال! اسمي حسن، حسن بيجاري، وأنت؟

ـ زبيد!

ـ أهلاً وسهلاً بأمّة العرب، ما رأيك بكأس من الفودكا؟

ـ موافق!

شرب كأسه دفعة واحدة، وبعد ذلك جرع قليلاً من البيرة، سألني:

ـ لماذا لم تسافر مع الرفاق العرب؟

ـ أسافر إلى أين؟

ـ كيف هذا «إلى أين» يا أخي؟ إلى البلد الذي يختاره لك حزبك.

ـ أنا مطرود من الحزب!

ـ لماذا؟

شرحت له وضعي بأمانة، اصغى إليّ وهو يشرب الفودكا ومعها البيرة، كان لطيفًا، شهمًا، أخبرني انه من الحزب الشيوعي الإيراني، وأنه كان ضابطًا في الجيش برتبة نقيب، فلمّا وقع الانقلاب على مصدّق، ذبح الجنرال رازمارا، قائد الانقلاب، مئة وخمسين ضابطًا، أمّا هو فقد نجا بالهرب إلى باكو، ومعه زميله ورفيقه الذي كان يلعب معه، واسمه فهمي جهانكيز، وكان ضابطًا ايضًا، واضاف انّه انتقل من باكو إلى موسكو، وحصل على الدكتوراه في علم الاجتماع، وهو يجيد الروسية والتركية، وكذلك صديقه فهمي، وعقب تحرير الصين، اوفدهما الحزب إلى بكين، حيث يدرّسان، هو وفهمي، اللغة التركية، وقال إنه اعزب، اما فهمي فإنّه متزوِّج، وينادونه «أبو بابك» على اسم ابنه البكر، وأن من الضروري أن نتعارف، وقد سافر بعض رفاقه الإيرانيين، بناء على طلب الحزب، والباقون ينتظرون أن يُسحبوا بدورهم. وقبل أن نفترق، أعطاني رقم سكنه، وهاتفه، وقال لي، همسًا:

ـ أنت، يا أخي، غير مخطئ... أنا كنت في الاتّحاد السوفياتي وأعرف!

أجبته:

ـ لكنّني، أنا، لست ضد الاتحاد السوفياتي، ولست ضد الصين.

ـ أفهم! أنت في وضع صعب، وأنا احب أمّة العرب، لذلك انت رفيقي وصديقي، تعال، في العصر، إلى المسبح، سأكون هناك، وكذلك فهمي، هل تحب الطعام الإيراني؟

ـ أنا آكل في المطعم الصغير، قرب بيتي، وأعمل في اصلاح ترجمة كتاب نظريّ، لذلك نادرًا ما أخرج من بيتي!

ـ اللعنة على البيت يا أخي، في المسبح جميلات أجنبيات، هل عندك صديقة؟

ـ لا!

ـ ولماذا!؟ المرأة، يا أخي «ضرورية» للرجل الأعزب مثلك، هل أنت قوي؟ طبعًا! كيف يعيش الرجل القوي من غير امرأة؟ اشرب الفودكا، ألا تحب الفودكا؟

ـ أفضّل الكونياك!

ـ جيّد، وهل تتكلم الانكليزية؟

ـ والفرنسيّة أيضًا، وقليلاً من اللغة التركية!

ـ أنت، يا أخي، «كوزال كنج» (شاب جميل) وتعرف كل هذه اللغات، وتنام وحدك؟ اسمع! سأدعوك إلى بيتي، وأعرّفك ببعض النساء.. «قورقْما» (لا تخف) «بطّالْ اولْما» (لا تكن عبيطًا!) أمّة العرب بخير، وأيضًا الأمة الفارسيّة، رغم الذي أصابنا.

ـ لكنني، يا رفيق حسن، سأرحل قريبًا، وقد شرحت لك وضعي.

ـ هذا، يا أخي، لا يهم! «بو دنيا فاني دنيا» (هذه الدنيا دنيا فانية) كن، كيف أقول؟ جسارة!

ضحكت وقلت:

ـ كن جسورًا!

ـ هذا هو! لك قلب جسور؟ إذن كل شيء جيد.. تعال إلى المسبح.. إلى اللقاء!

رجعت إلى البيت أكثر ارتياحًا مما خرجت منه، هناك رفاق طيّبون، وقد نصبح أصدقاء حميمين، ومن يدري؟ حسن هذا شجاع، يعيش حياته كما ينبغي، تفهّم موقفي، قال إنه مثلي، ليس ضد الصينيين، إلاّ أنّه حزبيّ ملتزم، وكان في الاتحاد السوفياتي ويعرف.. يعرف ماذا؟ يعرف اشياء لا أعرفها، هذا مؤكد، إنه عاش التجربة هناك، ربما كان على حق، دعاني إلى الجسارة، فهذه الدنيا فانية، لا تستحق أن نأبه بها، أن نخاف منها، أن

نكون مائعين فيها، وقد أصغيت إليه بانتباه، لم أقل كلمة واحدة حول هذه الأمور، التي هي بعض صفاتي مع الأسف! لكننا في الشتاء، فماذا في المسبح؟ القاعة الرياضيّة الشتوية؟ الصونا؟ وماذا أيضًا؟

تذوّقت، لأوّل مرة، الطعام على الطريقة الإيرانية، في المطعم الكبير، كان قريبًا من الطعام العربي. إنه سائغ. شربت الفودكا مع البيرة، انتعشت، اعتدل مزاجي، طلبت نفسي المرأة، قرّرت ان أتصل بالسيدة بورجرون، تردّدت، الغيت قراري، لو كانت بشوق إليّ، لاتصلت هي، ما جرى بيننا كان نزوة، نزوة لا أكثر، وأنا راحل، فما قيمة العلاقة إذا كانت عابرة؟ اذا كانت مع إنسان راحل؟ لا! «لم يبق من العمر أكثر مما مضى» وهذا الباقي لي، في العمر وفي الصين، لا يستحق عناء الارتباط بأحد، حتى لو كانت السيدة بورجرون نفسها.

ذهبت إلى المسبح، دخلت قاعة الرياضة الشتوية، كان حسن هناك، بدا منسجمًا مع الجوّ، يمارس رمي الكرة الحديدية، رفع الأثقال، وبعد ذلك الصونا! عرفني إلى صديقه فهمي جهانكيز، كان هذا، أيضًا، يعرف اللغة العربيّة قليلاً، يلفظها باللهجة الإيرانية، وقد راق لي «ابو بابك» الذي احتفى بي، وقال بالتركية:

ـ لماذا، يا صاحبي، تركوك وحدك، قليلو الأدب هؤلاء؟

أضاف:

ـ الرفيق حسن قال لي كلّ شيء، اعتبرني صديقك، هل تحب الفودكا؟

ـ اليوم شربتها مع البيرة، تناولت الطعام الإيراني، إنّه لذيذ، يشبه الطعام العربي.

ـ هل تحب النساء؟

فاجأني السؤال، ارتبكت، ضحك بطريقة خاصّة وقال:

ـ إلى جهنم بكل شيء.. اشرب الفودكا، انكح الجميلات، لماذا أنت خجول؟

«ماذا أقول له»؟

ـ هل تراني خجولاً؟

ـ بعظ (بعض) الشيء!

ـ اذن أنت، أيها الصاحب، لا تعرفني، لدينا مثل يقول: «الرجل يختبئ في ثيابه!» كم مرة دخلت انت السجن؟

ـ ولا مرة، كنت ضابطًا، لكن لماذا تسأل؟

ـ هكذا، ربما لأنّني أريد معرفة القمع في إيران، بعد الانقلاب على «مصدّق»!

ـ ما معنى كلمة قمع؟ ها! فهمت، هذه الكلمة في التركية، لها أكثر من معنى.. كانت الملاحقة، والسجن، والاعدام، بعد الانقلاب، شديدة جدًا يوميًا تقريبًا، «رازمارا» كان جلاّدًا، أنزل ضربة قاتلة بحزبنا، لكنني، أنا، نجوت بالهرب إلى باكو، مع الرفيق حسن بيجاري.. القصة طويلة جدًا، ما جرى للرفيق حسن جرى لي، وازداد وضعي صعوبة لأنني متزوج، ولأنّ عائلتي لحقت بي إلى باكو! نحن مشردون، وأنتم؟

ـ خسرنا، في السنوات الأخيرة، بعض أفضل رفاقنا، من المناضلين الأشداء، ومنهم القائد الشيوعي البارز فرج الله الحلو، فقد مات تحت التعذيب، وذوّبوا جسمه بالأسيد! أما أنا فقد نجوت بطريق المصادفة، ووصلت منذ حوالى العام إلى الصين.

ـ أهلاً فسهلاً!

قال ذلك «ابو بابك» وعانقني بحرارة. دعاني إلى شرب قدح من الفودكا معه فاعتذرت، قلت له:

ـ لديّ شغل مستعجل، تحيّاتي إلى العائلة، وإلى الرفيق حسن.. بعد الرياضة «الصونا» تصبح ضرورية ومفيدة جدًا.. إلى اللقاء.

عندما عدت إلى البيت، هيأت فنجانًا من القهوة وكأسًا من الكونياك، عملت حتى الفجر في إصلاح ترجمة الكتاب النظريّ، كانت الترجمة سيّئة جدًا، أخطاء فاحشة في المعنى وفي اللغة، لكنني وعدت، وكان عليّ الوفاء بوعدي، وقد وفيت، فبعد إنجاز الكتاب، وهو صغير نسبيًا، سحبتُ «فيش» الهاتف، اطفأت النور، سادت الظلمة لأن الستائر مسدلة، نمت نومًا عميقًا إلى الظهر، بقيت مستلقيًا في فراشي، مسترجعًا أقوال الرفيقين الإيرانيّين، حسن وفهمي، حمدت اللّه لأنهما نجوَا من الإعدام، آه كم هي فادحة خسائر الشعوب، في كفاحها لأجل التحرر، لأجل التقدُّم، لأجل

الحريّة، وتحقيق العدالة الاجتماعيّة! تذكرت عبارة لمالرو يقول فيها: «أتدركون ما معنى أن يستمر الإنسان في الوجود، برغم كلّ عذاباته، برغم (الغابة والليل والكون)؟! معناه، تمامًا، أن يستمر الإنسان في الوجود برغم الموت، ويبدو لي أحيانًا أنّني أراهن على نفسي من ساعتي هذه..» هذا الكلام، في الحالة التي أنا فيها، ينطبق عليّ بشدة! إنّني أعيش ـ فكرت ـ رغم الموت، وفي نوع من التحدّي الدائم له، لكن إلى متى؟ إنّ «متى» هذه، هي الشعور بالضيق، بالملل، بالإحباط، وحين يكون علينا أن نواصل الكفاح، يكون علينا، بدقّة الكلمة، أن ننسى «متى» هذه، أو نحذفها من قاموسنا، وهذا ما فعله الرفاق السوفيات حتّى كانت ثورة اوكتوبر، وهذا ما فعله الرفاق الصينيون حتى تتوّجت المسيرة الكبرى، المدعّمة بنضال العمال العنيد في المدن، بالنصر الكامل، بعد التحرير الكامل، ثم التوحيد الكامل، لكل المقاطعات الصينية، التي كانت متباعدة متفرقة، متناحرة، يحكمها أمراء الحرب.. وقد أدّى الفلاّحون، الدور الرئيسي في المسيرة الكبرى، حتى ليمكن القول، إنّ تحرير الصين قام به الفلاحون بدور رئيسي، رئيسي جدًا، بينما كانت الماركسية ـ اللينينية، تؤكد أن دور الفلاحين، في النضال لأجل الاشتراكية، دور ثانوي، وحتى هامشي جدًا! ولدينا، في سورية، مثال انطباقيّ، فبعض الأحزاب اليسارية نجح، حين اعتمد على الفلاحين، كسند رئيسي، وكان ذلك، تحديدًا، قبل تحرير الصين، والإفادة من تجربتها الثورية، لأنه ليس في سورية، البلد الزراعي، طبقة عاملة مثلما هي الحال في البلاد الصناعية الكبرى، وهذه حقيقة تجعلنا نعيد النظر، نحن الذين في بلدان العالم الثالث، بالمقولة النظرية الساذجة حول دور الفلاحين، والانتقاص منه!.

تعبت، حاولت، بصعوبة، كبح حركة دماغي، فلو بقيت مستلقيًا لبقيت متأمّلاً، في تداعيات ليست هنيئة، وليست بهيجة كلها، لذلك قفزت من السرير، تدوّشت، اعددت القهوة، ألقيت نفسي، كعود الند في مجمرة اللامبالاة العذبة، ولأنّه لم يكن ثمة بخور، فقد كنت أنا البخور، أتلاشى في دوائر سحبه الرمادية، أطير على بساط هناءة، مغزولة من الوهم، هذا الأجمل، الأمتع، لأنّه وهم، ولأنّه منحني شعورًا، كذاك الذي كان يستشعره امرؤ القيس، حين قال: «اليوم خمر وغدًا أمر!» آخذًا الدنيا، من حولي،

مأخذ الذي يستلقي على طوف من خشب، تاركًا للريح والموج ان يتلاعبا به على هواهما! إلاّ أنّ هناءتي لم تطل، فقد هتف عبد القادر، يسألني ما إذا كان لديّ وقت للحديث معه ومع الرفيق هادي، رئيس القسم العربي في دار النشر باللغات الأجنبية، حول مسألة مهمة! «مهمة!؟» أيّة أهميّة هذه لرفيقين صينيين، ما إن تتكلم حتى يردّا: «سنبلغ القيادة»؟ وهذه القيادة تعرف رأيي، موقفي، وضعي، رافضة أن تبتّ في مصيري، فكأنّما ترغب في قتلي صبرًا!؟ مع ذلك، وبسبب من إلحاح عبد القادر، وافقت على استقبالهما، دونما أدنى اكتراث، «بالمهمة العاجلة» التي هي إحدى مبالغات عبد القادر.

الرفيق هادي كان هادئًا كعادته، إلا أن عبد القادر، الضاحك قبل أن يضحك، داهمني بحفنة من الاسئلة العادية، حول الصحة، والسرور، والعمل، نثرها بلهوجة، وكحبّات الأرزّ رشّها عليّ، دون أن يتمهّل لسماع ردودي... قلت له:

ـ اسمع يا عبد القادر! ادخل في الموضوع رأسًا، دع الرفيق هادي يتكلم، وترجم أنت فقط.. ما هي هذه «المسألة المهمة» التي جاء لإبلاغي اياها؟

قال هادي:

ـ ليست هناك مسألة مهمة، نحن في وضع صعب، في دار النشر، لذلك نطلب مساعدتك، هذا كل ما هنالك!

سألته:

ـ لماذا لم يأت معك الرفيق سميح، من دار النشر، وهو يجيد الترجمة، بينما عبد القادر تابع للقسم العربي في الجامعة، ولا دخل له في مسألة النشر؟

قال هادي:

ـ عبد القادر هو الرفيق المكلف بكل ما يتعلق بك، وهو رفيق طيب، يمكن الاعتماد عليه.

ـ من الناحية الحزبية؟ أنا لم تعد لي علاقة بأي حزب، وموقفي، بخصوص التدريس في الجامعة، هو ذاته، اذن الكلام على ذلك لا ضرورة له!

قال عبد القادر:

- ولكن كيف هذا يا أستاذ؟ أنت مدرس في الجامعة، وأنا أحمل لك راتبك الشهري.

قال ذلك وناولني مغلفًا، رفضت قبوله، أصرّ، ارتطم إصراره بعنادي، قال وهو يضحك، ضاربًا كفًا بكفّ كعادته.

- ولكن كيف هذا يا أستاذ، أنت مدرّس، وهذا أجرك، فلماذا ترفضه؟

- لأنّني لا أدرّس، ولا أستحقّ هذا الأجر، وأنا هنا لأداء عمل، لا لقبول المساعدة كما يتصور الرفيق ليو.. قل له ذلك بالحرف الواحد عن لساني.

تكلم هادي مع عبد القادر مطولاً، أعاد عبد القادر مغلف النقود إلى جيبه، بدا وكأنه صدم، قال هادي:

- نحن في وضع صعب، فقد سافر الخبراء العرب، من الأحزاب الشيوعية، ووصل بعض الخبراء غير الحزبيين، والمشكلة أنهم لا يجيدون الترجمة، وهم مبتدئون في هذه المسألة، لذلك لجأنا اليك، رفيق زبيد، لإصلاح الترجمات، وخاصة ترجمة مجلة «الصين» وبناء الصين، وبعض الكتب، المقررة في الخطة، وقد أوفدني، الرفيق تشن، مدير الدار، كي أشكرك على جهدك، وأطلب منك مساعدتنا، بشكل مضاعف، إلى أن يتم تجاوز بعض المصاعب، فما هو جوابك؟ نأمل أن يكون إيجابيًا.

قال عبد القادر:

- ولكن هذا لا يحتاج إلى جواب، ولماذا، إذن، الرفيق زبيد في الصين؟

عبست: هذا ليس كلامًا يقال كيفما اتفق، نعم! أنا في الصين، وليس من حاجة إلى تذكيري بذلك، وأنا مدرّس في الجامعة، مُنْقطع عن التدريس في الوقت الحاضر، وإصلاح ترجمات الآخرين مساعدة مني، لا فرضٌ عليّ، وهذا الإصلاح أصعب من الترجمة ذاتها، ومباشرة، عن النص الإنكليزي أو الفرنسي، فماذا يظنّ عبد القادر هذا؟ ولماذا مصادرة حقّي في الرفض؟ وهل أنا باق في الصين لإصلاح ترجمات الآخرين، ودون حاجة إلى جواب، أو موافقة؟

ترجم عبد القادر هذا الكلام، وخبّص، كعادته، في الترجمة، إلاّ أنّ هادي يعرف الإنكليزية قليلاً، فكنت أتدخّل، عند اللزوم، لإفهامه بعض ما

استغلق عليه، وقد اعتذر عن الكلام الذي قاله عبد القادر، دون مراعاة اللياقة اللازمة، فأوضح آسفًا:

ـ موافقتك رفيق زبيد ضروريّة ومطلوبة، ومن حقك أن يكون جوابك سلبيًا لا إيجابيًا!

قلت وقد قبلتُ الاعتذار:

ـ لا أريد أن أكون بديلاً عن رفاقي الذين سافروا، لأنَّ هذا من الانتهازيّة.

قال هادي:

ـ كنت تساعدنا في إصلاح بعض الترجمات، قبل أن يسافر الرفاق العرب، ونرغب في أن تستمرّ المساعدة.

ـ ترجمات الرفاق العرب كانت جيّدة، ولم يكن إصلاحها عسيرًا، أمّا الآن، فقد تغيّر الوضع، إصلاح الكتاب النظريّ الذي انتهى أمس، عذبني كثيرًا، وكان من الأفضل لي، لو ترجمته أنا مباشرة.

قلت ذلك وناولته الكتاب، مع إصلاح ترجمته العربية، فنظر فيها وراح يبتسم، وبعد عدة هزات من رأسه قال:

ـ أنت محق في ما تقول، علينا أن ننتبه بعد الآن، فلا نرهقك، غير أنّ موادّ مجلّتَي «الصين» و «بناء الصين» في شكلهما الحاليّ، غير صالحة للنشر، ونأملَ مساعدتك.. المواد معي، ما رأيك؟

ـ الترجمة عن أي لغة؟

ـ الإنكليزيّة!

ـ هذا يزيد في صعوبة الإصلاح، مع ذلك هاتها، تحيّاتي إلى الرفيق مدير الدار.

شكرني هادي، انصرف مع عبد القادر، وجدتني معتكرًا قليلاً، لا أدري ما السبب، ربما كان في اللاشعور، إحساس بتفاهة الحياة وعقمها، وبصعوبة حياتي في الصين من الآن وصاعدًا، فالذين يأتون للعمل هنا، خليط من المغامرين والمرتزقة، الذين يستغلون الخلاف بين بكين وموسكو، كي يأتوا بدائل عن الذين رحلوا، بدائل عن أصحاب المبادئ، هؤلاء الأعزّاء الذين فارقتهم وفي القلب حسرة، رغم الخلاف بيني وبين بعضهم، لأنّ

الفكر الواحد، والموقف الواحد، والالتزام الواحد، كان يجمعنا، بخلاف المتملّقين الذين لا يؤمنون بأيّ مبدأ، وليس لهم أي موقف والذين يتظاهرون، أو بعضهم على الأقلّ، أنّهم مع الصين وهم مع مصالحهم فقط، ولا يهمّهم بناء الصين في شيء، وقد تحدثّت مع أحدهم، وهو إيطالي يُدْعى انجيلو فقال لي:

ـ أنا رجل مغامر، كنت سكران فدخلت بسيّارتي في الجدار، تحطمت السيارة كلها جئت إلى هنا لأجمع ثمن سيارة جديدة، لأجمع بعض المال، من تجارة التحف، قيل لي إنك من هواة التحف الصينية، وإنك مطّلع على تاريخ الصين، خاصة أسرة مينغ، فساعدني قليلاً، أرجوك، اريد تحفًا من أسرة مينغ!

ضحكت وأنا أشرب معه البيرة في النادي، كان طريفًا انجيلو هذا. أرضتني صراحته؛ لم يقل إنه صاحب مبدأ، لم يقل إنه جاء، كما يدعي غيره، للمساعدة في بناء الصين، جاء ليجمع المال، ليسكر، ليتذوق الطعام الصيني، وقد أسف لعدم وجود الزيت والزيتون والليمون الحامض في الصين، قال لي:

ـ لا بأس، يا صديقي المتوسّطي أنت، نستغني عن الزيت والزيتون وخلافه، لكن تحف أسرة مينغ ثروة حقيقية، قرأت عنها في مجلة إيطالية متخصصة بالآثار، فكيف أحصل عليها؟

قلت له بجدية:

ـ الحصول على هذه التحف بسيط جدًا!

صاح فرحًا:

ـ كيف!؟

ـ إمّا بشرائها من المتحف الوطني، أو بسرقتها، وبما أنّ المتحف لا يبيع التحف الثمينة، خاصة تحف أسرة مينغ، التي حكمت الصين قبل ٥٠٠ سنة، فلم يبق سوى سرقتها، إلاّ أن المتحف الوطني محروس حراسة مشددة، وإذا وقع السارق في يد الشرطة الصينية، كان عقابه الجلوس على الخازوق!

غضب انجيلو، ضرب الطاولة بقبضة يده! اهتزّ ما عليها من زجاجات

وكؤوس، وقعت منفضة السكائر الزجاجية، تكسّرت، فرقعت، ركض الكرسون الصيني وقد ظن ان هناك شجارًا، فطوّقنا الحادِث بلطف، وقلت لأنجيلو:

ـ يا صديقي المتوسّطي، حسب تعبيرك، العربدة في الصين ممنوعة، والسكر ممنوع، والتحرّش بامرأة صينية ممنوع أيضًا، وعقابه السجن لمدة ١٥ عامًا على الأقل! هل تعرف هذه الأمور؟

امتقع لونه، سأل وهو يشرب نصف زجاجة بيرة دفعة واحدة:

ـ وما هو المسموح اذن؟

ـ أن تتبوّل في سروالك!

ـ اللعنة! هل تمزح ونحن نتحدث في أمر مهم!؟ كيف حصلت على التحف الصينيّة التي من أسرة مينغ؟

ـ سرقتها!

أطلق ضحكة مدوّية وهو يقول:

ـ وكيف لم يقبضوا عليك!؟ تريد أن تمزح على حسابي؟ أن تجعلني أتخوزق؟ أنت، يا صديقي زبيد، لست إنسانًا شريرًا، أليس كذلك؟

ـ أحيانًا؟

ـ كيف أحيانًا هذه!؟ الإنسان شرّير أو غير شرّير، هذه هي المسألة!

ـ أنا شرير ومغامر مثلك، ومع ذلك لم أفز بأيّة تحفة من أسرة المينغ!

ـ والعصا المينغية التي في بيتك؟

ـ هذه إشاعة، اطلقتها للتندر، فصدقها الآخرون.. لا بأس! سأعاونك في الحصول على تحف قديمة ذات قيمة أيضًا، لكن انتبه! حصولك على التحفة لا يعني أنّها صارت ملكك، بشكل قطعي!

ـ مِلْكُ مَنْ إذن!؟

ـ ملكك ما دمت في الصين، أما عند المغادرة فهناك الرقابة الشديدة، وغالبًا ما تمنع اخراج بعض التحف!

ـ يا للشيطان! ألست حرًا بالتصرُّف بملكي؟ بما اشتريته بنقودي!؟ قل الحقيقة قبل أن يخرج عقلي من رأسي، اشرح لي هذه الشربوكة، حلّ عقدتها قبل أن أحطّم كل ما على هذه الطاولة! اسمع! أنا لست من هواة

حل الكلمات المتقاطعة! لنشرب، بعد، زجاجة أخرى، ما دمنا أصدقاء، ومتوسطيين أيضًا.

ضحكت، طريف جدًا انجيلو هذا، لكنه لا يعرف أنني في ورطة، وأنّهم قد يطردونني قبل أن أساعده في الحصول على التحف الصينية، وأنّ خبرتي بهذه التحف إشاعة مضخمة، بسبب تلك العصا الملعونة، وكي أختصر قلت له:

ـ التحفة ملكك ما دمت في الصين، فاذا أردت المغادرة يأتي العاملون في توضيب أغراضك ومعهم خبراء، لحاهم البيضاء تصل إلى سرّتهم. وهؤلاء يعاينون كل قطعة معاينة دقيقة، فاذا وضعوا «الفيتو» على قطعة ما، لوحة ما، طاولة خشبية ما، فمعنى هذا أن إخراجها من الصين غير مسموح به، ولو بلعت ماء بحرك المتوسط كله!

قال مهمومًا:

ـ وما العمل؟ سبق وشرحت لك وضعي، ساعدني!

قلت:

ـ سأساعدك، سأدلّك على طريق جمع الثروة التي تطمح اليها، ولكن في غير هذا المكان العام، في بيتك، أو بيتي، مثلاً، مفهوم؟

ـ مفهوم!

نهض متعتعًا، أحمر الوجه، ثقيل اللسان، قبّلني وقال:

ـ مفهوم جدًا يا صديقي، فكّر في مشكلتي، ساعدني على حلها!

غادرت النادي، كنت مسرورًا وغير مسرور، كنت في حال ملتبسة، أقول في نفسي:

ـ «آه لو تعلم يا انجيلو! أيها المتوسطي الرائع، إنّ صديقك الذي تطلب منه حل مشكلتك، يبحث عمّن يحلّ مشكلته وهي عويصة جدًا، رغم أنها لا تتعلق بالثروة، بل بمكان يرحل اليه، فقط لا غير!».

- ٢٥ -

لم يجد زبيد، بعد خروج مارلين من عنده، رغبة في النوم، قرر أن يتعشى معها في المطعم، ويستأذنها بالرجوع إلى بيته، كي ينام في ضجعة كالتي تحدّث عنها أبو العلاء المعري، ضجعة طويلة جدًا، لأنّه، حقيقة، مرهق جدًا، يتمنى أن يغمض عينيه فلا يفتحمهما أبدًا.. ما جرى معه اليوم، كافٍ لتحذيره من مغبّة السهر والعمل المتواصل، إضافة إلى تحذير مارلين وغيرها، إلاّ أنّ زبيد يشتغل عارفًا لماذا يشتغل وحياته، كإنسان، حقيقيّة بمقدار هذه المعرفة، التي معها وحدها يستشعر أنّ كرامته، كمناضل، تؤكد ذاتها، تصبح ممكنة في مياسرته إلى إفهام الصينيّين، أنّه جدير بصفة رفيق، التي حام حولها الشك، في بدء عمله في الصين، وما قيل، تصريحًا أو تلميحًا، عن الترسبات البورجوازية التي يحملها، رغم إدراكه، وإيمانه أنه ليس ثمة إيديولوجية صافية، نقية، في أيّما إنسان، بسبب من اختلاط ترسّبات الماضي، مع تأثيرات الحاضر، في النفس البشريّة، ويتجلّى هذا الاختلاط في الإبداع، أدبًا وفنًا، وكذلك في السلوك اليومي، قولاً وفعلاً، مع الاحتفاظ، إن أمكن، بالصفاء المنشود، الصفاء الثمين، العذب، الموجود لدى الصينيين، من خلال نكران ذواتهم في العمل، نكران الشعور بالفرادة، ونبذ الفردانيّة في الحياة الجماعية التي يحيونها.

«أنا مثخن بالجروح من الداخل والخارج، ويمكن، بالدواء معالجة الجروح الخارجيّة، أمّا الجروح الداخليّة، في الروح المعذبة، في هذه الغربة، فبأيّ دواء تعالج؟ يرونني ضاحكًا، مرحًا، دون أن يدروا أن هذا الضحك ستارة لنزيف الأسى في الداخل» أضاف زبيد، وهو يتكلم مع ذاته بغير صوت: «ليس لأحد أن يحاسبني، لكنني، أنا، أعرف أن أحاسب

نفسي جيدًا، أن أضع حدًا لكل شيء: اللهو، الضحك، البكاء، الحياة، عندما أجد ذلك ضروريًا، بسبب من تفاهة العيش، حين لا أكون نافعًا لأحد سوى نفسي، وحين يجرفني تيّار ما إلى الضفة الأخرى، ضفة المتعة وحدها، والرفاهية على حساب تقشّف الآخرين، رفاقي الصينيّين، رفاقي في كل بقعة من هذا العالم، هؤلاء الذين أنا سجين مع السجناء منهم، المعذب مع الذين يخضعون للتعذيب منهم، المحكوم بالإعدام، بالموت، مع الذين ينفّذ حكم الإعدام فيهم كل فجر، وكذلك حين لا أحسن، بضمير حي، أن أحوّل ألمي الخاصّ إلى ألم عامّ، ألم الإنسانية المعذبّة، التي حبها العظيم يضخه قلبي في شراييني كل ثانية، كل لحظة، فيكون هو الدورة الدموية في جسمي، وهو هذا الحب، بغير حدود، يرشح من مسامّ جلدي!»

انتفض زبيد فجأة، رفع رأسه المطرق، المُسْنَد براحتيه، رجع من رحلة تأملاته التي صارت زادًا يوميًا، في سفره الشاق الذي يتحول إلى اغتراب، سوف يصبح معه، الأصح أصبح معه، مغامرًا، نهايته مفتوحة على كل الاحتمالات، منها التشرد، الجنون، الانتحار، او الارتفاع إلى الأعلى، ليصبح ذا مكانة مرموقة، وهذه الأخيرة خارج دائرة اهتمامه، ما دام يؤدي واجبه بأمانة وشرف وصمت، وأداء هذا الواجب هو الوحيد والممكن في غربته هذه، سواء اقنع الصينيين بأنه مناضل في سبيل الاشتراكية، أو لم يُقنع، ما دام، عند نفسه، راضيًا عن سلوكه، الذي ليس إلى النسك، وليس إلى التهتُّك، ليس إلى الزهد بمتاع الدنيا، وليس، أيضًا، إلى الطمع، مثل انجيلو، في جمع أيّة ثروة، كبيرةً كانت أم صغيرةً، فالأمران، ههنا، سيّان، وإذا ما كان يربح، الأمر لا يتعلّق بالحظ، وإنّما بالعمل، بسهر الليالي، وبقدر ما يكسب ينفق، وهذا يصنع له بهجة، إطارها التمتُّع دون إسراف، ودون تقتير أيضًا!

دخل المطبخ ليعاين آثار فعلة مارلين، ضحك من التلوُّث الذي أحدثه فوران القهوة. وجد من الصعب جدًا أن ينظّف السخّانة الكهربائية، الأرض، والجدار، أشعل السخانة وأطفأها، رائحة احتراق البن لا تطاق، غدًا صباحًا يأتي من ينظّف، حسب العادة، كل ما هو ملوّث، إذن إلى الغد شربُ فنجان من القهوة ولن يقول لمارلين أية كلمة، مارلين العزيزة، التي تندّى قلبه حنانًا لما بذلته لإرضائه، بعد صدمة شديدة، غير منتظرة، تلقتها

منه في غير أوانها، وقد كان عليه أن يجزي على الجميل جميلاً، فإذا به يعقّها، هي والحب الذي تكنّه له، وهذا ليس من الكياسة، ومن الأخلاق أيضًا.

وبينما كان يغسل يديه ووجهه، رنّ جرس الباب، خشي أن يكون هذا جيفرسون، تلكأ في فتح الباب، رنّ الجرس بقوّة، مرة ومرة، فاضطر، والمنشفة على كتفه، ان يفتح، وإذا السيدة نلسون تبتسم، ملتمعة الشفتين، وتدلف إلى الداخل قائلة:

- هلو ماي دير» (مرحبا يا عزيزي) لماذا هذا الاعتصام وبيتك ليس بقلعة؟ هل لديك أحد؟ اشمّ رائحة أنوثة، عطر أنوثة، فإذا كانت لديك امرأة، كائنة من كانت، أنسحب، لأن هذا من اللياقة!

ابتسم زبيد وقال:

- حاسة الشم قوية لديك يا سيدتي، قد تكون هناك رائحة عطر، ولكن غير نسائي، تفضلي إلى الداخل، لا أحد هناك!

قالت السيدة نلسون:

- شكرًا زبيد، عزيزي، على هذا الترحيب، لكن السيد نلسون، وأنت تعرف، يغار جدًا، لذلك لن تكون زيارتي طويلة.. أما مسألة العطر فلا تجادل فيها، أنصحك كصديقة، وكصديقة اعترف: حب المرأة يعني تكريمها، فإذا لم يكرّم الرجل المرأة، يكون متخلفًا من الناحية الحضارية، وأنت إنسان متحضر.

قال زبيد وهو يشير إلى مقعد قرب مكتبه:

- أرجوكِ، عزيزتي، خذي مكانك، دخّني من أي صنف ترغبين، ريثما أسرّح شعري، خلال ثوانٍ!

- خذْ وقتك، أنا هنا في بيتي، يقال إنّ لديك مجموعة من التحف، سألقي عليها نظرة سريعة، اذا سمحت.

- تفضلي!

قال ذلك من غرفة نومه، أسرع في تمشيط شعره، رتّب بذلته، وضع قليلاً من الكولونيا على يديه، مسح بها وجهه، عاد إلى الصالون وهو يقول:

ـ تحف عاديّة جدًا، سيّدة نلسون، ليس في بيتاخو أيّ محل لبيع التحف كما في بكين.

ـ ومن أين حصلت على هذه التحف الرائعة، التي تقول إنّها عاديّة جدًا؟

ـ من بعض المخازن العتيقة.. أي تحفة راقتك؟

ـ كلّها زبيد، عزيزي، غير أنّني لا أكترث بالتحف.. ولا بأوبرا بكين!

قالت ذلك وغمزت بعينها، انتقى زبيد تحفة قدّمها لها قائلاً:

ـ تذكار مني! لا علاقة له باوبرا بكين، التي لا أفهم منها شيئًا، مع أنها فن صيني راقٍ، فالتّصنُّم ثلاث ساعات، في مقعدي، يضجرني جدًا، والمترجم لا يفيدني في معرفة ما يقال على المسرح، وهذا يزيد في ضجري، أحسب أنهم سيختصرون هذه الأوبرا مستقبلاً، وقد فاتحتهم في ذلك، وأخذوا ملاحظتي بجدية واهتمام.. ما رأيك في كأس صغيرة من الكونياك؟

ـ جدّيّة؟ اهتمام؟ مستقبل؟ هذا كله لا يعنيني، أعيش يومي كما ينبغي، وهذا يكفي، أما هذه التحفة فانها أكثر من تذكار، أحس، من خلالها، إحساسًا سعيدًا، كأنني على موعد مع حدث كبير في حياتي، يتعلّق بك أيضًا، بدلالة هذه الهدية الثمينة..

ـ هذه لا شيء سيدة نلسون، لنشرب على شرف صداقتنا!

ـ الراهنة أم المستقبلة؟

ـ الاثنتان!

ـ إذن أشرب هذا النخب بكل حبور، وأتقبّل الهديّة الرائعة شاكرة، لكنني، يا صديقي، أحذرك من السيدة ألاويس، هذه العجوز الشقراء المتصابية.

ـ لا علاقة لي معها!

ـ مع ذلك، عزيزي زبيد، الحذر ضروريّ، حتى يبقى.. أوه! لا يحق لي، بعد، أن أقول تلك الكلمة، هل لي بقليل من الكونياك بعد؟

سكب لها كأسًا، ومثلها لنفسه، ابتسم لها وهي ترفع أصابعها الجميلة، في حركة أوبرالية متقنة، قال:

ـ إنني مصغ إليك، سيدتي!

ـ هذه العائبةُ، السيدة ألاويس، تحاول التقرّب منك.. إنّني ألاحظ ذلك، لكنّك، أنت لا تهتم بها، وهذا من الحس السليم، أنت، زبيد، صديقي وحدي، أليس كذلك يا عزيزي؟ قل أنتِ على حق..

ـ أنتِ على حق..

ـ إذن إليك هذا الخبر: انغرين، ابنتها، صديقة ألدو الايطالي، هذه النازية تليق بهذا الفاشي! ماوتسي تونغ نفسه، كما أخبرتني سابقًا، يهتمّ شخصيًا بالشبيبة الصينية، ولديه تساؤل حولها، حول تنشئتها ومستقبلها.

ـ تمامًا!

ـ أمام يقظة كهذه، من الرئيس ماو، قائد الصين الشعبية إلى النصر، لا أهميّة لكل ما يصدر عن انغرين وألدو.

ـ هذا صحيح!

ـ لكن المسألة، عزيزي زبيد، ليست هنا! أنا لم آت لأتكلم على سخافات مخلوقات منحرفة كهذه.. جئت لأتكلم في موضوع جيفرسون، الذي يذوب كالشمعة، بسبب حبّه لمارلين، ويهدّد حتّى بالانتحار، إذا لم تتزوجه، وقد أدمن، بسببها، على السكر، والسهر، والبكاء، فكيف نساعده؟ كيف ننقذه قبل فوات الأوان؟ كيف نمدّ له الحبل ونرفعه من بئر الشيطان؟ أنت تحب، وتعرف عذاب المحبين، وأنا مثلك، فماذا نفعل؟

تنهّد زبيد، رغب عن الكلام، هذا الذي تقوله السيدة نلسون، قالته كثيرًا دون جدوى، فما الفائدة من التكرار؟ مارلين تكره جيفرسون، تخافه، تتقزّز منه، وهو، زبيد، عاجز عن اقناعها بالزواج من جيفرسون، ولن يقول لها: «اذهبي ونامي معه كيلا يجن أو ينتحر!» فماذا بعد؟ ولماذا تريد السيدة نلسون تصديع رأسه بترّهاتها، التي هي ترهات تنفي نفسها بنفسها؟! أو ترهات تختلقها، لتتخلّق بها، كي تكون هي ذاتها!؟

قال زبيد:

ـ ما هو المطلوب مني سيدة نلسون، غير الذي تعرفينه؟

ـ أوه عزيزي زبيد، كيف تقول هذا وبيدك كل شيء؟

ـ ليس في يدي إلاَّ أن أصير قوّادًا لجيفرسون، وهذا ما أرفضه حتى الموت، إنّني، في الصين، كي أعمل، وكي أعمل فقط، وفي وسعك أنت، صديقة الطرفين، أن تقومي بما لا أريد القيام به أنا، قولاً واحدًا!

ـ والحبل والبئر؟

ـ والمشنقة والأنشوطة؟

ـ أنا لا أفهمك عزيزي زبيد!

ـ أنتِ، عزيزتي، تفهمين جيدًا، فأنا لا أعرف عذاب الحب، لأنني لم أحب عمري كله، ولست معنيًا بجمع رأسين على وسادة واحدة، فهذا دور الخاطبة، كما يقولون عندنا، والتهديد بالانتحار معناه اللاانتحار، لأنَّ من يُقْدم على فعلة كهذه، كمن يُقْدم على القيام بثورة، فهل سمعت يومًا بإعلان يقول فيه صاحبه، إنّني سأقوم بثورة!؟ لنكن منطقيين قليلاً، ولندع الغزل على مغْزل مكسور!

ـ وكيف نحقق إنسانيّتنا؟

ـ بأن ندع الناس يعيشون حياتهم وفق أمزجتهم!

ـ أقول لك إن جيفرسون في بئر، وإن علينا أن نرفعه بحبل، فتسخر مني بقولك «المشنقة والأنشوطة!» كيف تفسّر هذا؟

ـ تفسيره يسير سيدة نلسون، من يرفع الناس بحبل، هو من يفك حبل الأنشوطة، أي يكون صاحب سلطة، في الرفع والحل. ولست بصاحب سلطة من أي نوع. والأهم أن لا سلطة لي على أحد، ولا على مارلين نفسها، وأحسب أنّ كلامي واضح!

ـ هل تدعوني، هذا المساء، للعشاء معك؟ لاحظ أنّني أهين نفسي بطلب كهذا، ولم يسبق لي أن فعلت مثله أبدًا، إلا أنَّ زبيد، عزيزي، يفهمني كصديق مخلص، لا أجد حرجًا من أي نوع، معه.

ـ هذا يسعدني جدًا، اذا ما كان الأمر بعيدًا عن جيفرسون، وعن تصرفاته الرعناء!

قالت السيدة نلسون:

ـ ولكن جيفرسون يموت، ويستحق زيارة منك، كرمى لخاطري.. علينا أن نخرجه من البيت، وأن نشعره ببعض الحنان، ألست معي؟

ـ معك تمامًا، اذا ما كانت زيارتي له مفيدة، بأي شكل.

ـ مفيدة جدًا، وهو الذي طلبها بنفسه.. أقول لك إنه يذوب كالشمعة، ولا يقوى على شيء لشدّة هزاله، وأعرفك طيّبًا ورحيمًا، هيا بنا إليه.

ذهبا إلى جيفرسون، كان الباب مفتوحًا، وكان هو مستلقيًا على فراشه وفي فمه سيكارة مشتعلة، وقد دهش زبيد من الهزال الذي اعتراه، ومن ذقنه الطويلة الشعر، على غير المعتاد، وعينيه الغائرتين، وزجاجات الفودكا الفارغة، المتناثرة هنا وهناك، والفوضى في كل ركن، كل مكان: المدخل، المكتب، الثياب، الأوراق، سواء في الصالون أو غرفة النوم، لأنه لا يسمح للمكلفين بتنظيف البيوت، وترتيبها، بالدخول إلى بيته، ولا يذهب إلى المطعم أو يطلب طعامًا، ولا أحد يدري من يأتيه بالفودكا، وكم يشرب منها في اليوم الواحد، وقد عرف زبيد كل هذا منه، حين أجاب عن بعض أسئلته، بعضها فقط، وهو ينظر إليه بانكسار، بحياء، وبنوع من التوسل، كأنَّه يقول: «أنقذني!»

عزّ على زبيد، فعلاً، هذا المنحدر الذي صار اليه جيفرسون، هذا الذبول لغرسة شباب يانع، بادهها عاصف سموم من العشق، لا شفاء منه إلاّ به، وقد شفّ الوجد جيفرسون حتى صيّره خيالاً، والدواء قريب بعيد، في المتناول، وفي النائي، كالسراب الذي تخال نفسك ادركته، وحين تمضي للقياه، والظمأ يشوي حلقك، تجده قد ابتعد، في لعبة إغراء، لعبة استجرار إلى الموت، وأنت، في تيه البيد، لا رجاء لك في الخلاص من هذا التيه إلاّ بالماء، إلاّ بقطرة من السماء أو ريّ من الأرض، والسماء ممسكة، شحيحة، ضنينة بهذه القطرة المحيية، المميتة، كريمة بشمسها الساطعة، التي يرزّ قرصها، كالعين الناريّة المدوّرة، حرارة تعالجك بالكيّ الحارق، كما تعالجك البيداء برملها المتحرك، الملتهب، المتجمّر، وأنت تمشي في حقل من هذا الجمر إلى غاية هي لا غاية، هي السراب يناديك إلى الضياع الأبديّ.

فكّر زبيد: «جيفرسون دخل لعبة السراب، منذ دخل لعبة الحب المستحيل، جيفرسون ضاع، أو هو على وشك الضياع، وأنت إنسان تود، لو تستطيع، أن تفتدي إنسانًا يموت بين يديك، إلاّ أن الفدية ليست في حوزتك، إنها عند نسل أفعى، تراوغ، تفحّ، تنتقم لضعفها الذي هو دهر

من القـهر الذكوريّ، وهـي بنت حواء، تأخـذ ثأرها متسلسـلاً إلى جـدّتها الأولى، وكل مـحاولة لاسـتدرار عطفها، لانعاش حس الإشـفاق فيـها، تبدو باطلة، لأنها، الأفـعى، كمـا قُتلتْ مصـممـة على القـتل، وهـي، في اسـتثـارة عدوانيّتها، إنما تدفع عن نفسـها، تقتل الصل الذي اسـتنزف دمها طويلاً، وسيظل يسـتنزفه إلى أن يقتلها، وفي تحصنّها ضد هذا المصير، لا تبالي، قصدًا، وعمدًا، بمصير الآخر، عدوّها!»

انسحب زبيد من غرفة النوم إلى الصالون، كي يدخّن، يفكّر، يبحث في دمـاغـه عن وسـيلة لإنقـاذ جيفرسـون، وقد لحقت به، بعد قليل، السـيّدة نلسون، بكت وهي تقول له:

ـ هل رأيت؟

أجاب زبيد بتأثّر واضح:

ـ نعم! رأيت!

ـ هذه جناية مَنْ؟

رد زبيد بجفاء:

ـ أنتِ أدرى!

قالت السيّدة نلسون وهي تبكي وتدخّن:

ـ جنايتك!

نبض عرق الغضب بين حاجبي زبيد، قال بقسوة:

ـ سيدة نلسـون! تُغلقين فمك أو أغادر هذا البيت؟ كنتُ، دائمًا، لطيفًا مـعك، ويبـدو أنني كنت مـخطئًا في لطفي، مـا تقـولينه سـخف، ومـا كنت، يومًا، مباليًا بسخف الآخرين!

حاولت السيّدة نلسون إصلاح هفوتها فقالت:

ـ أوه! عزيزي زبيد، ألا ترى دموعي؟

ـ لا شأن لي بدموعك، فريتك تتطلب الاعتذار!

ـ إذن أعتذر، لم أقصد!

ـ بلى! أنت تقـصـدين، وأنت كـذلك، تعـرفـين جناية مَنْ هذه، فلمـاذا تتّهمين إنسانًا عَدَّكِ صديقة، واحترمك على هذا الأساس!؟ إنْ نسكر فليس معنى هذا أن نهذي، كوني عاقلة، فكّري قبل أن تتكلّمي وليس العكس!

سألت السيدة نلسون، وقد أعادتها قسوة زبيد إلى حالة الصحو:

ـ لماذا ردة الفعل هذه كلها، هل أستحق، عزيزي زبيد، هذا الكلام الجارح؟ قل أنت!

أجاب زبيد:

ـ ردة الفعل تكون على قدر الفعل، والحال ذاته في الكلام والردّ عليه.. تحسبين أنّ هذا الافتراء يهمّني في شيء؟ أنت لا تعرفينني إذن!

ـ أعرفك، صدقني أعرفك، أنت نبيل، كريم، مخلص، لا تؤذي أحدًا، لكنّك تردّ الأذى عن الآخرين، بطريقة ليست صائبة دائمًا!

ـ ومن هذا الذي رددت الأذى عنه بطريقة غير صائبة!

ـ مارلين!

ـ وماذا فعلت مارلين؟

ـ إنّها الجانية، وبقسوة رهيبة، رحمتك يا رب!

ـ الرب الرحيم مع الحق، والحق، في كل هذا الذي جرى، ويجري، على مَنْ؟

ـ على مارلين! إنها تحبك أنت، لذلك تكره جيفرسون! هذه هي الحقيقة، عزيزي زبيد!

أشعل زبيد سيكارة، قال بهدوء:

ـ أرجوك، سيدة نلسون، أن تصغي إليّ.. أنت سيدة مجتمع، وأنت فنانة مشهورة، ولك، كما للآخرين، تجاربك الخاصة، فهل حدث، في أي وقت، أن أرغمتِ على الحب؟

ـ أبدًا! هذا منافٍ لطبيعة الحياة، وللحس السليم!

ـ وهل حاول أحد، وأنت في الشباب، أن يفعل معك، كما يفعل جيفرسون مع مارلين؟

ـ نعم! حاول كثيرون، وصددتهم.

ـ فإذا لم يرعووا عن ملاحقتك، أو عن التهالك عليك، فماذا يكون موقفك؟

ـ الصدّ بقسوة، وباحتقار شديد!

ـ لماذا، إذن، لا تقيسين الأمور على نفسك؟ وماذا لو جاء أحد وقال عنك إنّك جانية، بسبب صدودك؟

ـ اوه! عزيزي زبيد، كفى تقريعاً! أعرف جيدًا إلى أين تريد أن تصل، لكن الحب ليس معادلة رياضية، يحلها الأبرع.. الحب، عزيزي، مسألة أخرى، لا يقاس عليها بمقياس واحد، في كل مكان وكل زمان، فإذا لم تكن أنت الجاني، وهذا مؤكد، وإذا لم تكن مارلين الجانية، فمن الجاني إذن؟

قال زبيد بحسم:

ـ جيفرسون نفسه!

ـ وماذا يفعل اذا كان يحبّ مارلين؟

ـ وماذا تفعل مارلين اذا كانت لا تحبّه؟

قالت السيدة نلسون:

ـ رجعنا إلى الحلقة المفرغة؟

قال زبيد:

ـ والخروج من هذه الحلقة بسيط، اذا ما كان جيفرسون في صحة عقلية تامة..

ـ كيف؟

ـ أن يتماسك، أن يحاول، وبقوة، أن يحفظ كرامته، أن يُحرر إرادته من ارتهانها لشهوته، فليس من عيب يلحق بالإنسان، أفدح، وأخطر، من ترك شهوته تستعبده، وقد ترك جيفرسون شهوته تستعبده، ولم يعرف، في الوقت المناسب، أن يدوس على جرحه القلبي، فكانت النتيجة كما ترين..

صاحت السيدة نلسون فجأة:

ـ زبيد! انظر! الدخان يتصاعد من غرفة جيفرسون.. يا للهول! يا للمصيبة! ماذا نفعل!

ركضا إلى غرفة جيفرسون، كان الدخان يتصاعد من القميص، من الفراش، والدخان يملأ الغرفة، فبادر زبيد بإلقاء حرام على موضع النار، وبعد أن نجح بإطفائها، هتف إلى الإدارة أن تبعث فورًا بسيّارة الإطفاء، لأن حريقًا شبّ في البناية رقم ١١، وبعد ثوانٍ سُمع زعيق سيّارة الإطفاء، وتبعتها سيّارة إسعاف، وكان الدخان لا يزال يتصاعد من الفراش، لأنّ ثمّة نارًا تعسّ

في القطن، فنقلوا جيفرسون من غرفته إلى الصالون، وسلطوا خرطوم الماء على مكان النسيس، وجاء ممرّضان بنقّالة، وضعا عليها جيفرسون، وحملاه إلى سيّارة الإسعاف، وراح الزعيق يدوّي، إلى أن بلغت السيارة المستشفى وأدخل جيفرسون إلى قسم معالجة الحروق، ووضع، بعد الإسعاف الأوّليّ، في غرفة العناية المشدّدة، وأُبلغ زبيد، من قبل مدير المستشفى، أنّ حروق جيفرسون من الدرجة التي لا تشكّل أيّ خطر على حياته.

اليوميّة الرابعة والعشرون ١٢ كانون الثاني ١٩٦١

«هل أفكّر في مكان أرحل اليه» هذا هو، ولا شيء غيره! خابت الآمال يا زبيد، قد كنت عزيزًا بآمالك، فكن عزيزًا أيضًا بخيباتها، فالرجل، في الفرج، يظل غير ممتحن، أما الرجل في الشدة، فإنه ممتحن، والنجاح يأتي على قدر الصمود، وأنت صامد، إذن ضع رجلك في الأرض، أُمَّنا جميعًا، اغرزها عميقًا وبقوّة، وعندئذ، كما في الأسطورة، لا تُقتلع، لا تُغلب، رغم أن سلاحك، في هذه المعركة اللامتكافئة، سلاح مفلول، حتى لكأنّك أعزل وهم مدجّجون، ولم يتبقّ لك إلاّ الصبر، وصبرت، صابرت، بقدر ما في وسعك، والجواب، من القيادة، لم يأت، وقد لا يأتي، فماذا أنت صانع؟ «العدو من أمامك، والبحر من ورائك، وليس لك سوى الموت» والموت يأتي مجازيًا هذه المرة، قاهرًا، شرسًا، وسفنك كلّها احترقت، فكيف تبحر؟ وإلى أين؟ أنت يا زبيد شجرة عارية في الشتاء، وأصابعك التي هي أغصانها، مرفوعة إلى أعلى، ولكن كيف!؟ في ضراعة!؟ لا! إنّها مرفوعة بشموخ من يعرف، ويثق، أنّ سعد السعود آتٍ، وفي سعد السعود يجري الماء في العود، حسب المثل الشعبي، وحين يصير ذلك ستخضرّ أغصانك، أناملك، وستزهر، وتورق، ويكون لك منها ثمر كثير! غدًا يأتي الربيع، ويليه الصيف، وسيأتي الربيع ويليه الصيف كرّة أخرى، فعلام العجلة ومعها الندامة؟ لديك زادك من البنّ، والكونياك، وفي جيبك بعض المال، وتحت فخذك امرأة في سن النضج، وهذا يكفي! نعم يا زبيد، هذا يكفي، والحدود التي ستُرمى خارجها، لها استدارة قوس قزح، فلا تخشَ المطر صبيبًا، ولا تأبه للبلل، لأن الأرض، أرض هذا العالم، بحاجة إلى دموع السماء الغزيرة، كي تغتسل، وتتطهّر!».

فجأة اندفع زبيد خارج بيته، خارج تأملاته، خارج سجن دائرة الفكر، التي هي ذاته! مشى على مهل، خطا بثبات، لعلمه أنّ ذاته معه، داخله، ولا سبيل إلى الخلاص منها أبدًا، ومن الجنون أن يركض فتركض معه، ومن العقل أن يحتملها، بغير ضيق بها أو منها، لأنّها هي هو، وفي هذا التوحّد الجبريّ، هذا الاتحاد القسري، الذي ينتهي على حافة حفرة ما، لا يدري أين، يكون خلاصه بالموت، وحين ينزلونه في حفرته، يعيش العدم ظلمة مطبقة، ويعطي جسده وليمة للديدان، تنغل فيه إلى أن يصبح هيكلاً عظميًا، إنّما عليه، هو زبيد، ألاّ يفكر بهذا الآن، الآن بالذات، وأن يتحمّل، بكبرياء صبر، كلّ آلامه الراهنة!

لسوء حظه، كان النادي، قبيل الظهيرة، خاليًا، وفي هذا الخواء الذي صار إليه، بعد رحيل الخبراء السوفييت، ومَنْ تضامن معهم وتبعهم، من خبراء الأحزاب الأخرى، بدا النادي موحشًا، كئيبًا، مغلقًا بالصمت، بدا أكبر من حجمه، على سعة حجمه، وقد اغتال، في وحدانيّته، ما تبقّى من فرح في ضلوع زبيد، رغم أن هذا النادي أصبح ملكه، أضحى له وحده، وفي ميسوره أن يفعل فيه ما يشاء، وكيف يشاء، إذا ما غادره إحساسه الداخليّ بأنّه في خرابة، ولأنّ هذا الإحساس لازمه، وتفاقم مع مرور الثواني والدقائق، جرّب أن يتمرن على لعبة البليارد، أن يلاعب نفسه، ويعود، كرّة أخرى، إلى الكلام مع نفسه، دونما صوت، دونما همس، وفي إسرار، بين العاطفة والعقل، منشئًا من هذا الكلام الذي لا يقال، لا يسمع، عالمًا شرنقيًا، يضيق، ويضيّق الخناق عليه، مؤلّفًا منه وطنًا، هو الذي لا وطن له، إلى أجل غير مسمّى!

فُتح، أخيرًا، باب النادي الرئيسي، دخل إنسان، اقترب هذا الإنسان من زبيد وهو يقول حفيًا:

ـ السلام على أمّة العرب!

رد زبيد:

ـ وعلى أمّة الفرس رحمة الله وبركاته!

قال حسن وهو يصافحه:

ـ كيف أنت يا أخي؟

ـ بخير يا صديقي.
ـ عدت إلى التدريس في الجامعة؟
ـ لم أعد بعد، وقد لا أعود أبدًا!
ـ لماذا؟
ـ اسأل القيادة!
ضحك حسن وقال:
ـ ولكن أنا لست رفيقًا صينيًا يا أخي!
ـ إذن ما رأيك بكأس من الفودكا؟
ـ إنا لا أشرب قبل الطعام، هذا ليس جيّدًا.
ـ وما هو الجيّد؟
ـ المرأة!
ـ قبل الطعام؟
ـ في كلّ وقت! اذا كنت قويًا كمثلي!
ـ أنت رياضيّ، وأنا ضعيف، أعني لست كمثلك!
ابتسم حسن، ربّت على كتف زبيد وقال:
ـ يا أخي زبيد! الشيرازي قال: «الماء والخضرة والوجه الحسن!» وفي الدروجبا يوجد الماء والخضراء.. ويبقى الوجه الحسن، وهذا سهل جدًا، تعال إليّ، أعرفك على الوجه الحسن الذي تريد!
ـ وإذا سافرت مطرودًا من الصين؟
ـ متى؟
ـ لا أدري، لكنّني أظنّ أن سفري أصبح قريبًا!
ـ وماذا اذا سافرت يا أخي؟ أنت لن تتزوّج الآن، على كل حال!
ـ تقصد أن أتسلّى فقط؟
ـ نعم! كمثلي، أنت تعرف أنني لم أتزوّج بعد، فلماذا هذا الرفض للتسلّي؟ ولماذا أنت غير منشرح؟
ـ لأنّني أجهل مصيري!
ـ أعرف هذا، ولكن أنت، يا أخي، لست من الرهبان البوذيين، والدروجبا ليس فيها دير بوذي!

ـ في الدروجبا، يا حسن ما هو أفظع من الدير، وأنت تعرف!

ـ نعم! أعرف، ولكن لماذا «الانضباط» الكثير، كمثل «اليوز باشي»؟ تعال!

ـ إلى أين؟

ـ إلى بيتي!

ـ ولماذا لا نذهب إلى المطعم أولاً؟

ـ كما تريد، يا أخي، ولكن لماذا أنت خائف؟ «أرِكَكْ أوْل» كمثلي (كن رجلاً مثلي!)

نظرت إلى حسن، هذا الإيرانيّ الطيّب، هذا الضابط السابق، الذي نجا من مذبحة الجنرال رازامارا، قائد الانقلاب على «مصدّق»، وتذكرت قول امرئ القيس «وكل غريب للغريب نسيب!» فكدت أعانقه، وأشرح له نفسي، كي يعرف من أنا، إلاّ أن الحياء منعني من الكلام، فسرت معه إلى بيته، وفي الطريق سألته:

ـ كيف عرفت أنني خائف يا حسن؟

قال حسن:

ـ أنت «مفكور» وقليل الكلام!

ـ وهل الشجاع يكون كثير الكلام؟

توقف حسن ونظر اليَّ، قال وهو يربّت على كتفي كعادته:

ـ أنا لم أقصد يا أخي زبيد، هل أنت قليل الكلام هكذا دائمًا؟

ـ كم مرة دخلت السجن يا حسن؟

ضحك وقال:

ـ ولماذا تسأل؟

ـ لا أدري، خطر لي أن أسأل فسألت، وأعتذر عن فضولي.

ـ هذا، يا زبيد، ليس «فظولاً»؛ في رأسك فكرة تدور، وأفضل شيء، عندما تكون في رأسنا فكرة مزعجة، فكرة تدور وتدور، أن نوقفها عن الدوران، أن نلقي بها إلى الخارج فنستريح، أنت، يا أخي، تريد أن تعرف ما اذا كنت، يومًا، في السجن، وأنا أجيبك: لم أسجن في إيران، بلدي، سجنت في اذربيجان، في سجن باكو، لأنّني كنت جديدًا، وكنت أعتقد، أن

الإنسان، في بلد اشتراكي، يستطيع أن يقول، وأن يتصرف، في جوّ كامل من الديمقراطية، لأنَّ هذا ما قاله لنا حزبنا الشيوعي في ايران وأنا صدّقت كمثلك!

ـ والآن!؟

ـ كما ترى، أنت كمثلي، تعيش في الصين بصفة خبير، فما رأيك؟ ولماذا أنت في البيت؟ لماذا تركت التدريس في جامعة بكين؟ لأنهم هناك كما عندنا في الإذاعة، يريدون أن نقرأ، على المستمعين، البيانات الحزبية، أن نصبّها في آذان الذين يستمعون إلى إذاعتنا، كما يُصبّ «البيطون»... ماذا يقال عن «البيطون» في العربية؟

ـ الاسمنت؟

ضحك حسن وقال:

ـ هذه كلمة لطيفة، لشيء غير لطيف، يريدوننا أن نسكب الاسمنت، ونحن نسكبه، وأظنّ أنه لم تبقَ أذن مستمع إلاّ وقد سدّها هذا الاسمنت... كيف يُقال للاسمنت مع الحديد؟

ـ الاسمنت المسلّح!

ـ نعم! إلاّ وسدّها الاسمنت المسلّح بشكل مُحكم! (بإحكام!)، والأمر هكذا في الجامعة أيضًا.. أما لماذا سجنت في باكو، فلأنَّ اذربيجان إحدى الجمهوريات السوفياتية الاشتراكية، وباكو، كما تعرف، عاصمتها، وأنا كتبت أنه ليس في باكو ديمقراطية، فطبّقوا الديمقراطية علي، ولكن بشكل لطيف كمثلك!

قال حسن ذلك ضاحكًا، فضحكت، بدوري، للمحادثة، ولعبارة «بشكل لطيف كمثلك!» وقلت ونحن نتنزه في الحديقة المواجهة للنادي:

ـ ولكن، يا حسن، لماذا لا ترفضون، كمثلي، إذاعة البيانات السياسيّة، أو تدريسها؟

ـ لأن حزبنا لم يطلب منّا أن نرفض بعد!

ـ وإذا طلب؟

ـ نرفض!

ـ واذا استدعاكم؟

ـ نغادر الصين!

ـ تفعلون ذلك عن قناعة؟

ضحك حسن وقال:

ـ وهل أنت محقّق يا أخي؟ القناعة هنا (وأشار إلى صدره!) وأمّا ما نقوله فهنا (وأشار إلى فمه!) وأنا كمثلك.. قناعات يوق (غير مقتنع!) لكن الديسبلين (الانضباط) الحزبي، هو الخازوق، وأنت الآن تجلس عليه، فهل تريدنا كمثلك!؟

ضحكت بدوري وقلت:

ـ لا! لا أريدكم كمثلي، ولكن..

توقّف حسن مقاطعًا:

ـ .. ولكن أين الجسارة؟ هذا ما تريد أن تقوله، وأنا أفهم ما تريد، أفهم إلى أين تريد أن تصل. أفهم أنك غاظب (غاضب!) عليَّ لأنَّني قلت لك: «لا تكن «قورقان» (خويفًا!) وأنا أعتذر، هيا إلى البيت، بسرعة، لديَّ موعد!

أسرعنا، دخلت بيت حسن للمرة الأولى، أدهشتني التحف الصينية التي فيه، لكنها، وهذا ما أدهشني أيضًا، كانت جديدة كلها، ومن القطع الكبيرة، الصالحة لتأثيث بيت، في مكان آخر غير الصين، وبعد الزواج، ولما صارحت حسن بما فكرت فيه قال مبتسمًا:

ـ هذا صحيح يا أخي! سأتزوّج قريبًا، هنا في الصين، ومن فتاة صينية، ستتعرّف إليها بعد قليل!

صحت بعفوية:

ـ فتاة صينية!!!؟

ـ ولماذا العجب؟ نعم! فتاة صينية، وبمعرفة الصينيّين وموافقتهم، وسيكون عرسنا في النادي.

فجأة طرق الباب، توقّف حسن عن الكلام، كنا نجلس في الصالون، ومن مقعدي فيه، سمعت فتح الباب، وكلامًا باللغة الروسية، فخيّل إليَّ أنَّها إحدى صديقاته، وأنَّني سأتعرف إليها، وأنَّ «الوجه الحسن» الذي حدثني عنه قد هلّ علينا، فاتخذت الوضع الملائم، إلاّ أنَّ الوجه الذي أطلَّ علينا، كان وجهًا صينيًا، وبصوت أنثويّ، عذب، قالت الفتاة:

ـ أهلاً فسهلاً!

نهضت، صافحتها، تأملتها، كانت بشرتها الصفراء أقرب إلى السمرة، ولها جديلة طويلة، وعيناها السوداوان، الجميلتان، تبتسمان، وقامتها معتدلة، وقال حسن معرّفًا:

ـ خطيبتي لينا! صديقي زبيد!

قالت لينا وهي تبتسم:

ـ نيخا! (مرحبًا)

ـ نيخا تونجي (مرحبًا رفيقة)!

ـ «كفاريت روسكي»؟ تتكلم الروسية؟

هززت برأسي أن لا، جلسنا، سألني حسن وهو يضع يده على كتفي ويبتسم:

ـ ما رأيك يا أخي؟

ـ فتاة رائعة، أهنئك!

ـ شكرًا!

ترجم لها حسن ما قلت فابتسمت، بانت أسنانها البيضاء، الناصعة، ظهرت غمّازتان في خديها وهي تبتسم، كانت تحفة صينية بحق، أطرقت حياء لأنني، كما خيل إليَّ، جئت في وقت غير ملائم، قلت هذا لحسن فأجاب بشهامة:

ـ ولماذا يا أخي؟ هذه خطيبتي وأنت صديقي، وقد أردت أن تتعارفا، فهل أعجبتك؟

ـ جدًا!

ترجم حسن ما قلت، ابتسمت لينا، قالت:

ـ شي شي ني (شكرًا) هل أنت من سورية؟ حدثني عنك حسن، وكذلك حدثتني عنك تشين لاو!

أجفلت! قلت بعد هنيهة تماسكت خلالها:

ـ أنا لا أعرف فتاة صينية بهذا الاسم!

أضفت:

ـ أنا من سورية أدرّس اللغة العربية في جامعة بكين..

قاطعتني:

ـ وأنت الآن منقطع عن التدريس، احتجاجًا على البرنامج الدراسي!

تكلّفت الابتسام، سألت:

ـ كيف عرفت هذا؟ من حسن؟

أجابت:

ـ ولماذا من حسن؟

ـ من الرقابة المفروضة عليّ، أنا الخارج على القانون!؟

ضحكت لينا، ضحك حسن، قال:

ـ لينا صديقة طيبة يا أخي، فلماذا تهاجمها؟

استشعرت حرجًا، رغبت عن الجواب، إلاّ أن لينا أنقذتني، قالت:

ـ أنت، يا رفيق، تعرف ظروف الصين!

قلت:

ـ وأقدِّرها أيضًا، إلاّ أن الموضوعيّ يظل موضوعيًا.

قالت:

ـ هذا صحيح، وأنا، كصديقة، ألفت نظرك لا أكثر.. أنت حرّ في التعامل مع أيّة أجنبية مثلك، إلاّ أنّك غير حرّ في التعامل مع أيّة امرأة صينية.

ـ وإذا قلت لك إنّني لا أتعامل مع أيّة امرأة أجنبية كانت أم صينية؟

ـ والسيدة بورجرون!؟

فوجئت! هل تكون لينا هذه (وهذا ليس اسمها الصينيّ كما أعتقد) من فرع الرقابة في الدروجبا؟ ولئن كانت كذلك، فهل عليّ الحذر في الكلام معها؟ أن تعرف أن السيدة بورجرون كانت عندي، فهذا سهل، ولكن أن تعرف، هي أيضًا، أن لي علاقة بتشين لاو، فهذا يعني أن الرقابة أشدّ مما كنت أتصوّر، لأنّ تشين لاو لم تهتف إليّ، ولم ألتقها بعد عودتي من مصيف شنتاو، فهل هناك تعميم بما جرى بيننا في البحر؟ وأين تشين لاو الآن؟ لا بأس! من اللياقة ان أنصرف، كيلا أكون عذولاً بين خطيبين... نهضت مودّعًا، قال حسن الذي كان ترجمانًا بيني وبين لينا:

ـ لماذا تذهب يا أخي؟ قلت لك إن لينا صديقة طيبة!

مددت يدي مصافحًا وأنا أقول:

ـ أثق بلينا، كما أثق بك يا حسن، إلاّ أن لديّ موعدًا، أنا الآخر.

قالت لينا:

ـ أنا، تونجي زبيد، أعرف عنك كل شيء!

قلت:

ـ طبعًا!

ـ ولماذا طبعًا؟

أجبت بصراحة:

ـ لأنَّ كل رفيق صينيّ في الدروجبا، يعرف عن كل أجنبي في الدروجبا كل شيء!

قالت لينا:

ـ لن أناقشك في هذا..

قاطعتها:

ـ النقاش، حول ما قلتُه، غير مجدٍ.. إنني أعرف ما تعرفينه، وربما أكثر!

أضفت:

ـ لكنني، بالنسبة إليك، واثق جدًا، ومطمئن جدًا، لأنَّك خطيبة صديقي، ولأنه ليس لديَّ ما أخاف منه، أو عليه.. سايجين!

رفضت لينا ترك يدي، قالت:

ـ أنت رفيق شجاع!

ضحكت، أجبتها:

ـ قولي هذا لحسن!

قال حسن:

ـ ولماذا، يا أخي، تريد تعريفي بما أعرفه؟

ـ من لينا؟

ضحك حسن وقال:

ـ لا! من الرقابة، أنا أيضًا عضو في فريق الرقابة الصيني!

ابتسمت وقلت:

ـ أنت شهم يا حسن، أنت صديقي لأنك رجل، بصرف النظر عن مدة تعارفنا القصيرة جدًا، وأنا، من تجاربي، أثق بالرجل الشهم، كما أثق بلينا، وأعرض عليها صداقتي، إذا رغبت، دون أن أنسى مراعاة الظروف في الدروجبا بخاصة، وفي الصين بعامة، قل، من فضلك، للينا، إنني رفيق جيِّد، وإنني، لهذا السبب، أدفع الثمن الآن!

عانقني حسن، قبلني، تحير الدمع في مقلتي، شعرت، الآن، بدفء المودات، تأثرت لأن لي، في الصين، بعض الرفاق بعد، وأنني لست وحيدًا، وغريبًا، ومنبوذًا، وأنّ حسن، وكذلك فهمي، يعرفانني، وأنّهما دفعا الثمن غاليًا مثلي، إلاّ أنّ وضعنا، في الوقت الحاضر، يختلف، فهما عضوان في حزبهما، يتلقيان التوجيهات منه، وهما باقيان في الصين إلى أن يُستدعيا، أما أنا فلست عضوًا في أيِّ حزب، وأن عليَّ أن أوجه نفسي بنفسي، لذلك قلت، وأنا أشدّ على يد لينا، بحرارة الصديق:

ـ قد لا نلتقي بعد الآن، شكرًا لعاطفتك الرفاقية تجاهي.

قبلتني لينا كما فعل حسن، قالت:

ـ سنلتقي كثيرًا تونجي زبيد، أنت ستبقى في الصين، لا لأنّهم لا يستغنون عنك، بل لأنّهم أيضًا، يقدّرون المساعدة التي تقدمها لبناء الصين.. هذا رأيي الخاصّ، طبعًا!

ـ شي شي ني، سايجين! (شكرًا، إلى اللقاء!)

- ٢٦ -

لم يكن في مصيف بيتاخو، وفي شوارعها خصوصًا، ازدحام في السير، أو ازدحام بالمشاة، يبرر زعيق سيارة الإسعاف، ومع ذلك أطلق سائقها زعيق بوقها لأنه اعتاد ذلك! سيارة إسعاف بغير زعيق!؟ هذا، كما يبدو، يحط من هيبة الإسعاف، ومن رهبة السيارة، وربما، في ذهن سائقي أمثالها، من أهمية المستشفى، ومكانته، وقدره أيضًا! وقد دهش الناس، من المصطافين الأجانب، ومن الصينيين المتواجدين في المصيف، دهشًا بالغًا، لأنهم، جميعًا، لم يألفوا حالة كهذه، ومن النادر جدًا أن تقع حادثة كهذه، إلاَّ أن يكون ثمة غرق، أو سكتة قلبية، او انفجار في الدماغ، أو ميتة مفاجئة بكل بساطة. لهذا هُرع من سمع زعيق سيارة الإسعاف، أو رآها تنطلق بأقصى سرعتها، إلى المستشفى القريب، يسألون ما هناك، ومَن المصاب، أو مَن الميت، فلمّا علموا أن جيفرسون، حسب الرواية الأولى، قد أحرق نفسه، أكد بعضهم لبعض أنه انتحر، وأشارت أصابع الاتّهام إلى زبيد ومارلين، وقالت نغوين، بنت ألاويس، لمن حولها:

- جيفرسون حُرق ولم يحترق! هناك جريمة، فاعلها أحد اثنين: زبيد أو مارلين، وعلى الحراس الصينيين أن يقبضوا على الاثنين، قبل أن يتمكنا من الهرب!

أيَّدها في ذلك، زميلها الإيطالي ألدو فقال:

- نغوين على حقّ، الجريمة واضحة، والمجرم معروف: إنّه زبيد! وعلينا، جميعًا، أن نذهب إلى الإدارة، ونطالب بالقبض عليه فورًا، لينال جزاء فعلته النكراء، وهو الإعدام شنقًا حتى الموت!

السيدة بورجرون، بشجاعتها المعتادة، صاحت في وجه نغوين النازية، وألدو الفاشي قائلة:

ـ المجرم هو أنت يا ألدو، أيُّها الفاشي القذر، يا حثالة شوارع روما، الذي خدعت الجميع، بمَنْ فيهم رفاقنا الصينيون، وتسللت إلى هنا، إلى هذا البلد الاشتراكي، كي تبث سموم أفكارك الخبيثة، المعادية، لا للاشتراكية وحدها، وإنَّما للإنسانيَّة كلّها معها.. أما نغوين، عشيقتك، فهي نازيّة، تقوم بمهمتك نفسها، وأين؟ في الصين! وسأدّعي عليكما، فورًا، ولديَّ معلومات لا تدحض ضدكما، وعندي شهود إثبات لإدانتكما، بصفتكما جاسوسين، تجمعان المعلومات عن الصين، لمصلحة المخابرات الإيطالية والألمانية.

أضافت السيدة بورجرون وهي تصرخ:

ـ اقبضوا عليهما، أو ساعدوني في القبض عليهما، أيُّها الرفاق الأجانب الشرفاء.

قالت ذلك وأمسكت بالفتاة نغوين، بينما توارى ألدو، متسللاً بين المحتشدين أمام المستشفى، وعلى الأثر علت الضجّة، وحضر الحراس الصينيّون، متدخّلين لتخليص نغوين من أيدي السيدة بورجرون، والطلب من الآخرين، بلطف أن يتفرقوا، أو يذهبوا إلى الإدارة معهم، والأفضل أن يعودوا إلى بيوتهم، أو إلى البحر، أو حيث يشاؤون، لأنَّ الأمن العام الصيني ساهر، ويقظ، وهو مَنْ يتولّى أمور الرِّفاق الأجانب، موفرًا لهم أقصى الطمأنينة.

في هذه اللحظة خرج زبيد، الذي رافق جيفرسون في سيارة الإسعاف، من باب المستشفى الرئيسيّ، فلمّا رأى تجمهر الناس، وقف على بسطة الدرج، وراح يستعرض الوجوه، واحدًا بعد الآخر، متسائلاً، بينه وبين نفسه: «ماذا هناك!؟ لماذا هذا الغضب البادي على وجه السيدة بورجرون؟ ولماذا يقف الحراس الصينيون، حائلين بينها وبين نغوين؟ ولماذا يشير إليَّ السيد موريس بروك بالعودة إلى داخل المستشفى؟ وهل تحب الآنسة إيتوال بروك جيفرسون حتى تبكي!؟ وأين ضحكة السيدة الاويس المعتادة؟ وكيف تأخرت السيدة نلسون، التي قالت لي، وأنا أركب سيارة الإسعاف إلى جانب محفّة جيفرسون، سألحق بك فورًا؟ هناك سوء فهم، هناك دسيسة، هناك حادث ما وقع لمارلين، وهذا هو سبب تخلّفها عن

الحضور، أو ربما خافت أذى الآخرين، الذين يكرهونها، وقد يهجمون عليها، أو حتى يضربونها، إذن لا بد من موقف شجاع، ومن الكلام، إيضاحًا للموقف، حتى لا يُستغل إحراق جيفرسون نفسه، وتلقى التهمة على مارلين، التي يعرف الجميع قصّتها مع جيفرسون!».

الصمت الذي لم يتعمده زبيد، وهو يقف متصالب الذراعين على أعلى الدرج، أفاده وأساء إليه، في آن واحد.. بعضهم ظنّه خائفًا، وبعضهم نظر إليه نظرات يمتزج فيها الشر بالاحتقار، وبعضهم الثالث انتظر ما سوف يقول، وحين فتح زبيد، أخيرًا، فمه للكلام، وهو يشير بيده طالبًا الهدوء، صاحت نغوين:

ـ هذا هو المجرم، هذا هو الذي أحرق جيفرسون، فاقبضوا عليه حتى لا يهرب.

رد زبيد بهدوء، برباطة جأش، وباللغة الإنكليزية التي يعرف أن الأكثرية تفهمها، وخاصة الرفاق والحراس الصينيون:

ـ في الصين الشعبية الاشتراكية، لا يستطيع أحد أن يهرب يا آنسة نغوين، حتى لو أراد الهرب، حتى لو كان مجرمًا، وحتى لو كان جبانًا، وأنا لست بالجبان، أو المجرم، أو الذي يفكّر في الهرب! أضاف بعد وقفة وهو يتملّى الوجوه:

ـ أنا هنا، حيث أقف، فليتفضّل من شاء منكم، أن يقبض عليَّ، وأعدكم بعدم المقاومة.

صاحت السيدة بورجرون:

ـ نعم! ها هو المجرم المزعوم، يستسلم للحرس، للرفاق الصينيين، وليس لنازية وعاهرة مثلك يا نغوين! أو لزميلك الفاشي، ألدو الإيطالي، الذي هرب لا ندري إلى أين!

زعقت نغوين بالسيدة بورجرون:

ـ اخرسي أنتِ، يا خائنة لزوجك، ويا عشيقة هذا السافل!

أشار زبيد بيده داعيًا إلى الهدوء، وبصوت طبيعي، دون أثر للانفعال قال:

ـ لدي كلمة واحدة: جيفرسون بخير، حروقه غير خطيرة، حين يشفى، سيروي لكم ما جرى معه.

قالت السيدة نلسون التي وصلت منذ حين:

ـ وأنا شاهدة.. كنت عنده، ورأيت الحريق بعينيّ الاثنتين، فلماذا هذا الصخب كله؟ تعقّلي يا آنسة نغوين! كفّي شرّك عن الآخرين!

ردّت نغوين:

ـ أنا لست بشريرة، أنت الشريرة أيتُّها العجوز المتصابية.. زبيد هذا هو الذي أحرق جيفرسون، وأنا شاهدة أيضًا.

قالت السيدة نلسون:

ـ كيف؟ كنت مع جيفرسون في الفراش؟

ضحك بعضهم، هَمْهَمَ آخرون، نفخ بتشي الألماني فمه وضرب على خده قائلاً:

ـ هوبّا!

صاحت السيدة الاويس:

ـ أنت أيضًا أيُّها السكير!؟ كلكم ضد ابنتي!؟ ضد صغيرتي المسكينة!؟

قالت ذلك وأنشأت تبكي، لكنّ مدير الإدارة الذي وصل توًا قال:

ـ تونجي (أيُّها الرِّفاق) نحن، حسب التعليمات المعطاة لنا، لا نتدخل في شؤون أصدقائنا الذين جاؤوا لمساعدتنا.. كلنا رفاق، وكلنا، أجانب وصينيين، نتعاون لبناء الصين.. ما حدث كان سوء فهم وتفاهم، ومع هذا سنحقق، ولن نقبض على أحد، ومن نريد مساءلته نستدعيه، حسب الأصول، إلى الإدارة.. آمل أن يكون الحادث منتهيًا، وأن تعودوا، كما نرغب، إلى الحياة الطبيعية، الهانئة، التي تحيونها في بيتاخو، وأن تبتهجوا، سباحة، استجمامًا، غناءً، رقصًا، وأن تثقوا بأنّ الأمن مستتبّ، إلى الدرجة القصوى، ليس هنا فقط، بل في الصين كلها، ومن كانت له شكوى، أو كان له مطلب، فإنّ باب الإدارة مفتوح، ليلاً ونهارًا، وللجميع، دون استثناء أو تمييز.. إننا في خدمتكم دائمًا.

صفّق الحاضرون، أخذوا يتفرقون، جاء ألويس، عانق زبيد، قبّل أحدهما الآخر، تقدمت السيدة نلسون من زبيد، وضعت ذراعها في ذراعه وهي تقول:

ـ اوه! زبيد! عزيزي! كم كنت رائعًا، أنت عربيّ أصيل، أنت رفيق عزيز.. قلت إن جيفرسون بخير؟ نعم! أين هو الآن؟

ـ في العناية المشددة.. حروقه بسيطة، سطحية فقط، في الجلد لا في اللحم، وهذا بفضلك يا سيدتي!

ـ بفضلنا نحن الاثنين.. من الخير أنّنا كنا هناك، في بيته، حين وقع الحادث.. ما رأيك أن نتنزه قليلاً، قبل الذهاب إلى المطعم؟ ولكن احذر، كن لطيفًا فقط، السيد نلسون يغار! يا إلهي! لماذا يغار الرجال؟

ـ لأن نساءهم، أو صديقاتهم، جميلات.. الحق، يا سيدتي على الجمال.. لماذا أنت جميلة؟

ـ هذا لطف منك عزيزي، ولكن ماذا بشأن مارلين؟ تعتقد أن قلبها يرقّ الآن؟

ـ اذهبي إليها، سيدة نلسون، واسأليها من فضلك.

ـ أنا أسألك أنت.

ـ وأنا لست زوجها، أو ولي أمرها، ولا تأثير لي فيها.. ما رأيك بفنجان من القهوة مع الكونياك عندي، في البيت؟

ـ لا مانع لديَّ عزيزي، زبيد، ولكن أن نكون وحدنا، فهذا، والكلام بيننا، يثير الشكوك حولنا، يقتل.. كيف أقول؟ لا بأس! يقتل حبّنا الوليد!

توقف زبيد، نظر إليها وهو يحاول ألاّ يضحك، سألها:

ـ عن أي حبّ تتحدّث سيّدتي؟

ـ اوه زبيد، حبيبي، لا تكن خجولاً.. قل الأشياء بصراحة، وأعدك أن يبقى ما بيننا سرًا!

ـ أيّ سر هذا سيدة نلسون؟

ـ السر الذي لا يقال الآن.. وهنا في الشارع.

ـ أين يقال إذن؟ في الفراش!؟

ـ ليس هكذا زبيد، ليس قبل أن نتذوّق القهوة مع الكونياك.. أنت تفهمني؟

ـ قليلاً!

ـ هذا يكفي، زبيد، في الوقت الحاضر.. أما في المستقبل! فعلينا ألا نجرح مشاعر السيد نلسون!

«يا للمصيبة!»

ـ نجرحها بماذا سيدة نلسون؟

ـ بتلك «اللعبة الصغيرة» عزيزي.

قال زبيد بجفاء:

ـ لعبة ماذا!؟ ومع مَنْ!؟

ـ كيف لعبة ماذا؟ ومع مَنْ!؟ أنا، زبيد، أعرف ذكاءك، وأثق به.. اسمع! على الرجل أن يصرّح أولاً.. هذا من اللياقة في مسائل القلب، وكذلك.. لا! كفى، لن أكون البادئة في التصريح!

فطن زبيد، خلال ومضة تذكّر، أنّ السيدة نلسون جاءت متأخّرة إلى المستشفى، فأين كانت، هذا الوقت كلّه، ما دامت لم تسبح، وما دام المطعم مغلقًا؟ هناك احتمالان: أن تكون ذهبت إلى بيتها، وشربت مما هو متيسّر لديها، أو بقيت في بيت جيفرسون، فشربت ما تبقّى من الفودكا لديه، وهذا هو المرجح! إنّه يعرف هذه السيدة الطيِّبة، الفنانة، ورغبتها الدائمة في شيئين: الشرب والغناء، حيثما طاب لها ذلك، ولأنّ الحريق روّعها إلى حدّ ما، فإنّها لم تكن بقادرة على نسيانه، سوى بالانتشاء قليلاً، وهذا ما فعلته، بوعي كامل، تجلى في تصريحها، أمام جميع من كانوا في باحة الباب الرئيسي للمستشفى، أنّها شاهدة على الحريق، لأنّها كانت في بيت جيفرسون، ورأت ما جرى بعينيها الاثنتين، فلما أدلت بهذه الشهادة، اعتبرت أن مهمتها انتهت، وعندئذ أعطت نفسها، كما هي عادتها، لما هو مهمّ في حياتها: الأوبرا، ولم تعد بحاجة إلى الرقابة على نفسها، على تصرفها، على كلامها، لكونها فنّانة أوبرا، تتجاهل، بعفوية تامة، ما كانته يومًا، فالأمس ملغى لديها، مكانًا وزمانًا، والحاضر هو الماضي ذاته، وفي هذه النقطة توقّف عمرها، وترغب، صادقة، عن كل ما هو غير ذلك، معتقدة، في اللاشعور، أنّ من حق الأوبرا أن تعيشها استمرارًا، لأنّها حياتها كلها، والحياة، لديها، خلقت لكي تعاش، وهي تعيش، بأمانة، ماضيها في حاضرها، وعلى الآخرين أن يفهموا ذلك، وسيّان لديها فهموا

أم لم يفـهمـوا، لأنَّه من النـافل أن يهـتمّ الفنان بآراء من ليـسـوا فنّانين، باعتبارهم أغبياء، لا يتذوّقون الفن، ولا سبيل إلى التفاهم معهم، ومن الأفضل عدم الاكتراث بهم.

لام زبيد نفسه، لنسيانه هذا الاستنتاج الذي كان قد توصّل إليه، منذ عرف السيدة نلسون في الدروجبا، وسمعها تغنّي وهي تمشي في مَجَازات البناية، ورأى حركات أصابعها، في تشكيلات أوبرالية، كأنَّما هي على المسرح، دون أن تأبه لأيّ استغراب قد تلحظه في عيون الآخرين، إذا هي لحظت ذلك، ومن شبه المؤكد أنَّها لم تلحظه أبدًا، وأنَّها صادقة في ظنها أنَّ الأيام هي هي، وأنَّ من حقها، كما كانت وهي في سن النضج، أن تحِب وأن تُحَب، وأن يكون زبيد، أو غيره، من عشاقها، أو عشّاق فنِّها على الأقل!

فجأة توقفت السيدة نلسون وسألت:

ـ أين أنت، زبيد، عزيزي؟

قال زبيد بنبرة تأكيد:

ـ معك سيدة نلسون!

ـ وهذا الصمت الطويل؟

ـ إنه استمتاع قبل الاستمتاع.

ـ عن طريق الخيال.. أعرف مثل هذه اللذة، أتذوّقها بحواسّي كلّها، حتى في اليقظة أتصورك، لا! يحسن بي ألا تحدث، أكثر من اللازم، عن تصوراتي بالنسبة إليك، هذا يضع المرأة في موقف صعب، أقله يكشف عن رغباتها التي يجب أن تبقى مستترة، حتى لا يطمع بها كثيرًا الرجل الذي تبادله شرف الهوى!

سأل زبيد بخبث:

ـ ومن هذا الرجل السعيد الذي تبادلينه شرف الهوى؟

عضت السيدة نلسون على شفتها السفلى، غمزت بعينها اليمنى وهي تقول:

ـ لماذا، زبيد، تسعى إلى إرغامي على البوح؟ بعض القول لا يقال، يُحسّ فقط..

أضافت:

ـ أعرف أنّ إحساسنا مشترك، فلماذا الكلام إذن؟

ـ حتى نرضي حاسة السمع!

ـ أنت على حق في ذلك، لكنك تتعجّل الأمور قليلاً.. ألا تستطيع ضبط اشتهائك حتى نصل؟ اذن لنسرع!

ـ إلى أين؟

ـ كيف إلى أين؟ إلى بيتك طبعًا.. اسمع زبيد، سنشرب القهوة والكونياك بغير إبطاء.. ثم!

ـ ثم لا شيء، لأنّ رفاقًا صينيين من بكين ينتظرونني في البيت، مع مترجمي عبد القادر.

نبرت:

ـ اللعنة إذن! تهيّئني لتلك «اللعبة الصغيرة».. تشعل النار في جسدي، كما هي في جسدك، ثم تدلق عليَّ، وعلى نفسك، سطلاً من الماء المثلج!؟

قال زبيد مازحًا:

ـ هذا ما يقال له «إطفاء الحريق!»

ـ هل هذا من التقاليد العربية زبيد؟ إنّني أكاد لا أصدق! هل من عاقل يشعل النار كي يطفئها؟

ـ نعم! والسبب، سيدة نلسون، هو التالي: في حال الاحتراق الجسدي، يأتي الانطفاء الجسدي بسرعة، وهذا غير مستحب في رأي أسلافي القدماء، وقد قرأت هذا في كتبهم، وعرفت ذلك من تجاربي! أرجوك! لنؤجل الكلام على هذا الموضوع، لأنّه فلسفة جنسية كاملة، ومن الغريب ألا تعرفيها.. إلى اللقاء!

ـ متى!؟

ـ غدًا!

ـ ومتى غدًا؟

ـ بعد غد!

ـ هل هذا تهرّب؟

ـ هذا من شعر أحد شعرائنا الغزليين.. والماجنين أيضًا!
ـ ولماذا لم تتذكّره إلاّ الآن!؟
ـ لأنّه كان هاجعًا في اللاشعور، واستيقظ الآن..
ـ ولماذا الآن بالذات؟ ألم يستيقظ فيك شيء آخر؟
ـ بلى! ولكن «ذلك الشيء» لا أستطيع قوله.. حتى لا أموت خجلاً!
ـ أنا لم أسمع، زبيد، بإنسان مات خجلاً.. قله ومت، عزيزي، على طريقة الفرسان، في القرون الوسطى!
ـ نحن في القرن العشرين، سيدتي، عزيزتي، هل نسيت هذا؟ إلى اللقاء، مرة ثانية!
ـ إذن اللعنة، ثانية وثالثة ورابعة، اذهب إلى تلك العاهرة مارلين!!
ـ ومن قال لك إنني ذاهب إليها؟
ـ حدسي!
ـ بصراحة.. حدسك صادق هذه المرة!
ـ مستحيل، عزيزي زبيد، مستحيل! أنا لا أصدِّق أن رجلاً يحب، يترك المرأة التي يحبها بهذه القسوة.
وقف زبيد، تأمّلها، كانت تبكي، عاد إليها، أشفق على بكائها، قال لها حانيًا:
ـ لماذا، سيدة نلسون لماذا؟ هل يعقل أن أذهب إلى مارلين، وجيفرسون في المستشفى بسببها؟ تعالي! سنذهب إلى البيت، نشرب القهوة والكونياك كما اتفقنا!
قالت من بين دموعها:
ـ لا تقل هذا زبيد، لا تقله، إنّني أرفض الشفقة!
ـ ومن قال إنّها شفقة؟
ـ دموعي!
ـ ولماذا الدموع وأنا كنت أمزح؟
ـ لا! لم تكن تمزح، كنت تريد التخلُّص مني..
أضافت:

ـ الرَّجل، زبيد، لا يستطيع أن يقدّر ذل المرأة، في موقف كموقفي هذا.. هل تفهمني!؟

ـ أفهمك سيدة نلسون أفهمك، لكن الحق، بعد كل شيء، على مَنْ؟

ـ الحق عليّ زبيد، لأنّني في ساعة ضعف، نسيت فارق العمر بيننا.. إنَّها نزوة، تقدِّر، أنت، معنى النزوة؟ ما أظن، إلا أنك، وتذكّر هذا، ستقدرها مستقبلاً، حين تصبح في مثل سنّي، وتشتهي امرأة في مثل سنّك.. هذا هو جوابي، وإلى اللقاء!

قالت ذلك، أدارت ظهرها، مضت، لم تلتفت إلى الوراء. تسمّر زبيد في مكانه، أدرك، الآن، مدى قسوته عليها، سربله الحياء، حار في ما يفعل، سار إلى البيت، هتف، منذ وصوله، إلى السيد نلسون، دعاه والسيدة نلسون إلى العشاء، لكن هذه رفضت بقوة، فكّر زبيد في حقارته، استشعر ندمًا موجعًا، لم ينقذه منه سوى قرع على بابه، فتح، كانت هذه السيدة بورجرون، روت كل ما جرى، كل ما قيل، في غيابه، أمام المستشفى، اطرق زبيد مهمومًا، وقف، بحركة آليّة، ذهب إلى المطبخ، أعدّ القهوة، جاء بالكونياك، ملأ كأسين، شرب كأسه صامتًا، أصغى إلى ما تقوله ضيفته، كان صوتها خافتًا في أذنيه، جاءه من بعيد، كما لم يحدث معه من قبل.

رنَّ جرس الهاتف، كان مدير الإدارة على الخط، قال له:

ـ ما رأيك ان نتحدَّث قليلاً بعد العشاء، تونجي زبيد؟

سأل زبيد:

ـ ألا يمكن تأجيل الحديث إلى الغد؟

أجاب المدير:

ـ يمكن، اذا لم يكن لديك وقت الليلة.

ـ هل هناك ما هو مستعجل؟

ـ إلى حدّ ما!

ـ في أيّ ساعة تريدني أن أحضر؟

ـ في التاسعة، اذا كان هذا يناسبك.

ـ يناسبني تمامًا!

ـ إذن إلى اللقاء.

وضع زبيد سماعة الهاتف، قال للسيدة بورجرون ما دار من حديث بينه وبين مدير الإدارة، ترشّف قهوته، بعد ذلك، دون كلام، سألته السيدة بورجرون:

ـ ماذا تظن وراء هذه الدعوة؟

ـ حادث الحريق اليوم!

ـ لا! أبعد من ذلك.

ـ وما هو هذا الأبعد؟

ـ الاتّهام الذي وجهتُه أنا إلى نغوين وألدو!

ـ ولماذا لم يستدعك أنت؟

ـ الدهاء!

ـ أيّ دهاء هذا؟

ـ سؤالك أولاً، عما قلته أنا، كي لا تثار ضجة ما، غير مرغوب فيها.. وبعد ذلك تطويق الحادث، بدهاء، وذكاء صيني معروف.

قال زبيد:

ـ وهل أنا عميلهم، كي أُسأل أولاً؟

قالت السيدة بورجرون:

ـ لا تفهمني، يا صديقي، خطأ.. أنت موضع ثقة، بسبب ما تقدّمه من مساعدة بلغت حدّ إنكار الذات، وبسبب آخر، هو موضوعيتك في تحليل الأمور، وتقدير نتائجها!

ـ ولماذا لا تكون الدعوة للتحقيق معي، حول حادث الحريق ثم القبض عليّ!

ـ بأيّ تهمة؟

ـ تهمة أنّني أنا المجرم، كما ادّعت نغوين زورًا أمام الجميع!

ـ وشهادة السيدة نلسون التي كانت حاضرة؟

ـ وما قيمتها!؟ لا شيء.. ثم أرجوك، دعيني من الكلام على السيدة نلسون!

ـ لماذا؟

ـ هكذا!

ـ تخاف أن تغيّر شهادتها؟

قال زبيد بحسم:

ـ هذا غير وارد، كما أنّ خوفي غير وارد، أنت تعرفين من أنا.

ـ أعرف ولكن.. اسمع! إذا ألصقوا التهمة بك، كان هناك السجن الطويل.. هل هناك من لا يخاف السجن ظلمًا؟

ـ أنا!

قالت السيدة بورجرون، وهي تكشف عن فخذها بلا مبالاة:

ـ أنت، يا صغيري، تصلح لغير السجن.. مع كامل ثقتي بشجاعتك!

نظر إليها زبيد باسمًا وقال:

ـ أصلح لماذا في رأيك؟

نهضت، خلعت سترتها، قالت وهي تشرب نخبه:

ـ تصلح للكأس، هذا أولاً!

ـ وثانيًا؟

ـ لما هو عنيف!

ـ كيف!؟ وهذا ثالثًا!

مشت السيدة بورجرون بأبّهة نحو السرير وقالت:

ـ ثالثًا ستعرفه ونحن في الفراش!

اليوميّة الخامسة والعشرون ١٨ كانون الثاني ١٩٦١

توجهتُ من بيت حسن إلى المطعم الكبير، راق لي، بعد أن تعرفت إلى لينا، خطيبة حسن، أن أرفّه عن نفسي، أن أخرج من عزلتي، أن ألتقي الناس، وأشرب قليلاً، وأفكر، مع الكأس، طويلاً، عسى أن أفهم، وكذلك أتفهّم، بعض ما سمعت من لينا، وأتفحّص نفسي، وما يحيط بي من رقابة، وما غايتها، وهل هي عامة، بالنسبة إلى الجميع، أم هل هي خاصة، مفروضة عليّ وحدي؟

كان ثمّة، في المطعم، قليل من الطاعمين، جاؤوا مثلي مبكرًا، كي

يتناولوا غداءهم ويذهبوا إلى أشغالهم، التي تبدأ بعد الظهر، أو يأخذوا قيلولتهم المعتادة، بعد عملهم قبل الظهر، وكنت الوحيد، في ما خُيِّل لي، العاطل عن العمل، ولديه وقت فراغ مفتوح، فلا حساب، ولا من يحاسب، وفي وسعي، بعد أن أنجزت إصلاح الترجمات التي كنت مكلّفًا بها، أن أفعل ما أريد، وهذا الذي أريده، الآن، أن أشرب، أفكّر، استعرض روّاد المطعم من زملائي الأجانب الذين لا أعرفهم، أخرج من قمقم عفريت ألف ليلة وليلة، ثم لا أعود إليه أبدًا، أعمل بنصيحة حسن، وما قاله شاعره الشيرازي عن «الماء والخضراء والوجه الحسن!» ففي الدروجبا ماء وخضراء ووجوه حسان، قد لا أهتم بها، إلاّ أن رؤيتها ضرورية، من باب الفضول على الأقل.

انتقيت مائدة صغيرة في الجانب الأيمن لقاعة المطعم الكبيرة، أحضرت زجاجة من النبيذ الأبيض المبرّد، طلبت طبقًا من البطاطا المقلية، رحت أشرب متمهلاً، مسترخيًا، مترفًا، كأنّني أحد الأثرياء الأجانب، الذين يأتون إلى الصين للسياحة لا للعمل، ألعب بمشاعر بهجة طارئة، كمن يلعب بنجوم نزلت إليه، وانقلبت إلى دمى بين يديه، والنبيذ يدبّ، في خلسة، وتدرّج، مخدّرًا أحاسيسي على مهل، مشعلاً في جسدي الرغبات، وفي عيني وميض الشوق إلى المبهم من غايات حياة لاهية، بسبب من الفراغ، والكسل، والقدرة على قذف بعض هواجسي إلى اللاشعور، ناسيًا، أو متناسيًا، الوضع الصعب الذي أنا فيه، والذي كفاني ابتئاسًا من أجله، حتى مع دخول السيدة بورجرون إلى عالمي الخاص، العالم الذي هو تأليف كلام من خلال الصمت.

تذكرت، بفعل النبيذ ودبيبه، قول أبي نواس: «ولمّا [...] دبّ دبيبها إلى مكمن الأسرار قلت لها قفي!» ابتسمت ونديمي الكأس وحدها، لطرافة هذا الشاعر الماجن، الذي أفشى كل أسراره عن قصد، لأنّه «لا خير في اللذات من دونها ستر!»، وبعد ذلك، وإمعانًا في المجون، خاف دبيب الخمرة إلى مكمن أسراره! الحمد للّه أنني هنا، وربما كنت الوحيد الذي لا أسرار لديه، لأنّ دبيب الرقابة غير المرئية، أسرع من دبيب كل الخمور، والبرهان أن لينا تعرف ما بيني وبين تشين لاو، وتعرف أن السيدة بورجرون زارتني في بيتي، وأنني منقطع عن التدريس في الجامعة، لخلاف حول البرنامج

الدراسي، وقد سرّتني معرفتها بكل هذا، كي أطلع منها على بعضه، ما دام حسن واثقًا بأنّ خطيبته الصينية طيبة، وأنها صديقة، وهذا مفهوم، إلاّ أنّ غير المفهوم، كيف صارت لينا خطيبة حسن، وكيف سمح الصينيون بهذه الخطبة، وقبلها بهذا الحب الذي أدّى إليها؟ هل أشك بحسن؟ أعتبره مواليًا للصين ضد الاتحاد السوفياتي؟ هو نفسه لا يخفي أنه ليس ضد الصين، لكنه ملتزم بموقف حزبه، وعلى استعداد لترك الصين اذا ما طلب الحزب منه ذلك، إلا أن حزبه لم يطلب، لم يستدعه، لم يتعجل في سحبه، كما تعجلت الأحزاب العربية في سحب أعضائها، الذين سافروا جميعًا، بمن فيهم أياد أبو المجد، وتركوني وحيدًا، يتيمًا، حائرًا، بعد سفرهم.

قبل أن أنتهي من تناول طعامي، جاءني عبد القادر ضاحكًا كعادته، قال لي مازحًا:

ـ ولكن كيف هذا يا أستاذ؟

سألته:

ـ ما هناك يا عبد القادر؟

ـ نحن نبحث عنك.

ـ أين؟ في الجحيم؟

ـ لا يا أستاذ! لا تقل هذا!

ـ علِّمني ماذا أقول!

ضرب كفًا بكف وقال ضاحكًا:

ـ ولكن كيف هذا؟ أنا أعلّمك!؟

ـ قل ماذا تريد باختصار.

ـ هادي ينتظر في مكتب الدروجبا.

ـ دعه ينتظر!

ـ إلى متى؟

ـ إلى أن أعود إلى البيت.

ـ ومتى تعود؟

ـ عندما يطلع القمر!

قال ضاحكًا:

ـ وإذا لم يطلع القمر؟

ـ لا أعود!

ـ ولكن كيف هذا؟ أنت تمزحني! (تمازحني)

ـ ماذا يريد هادي؟

ـ هل أصلحت الترجمات؟

ـ سأصلحها بعد سفري من الصين، وأرسلها لكم بالبريد المسجل! مع السلامة.

نهضت، دفعت الحساب، ذهبت إلى الحديقة، مشى عبد القادر ورائي، لم أكلمه، كنت راغبًا عن الكلام «كنت، في سري، ألعن الترجمة، وإصلاح الترجمات وأتساءل: ماذا يظن هؤلاء؟ أنني أبله!؟ في الجامعة يستغنون عني، ودار النشر تستغلّني، وهؤلاء المرتزقة، الجاهلون، الذين للموهم كيفما اتفق، يخبّصون في الترجمة بشكل فظيع، وعليَّ، بعد هذا، أن أصلح ترجماتهم التي يخطئون فيها حتى بالإملاء!؟ تناقض! تناقض فاحش، ما كنت أتصوَّر يومًا أنه سيكون على هذه الصورة من الفجاجة وقصر النظر، بسبب الجمود العقائدي، وغياب الديمقراطية، والخوف من اتخاذ الموقف الصحيح، إذا ما كان هذا الموقف يتعارض مع توجيهات القيادة، في تراتبيّتها كلها، من القمة إلى القاعدة! ومع اعتقادي الجازم، أن قشور هذه الدوغمائية ستذروها، مستقبلاً، رياح التغيير، فإنّه من اللاإنسانية أن يتركوني معلقًا، متأرجحًا في فضاء من انعدام الوزن، وكل ذنبي أنّني نابذ، وبشكل قاطع، المماالأة، النفاق، الانتهازية، لأنَّها تتنافى والأخلاق، وتجانف الصدق، وهو أهم ما في أي مبدأ! لقد كنت، وسأبقى، رافضًا الانحياز إلى طرف واحد في هذا الخلاف الناشب، المتفجر أكثر فأكثر، بين موسكو وبكين، لأنَّ كلا الطرفين على خطأ، في هذا الخلاف، أو في بعض نقاطه على الأقل، ولن أغمس قلمي، مهما لقيت من عنت، في دواة الشتائم المتبادلة، تحت ستار من الافتراءات التي يصفونها بوجهات نظر إيديولوجية، وهي بعيدة عن الإيدلوجية المبدئية التي أؤمن بها!»

رأيت، وأنا جالس على مقعد في الحديقة اجتر الأفكار التي تعذّبني، عبد القادر وهادي يتقدّمان نحوي، خارجين من مكتب الدروجبا، الذي

تسلّل اليه عبد القادر ليبلغ هادي بما سمع مني. أشعلت سيكارة تعويضًا عن انطفاء اشتعالي الروحي وأنا في بيت حسن، ثم في المطعم وأنا أتذوّق النبيذ الأبيض المبرد. حيّاني هادي، رددت تحيته، صافحته، جلس قربي، من الجانب الأيسر، بينما جلس عبد القادر من الجانب الأيمن، فصرت محشورًا بين الاثنين، وعِرْق الغضب ينبض بين حاجبيّ، وهما يتهيّبان الكلام معي في فورة غضبي، لإحساسهما بأنني موشك على الانفجار! ومع الوقت، والسيكارة تتلو السيكارة، هدأت قليلاً، ومع الهدوء، خلال الصمت المسيطر، تساءلت: «ما ذنب هادي أو عبد القادر؟ إنهما، في آخر المطاف، موظفان، مرسالان بيني وبين المؤسستين اللتين يعملان فيهما، ومهما كان مزاجي معتكرًا، فإنّ عليّ أن لا أنسى أنهما رفيقان، رفيقان صينيّان ناضلا لأجل التحرير، والآن يناضلان، بحمّى من الحماسة الثورية، لأجل بناء الصين، وأنهما مخولان بالكلام معي على المهمة التي جاءا لأجلها، وبنقل ما أقوله إلى من أرسلهما، وأن الذين أرسلوهما سينقلون كلامي إلى القيادة بشكل متسلسل، بأمانة قدر الإمكان، فماذا أريد أنا من هذه القيادة في تراتبيتها؟ أن أرحل؟ هذا يسير، وأمره متروك إليّ، ولكن كيف وإلى أين!؟ جدار! دائمًا أنتهي في تفكيري إلى جدار، وحينئذ يكون الارتطام بحجارته الصماء، وتبقى هذه الـ «كيف؟ وإلى أين»؟ بغير جواب، والحقّ في هذا عليّ وحدي، لكوني أحرقت سفينتي، والإبحار لا يكون بغير سفينة، بغير مركب، أو انتظر حتى يرمي اليّ أحد بطوق النجاة، وهذا «الأحد»، في صبره الأيوبيّ، وعناده الوعْليّ، ودهائه المُعاويّ، قادر على إبقائي في الوضع الذي أنا فيه، إلى أن تنفد طاقتي على الاحتمال، فألتمس، وأرجو، وأتضرع اليه أن يساعدني على الخروج من الصين، أو أنزل عند رغبته، والإصرار على أن أقول: نعم! ما دامت «لا» محذوفة هنا من قاموس المفردات، وهذا مؤكد، ومؤيَّد بألف تجربة وتجربة، سابقة ولاحقة.

سألت الرفيق هادي:

ـ ما هو المطلوب مني هذه المرة!؟

ـ لا شيء.. أنا أقدر ظروفك، وأحترم صمتك، وحتى غضبك!

ـ وبعد!؟

قال عبد القادر:

ـ الرفيق هادي يحبّك يا أستاذ!

ـ وبماذا ينفعني حبّه أو حبّك؟ هناك عمل بيننا، والعمل لا يعترف الا بذاته.

فكر عبد القادر، عصر دماغه، قال وهو يحاول أن يكون جديًا:

ـ لم أفهم يا أستاذ! هل عبارة «العمل لا يعترف إلا بذاته» فلسفة؟

ـ قرأت غرامشي يا عبد القادر؟

ضحك وأجاب:

ـ ولكن كيف هذا؟ أنا لم أسمع بهذا الاسم، من هو غرامشي هذا أيضًا!؟

ضحكت بدوري وقلت:

ـ انه الطباخ الخاص لموسوليني!

ضحك هادي وقال:

ـ وهو الذي وضع له السمّ في الطعام!

ـ ولكن كيف هذا؟ موسوليني مات في الحرب!

قلت جادًا:

ـ أحسنت يا عبد القادر، موسوليني مات في حرب «السفر برلك»، ودفن في «شَنَقْ قلعة»، وكان، قبل ذلك، «ياور» السلطان عبد الحميد. ومكلفًا بحراسة «الحرملك» في اسطنبول!

ـ ماذا فعلوا بغرامشي الذي وضَعَ له السمّ؟

ـ قطعوا رأسه، وصنعوا منه «شمندورة» لهداية السفن في الدردنيل!.. هيّا معي!

سرنا، أعطيت، في البيت، الترجمات المصحّحة لهادي، قلت:

ـ تحياتي واحتراماتي لمن ترجموا هذه المواد. لم أجد فيها خطيئة واحدة، تأمّل!

قال عبد القادر:

ـ هذا جيّد جدًا!

قال هادي وهو يقلّب الأوراق ضاحكًا:

ـ نعم! جيّد جدًا، لأنّهم..

نظر عبد القادر في الأوراق، وقال وهو يخفق كفًا بكفّ:

ـ ولكن كيف هذا؟ ولا كلمة صح!؟ هل يمكن..

قلت ضاحكًا:

ـ يمكن تقريبًا، تقريبًا فقط! إنهم.. لا بأس.. يتعلمون الحلاقة في ذقونكم، ومن يدري! فقد يصبحون حلاقين جيدين.. في القرن الحادي والعشرين، إن شاء اللّه!

ترجم عبد القادر، فقال هادي بأسى:

ـ ماذا نفعل، تونجي زبيد، إذا كان الرفاق العرب رفضوا البقاء في الصين؟

نظرت إليه، مباشرة في عينيه، وقلت بنبرة ساخرة:

ـ ولماذا يبقون، تونجي هادي، هل ليلقوا المعاملة «الحسنة» التي ألقاها أنا!؟

تنهّد هادي وقال:

ـ أنت، تونجي زبيد، تلقى معاملة غير حسنة.. أعرف هذا، ولكن..

ـ سيتغير هذا الوضع في المستقبل.. أنا واثق من ذلك تونجي هادي، لأن الصين، هذه الدولة العظمى، ستجد طريقها إلى الخلاص من إرث الماضي الثقيل، لديكم كل ما يلزم لذلك: الحماسة، العمل الجاد المتواصل، التفاني، وبحكمة أيضًا، وكذلك الجمود العقائدي! إنني أتكلم بصراحة، ولا مانع لديَّ من نقل رأيي هذا إلى القيادة! أنا لست ضد الصين، ولن أكون ضدها في يوم من الأيام، وكذلك الأمر بالنسبة إلى الاتحاد السوفياتي.. هناك أخطاء كبيرة، وهنا أخطاء صغيرة، وصحيح ما يقال عن البيروقراطية، وعن التبرجز، وعن الجمود، والتحجّر، وقمع الحريات، وانعدام الديمقراطية في الاتحاد السوفياتي، وعلى الأحزاب الشقيقة أن تنتقد كل هذا، ما دامت تعرفه، لا أن تسكت بذريعة الأممية! علينا أن نفرّق بين الأممية والتبعية، وأن نَعِيَ الحقيقة ونجاهر بها دون خوف.. حزب لينين، وكذلك حزب ماوتسي تونغ، ليسا معصومين عن الخطأ، ويجب أن نكون

رفاقًا جيدين، حسب تعبيركم، فلا نعطي المعصومية لأحد! من يعمل يخطئ، هذه بدهية، وأنتم تعملون، وهم يعملون، ومع العمل يكون الخطأ الذي يحتاج إلى الاصلاح، وإلى الانتقاد بموضوعية، كي ينبّه إلى هذا الخطأ، ولا بد، إذا تشددنا في الانتقاد، من إصلاح هذا الخطأ كليًا، هل تفهمني؟

كان عبد القادر يترجم، وكنت أكرر العبارة، أوضحها، كي يستوعبها، ويترجمها بشكل قريب، إلى حدّ ما، من الصحة، وهادي يكتب، أو يأخذ ملاحظات، إلى أن قال:

ـ نحن، في الصين، نتشدد في انتقاد الاتحاد السوفياتي، وبموضوعية، كي ينتبه إلى أخطائه ويصلحها، فلماذا، إذن، ترفض تدريس انتقاداتنا في القسم العربي في الجامعة؟

فكرت، قررت، بعد تفكير وتأنٍ، أن أكون صريحًا، وإلى أبعد حدّ، لذلك سألت هادي:

ـ وأنتم؟ أليس لكم أخطاء؟ لماذا ترفضون انتقادات الاتحاد السوفياتي، ولا تصلحون أخطاءكم؟

غضب هادي، توشّحت قسماته بحمرة الغضب، قال:

ـ نحن ليس لدينا أخطاء تناحرية، أخطاؤنا، حتى لو وجدت، ثانوية، ويمكن تداركها مستقبلاً، وفي الوقت اللازم!

أجبت بجزم:

ـ بعض أخطائكم، أنتم أيضًا، تناحرية، وأهمها هذا الكبت للحريات، وهذه المبالغة في دور «الكومونات الشعبية» التي ألحقت ضررًا بالغًا بإنتاجكم الزراعي والحيواني، وأيضًا المبالغة في التقليل من أهمية العلم والتكنولوجيا، والذهاب في ذلك بعيدًا، وبشكل يقدّس الذاتية، ويؤدي إلى النرجسية، كما في موضوع الحديد والصلب، تحت شعار «السير على قدمين اثنتين» أي أنكم، تصهرون الحديد في أفرانكم، وهذا لا بأس به، هذا هو السير على قدم واحدة، أما إعطاء الحديد، ولو بشكل خردة، إلى كل مؤسسة، وكل ورشة، كي تصهره في أفران بدائية الصنع، فإنّه خطأ، وهذا ما تسمُّونه السير على قدم ثانية، وقد كانت النتيجة كارثة، فضاع الحديد ولم يُنتج الفولاذ، وهكذا هبط رقم الإنتاج المحدّد للفولاذ من عشرين طنًا إلى تسعة أطنان في الخطة الخمسية، وقد نبّهكم الاتحاد السوفياتي، وانتقدكم،

في الوقت اللازم، فرفضتم انتقاده المبنيّ على العلم والتجربة، اعتبرتم ذلك تدخلاً في شؤونكم الداخلية والإساءة إلى خصوصية بنائكم للاشتراكية، فماذا تسمي هذا يا تونجي هادي؟ إنّه، في رأيي، الإصرار على الخطأ، وفي مقابل هذا الإصرار على الخطأ، كان إصرار الاتحاد السوفياتي على أخطائه، ومن هنا، وكنموذج واحد، وسبب واحد، بدأ الخلاف، ثم تطور إلى النواحي الأخرى، السياسية والنظرية، وبدل النقد الموضوعي، حلّ النقد غير الموضوعي، وهذا أدّى، بدوره، إلى التسرُّع، وإلى الانفعال، فارتكب خروتشوف خطيئة عمره بقوله، هذا المأفون: «سأركّع الصين» والصين، كما أرى، لن تركع، الآن وفي المستقبل، وقد رددتم على هذا السخف بعنف، فرد خروتشوف بعنف أكبر، وسحب الخبراء السوفيات، وهذه خطيئة عمره الثانية وتحوّل النقاش الرفاقي إلى نقاش عدائي، ثم كانت، مع التدرُّج في الردود الانفعالية، الشتائم المتبادلة، وأنا رفضت، وسأرفض، تدريس الشتائم، أو ترجمتها، ولو كنت في موسكو، كنت سأرفض تدريس الشتائم، أو ترجمتها، كما فعلت في بكين، وهذا هو موقفي، المبنيّ على اقتناع لن أحيد عنه!

قال الرفيق هادي، في محاولة لتغيير الموضوع:

ـ أنت تدخن كثيرًا، تونجي زبيد، وهذا ضارّ جدًا بصحتك.

قلت:

ـ أعرف تونجي هادي، ولكن ماذا أفعل؟ أصلح الترجمات؟ أصلحتها، وهي بين يديك، وقبل ذلك أصلحت ترجمة الكتاب النظري، وتعبت في ذلك كثيرًا، إلاّ أن الكتاب جيّد، وهو مفيد جدًا للقراء العرب، وبالمناسبة، لديكم منظّرون ومفكّرون جيّدون، ولديكم أدباء، ورسّامون، وفنّانون، وحضارة عريقة جدًا، وأنا مسحور بكل هذا، لأنني اطّلعت عليه، أو على بعضه.

قال هادي:

ـ الرفيق المسؤول في دار النشر، وبناء على رأي الرفيق مكين الذي يجيد العربية، يشكرك جدًا على جهدك الذي بذلته في إصلاح هذا الكتاب، وعلى الدقّة في ضبط الترجمة، لذلك أرسل اليك، هذه التحفة الصينية، وهذا المبلغ الذي هو، كما قال، رمزي لا أكثر.

وضع هادي التحفة ومغلف النقود على المكتب، نهض مودّعًا وقال وهو يشدّ على يدي بحرارة:

ـ شي شي ني تونجي زبيد (شكرًا يا رفيق زبيد)
أخرج عبد القادر مغلّفًا من جيبه وقال:
ـ وهذا أجرك عن شهرين من الجامعة.
أعدت المغلف إلى عبد القادر وقلت:
ـ قل للرفيق ليو إنّني أشكره، لكنّني حين لا أشتغل لا أستحق الأجر.
ـ ولكن كيف هذا!؟ إنّه لك، حقك، وأنت تحتاج، لكي تعيش، إلى نقود!
ـ أعيش بالنقود التي هي مكافأة على تعبي في إصلاح الترجمات.
قال هادي:
ـ هذه المكافأة، تونجي زبيد، رمزية، ولا تكفي للعيش.
ضحكت وقلت:
ـ أنا أعيش، تونجي هادي، عيشًا رمزيًا، لأنّني من الرمزيين، ولست من الواقعيين.
هزّ هادي برأسه، تكلّم مع عبد القادر، غادرا، ودّعتهما عائدًا إلى الداخل، وما إن استلقيت في سريري حتى نمت، ومن شدة الإجهاد، والانفعال، والكلام الكثير، الذي أعرف، وأثق، أنه سينقل، إن لم يكن حرفيًا، ففي شكل إجماليّ، وهذا هو أقرب السبل، وأفضل الذرائع لطردي من الصين نهائيًا، وبأسرع ما يمكن.
أفقت في حوالى الثامنة ليلاً، جلست في فراشي بعد إشعال الضوء، أحسست بصداع وخمول، لمت نفسي على سلوكي السيّئ، على ثرثرتي، سخفي، لكنني لم أندم على صراحتي الكاملة، حين هدأتُ وعدت إلى البيت، فما قلته كان يجب أن يقال، إلاّ أنّني، خلال شهرين من انقطاعي عن التدريس، من انحباسي في البيت، من مللي وقرفي، لم أجد الوقت، أو الإنسان، أو المسؤول الذي أقول له ما في قلبي، واليوم، بعد الظهر، حرنْت، ثرت، تفجرت كبركان، أحرقت نفسي، التهبت كهشيم، انطفأت مثله، النوم ماء، ماء بارد جدًا، وهذا الماء أطفأ الحريق، في داخلي، في فمي، في أصابعي، وثيابي، مخلّفًا بعض الصداع والخمول، وهذا أفضل من الحروق، لماذا، عندما نلتهب، نحترق من الداخل فقط؟ آه لو أحترق، بشرارة غضبي، من الداخل والخارج معًا، في هذه الحال أستريح، لا

أعود بحاجة إلى جواز سفر، أنتقل به من تخم إلى تخم، في هذا العالم الواسع الضيّق، أو مكان يؤويني بعد رحيلي من هنا، فلا أعود متشرّدًا، غائصًا في بئر تشردي، صارخًا دون أن يسمعني أحد!

العلاج! هذا كل ما تبقّى، أعالج نفسي بنفسي، وبأيسر الوسائل: القهوة والخمرة! قفزت من السرير، تريّضت قليلاً، هيأت القهوة، الكونياك، جلست، على طريقة بوذا، رافعًا قدمي، متربعًا، احترامًا للأرض، التي أنا منها وإليها، ومن مجلسي تفرّست بمجموعة بوذا التُحفيّة التي لديّ: بوذا الضاحك، بوذا المتكئ، بوذا السمين، بوذا النحيل، بوذا الطويل الأذنين، بوذا الذي يده اليمنى في جسمه، بوذا المطبق الشفتين، ولكل تشكيل يتخذه بوذا معناه، فهو يحترم الأرض، ينعم بخيرها، يضحك لسعادتها، يصغي بأكثر مما يتكلم، يدخل النرفانا بجسم نحيل، منذور للطهارة وحدها، لا يسرق، لا يزني، لا يحب امرأة قريبه أو جاره، بكلمة: يطبّق الوصايا العشر على الطريقة البوذية، قبل أن تكتب هذه الوصايا على لوح من رخام.

لم أكن قد عالجت نفسي بعد، ولم أفرغ من تأمُّلاتي حول بوذا والتشكيلات الفنية لتماثيله، حين رنَّ جرس الهاتف، وكان حسن على الخط، بكل لطفه وطرافته، ولغته العربية التي أهم ما يميّزها كلمتان: يا أخي، وكمثلي، فسألته:

ـ ماذا هناك يا صديقي؟ هل من خازوق جديد؟

أجاب:

ـ نعم! هناك خازوق إنكليزي، لينا تعرّفت إلى فتاة إنكليزية، تعمل في الصين كمثلنا، وجاءت مع لينا لتتعرف على الجو الشرقي، الفارسي، وهي لا تتكلّم إلاّ الإنكليزية، فماذا نفعل!؟ تعال ترجم لنا!

ـ وهل هي جميلة؟

ـ جدًا!

ـ ما اسمها؟

ـ مارلين! وهي كمثلك، وحيدة، تعال بسرعة!

ذهبت، لكن دون سرعة، وفي الطريق تساءلت: من هي مارلين هذه؟ ولماذا هي وحيدة؟

- ٢٧ -

في الساعة التاسعة كان زبيد في مبنى الإدارة دخلها متمهلاً، غير مكترث، لمعرفته أن الكلام سيدور حول حادثة حريق بيت جيفرسون، وليس لديه، هو زبيد، سوى قول الحقيقة بكل موضوعية، وكما جرى الحادث تمامًا، ولهم، بعد ذلك، أن يصدقوا أو يرتابوا، فالريبة، في مناخ فقدان الديمقراطية تطفو دائمًا على السطح، كنقطة الزيت، حتى إنَّها، في التشكك الدائم، تغدو طغراء حميدية، يمكن أن يُدفع بها أي إنسان، هذه الدمغة، كعلامة الاستفهام، نقش لا يزول، أو هي، في التداول، كالعملة الرديئة، التي تطرد العملة الجيّدة، وتسود السوق، لفترة قد تطول، وكل تاجر يسعى إلى التخلُّص منها، عن طريق الدفع، لتصبح عند تاجر آخر، يسعى، هو أيضًا، للتخلُّص منها بالطريقة نفسها، وهكذا.

انتظر زبيد في غرفة أمين السر، وراح، من حين إلى آخر، ينظر في ساعته، كاحتجاج صامت على هدر الوقت، وعدم التقيُّد بالموعد المضروب، مع ملاحظة أنّ إدارة بيتاخو، هذا المساء، تنعم بقلة الراحة، لأنَّها وجدتْ، أخيرًا، ما يشغلها، بحدث استثنائي، لا سابق له في هذا المصيف الصيني الجميل، فمَنْ يدخل إلى مدير الإدارة، لا يخرج من حيث دخل، فهناك باب خلفيّ، يفضي إلى الخارج، أو إلى غرفة العزل، أو غرفة التوقيف، حسب القناعة التي تتشكل، في إطار الريبة، او الاتِّهام المسبق، لدى المدير والمحقِّق، وكلاهما يميلان إلى اعتبار أنّ كل إنسان متَّهم حتى تثبت براءته، وفق منطق الحكم التوتاليتاري، وليس العكس، وبرغم أنف البديهة الحقوقيّة التي تنصّ على أن كل إنسان بريء حتى تثبت إدانته.

اعتذر سكرتير المدير، ثلاث مرات، لزبيد عن التأخير، وقبل زبيد الاعتذار، لثلاث مرات، دون تذمُّر، فهْمًا منه لآليّة الأمور في مثل هذه

المواقف، فهناك تأخير متعمّد، كما في جميع إدارات الأمن، في جميع بلاد الحكم الشمولي، والغرض منه الضغط على أعصاب المستدعى للتحقيق، وهناك تأخير، متعمّد أيضًا لإشعار المطلوب، صاحب المكانة، ألاّ مجال هنا لأخذ المكانة بعين الاعتبار، وهناك تأخير لوجه التأخير، لأنَّ الداعي يشرب القهوة، أو الشاي، أو يتحدث هاتفيًا، أو لأنَّه، بكل بساطة، نسي المستدعى المنقوع في الماء الغالي، كالشاي الأخضر، حتى يتخمَّر على مهل!

مهما يكن، فقد أُدخل زبيد إلى غرفة المدير في الساعة العاشرة، وقد نهض المدير مبتسمًا، غير معتذر، ونهض شخص آخر، يجلس إلى جانبه، معفّر الوجه بعبوس مصطنع، وجلس دون مصافحة، وهذه علامة على جدية الموقف، وعلى إبقاء مسافة ما، بينه وبين الآخر، المطلوب لأمر غير سارّ غالبًا.. ولأنَّ زبيد مجرّب، بحكم القدم في الصين، جلس غير مبال بالابتسامة أو التكشيرة، ومنذ فتح الكاتب، الجالس في الزاوية قرب المترجم، دفتره لتدوين الإفادة، قال زبيد، بهدوء إنسانٍ محصّنٍ ضد الانزعاج أو الانفعال:

ـ بأي صفة أنا هنا؟

قال المدير:

ـ بصفة ضيف!

ردّ زبيد:

ـ الضيف لا تدوّن أقواله، حتى لو سُجّلت سرًا!

قال المحقّق المغْفل الاسم:

ـ أنت، تونجي زبيد، متّهم بحرق المدعو جيفرسون، نعم أم لا؟

رد زبيد متحدّيًا:

ـ نعم إذا كان التحقيق بهذه الطريق المبتسرة جدًا، والمخالفة جدًا لكل الأصول، ودون أن يكون مع المتهم الذي هو أنا محاميه.. هيّا، ضع القيد في يدي يا سيّدي المحقق، وبعد ذلك إلى السجن ثم المشنقة!

نهض المحقّق، دار حول زبيد كما في فيلم سينمائي، وقال بغلظة:

ـ تأدّب في الكلام وإلاّ..

ـ وإلاّ ماذا؟ أنا لم أصل إلى هنا من قصر في إمارة موناكو، وصلت

إلى هنا قادمًا من بيروت، حيث كان البوليس يطاردني لأجل المبدأ، لأجل الاشتراكيّة، ولأجل صداقة الصين، البلد الاشتراكي الذي يقول لي فيه محقّق معادٍ للاشتراكية: تأدّب!

صاح المحقّق وقد رفع يده:

ـ اخرس أيها السفيه!

قبض زبيد على ذراع المحقّق وقال:

ـ وإذا لم أخرس؟ وإذا لم أتكلم إلاّ بحضور محام عني؟ وإذا قلت لك إن جورج ديمتروف، الذي اتّهم بحرق الرايخشتاغ إبّان الحكم النازي، أُعطي فرصة للدفاع عن نفسه، قبل أن يخيِّر بين كلمتي: نعم أم لا!؟ إنَّني أحتفظ بحقّي في الادِّعاء عليك، والتونجي المدير سيكون الشاهد في هذه الدعوى!

قال مدير الإدارة:

ـ تونجي زبيد، لا حاجة للانفعال أو القسوة في الكلام، أعرفك هادئًا، ورفيقًا جيّدًا، وصديقًا وفيًا للصين، وخبيرًا يقدِّم مساعدةً فوق طاقته أحيانًا، لبناء بلدنا الاشتراكي.. آمل أن يتوقّف الاستجواب إلى ما بعد ردّي على الهاتف في الغرفة المجاورة، تفضّل اجلس، أرجوك!

قال زبيد:

ـ وأنا أرجوك، أيُّها الرفيق المدير، أن تلاحظ أنّه لم يكن هناك استجواب، بل حكم اعتباطيّ مرفوض!

لم يجب مدير الإدارة، فتح بابًا غاب وراءه، وبعد دقائق دخل سكرتيره ليقول للمحقق:

ـ الهاتف لك تونجي!

نهض المحقّق الشاب، المفعم بثوريّته الشديدة، غير المبررة شكلاً ومضمونًا، كأنّه آت رأسًا من المسيرة الكبرى، أو كأنّه تشوته، وزير الدفاع الصيني نفسه، أو أنَّ تحرُّر الصين قد تم بفضل ثوريته الفظيعة! وعندما فتح الباب وتوارى خلفه، جلس زبيد وأشعل سيكارة، واضعًا رجلاً على رجل، في حركة عفوية، فيها قدر من التحدِّي أضحك المترجم وكاتب المحضر، اللذين تكلما مطولاً، واختصر المترجم كل هذا الكلام الطويل بعبارة واحدة: «المسألة بسيطة»! إلاَّ أن زبيد، الذي كان ينفث دخان

سيكارته إلى أعلى، قال بحسم: «لا! المسألة غير بسيطة!».

عاد مدير الإدارة والمحقّق، جلس كل منهما في مقعده، حاول المحقق، الذي عرّفه المدير باسم «تونجي تن بو» أن يمسح غبار صفراويته المرضيّة، المنبعثة من حقده المكتوم، دون كبير نجاح، فأنجده المدير بقوله:

ـ تونجي زبيد! هل تقبل، إذا تكلمنا كرفاق، أن تروي لنا تفصيلات الحادث؟

قال زبيد:

ـ هناك، في العادة، سين وجيم، مع أمثالي من المتهمين، فما هو السؤال الأول؟

أجاب المدير:

ـ أنت لست متهمًا، تونجي زبيد، ولا حاجة إلى محضر، كل ما يطلبه الرفيق المحقق، أن يسمع رواية الحادث منك، وبعد ذلك، وإذا كانت هناك ضرورة، يطرح عليك بعض الأسئلة، ويستمع منك إلى بعض الأجوبة.. ما رأيك؟

قال زبيد:

ـ في هذه الحال، لا مانع لديَّ! ولتسجِّل أقوالي، كلمة كلمة، فهذا لمصلحتي!

بعد ذلك روى زبيد الحادث، بهدوء، وبشكل إملائي، وختم قائلاً:

ـ لو لم أكن حاضرًا، وبالمصادفة، لاحترق الرفيق جيفرسون، وغدًا تسمعون هذه الحقيقة منه، لأنَّني كنت معه في سيّارة الإسعاف، وفي المستشفى، ولم أغادر إلاّ بعد الاطمئنان على سلامته.

تبادل المدير والمحقّق النظرات، وبعد صمت قصير قال تن بو:

ـ تونجي، زبيد، هل جيفرسون صديقك؟

ـ نعم!

ـ وهل أنت متأكد من هذه الصداقة؟ وهل هي متبادلة؟

ـ بالنسبة إليّ، صداقتي لجيفرسون مؤكّدة، وقد أكرمته، وحميته، ودافعت عنه هنا، في هذه المديريّة، وهذه الغرفة، وأمام الرفيق المدير، مرات عديدة، وكان، في كل مرة، يفتري عليَّ، متذرّعًا بالأكاذيب!

ـ مثل ماذا؟

ـ مثل أنّني خطفت خطيبته مارلين منه، أو أنّني لا أتنازل له عنها، أو أنّه يريد أن أرغمها، أنا، على أن تكون عشيقته، أو زوجته، وبالقوة! وكثيرًا ما بكى بين ذراعيّ، طالبًا مني أن أتيح له فرصة التحدُّث إلى مارلين، خلال وجودنا في المطعم، وكنت أفعل، وأبتسم وهو يعلن أنّني صديقه الوفيّ، وأنه يريد أن يقبّل يد مارلين، أو خدها، وكانت مارلين ترفض باشمئزاز، وعندئذ كان يسكر ويعربد، ويحاول تحطيم كل شيء.. هذا، في نظري، معروف من الرفيق المدير، ومن الرفيق مدير المطعم، ولا حاجة لتفصيل أكثر.. وفي وسعكم أن تسألوا جيفرسون نفسه، في حال الصحو، وأنا على يقين من أنه لن ينكر.

قال المحقق تن بو:

ـ وإذا قلت لك إن جيفرسون أنكر؟

ـ يكون عديم الشرف، كرفيق يعمل في بلد اشتراكي!

ـ وإذا قلت لك إنه اتُّهمك بمحاولة إحراقه؟

ـ يكون نذلاً!

ـ هل تقول هذا إذا ما أجرينا مواجهة بينكما؟

ـ أقوله كله، وبالأدلّة والشهود!

قال المحقق تن بو:

ـ كلامك عن الحادث، تونجي زبيد، يتطابق مع شهادة السيّدة نلسون، التي كانت حاضرة معك في بيته، عندما سقطت سيكارته وأشعلت الحريق.. شكرًا، وآمل أن تلاحظ أنّني محقّق، وإنّ من واجبي أن أباغت الذي أحقق معه، وأعطيه نوعًا من الصدمة، في بادئ الأمر!

قال زبيد:

ـ وهذا ما فعلته معي أيضًا!

ـ كنت مضطرًا بحكم المهنة!

ـ وأنا أجبت بحكم المهنة أيضًا!

ـ آه! هل درست الحقوق؟

ـ نعم، ولكن في السجون، دفاعًا عن المبدأ!

ـ يدرّسون الحقوق، عندكم، في السجون؟

ـ نعم! ولكن بوسائل أخرى، أشدّ قسوة ممّا تتصوّر.. لا بأس! أعذرك تونجي تن بو، لأنّك قادم من معركة ضد تشيانغ كاي شيك إلى هذه القاعة مباشرة!

غضب تن بو وقال:

ـ أرفض هذا التشبيه، انتبه!

قال زبيد:

ـ أنا منتبه إلى حماسك الثوري اللاهب، وأعرف أساليب التحقيق، مثل المباغتة والصدمة وغيرهما، وأعذرك لأنّك شاب، وقد نوّه الرفيق ماو، في كتبه وأحاديثه، بقلقه حول مستقبل الشباب، لأنّهم بحاجة إلى رعاية خاصة، وطرائق ملائمة في التوجيه.. والآن؟ انتهى التحقيق؟ إذن ضعوا القيد في يدي حتى لا أهرب من الصين!

احتدّ تن بو وأجاب:

ـ لا أحد يهرب من الصين!

نظر إليه زبيد وقال:

ـ هذا صحيح، وأعرفه قبل أن أعمل في الصين، وعرفته مرة أخرى بعد أن عملت فيها، لكنّني، وثق بما أقول، أعرف أيضًا أن لا أحد يُعذّب نفسيًا أو جسديًا، أو يُظلم، أو تُساء معاملته، من الرفاق الأجانب في الصين.. العدالة فوق الجميع، والحق يعلو ولا يُعلى عليه، وهذه من بدهيّات علم القانون، لذلك أضع نفسي في خدمة العدالة.. مع احتفاظ بحق الادّعاء عليك، اذا ما ثبتت براءتي، لأنّك حاولت تعذيبي نفسيًا، لانتزاع اعتراف كاذب مني! بقي لديّ سؤال واحد: من هنا إلى أين؟

قال تن بو بعصبيّة:

ـ إلى البيت! أو تبقى موقوفًا لدينا! اسمع! ذهابك إلى البيت لا يعني أنّك بريء..

ـ ولماذا إلى البيت؟ من الأفضل أن أبقى «ضيفًا» عليكم.. أين هي غرفة التوقيف؟ أو ما رأيك أن أساق إلى السجن مباشرة!؟ أنا، تونجي تن بو،

قنّاص تجارب، وأرغب، صادقًا، أن أقنص تجربة السجن في الصين، أوتتكرّموا بها عليّ، وعندئذ أشكركم، وأقدم فروض الولاء والطاعة!

صاح المحقق تن بو:

ـ تعرف ما معنى هذا الكلام؟ إنّه تحقير للقضاء في الصين! وهو، أيضًا، تهجّم وقح على ممثل هذا القضاء بشخصي كمحقق رسمي في هذه القضية.. تحسب نفسك شاطرًا!؟ سأريك نتيجة هذه الشطارة!

قال ذلك ورنّ الجرس، دخل شرطي مدني فقال له:

ـ ضع القيد في يديه، وخذه إلى سجن الخطرين في بيتاخو البلد.

أدّى الشرطي التحية، وضع القيد في يدي زبيد، ساقه إلى سيارة مغلقة، نقلته إلى سجن الخطرين، حيث أوقف، وهو يقول في نفسه: «بالأمس اتّهمت بأنّني لا أؤمن بالطب الصيني، واليوم أُتّهم بتحقير القضاء الصينيّ، وغدًا!؟ إنّها، يا زبيد، مغامرتك الأخيرة، وبعد ذلك إلى الجحيم، مقرّ الأشقياء أمثالك!» ولأنّه كان مستعدًا نفسيًا، ويعرف أجواء السجون والقواويش، وقف وراء القضبان الحديديّة المألوفة دون ندم أو أسف، رغم أنّه، في الحوار الأخير بينه وبين المحقّق، كان متدخلاً في شأن لا يعنيه، كان يريد نقد أسلوب التحقيق، المنبثق، بدوره، عن أسلوب اشتراكي لم يقصّر في انتقاده، خلال وجوده في الصين، وكان هذا يورّطه في مشاكل صغيرة، ما كان يظنّ أنها ستؤدّي، في تطوّرها، إلى مشاكل كبيرة، كمشكلته مع المستشفى الذي هرب منه، ومشكلته الآن مع المحقق تن بو، غير أنّ الماء المسفوح لا يُلتقط بالأصابع، والريح لا تقف لمجرد رغبتنا في أن تقف، وزبيد الذي يريد تقويم ما يعتقده اعوجاجًا، نسي، أو تناسى، أن هذا الاعوجاج في صلب معمار النظام الاشتراكي البيروقراطي، وجموده العقائدي، وتشدّده في القمع، تحت ذريعة الخوف على هذا المعمار، الذي لم تترسّخ ركائزه بعد، أن ينهار تحت ضربات «الانتقاد غير البنّاء» حتى لو كان هذا الانتقاد بنّاء، ويملك صدقيته في ما جَرَيَاتِ الواقع.

وقد فوجئ الموقوفون الصينيّون، بوجود موقوف غير صيني بينهم، وككلّ الحالات، في كل السجون، كان لا بد من طرح الأسئلة على هذا «الزميل» الجديد، لمعرفة جنسيّته، قضيته، وهل هو شجاع أم خوّاف؟

وماذا يحمل معه من سكائر أو نقود؟ وما هي الوسيلة الفضلى للاستيلاء على كل، أو بعض، ما معه، خاصة وأنَّه يبدو على شيء من وجاهة؟ وكما في كل قاووش، داخل أي سجن، لا بدّ من وجود آمر من بين السجناء، لا بدّ، في هذا القاووش أيضًا، من وجود موقوف متنفّذ، بقوة ساعده أو قوّة إجرامه، يتولّى الكلام، بالشكل المناسب، مع الموقوف الجديد.. زبيد يعرف هذا من تجاربه، وقد توقعه، في هذا القاووش القذر إلى حد مخيف، النتن، العفن، ذي الرائحة الكريهة، المزدحم بالموقوفين والمحكومين، حليقي الرؤوس، مبطّني الأعين، عراة الأجسام، إلاّ ممّا يستر العورات، الفقراء، المعدمين، ضامري الأجسام، على نتوء بارز في عظام الضلوع، والكتفين، وألواح الظهور، وفي نظراتهم شرّ، ضراعة، توسل، استجداء لكل ما يمكن استجداؤه، أو أخذه عنوة، بالعنف الذي لا يرحم.

كان الحرّ شديدًا، والرطوبة مرتفعة، لزجة، تجعل الثياب تلتصق بالجسم، كما تلتصق الخرقة بالدبق، ولاحظ زبيد أن أحد الموقوفين يدور حوله، يتفرّسه، يسبر غوره، قبل أن يأتي ويسأله السؤال المعتاد عن جنسيّته، عن أصله وفصله، وقد حدث هذا فعلاً، وفورًا، فلما علم الرجل السجين المتنفّذ أنّه عربي، قال للآخرين، الذين وراءه:

ـ تونجي ألبو (الرفيق عربي).

تعالت الأصوات، تداخلت، تقاطعت، وكثر اللغط، دون أن يفهم زبيد شيئًا مما يقال، وبعد قليل تقدّم منه موقوف، زئبقيّ النظرات، مبلوع عظم الذقن، ناحل الجسم كالريشة، تدلّ هيئته على أنه لص، فسأله:

ـ تعرف الإنكليزية؟

أجاب زبيد:

ـ قليلاً!

ـ وأنا أعرفها قليلاً أيضًا، كنت مستخدمًا في إحدى السفارات الأجنبية في بكين.

ـ ولماذا أنت هنا؟

ـ وهل تحقّق معي؟

ـ أريد أن أعرف شيئًا عنك، وهذا لمصلحتك.

قال الموقوف بخبث:

ـ ولماذا تريد أن تعرف؟ وأي مصلحة لي بتعريفك بنفسي؟ أعطني سيكارة ثم نتحدث، فأقول لك كل شيء، بعد أن تقول لي كل شيء أنت أيضًا.

تدخل الرجل المتنفذ في القاووش قائلاً، وهو يمسك عنق المستخدم السابق، لا يدري زبيد في أي سفارة:

ـ تونجي ألبو نيخا(الرفيق العربي مرحبًا)!

ردّ زبيد:

ـ نيخا!

قال الموقوف المتنفّذ، مشدّدًا على عنق المترجم اللص:

ـ ماذا تعمل في الصين؟

ـ أعمل أستاذًا في جامعة بكين، القسم العربي.

ترجم اللص، بلغة إنكليزية مفككة، بعض ما قاله زبيد، مؤدّيًا المعنى بصعوبة، مستعينًا على ذلك باشارات من يديه، والموقوف المتنفّذ يحاول أن يفهم، وأن يفهّم، دون نجاح، إلاَّ أنَّ زبيد بادر إلى تقديم سيكارة له، أشعلها بعد أن أشعل سيكارة لنفسه، وقدّم سيكارة ثالثة إلى المترجم اللص، وعندئذ هجم الموقوفون الآخرون، متزاحمين، متدافعين، وامتدت الأيدي، كغابة من الأغصان اليابسة، محاولة الاستيلاء على ما يمكن الاستيلاء عليه، وفجأة لمع حد سكين، وهدر صوت المتنفذ صائحًا بهم:

ـ إلى وراء! كلكم إلى وراء! أتعرفون من هذا!؟

علت بعض الأصوات:

ـ لا نعرف، ولا نريد أن نعرف، ولا يهمنا أن نعرف يافون تو!

قال فون تو:

ـ تكلموا، يا أولاد العاهرة، واحدًا واحدًا!

قال ذلك، بصوت آمر، ممسكًا بأقرب موقوف منه، موجهًا اليه الصفعة بعد الأخرى، حتى سال الدم من فمه، وهو يصرخ:

ـ لا تضرب أكثر يا فون تو، ارحمني! سأتراجع إلى الوراء، إلى الجدار.. سامحني، سامحني، أريد سيكارة فقط، سيكارة واحدة اقتلني بعدها...

قال زبيد لفون تو:

ـ هل هناك من يشتري لنا سيكارات؟

ـ اذا وُجدت النقود نعم!

اخرج زبيد عشرة يونّات، أعطاها لفون تو قائلاً:

ـ اشتروا سيكارات بها كلها.

لوّح فون تو بالنقود، شتم وقال:

ـ نشتري، لهذه الليلة، بخمسة يونّات فقط، ومن النوع الذي نشربه هنا لا أكثر! ألم أقل لكم إن هذا الرفيق عربيّ، وهو من غير صنفكم يا أوغاد؟ علينا، نحن الصينيين، ومهما يكن وضعنا، أن نحترم ضيفنا، إنّه، بعد كل شيء، معلم مدرسة في بكين!

قال موقوف:

ـ كلامك واضح يا فون تو، يا بغل سيتشواني، لكننا، هنا، نحتاج إلى خبز..

قاطعه آخر:

ـ خبز وسيكارات!

قال ثالث:

المسألة، يا سفلة، ليست مسألة خبز وسيكارات..

قاطعته أصوات:

ـ مسألة ماذا اذن؟

ـ مسألة نقود. ضيفنا لا يبخل علينا.. اتركوا فون تو يتفاهم معه، وأنت، يا زو، ترجم جيّدًا، قل له إننا نشكره على السيكارات، ولكن ماذا بشأن الخبز؟ بشأن قليل من الأرز؟ قل له، يا زو، أن يكون كريمًا أكثر، أن يعطينا بالرضى كل ما معه من النقود، حتى لا نأخذها بالقوة، نعم! بالقوة، ولكن ليس الآن..

تعالت الأصوات:

ـ ومتى إذن؟

ـ عندما يغادرنا إلى مدرسته في بكين، وليس قبل ذلك.. هذا من الذوق، ومن الواجب أيضًا.. انظروا! جاءت علب السيكارات.. وزّع يا فون

تو! وزّع بعدل، بانصاف، كما لو أنّك توزّع الخبز، والأرز، والبيتساي، مع المرق الكثير.. أمّا اللحم فقد نسينا طعمه، لذلك لا نطالب به، وقل يا زو، لمعلم المدرسة هذا، إنهم يعطوننا بعض الطعام، للشم فقط.. هل يكفي شم الطعام فقط لكي نبقى أحياء؟

صاح به فون تو:

ـ كفى! كفى أيُّها الثرثار، اخجل من ضيفنا، ماذا سيقول عنّا غدًا عندما يغادر الصين؟ ثم لماذا أنت هنا؟ لأنّك مجرم، وهل تنتظر منهم أن يدعوك، أنت القاتل، إلى وليمة في قصر الشعب؟

ـ وأنت!؟

ـ أنا شيء آخر!

ـ أنت هارب من السجن، لكن إلى أين؟ يد السلطة طويلة، بطول عنقك الذي سيضعون فيه الحبل عند إعدامك.. أم نسيت أنك محكومٌ بالإعدام؟

سأله فون تو:

ـ وأخيرًا!؟ تسكت أم أبعث بك إلى...!؟

ـ أسكت! أسكت احترامًا للضيف، ولكن الضيف لن يتكلم علينا بسوء.. أكل من خبزنا وملحنا، وهو، كمعلم بوذيّ، يحترم الخبز والملح.

قال زو المترجم:

ـ ولكن ضيفنا المعلم ليس بوذيًا!

ـ كيف!؟ وهل في الدنيا غير البوذيّة؟ عجيب! هل انتهيت، يا فون تو من عدّ السكائر لتوزيعها؟ أسرع، إنّني في الرمق الأخير..

قال زو:

ـ ولماذا لا تموت فنوفّر حصتك؟ ساعده، يا فون تو، على طلوع روحه، وبذلك نرتاح من ابن الكلب هذا.. ما رأيك يا معلم المدرسة؟ ولكن ما اسمك أولاً؟

ـ زبيد، تونجي زبيد! وزع يا أخي فون تو السيكارات بسرعة.. دعهم يدخنوا، اخوتي هؤلاء! أمّا أنا فأعدكم، أعدكم وعد شرف، الا أتكلّم بسوء عنكم أو عن الصين، لأنّني أكلت من خبزكم وملحكم، وماذا بعد الخبز والملح؟

وزّع فون تو السكائر، ساد الهدوء، انصرفوا إلى التدخين، غام الجو في كل أنحاء القاووش، اشعل زبيد، بدوره، سيكارة، راح يتنشق الهواء خلل القضبان، فكر: «ماذا يفعل الرفيق ماو، لإشباع كل هذه البطون الجائعة؟ وماذا يفعل لإخراجهم من الظلمة إلى النور؟ وهل يدرك الذين هم خارج الصين، أيّة أعجوبة تجترحها الكلمة، لكي تبقي على شرارة الحماسة في قلوب الذين يشدون الأحزمة تقشفًا، ويتابعون البناء بهذه الوتيرة العالية!؟»

مد يده إلى جيبه، أخرج كل ما معه من نقود، قدمها إلى فون تو وقال:

ـ هذا كل ما أملك يا رفيق، اشتر به خبزًا وأرزًا، ووزّعه بعد، على الجميع، أنت إنسان طيب، وأنا أعرف.

قال فون تو وهو يبكي:

ـ وأنت؟ تطعمنا وتبقى جائعًا؟ ليتني لم أعرفك!

ـ لماذا؟

ـ لأنّك.. ماذا أقول؟ وحدك الذي اكتشف أنّني إنسان طيب، وأن في قلبي الأسود، أنا المجرم، بقعة غير سوداء، شكرًا، لأنّ الكلمة.. لا بأس! اطمئنّ! أقول لك اطمئن، وماذا لديَّ غير ذلك!؟

اليوميّة السادسة والعشرون ١ شباط ١٩٦١

الدروجبا برج بابل من حيث اللغات، ففي وسعك أن تسمع فيها، لا اللغات الحيّة فقط، بل اللغات التي هي منسية تقريبًا، من الأوردية إلى المنغولية، ومن لغة التيبت إلى لغة التتر، ومن الشيشانية إلى الغجرية، ما عدا اللغة العبرية، المستبعدة تمامًا، لأنَّ الصين الشعبية لا تعترف بإسرائيل، وتعادي الصهيونيّة كحركة عنصرية. أطفال الدروجبا وحدهم، من كلّ الجنسيات والقوميات، يتكلمون اللغة الصينية بطلاقة، لا تدري كيف وأين تعلموها، إنّما تعجب لأنّها اللغة المشتركة بينهم، دون مدرسة او مدرِّسين، وقد قال لي أحد الرِّفاق العرب الذين غادروا الصين، إن ابنته الصغيرة، كانت الترجمان بينه وبين بعض الصينيين، وكانت تقول له: «أعرف ما يقوله التونجي، لكنني، بالعربية، لا أعرف كيف أقول» ومرة

سـألْتُـه: «مـاذا يتكلم الناس في بلاد العـرب؟» فـضـرب على رأسـه وقـال: «ضاعت البنت!»، وعجّل، بعد ذلك، بالرحيل!

حسن يتكلم الفـارسـيّـة، وهي لغتـه الأصليـة، ويتكلم أيضًـا الروسـيـة والتركية، واللغتين العربية والفرنسية قليلاً، إلاّ أنّ مارلين تتكلم الإنكليزيّة فـحسب، ولهـذا اسـتـدعاني ليـعـرف مـا تريد، فلمّا دخلت بيتـه حيّيت بالصينية، فردّت لينا، وضحك هو قائلاً:

ـ دورك اليـوم، يا أخي زبيـد، التـرجـمـة فـقط، لكن الصـيـد في نهـر اليانغتسي (النهر الأصفر) وليس في بيتي!

صافحتُ مارلين وجلست، قلتُ لحسن:

ـ أنا، يا حـسن، سـأصطاد في نهـر الميـسيـسبي، لأنّني مـسافـر إلى هناك، وسآخذ، اذا استطعت هذه الحسناء معي، ما قولك!؟

ترجم حسن ما قلته للينا، فضحكت وقالت:

ـ من الأفضل أن تأخذها من الآن، حتى لا تخطف حسن مني، تعرف ماذا قال لي منذ رآها؟ إنّه سيتعلّم اللغة الإنكليزية!

ـ هـذا كـلام فـارغ يا لينا، أنت أجـمل من مـارلين، وإذا تركك حـسن فسأخطبك أنا، ما رأيك؟

قال حسن:

ـ يا ملعون! أنت أخي، وكمثلي، فلماذا تفعل هكذا!؟ أنا لا أترجم هذا الكلام يا صـديقي، لأنّني أريد أن أجـمع بين الاثنتين، وبالحـلال، لأنّ الإيرانيين، وفاء للقومية الفارسية، يتزوّجون أربع نساء، دفعة واحدة!

سألت مارلين باللغة الانكليزية، واللهجة اللندنية المحبّبة:

ـ ماذا يقول الرفيقان؟ وهل لينا زوجة حسن، وكيف!؟

أجبتُها:

ـ لينا خطيبة حسن لا زوجته، أما «كيف»؟ هذه فلا أدري! هل أنت في الدروجبا حديثًا؟

ـ منذ شهر وبضعة أيّام فقط، لكنّني عرفت، خلال هذه المدة القصيرة، أمورًا كثيرة، ومنها أن الأجنبيّ لا يجوز أن يحب صينية، فكيف اذا خطبها!؟

ـ قلت لك إن هذه الـ «كيف!؟» لا أعرف عنها شيئًا، ما تبقّى أنت فيه على حق، وأنا فيه على حق أيضًا، لأنّهم حذّروني من حب أي صينية، وأنا حذر جدًا من هذه الناحية!

سألت مارلين:

ـ وماذا إذا أحبّت الأجنبيّة رجلاً صينيًا؟ أفلا يتساهلون من هذه الناحية؟

قلت ضاحكًا:

ـ جرّبي!

ـ وما هو ثمن تجربة كهذه؟

ـ الشك، بكل بساطة، وهذا لا شيء!

ـ الشكّ في مَنْ؟

ـ في الحبيبة والحبيب معًا!

ـ وماذا ينتج عن هذا الشكّ؟

ـ سأجيبك عن هذا السؤال بعد دراسة قانون الأحوال المدنية في الصين!

ـ أنا أسأل من الناحية السياسية!

ـ الرفيقة باي لي تجيبك عن هذا السؤال.. إنّما احذري أن تفهمك خطأً، لأنّها لا تفهم إلاّ خطأ، بسبب من أنّها «جميلة» جدًا، ودوغمائية جدًا، وتنقل ما تسمع إلى قيادة الدروجبا نقلاً «أمينًا» جدًا جدًا، تعرفين لماذا؟ لأنّها عانس، وهنا الإشكالية!

ـ نعم! كما تقول، عرفت باي لي ولم أرتح إليها.. إنّها تدسّ أنفها في ما لا يعنيها!

قال حسن:

ـ يا أخي زبيد، أنت جئت للترجمة، أم للحديث مع الضيفة؟ لطفًا! اسألها ماذا تريد أن تشرب؟

سألتُ مارلين فأجابت ضاحكة:

ـ كوكا كولا!

ضحكنا لهذه النكتة التي تدل على «خفّة دم» مع أن الإنكليز متزمّتون،

ودمهم غير خفيف أبدًا، وخوفًا من أن تستاء لينا من حديثي المطول مع مارلين، قلت لها:

ـ ما رأيك بالماء الساخن يا مارلين؟

أجابت:

ـ شكرًا. لديَّ، كما لديكم جميعًا، «ترمس» مليء منه!

ـ والماء الساخن مع الشاي الأخضر؟

ـ لا بأس، ما دام ليس هناك غيره!

قال حسن:

ـ لدينا غيره الكثير: الفودكا والماوتاي والنبيذ.. وأنا!

قالت مارلين:

ـ فقط!؟

ـ وماذا تريدين غيره؟

ـ أن ألقي نظرة على التحف الفارسية!

قلت:

ـ وأنا يا حسن أرغب في رؤية هذه التحف.

ضحك حسن وقال:

ـ من التحف الفارسية لا يوجد سواي؟

قالت مارلين:

ـ وماذا أفعل بك أنت؟

ـ كل شيء!

ـ أنت لا تنفعني في شيء، لديك خطيبتك لينا، وهي صديقتي، أريد شيئًا آخر!

ـ مثل ماذا؟

ـ سجادة عجمية مثلاً!

في الترجمة أبدلت كلمة عجمية بكلمة فارسية، لعلمي بأنَّ الإيراني، حتى لو كان رفيقًا، لا يرتاح إلى كلمة عجمية، لأنَّها، في نظره، معيبة، وقد ضحك حسن لطلب مارلين وقال:

ـ سجادة فارسية فقط!؟ وهنا في الصين!؟

قلت من عندي:

ـ سجادة فارسية وتبريزيّة أيضًا!

ـ تبريزيّة!؟ ودفعة واحدة!؟ من أين علمتْ، هذه الحسناء، أنّني تاجر سجاد!؟

قالت مارلين:

ـ من رفيق وزميل إيطالي، يعمل في الصين، ويسكن معنا في الدروجبا!

سألتُ:

ـ مَنْ؟ أنجيلو؟

ـ وهل تعرفه؟

ـ لا أعرف إنسانًا طريفًا ومجنونًا غيره!

ضحكنا، لينا وحسن وأنا، لأنّني كنت قد رويت لهما قصة هذا المغامر، الجاهل، المهووس بالتحف الصينية.. والآن التحف الفارسية أيضًا! ولأنَّ مارلين استغربت ضحكنا، سألت:

ـ هل أنا مخطئة؟

قال حسن:

ـ أنت غير مخطئة، وأنجيلو «خبير» بالتحف، قولي له إن عندي سجادة تبريزية، لأنّني أنا من تبريز، وأرغب ببيع هذه السجادة على شرط: أن يكون تسليمها عند مغادرتي الصين!

سألت مارلين بسذاجة:

ـ تبيعها له أم لي؟

قال حسن:

ـ له بشرط، ولك بشرط آخر!

ـ وما هو هذا الشرط بالنسبة إليّ؟

وضع حسن يده على فمه ليخفي ابتسامته، كان شرطه أن تكون مارلين له، فهمت هذا فورًا، قلت له: «لا تكن خبيثًا يا حسن!» قال: «ولماذا

يا أخي؟ أنا إنسان مؤمن، كمثلك، والله هو الذي أرسل لي هذا الرزق، فلماذا تريد أنت، اللعنة عليك، أن تحرمني منه؟»

سألتْ مارلين:

ـ ماذا يقول الرفيق حسن؟

اتخذتُ سمة الجد، قلت لها:

ـ سيفكر في الأمر.. أنا ذاهب إلى المطعم!

نهضتْ وقالتْ:

ـ وأنا أيضًا! متى آخذ الجواب؟

ضحكنا، ضحكت لينا أيضًا، سألت مارلين ونحن نغادر:

ـ لماذا تضحكون:

قلت:

ـ لأنَّ السجادة اشتريتها أنا!

ـ وأين هي الآن؟

ـ في تبريز!

ـ وهل أستطيع أن أراها؟

ـ سنتحدّث حولها ونحن نأكل. هل تقبلين دعوتي إلى الغداء؟

ـ وماذا أقول لانجيلو؟

ـ قولي له، بعد الغداء، تفاهمْ مع زبيد حول هذه السجادة!

ـ هل هذا معقول؟

ـ هذا وحده المعقول

ـ تبيعه إياها؟

ـ بعد أن أصطادها!

ـ وهل هي سمكة؟

نظرت إلى مارلين بإشفاق، رغم ذلك تابعت اللعبة، وجدتها مسلية، حسن يبحث عن الرزق، وأنا أبحث عن التسلية، ماذا في ذلك؟ أنسى محنتي قليلاً، أجد موضوعًا آخر، غير الجامعة والتدريس وإصلاح الترجمات، التسلية بريئة، لكنَّها صغيرة، عليَّ، وأنا أرحل عن الصين، أن

أكون مفيدًا، أن أفتح عيني هذه الآنسة الإنكليزية، هذه «التونجي» الغريبة مثلي، على حقيقة وهم نعيشه جميعًا: التحف! ثم التحف! عصا «المينغ» التي لديَّ، صدّق حكايتها كل الذين سمعوا بها، بعضهم رغب في شرائها، دفع سعرًا جيّدًا، رفضت؛ الغش كذب، و«الكذب رأس المعاصي»، فلماذا أرتكب معصية من هذا النوع، دون اضطرار إليها؟ في دمشق قال لي رفيق، بين جد وهزل «كلما جاءنا الفرج، أغلق بابه المبدأ!» ظنِّي أنَّ هذا الرفيق، الذي فتح له باب السجن بدل باب الفرج، يجلس الآن في زاوية القاووش، مفكّرًا، متحسرًا، أسيفًا، لأنَّه وقع هو وأفلتّ أنا، سيقول في نفسه: «حظ المبدأ يلاحقني، وهذه نعمته الصغرى، أما نعمته الكبرى فآتية دون ريب»؛ نجاة أمثال هذا المخلوق لا تكون إلاّ بالخلاص من المبدأ، ولكن كيف!؟ اسمه هناك، في «الفيش»، كأسمائنا جميعًا، وما يدخل «فيش» الأمن لا يخرج منه أبدًا، فأين المفرّ!؟ وإلى أين!؟ إلى آخر الدنيا!؟ الصين آخر الصين، وها أنا مثل ذلك الرفيق، حتى في الصين نفسها، إذن لا بأس ببعض التسلية كما قال ديمتروف، وقد تسليت بحكاية عصا «المينغ» فلماذا لا أتسلى بحكاية «السجادة التبريزية»؟

كنت أشرب، بانتظار عودة مارلين التي قبلت الدعوة إلى الغداء، لكنّها استأذنت لمدة خمس دقائق، ريثما تبدّل فستانها، ولمعرفتي الجيدة بدقائق الأنثى الخمس، ريثما تتشيّك، فقد شغلت نفسي بالشرب، تحدَّثت إلى الكأس، الكأس «نعم الجليس ونعم الأنيس!» كالكتاب، وفي وسع الذي ينتظر أُنثى، أن يتحدَّث طويلاً إلى كأسه، أو إلى الكتابة، أو إلى نفسه، لا فرق، المهم ألاَّ يكثر من التلفّت إلى الجهة التي ستأتي منها هذه الأنثى، وأن ينسى «دقائقها الخمس»، ويتأمَّل الأرض وما عليها، وهو في سفر على جناح فكره، أو في ركوب متن خياله، أو الإبحار في المحيطات على شراع تخييله!

أخيرًا جاءت مارلين بأبهى حلّة، فكان بهاؤها عزائي، ومن حسن الحظ أنها شاركتني في شرب النبيذ الأبيض، المبرّد، فكان هذا نقطة التقاء أولى، بين مزاجينا نحن الاثنين، إلاَّ أنَّها سرعان ما كررت سؤالها:

ـ هل السجادة سمكة حتى تصطادها؟

قلت:

ـ كل تحفة، يا آنستي، أو يا سيدتي، هي سمكة، لا بدّ من دربة ومن صبر لاصطيادها!

ـ أنا أفضل عدم استعمال الألقاب، اسمي المجرد، مارلين، يكفي! هل هذا ما قصدته بالصيد؟

ـ هذا ما قصدته تمامًا، اسمي زبيد، والاسم المجرد من الألقاب، حسب اقتراحك، يسعدني، فلا حاجة إلى سيد، أو أستاذ، أو رفيق، وخاصة رفيق، أو تونجي، الذي نسمعه، في النهار الواحد، عشرات المرات، وكي لا أفهم خطأً، فإنّني أكره الكلمات المكررة، المستهلكة، المتهرئة من كثرة الاستعمال، مثل شكرًا، عفوًا، أرجوك، من فضلك، إذا تلطّفت، اذا تكرّمت، إذا راق لك هذا..

قاطعتني ضاحكة:

ـ كفى! تكاد تلغي كلمات القاموس كلها!

ـ وأتمنى لو تلغى القواميس كلها، مرة وإلى الأبد!

ـ لماذا؟

ـ حتى لا ننبش جثث الكلمات الميتة، أو نعلق، بدل الأحجار الكريمة، جثث الكلمات المحنطة في أعناقنا!

ـ أنت طريف، أو أنّني أفترض ذلك، ولكن كيف نخترع الكلمات البديلة.. نصطادها كالتحف أيضًا!؟

ـ تمامًا!!

ـ كيف!؟ ماذا نقول بدل كلمة عزيزي، صديقي، رفيقي إلخ..!؟

ـ هذا ما أفكر فيه، دون نجاح حتى الآن، ومن أجل هذا التفكير سيطردونني من الصين، ولأنّني سأوضع على الحدود قريبًا، فإنّني سأبيع تلك السجادة اللعينة، بالسعر المناسب طبعًا، أقول السعر المناسب لأنّها سجادة فارسية، وتبريزيّة خصوصًا! وأنت، يا مارلين، لا تملكين ثمن سجادة ـ تحفة بكل المعايير، وإلاّ لبعتك إيّاها!

ـ وما أدراك أنّني لا أملك هذا الثمن؟

ـ علم الفراسة.. لدينا، نحن العرب، علم خاص ومستقل، اسمه علم الفراسة، ولديكم مثله، أنتم أيضًا، كجزء من علم النفس.. ماذا تأكلين؟

ـ الكافيار كمقبّلات، مع الزبدة والخبز الأبيض، المحمّص، المورّد، دون احتراق... انتبه!

دون احتراق!

ـ ومن أين آتيك بالكافيار والبقسمات يا سيدتي الكونتيسة!؟

ـ من عند التونجي الميتر، يا سيدي اللورد!

ـ وإذا كنت لا أملك ما يكفي من النقود؟

ـ أعطيك أنا، شرط أن ترهن السجادة اللعينة، حسب تعبيرك، عندي!

ـ ومن يحرر لنا عقد الرهن؟

ـ أنا!

ـ وماذا نفعل بأنجيلو؟

ـ نعيده إلى إيطاليا!

ـ دون تحف؟

ـ وما حاجته إلى التحف؟

ـ ولماذا جاء إلى الصين إذن؟

ـ كي يضع كتابًا عن دياناتها القديمة.. أي ما قبل الكونفوشية والبوذية!

نظرت إليها، انفجرنا بضحك مكتوم، أشعلت سيكارة لها، وأخرى لنفسي، شربنا نخبًا طيبًا، نهضت، أحضرت زجاجة نبيذ أخرى، قالت وهي مسرورة كما بدا لي:

ـ لماذا سيطردونك من الصين؟

ـ لأنّ لساني أطول من اللازم، فهل تتكرمين بقص قطعة منه؟

قالت مارلين:

ـ هذا سبب وجيه للطرد.. هل انتقدت النظام الاشتراكي في الصين؟

قلت:

ـ انتقدت تطبيق النظام الاشتراكي في الصين، مع احترامي

لخصوصية الصين، وأي بلد آخر، في فهم الاشتراكية، وتطبيقها وفق هذه الخصوصية، شريطة ألا تكون هناك دوغمائية!

ـ صارحت الرفاق الصينيين برأيك هذا؟

ـ صارحت العزيزة «باي لي» فقط، ومن أجل هذا طردوني من الفرقة الحزبية، ورفضت تدريس البيانات والمقالات السياسية ضد الاتحاد السوفياتي، فأوقفوني عن التدريس، ولأنني لا أحمل جواز سفر، فرضوا عليَّ الإقامة الجبرية في الدروجبا، وهكذا فأنا أتأرجح، معلّقًا بذيل طائرة ورقية، للصين فضل السبق في اختراعها!

ـ هل أنت جادّ؟

ـ كيف ترينني؟

ـ مزّاحًا!

ـ إلاَّ في أسباب النقمة عليَّ!

ـ وماذا بعد النقمة؟

ـ انتظار قرار القيادة الصينية منذ شهرين!

أضفت بنبرة جدّ وأسى:

ـ صبر الرفاق الصينيين طويل، كليل العاشق، هل جربته؟

ـ الصبر أم العشق؟

ـ كلاهما!

ـ في الصين لم أجرِّب الاثنين بعد!

ـ لديك متَّسع من الوقت للتجريب.. ولا أحسدك على ذلك.. لنشرب، ونَنْسَ، فهذا أفضل ما يفعله إنسان مثلي، مطرود من البلاد الرأسمالية، وغير مقبول في البلاد الاشتراكية، ولم يبق له إلاَّ أن يلقي بنفسه من فوق سور الصين العظيم!

فكرت مارلين وقالت:

ـ ياه! أنت في هذا الوضع وتضحك؟

ـ لدينا مثل يقول: «شر البلية ما يضحك!»

ـ ولدينا مثل شبيه به.. لكن ماذا في وسعي أن أفعل لأجلك؟

ـ أن تشتري تلك السجادة اللعينة بسعر مناسب كما قلت لك.

ـ ليس معي من النقود ما يكفي ثمنًا لها.. ولكن كيف عرفت ذلك؟

ـ هذا لا يحتاج إلى نبوءة! الراتب، في الصين، يكفي للطعام والشراب... وشراء تحفة ما، صغيرة، رخيصة، من البورسلين الأزرق والأبيض، رغم صفة «خبير»، التي ليس فيها إلاّ القليل من الخبرة، في حقلي التعليم والترجمة والعلوم الإنسانية.. صفة خبير الحقيقية، كانت تنطبق على الرفاق السوفيات وبعض الرفاق الأجانب، هؤلاء الذين بنوا المحطات الكهربائية، والكهرمائية، والسدود، وانشأوا المعامل، ذات الصناعات الثقيلة، وأفران معالجة الحديد والفولاذ، وبنوا الجسور، ومدّوا، عبر الجبال والأودية، الشبكات ذات التوتر العالي، وبلغ عددهم، منذ تحررت الصين عام ١٩٤٩، حوالى عشرة آلاف خبير سوفياتي، والآن رحلوا جميعًا.. سحبهم خروتشوف، زعيم الكرملين، الخفيف العقل إلى حدّ ما، لأنّهم، الخبراء هؤلاء، بنوا الصين، وهو يريد، بسبب الخلاف بين موسكو وبكين، أن يهدم ما بنوه، وبلغ من أفضاله، هذا الخروتشوف، أنّه وضع حذاءه على منبر الأمم المتحدة، كجواب صامت على الذين انتقدوا بلاده، ونصح زعماء العالم الثالث باستعمال المواد الكيمياوية في الزراعة، كما فعل هو في الاتحاد السوفياتي، لمنافسة الزراعة في الغرب، وأميركا خصوصًا، فضاع السماد الكيمياوي، ولم تنجح زراعته، لأنّ كثرة السماد أحرقتها، كما نصح قادة الأحزاب الشيوعية العربية، بحل أحزابهم التي لا حاجة إليها، ما دام الحكّام يبنون الاشتراكية بأنفسهم، وفق شعار «الطريق اللارأسمالي» وقد حلّت بعض هذه الأحزاب نفسها، أخذًا بنصيحته «النظرية السوريالية» التي هي تطوير للماركسية اللينينية «بشكل خلاق»! وقد قال، خروتشوف هذا، إذا لم تخن الذاكرة، إنه خير من يقتل الذئاب، لأنّه، في الماضي، كان راعيًا، أو مزارعًا، أو مسؤولاً عن الزراعة، ويتقن مهنة صيد الذئاب، وحذّر، من هذا المنطلق، ذئاب الرأسمالية، وهدّد بقرض سلالاتها إلى خامس جد.. وأشياء أخرى من هذا القبيل!

هتفت مارلين:

ـ ياه! كم أنت لاذع اللسان!

ـ وطويله أيضًا، لهذا طلبت منك، وأكرِّر الطلب مع الرجاء، قص قطعة من لساني، وعندئذ أعود إلى صوابي، أو يعود صوابي إليَّ، أو يعود أحدنا إلى الآخر، حسب أسلوب عميد الأدب العربي، الدكتور طه حسين، سواء بالكتابة، أو الكلام الشفهي، مع أنَّنا، جميعًا، تتلمذنا عليه، ونكنّ له الاحترام، بالجدِّيَّة اللازمة، بسبب نبوغه، وشجاعته، ودراساته النقدية، الديكارتية، وما تحمل من أذى للرجعية، هذا الأزهري الضرير.

سألت مارلين:

ـ أنت لا تمزح.. أليس كذلك؟

قلت جازمًا:

ـ ولا بأي شكل يا مارلين، إنَّني أقول وقائع موضوعية، سمعتها، قرأتها، فكرت فيها، وجاهرت بها في منفاي بلبنان، قبل أن أصل إلى منفاي في الصين، لكنَّ أحدًا، من الرفاق القادة، لم يصغ إليَّ، وهذا مؤسف جدًا!!

ـ وبسببه طردت هنا من الفرقة الحزبية؟

ـ إلى حدّ ما..

ـ إذن أنت مع الصين وضد الصين، ومع الاتحاد السوفياتي وضده في آن واحد.. كيف تفسّر هذا التناقض؟

ـ بالجنون! إنَّني، يا مارلين، نصف عاقل، نصف مجنون، وقد قلت مرارًا، إنَّني أحب نصفي المجنون أكثر! ما رأيك في نزهة قصيرة، بعد أن فرغنا من تناول غدائنا؟

ـ ولماذا نزهة قصيرة، مع أنَّني راغبة في سماع المزيد من أقوالك الجديدة عليَّ؟

ـ لأنَّ عليَّ أن أعمل، وعليك أن تستريحي!

ابتسمت مارلين وقالت:

ـ تريد الصراحة؟ كنت أظنّ أنَّك ستدعوني إلى بيتك بعد الغداء.

ـ وكنت سترفضين!

ـ طبعًا!!

- ٢٨ -

تأثّر زبيد جدًا، وفي أذنيه تترجّع كلمات السجين فون تو، عن «البقعة البيضاء في قلبه الأسود!» تساءل وهو يمسك بقضبان الحديد في النظارة: «هل حقًا، أنا زبيد، من جعل المجرم فون تو يكتشف البقعة البيضاء في قلبه الأسود؟ وهل قلبه أسود كما يظن، لمجرد أنه قتل، ولأنّه محكوم بالإعدام؟ ثمة، في هذه الحياة، قتلة آخرون، يرتكبون جرائم أشدّ، في حق الإنسانيّة، ولا يبالون، لأنّ جرائمهم مخفيّة، تحت أسماء وصفات مختلفة، وكذلك دوافع مختلفة، وهؤلاء لا يطالهم القانون، فلماذا؟ سادة وعبيد، هذا هو المجتمع الطبقيّ، عودة إلى نظام الرق؛ مموّهة بطلاء من الديمقراطية، اذا حككته قليلاً، تكشّف عن بشاعة السيّد والمسود، الظالم والمظلوم، ما دام الحق للقوّة، ودامت قوة الملكيّة هي «الحق المستتر» في كف رأس المال، وكل تشريع، مهما ارتقى، إعادة انتاج لهذا «الحق» الذي هو السلطة الفعلية، وفي آلية مسنّناتها تتمزّق لحوم الذين لا يملكون سوى قوّة الساعد أو الدماغ! مع ذلك تبقى هناك حريات، حتى دون وسائل ممارستها، يمكن الإفادة منها في النقد، في الاحتجاج، في الإضراب، في اللجوء إلى المحاكم، حيث للقضاء نوع من الاستقلاليّة النسبية، وهذا أفضل من الحكم الشمولي، المزخرف بشكلانية ديمقراطية، تدّعي ما ليس لها، في استلابها حريات مواطنيها في أن ينتقدوا، وأن يحتجوا، وأن يلجأوا إلى سلاح الإضراب، أخيرًا!».

تابع زبيد، وهو في موقفه وراء القضبان: «هذا التفكير قد أكون مبالغًا فيه، وربما كان خطأً مصدره أنني، الآن، أستشعر ظلمًا في ما حدث لي، وبدافع من هذا الشعور، أرى الأشياء معكوسة، فالصين تمر، في ثورتها الدائمة كما يعلن الرفيق ماو، في ضيق شديد، وهي ماضية في عملية

البناء، ولأجل النجاح تكرس كل طاقاتها، وتستنهض، بل وتستنفر، كل هذه الطاقات، دفعة واحدة! إنَّها في حالة حرب بغير سلاح، وفي الحرب يكون الشعار: «كل شيء لأجل المعركة» وإذن، في البناء «كل شيء لأجل البناء» وهذا هو المغزى، والجوهر، أيضًا، للثورة الدائمة، ومن يقف في طريقها تزحه، ومن يجرم تعدمه، لكن إلى متى؟ لا جواب! ليس في إمكان أيِّ منظِّر أن يقدِّم جوابًا محدَّدًا، أو تقريبيًا، فالمدى، ههنا، غير منظور، وربما كان التكيُّف أفضل نظرية في هذا المجال، فهل تتكيّف الصين، مستقبلاً، مع كل مرحلة، حسب مقتضياتها؟ لا أحد يدري، لا أحد يملك سوى الظن، وظني أنَّ الصين، في شفافيتها ستكون هذه الدولة الاشتراكية المتكيِّفة، مع كل مرحلة قادمة و...».

وفجأة انقطع الخيط العنكبوتي لتفكير زبيد، فقد كان، من خارج القضبان، المترجم عبد القادر يلهث وهو يهتف:

ـ ما هذا يا أستاذ! أين أنت!؟

ابتسم زبيد، دهش، قليلاً، لرؤية عبد القادر، عجب للسرية التي أحيط توقيفه بها، ولنزق المحقِّق تن بو، وتهوره غير اللائق برجل القانون، أجاب:

ـ هذا ما ترى يا عبد القادر، أما أين أنا فهذا ما تعرفه، أو يجب أن تعرفه، أنت قبل الآخرين، لأنك المسؤول عنِّي!

ـ نعم! نعم يا أستاذ، ولكن كيف هذا؟

ابتسم زبيد بغير اكتراث، تجمّع حوله بعض الموقوفين، كان فون تو الأقرب إليه، قال لعبد القادر:

ـ ماذا فعلتم، يا أولاد الكلب، بهذا الرفيق الطيِّب؟

ردّ عبد القادر:

ـ ولكن هذا لا يجوز، لماذا تشتمنا أنت؟

صاح فون تو:

ـ الا تعرف لماذا أشتمكم يا غبيّ!؟ ما هذا الذي لا يجوز!؟

ـ أن يوقف الرفيق زبيد!

ـ نعيمًا! الذي لا يجوز، يا أبله، جاز، وانتهى الأمر.. آه لو لم أكن موقوفًا، إذن..

قال فون تو ذلك، مع شتيمة مقذعة، وهو يهزّ قضبان القاووش محاولاً ليّها أو تحطيمها، ثم مدّ يده من خلالها، محاولاً الإمساك بعبد القادر، وعندئذ صاح به الحارس:

ـ ارجع إلى وراء! أرجع يا فون تو، أيُّها المجرم، وتذكّر..

فنجر فون تو عينيه الحمراوين، قاطعه وهو يزعق:

ـ أتذكّر ماذا يا ابن العاهرة، يا حثالة البشر!؟ المشنقة!؟ إنني أبصق على مشانقكم كلها!

قال زبيد لعبد القادر:

ـ فون تو محكوم بالإعدام، ويقول إنّ جريمة القتل التي ارتكبها كانت دفاعًا عن النفس، وكلامه، الآن، وشتائمه، هما رد فعل للشعور بالظلم، لذلك دعه وشأنه، شكرًا على الزيارة، لا تقل شيئًا عن وجودي هنا للخبراء الأجانب، لا أطلب أي شيء خاص، مع السلامة!

بدا عبد القادر حزينًا، مرتبكًا، غير قادر على التعبير عمّا يفكّر فيه، يتألّم لما جرى، إلاّ أن المسألة ليست إداريّة كي يستطيع حلّها، فالقضاء، في الصين، له استقلاليته، نزاهته، في الحدود الممكنة، وزبيد أوقف، دون أن تكون هناك مذكّرة توقيف، ودون أن يُعرض على النيابة العامة، وهذا خرق للأصول الإجرائيّة، وسيقول هذا غدًا أو بعده، للمرجع القضائيّ المختصّ، لأنّه لا فائدة من قوْله لعبد القادر.. ولأنّه أعطى كل ما معه من نقود لفون تو، فقد اكتفى بطلب واحد: أن يحضر له عبد القادر كل ما تبقى في درج مكتبه من نقود، وأن يحافظ على مفتاح الدرج، الذي فيه يومياته، وهي عزيزة عليه أكثر من المال.

قال عبد القادر:

ـ لن أتركك وحيدًا، سأبقى إلى جانبك، أمّا نقودك التي أحضرتها، فقد استولى عليها الذين معك في النظارة.. وبالقوة!

أضاف متوجِّهًا بالكلام إلى الموقوفين:

ـ الذي فعلتموه لا يجوز، ومع من؟ مع رفيق جاء من بعيد للمساعدة في بناء الصين!

رد فون تو:

ـ وماذا فعلنا، أيُّها الإنسان المشوّه أنت؟

ـ شلّحتم تونجي زبيد نقوده؟

قال زبيد:

ـ لم يشلّحني أيّ زميل من الموقوفين شيئًا!

ضحك عبد القادر وهو يقول:

ـ لا! لا يا أستاذ، هذا لا يجوز، الموقوفون زملاؤك؟ كيف هذا!؟

أجاب زبيد:

ـ نعم يا عبد القادر، زملائي بحكم الواقع، وإلاَّ فماذا؟ كلنا هنا، وراء القضبان، من طينة واحدة، طينة بشريَّة، هل تفهم ما أقول!؟

ـ لكن الأسباب، يا أستاذ، ليست واحدة.. هؤلاء مجرمون! انتبه! احذر!

قال الحارس:

ـ مجرمون وخطرون، قد يقتلونك بعد الاستيلاء على ما معك من نقود؟ تعرف لماذا؟ كيلا تشي بهم، أو تقرّ بأنهم سلبوك هذه النقود!

كان فون تو يسمع ما يدور من حديث، فالسجين الذي كان يعمل في إحدى السفارات ترجم له ذلك، ولو بشكل سيّئ، فقال باستياء شديد، بعد أن فهم، تقريبًا، الموضوع:

ـ اسمع أنت، يا رأس القرد، ما أقوله بشكل جيّد: أنا، فون تو، ذاهب للإعدام، الليلة أو غدًا، إذن لم يبق ما أخاف منه أو عليه، وقد كنت أنوي، فعلاً، أن أسلب هذا الرفيق الغريب نقوده، لأنَّني جائع، وماذا يفعل الجائع، حتى لو كان مثلي؟ أنت، وهذا الحارس الذي إلى جانبك، وكل الحراس الذين يطوّقون هذا القاووش في السجن، أغبياء وسفلة بشكل معيب، وكلمة تونجي، لا تشرفكم، ولن تشرفكم أبدًا، كما تظنون! هناك دائمًا أخطاء، وأحد هذه الأخطاء الفاحشة، إطلاق كلمة تونجي على الجميع، وتستّر الجميع بها، وأنتم منهم.. أنكم تتستّرون بهذا اللقب الفارغ، وترتكبون النذالات باسمه!! أنا أيضًا كنت مثلكم، بل كنت أشرف منكم، لأنَّني اشتركت في المسيرة الكبرى، وحادث القتل، الذي من أجله حكمت بالإعدام، كان ردًا لاعتداء وقع عليَّ، إلاّ أن المحكمة لم تأخذ هذا في

اعتبارها، وحكمت عليَّ حكمًا قاسيًا، أشعر معه بالظلم المرير، إلا أنَّ هذا الرفيق العربي، الذي لا أعرف قصته، أو سبب توقيفه، تصرَّف معنا بشهامة، وكرم، وبتقدير للدوافع التي من أجلها نحن هنا، وهو الذي اشترى كمية من علب السكائر، وفوّضني بتوزيعها، أنا المجرم في نظركم، وبعد ذلك أعطانا كل ما معه من نقود، لشراء الخبز والأرز، وفوّضني أنا أيضًا، أنا الذي سينفَّذ فيه حكم الإعدام، ربما الليلة، بتسلم النقود، وشراء الطعام، وتوزيعه، كما وزعت السكائر، بعدل تامّ، فلماذا فعل هذا؟ فكروا أنتم، فكروا يا أوغاد! إنَّ هذا الرفيق الطيّب، الذي يستحقّ لقب الرفيق بجدارة، جعلني أكتشف البقعة البيضاء في قلبي الأسود، الأسود لا من شعور بالذنب، بل من شعور بالظلم!»

صفّق السجناء، هلّلوا، هتفوا تحيّة لفون تو، قال أحدهم وهو يقترب من الشبك، الذي يلي القضبان الحديديّة، بأعلى صوته الجهوري:

ـ ووروح بوذا حرام أن يعدم فون تو، لأنه قاتل لأجل التحرير، وكان رفيقًا شجاعًا!

قال سجين آخر:

ـ وأنا، أيضًا، أقسم باسم بوذا ونعمته، أن فون تو مظلوم، لأنَّه بريء ومعتدًى عليه، ومن العدل إعادة محاكمته!

صاح ثالث من أقصى القاووش:

ـ أقسم، مثلكم يا رفاقي، بقداسة «كوشي ين»، سيدتنا، ان فون تو لم يحكم بالإعدام لأنَّه قتل دفاعًا عن نفسه، وإنَّما لأنَّه طويل اللسان، وقد انتقد بحقّ، أولئك الذين لا يجوز انتقادهم! هل لأجل هذا ناضلنا، نحن عمّال شانغهاي وبحارتها، وقدّمنا تضحيات من دم، في الظروف السرّيّة، وفي حربنا ضد تشيانغ كاي شيك!؟ قولوا أنتم، أيُّها الطيّبون، اصرخوا، احتجُّوا، كيلا يعدم رفيقنا فون تو، الفلاّح الستشواني الذي قطع ألف ميل في المسيرة الكبرى!

ـ كفى!

صاح فون تو مرعدًا، وعندما هدأ الصخب، ونامت الضوضاء قال:

ـ شكرًا لكم جميعًا، أنتم الذين في هذا القاووش وخارجه، شكرًا

لعواطفكم، وكلماتكم، ومحبتكم، فقد كان بيني وبينكم ملح وبيتساي، وهذا، في ستشوان، لا ينسى، ولو قدر لي أن أعيش فلن أنساكم أبدًا!

أضاف والدمع يسيل على خديه:

ـ إنّني، ويشهد بوذا عليّ، لا أبكي من جزع، أو من خوف، وإنّما من تأثُّر بالغ بهذا الذي سمعته، الليلة، منكم، وسمعته، أيضًا وقبلاً، من هذا الرفيق العربيّ الطيّب، الذي قال، بطيبة، ونقاء قلب، وشهامة رجل، إنّه زميلنا، ونحن زملاؤه! هذا وحده يجعلني أموت مرتاحًا! لكنّني، قبل الموت، أريد أن أقول للأوغاد الذين في خارج هذا القاووش: هل أزعجكم أن يقول رفيقنا العربي هذا إنّه زميل لنا!؟ وهل أغضبكم لأنّه بادلنا الاحترام، نحن الذين من فئة المجرمين كما قال أحدكم!؟ ولماذا إصراركم على أنّنا شلّحناه نقوده!؟ وكيف لا تفهمون المروءة التي دفعته إلى تقديم ما معه من نقود لنا نحن الجياع!؟ ولماذا استكبرتم أن يقدم هذه النقود لي، أنا المحكوم بالإعدام، والموصوم بالمجرم!؟ بوذا قال: «هنيئًا للمعذبين، الأبرياء، الذين قلوبهم بيضاء كالفضة!» فمن كان يقصد بهذا الكلام؟ كان يقصدنا نحن، المعذبين الأبرياء، بسبب الحاجة، والرفيق ماو، الذي شاركنا في القتال، وفي الألم، وفي الجوع، خلال المسيرة الكبرى، والذي أصرّ، رغم الحمّى، أن يسير على قدميه، كي يعطي بغله لرفيق جريح، كان يفهم، هو قائد المسيرة، أنّ على الكبير أن يتواضع، لأجل رفاقه الصغار، وبذلك يستحقّ أن يكون كبيرًا بينهم، وهذا الرفيق العربي الذي بيننا، كان كبيرًا لأنّه ضحّى، وعمل، وساعد في بناء الصين الجديدة، وكان كبيرًا، مرّة أخرى، لأنّه لم يميز نفسه عنّا، نحن إخوته في الإنسانيّة كما قال، وبذلك ارتفع، بينما سقطتم أنتم، يا أنذال، وافتريتم علينا، دون حق، ولمجرد أنّنا سجناء وأنتم طلقاء، واتّهمتمونا بسلبه نقوده، نقوده هذه، التي أرميها في وجوهكم، فخذوها واللعنة عليكم!

قال ذلك فون تو، ورمى من فجوة في الشبك الحديدي، النقود خارج القاووش، رماها للريح، والجشع، والطمع، واستدار فغاب بين السجناء، وراح ينشج كطفل، لأنّه، كما قال، أُهين، وديست كرامته، ولم يستطع أن يثأر لنفسه من الذين أهانوه، وداسوا على هذه الكرامة، وقد تأثّر زبيد، لهذا المشهد، وعندما جمع الحرّاس النقود، وتخاطفوها، قال لعبد القادر:

ـ اذهب الآن، وأحضر لي، غدًا، ما تبقّى من نقودي كما أوصيتك!

قال عبد القادر:

ـ ولكن كيف هذا! تعطي نقودك لفون تو، وفون تو يلقي بها خارجًا، فيتخاطفها الحرّاس، وأنت ساكت!

سأل زبيد وهو يبتسم:

ـ وماذا أقول يا عبد القادر؟ أطلب إعادة نقودي إليّ؟ وهل ترضى أنت بذلك؟

ـ أنا لا أفهمك يا أستاذ.. كيف تتصرّف بهذا الشكل؟

ـ أتصرّف كما اعتدت أن أتصرّف!

ـ ولكنك لم تكن في السجن قبل الآن؟

ـ في الصين نعم! أما قبل ذلك فقد كنت في السجن، وأعرف المساجين، وأحبّهم، لذلك تراني، الآن، غير مبالٍ...

أضاف زبيد:

ـ هيّا يا عبد القادر، اذهب واعمل كما أوصيتك.

ـ غدًا سأعمل كما أوصيتني، أما اللّيلة فسأبقى.. كيف هذا يا أستاذ؟ أتركك وحيدًا؟ وبين هؤلاء المجرمين؟ صدّقت أنّهم بوذيون، وأنّهم يؤمنون ببوذا؟

قال زبيد:

ـ وأنت يا عبد القادر، هل تصدّق أن البوذيّة انتهت، بمثل هذه السهولة!؟

قال عبد القادر:

ـ كيف هذا يا أستاذ؟ حريّة العبادة مكفولة بالدستور، لكن النّاس، عندنا، لا يذهبون إلى المعابد كما عندكم.. المعابد موجودة، وفيها رهبان وراهبات، وهم يمارسون طقوسهم بحريّة.. نحن لا نتدخل في مسألة الأديان.

ـ هذا مفهوم يا عبد القادر، ولكنّ الناس، عند الشدّة، يستيقظ فيهم شعور الإيمان بقوة، وهذا طبيعي، كي لا ييأسوا يأسًا نهائيًا، وكي يبقى لهم بعض من أمل.. إلاّ أنّ الكلام على هذا يطول، وليس هذا مجاله، فاذهب كما أوصيتك، وعد غدًا صباحًا ومعك النقود والمفتاح.

ـ سأبقى إلى جانبك، وغدًا صباحًا أحضر النقود.. لماذا لا تتقدَّم بشكوى إلى رئيس الحرس، وتطلب استعادة نقودك من الحراس، كما هي الأصول!

قال زبيد بهدوء:

ـ أعرفك طيِّب النفس، محبًا، ساهرًا على راحتي، ولكنَّ هذا يكون خارج السجن، في الدروجبا أو بيتاخو، وليس هنا.. أنت تراني، وقد تحدثتَ معي، وسمعت ما دار من حديث، فهل تخاف عليَّ، بعد هذا كله يا عبد القادر؟ أرجوك، اذهب ونمْ، لأنَّني، أنا أيضًا، سأنام بطريقة ما، واقفًا أو جالسًا، فالجسم يتطلَّب النوم ليلاً، وخاصة عند التعب الشديد، وقد تعب كلانا، وصرنا بحاجة إلى النَّوم، اذهب يا صديقي، ارتح ولو لم تنم، وإلاَّ فماذا يحلّ بك غدًا؟

عاند عبد القادر، قال بجزم:

ـ لن أذهب، ولن أرتاح، وسأبقى في مكاني، لا لخوفي عليك، ولكن لأنَّني أحبُّك، مهما كان رأيك فيَّ، وهذه كلمتي الأخيرة!

ـ وكلمتي أنا؟

ـ أسمعها، أطيعها، وأنت خارج السجن، أما وأنت داخله فلا. المحقِّق تنّ بوْ سينال جزاءه، أؤكد لك.

قال زبيد:

ـ بالنسبة إليّ، تن بو كان على حقّ في الخطأ، فقد وفّر لي فرصة غالية، كي أعرف تجربة السجن في الصين.. وفّرها عندما ارتكب هذه الحماقة، ولولاها لظلّت تجاربي ناقصة، فالإنسان، يا عبد القادر، حين يكون صاحب مبدأ، يسير نحو هدفه وهو يعرف مصيره، وأحيانًا مصيره الدامي، دون تراجع، دون تردد، لأنّه يأخذ الألم لحسابه، كما فعل الرفيق ماو في المسيرة الكبرى، وقد عرفتُ ذلك من تصحيح ترجمة كتاب هذه المسيرة، ألا تذكر؟

ضحك عبد القادر وقال:

ـ ولكن كيف هذا؟ كيف أنسى، ولماذا أنا هنا؟ استرح يا أستاذ، أنت متعب، وتحتاج إلى الراحة، وأنا باق معك لأنّه واجبي، واجب رفيق صيني،

تجاه رفيق عربي، يسهر الليالي ليقدّم مساعدة هي، كما رأيت بعينيّ الاثنتين، فوق طاقته.. الرفاق في الجامعة، ودار النشر، وإدارة الدروجبا، يعرفون هذا كلّه، وقد حدث، اليوم، خطأ لا يغتفر خاصة مع رفيق مثلك.

قال زبيد:

ـ أنا غفرت هذا الخطأ، فلماذا تتشدّدون أنتم في أمره؟ كفى! تعبت، سأحاول أن أنام جالسًا، في أيّ موضع يتاح لي الجلوس فيه.

ظل عبد القادر خارج الشبك الحديديّ، تابع زبيد بنظره إلى أن غاب، نهائيًا، في زحمة السجناء، اطمأن، عندئذ، إلى أنّه وجد مكانًا للجلوس، وأنّه سيستريح الآن، وقد يغفو قليلاً، وهذا مناسب له، لكنّه سأل، مع هذا، أحد السجناء، فذهب وعاد ليخبره أن الرفيق العربيّ نام، وأن أكثر من سجين أخلى له مكانًا للجلوس، وأنّهم، في القاووش، كانوا يشفقون عليه من التعب والسهر، وأنّهم لزموا الصمت، كيلا يوقظوه، فقال عبد القادر:

ـ شكرًا لكم!

قال السجين:

ـ على ماذا؟ الرفيق العربيّ ضيف، ونحن، مهما تكن جرائمنا، لدينا بقيّة من نخوة، تكفي كي نعامل ضيفنا بمودّة.. لكن أنتم، الذين في الخارج، أين ذهبتم بالنقود التي رماها فون تو؟ إنّني أطالب بها، نيابة عن زملائي، وحين أطالب بحق، لا بدّ أن أستردّه، مهما يكن الثمن!

قال عبد القادر:

ـ أنا لم أمسّ النقود التي طيّرتها الريح، الحرّاس هم الذين تخاطفوها، حقّك، حقّكم، عند الحرّاس وليس عندي!

ـ إذن نادِ لنا رئيس الحرس!

قال الحارس المناوب:

ـ رئيس الحرس نائم.

صاح السجين:

ـ أيقظوه!

ـ لا نستطيع!

ـ كيف لا تستطيعون؟ هل هو أحد أباطرة الصين؟ زمن الأباطرة ولّى، أيقظوه قبل أن نقيم القاووش ونقعده على رؤوسكم!

تجمّع عند الشبك الحديديّ بضعة سجناء، سمعوا الحوار بين زميلهم والحرس، أثارتهم كلمة نقود، أغضبهم حتى الجنون أن يستولي عليها الحراس، أن يتخاطفوهم ويتركوهم جياعًا، اندفعوا كأنَّ إعصارًا مشى بهم، أمسكوا بالقضبان الحديدية، وراء الشبك، وراحوا يصيحون بصوت واحد، وهم يهزّون القضبان، ويحاولون ليّها، اقتلاعها، تحطيمها:

ـ أعيدوا لنا نقودنا يا أولاد العاهرات، أعيدوها فورًا وإلاّ أشعلنا النار في القاووش، وحطّمنا كل شيء، وهدمنا الجدران نفسها، إنَّنا جياع، وهذه النقود لنا، لنا، لنا!

أسرع رئيس الحرس لتهدئة الوضع، سأل:

ـ من أين جاءتكم هذه النقود التي تدّعون أنها لكم؟

ـ من كيس أمك يا ابن الزانية! أسرع بإعادتها إلينا وإلاّ..

ـ تهدّدون!؟

ـ وممّ نخاف؟ منك؟ من جنودك؟ من سلاحك؟ من دولتك؟

ـ ماذا؟ تقولون دولتي، وصلت الوقاحة بكم، يا رعاع، إلى الدولة؟ هل جننتم؟ تشتمون الدولة وهي دولتكم، دولة العمّال والفلاحين، الدولة التي حلمنا بها عمرنا كله؟ هل فقدتم صوابكم؟

ردّوا مسعورين:

ـ دولتنا!؟ دولة العمال والفلاحين، بينما نحن، العمال والفلاحين، نموت جوعًا؟ اسأل رؤساءك عن الذين ناضلوا، قاتلوا، ماتوا، في سبيل هذه الدولة، وعندئذ تخجل، لو كنت تخجل، يا عديم الشرف أنت، يا لص، يا مجرم، يا ابن القحبة، يا من كان يبول في ثيابه، عندما كنا نحن نحمل السلاح، وفي الخطوط الأمامية نقاتل! أرجع لنا نقودنا التي استولى عليها حراسك، وإلا نفّذنا تهديدنا، وفورًا!

صاح بهم فن يان، رئيس الحرس:

ـ اخرسوا، يا مجرمين، وإلا قطعت السنتكم! تسرقون، تشلّحون، تقطعون الطرق، تقتلون، ثم تزعمون أنكم من العمال والفلاحين؟ العمال

والفلاحون بريئون منكم يا أولاد الكلب، نحن الذين كنا نقاتل في الصفوف الأمامية، بينما كنتم أنتم ترتكبون الجرائم في المؤخرة.. سجلاّتكم عندي، ومصيركم الإعدام، بغير شفقة، لأنّ من بنى هذه الدولة يعرف كيف يحميها، موسكو نفسها لم تستطع إركاع بكين، وأنتم عملاء موسكو، لا أكثر ولا أقل!

صاح سجين:

ـ اسمع يا خرع أنت: نحن حاربنا للخلاص من تهم العمالة، التي كانت كل سلاح تشيانغ كاي شيك، وها نحن كما كنا، نسمع النغمة ذاتها، والاتهامات ذاتها، والقمع ذاته، فلماذا حاربنا إذن؟

ردّ فن يان:

ـ لو كنتم تتثقّفون سياسيًا لعرفتم!

ردّ السجين المثقف إيّاه:

ـ نحن، يا رئيس الحرس، يا حضرة النقيب المبجل، بشمنا من تثقيفكم السياسيّ، أوقفوه رحمة بنا، خذوه هدية منا إليكم، انقعوه واشربوا ماءه، كلوه يا أولاد الزنى، خلصونا من صحفكم وبياناتكم المتشابهة، المملة، التي وجهها مثل قفاها، والتي لا تنفع ولا تضر، لأنّها تمْ تمْ تمْ، وكل يوم، كل ساعة، كل دقيقة، نسمع اللحن نفسه، على الطبل نفسه، وقد انفلقنا من ألحانكم، وأقوالكم، وجعجعاتكم كلّها.. نحن جياع، نقول لكم نحن جياع، فيأتي جوابكم: تثقّفوا سياسيًا!

صاح النقيب فن يان بجنوده:

ـ سلاحك تنكّب!

رفعت البنادق بحركة واحدة، رُكّزت على الصدور، صوبت فوهاتها إلى المساجين، ساد وجوم، خيّمت رهبة، تقدّم رئيس الحرس من الشبك الحديدي، حدّق إلى المساجين، قال حقودًا:

ـ والآن!؟ تسدّون أفواهكم وإلاّ أفنيكم كلّكم، وأخلّص الناس من شروركم؟ اختاروا، بأنفسكم، بين أمرين لا ثالث لهما: السكوت أو الموت!! أمّا أنت، يا فصيح، يا عرص، يا من تشتم الدولة والحزب، وتهزأ بالتثقيف السياسيّ، وتسخر من الصحف والبيانات، وترفض أن ترى، يا أعمى،

الضائقة التي تمر بها الصين، وتتجاهل كوننا، جميعًا، نشدّ الأحزمة على بطوننا، أمّا أنت فإنك رأس الفتنة، وأنا أعرفك يا تان كو، أيُّها الذي بدأ مجرمًا سياسيًا، ثم تحوّل مجرمًا عاديًا، قذرًا، سافلاً، فإن لي معك حسابًا آخر، عند حبل المشنقة!

أضاف فن يان رئيس الحرس:

ـ تطلبون نقودكم، فأي نقود هذه؟ ومن أين جاءتكم؟

تقدم زبيد وقال:

ـ أنا الذي تبرع بها، وأنا المسؤول عنها، وفي وسعك أن تشنقني، أن تصلبني، لا فرق، لكنني، أنا الرفيق العربي الغريب، لي رجاء واحد، أن تأمر، يا حضرة النقيب، بإعادة السلاح إلى مكانه، مقابل ضمان كافٍ، هو إسكات زملائي السجناء!

ترجم عبد القادر كلام زبيد، تحدّث طويلاً مع النقيب، أصدر هذا أوامره بإرجاع السلاح إلى مكانه، تفرس في زبيد، قال:

ـ أن تكون رفيقًا عربيًا وغريبًا، يتطلب منك أن تكون أديبًا، وإذا لم تكن أديبًا توليت بنفسي تأديبك، أنت، الآن، متّهم بإثارة الفتنة، إضافة إلى التهمة الأخرى، التي سجنت لأجلها، تأكل خبزنا وتعض يدنا، تنفق النقود التي نعطيك إياها، في رشوة السجناء وتحريضهم ضدّنا، هل هذه هي المساعدة التي تقدمها لنا، انتظر ترا!

اليوميّة السابعة والعشرون ٢٩ أيار ١٩٦١

عدت إلى بيتي الصامت، الموحش، ولديَّ إحساس بأنَّ الزمن، في بطنه القاتل، قد انشرخ دولابه لأمر أجهله. فكرت في هذا الدولاب الزمني الدائر بتكاسل، بونًى، بتعب، من التكرار في دورة هي ذاتها منذ بدء الخليقة، فأحسست بالإشفاق على الزمن، وبالحقد عليه، مستغربًا نسياني له على مدى حياتي، وتذكّره هنا في الصين، بهذا الإلحاح الذي يبلغ حدّ السيطرة الذهنيّة، على جميع حواسّي، والإبهاظ الرصاصيّ على روحي التي تئن، في مكان ما من ذهني، أو مكان ما من شعوري، كأنَّ دودة قارضة، قد استيقظت في داخلي، وأخذت ترعى في كبدي وقلبي، دون قدرة لي على

إيقافها، زجرها، ترجّيها كي تكفّ عن إتلافي، بهذا الزحف الانتشاريّ، المؤلم، في كل أحشائي!

باردةٌ الأيّام هنا، جائعة، نهّاشة، تبتلع، كالأفعى، فريستها، وكالبحر يحطم سفينة العمر، يغيّبها في القاع، يفككها بنزق، مسلّطًا عليها الصدأ، والطحلب، والرمل القاعيّ الذي يتراكم عليها، ليخفيها عن أعين الغوّاصين الشرهة، ويتفرّد بها، في تآكل دؤوب، ينخرها حتى العظم، في حديدها والخشب، بينما ربّانها المسكين، يتسكع حزينًا على رصيف الشاطئ المهجور، دون أمل، دون عزاء، وظلال الأيّام السعيدة تتراجع إلى وراء، لتتقدّم، زاحفة، أشباح الرؤى الأكثر بشاعة، لأيام الحاضر البائس، في الاغتراب، والوحدة، والنبذ الذي هو عزل تام، يرتهن، دون مقابل، أحاسيس حيّة، فيميتها صبرًا، إلى أن تتساوى والعدم، أو تجد، بين الخرائب، أطلالها الدوارس.

لقد دام هذا العزل، في زنزانة انفرادية، هي بيتي الذي تصفر فيه ريح الكآبة، أربعة أشهر، وستة أيام، وسبع دقائق، وخمسين ثانية، عشتها كلها، دون أن أدوّنها، أو أنظر في التقويم الإحصائي لها، أو أراقب عقارب الساعة التي تمشي شائلة بالزمن، وهي تخبئ في أذني، معطية تكتكة مفجعة، استشعرها تأبين، أو دقات ناقوس مرحبة، كما في المقابر، بالرفات المحمول إليها، الرفات الذي لم يمت، ومع ذلك صندقوه في نعش، وشيّعوه، وتلوا الصلاة عليه، وأنزلوه، بوساطة حبل ثخين، في الحفرة العميقة المعدّة له، بعد أن تسابقوا، نفاقًا، في تجويد التأبين والمراثي لمناقبه، كما فعلوا، ويفعلون كلّ يوم، وفي كلّ البلدان، وجميع الأنظمة، لا لشيء سوى الطقوس، واجبة الاحترام، لازبة الاعتبار، في النقلة بين طرفي شعرة الحياة والموت، وبعد ذلك يكون العرس والمأتم، وفي كليهما تتعالى الزغاريد والمناحات، دون أن يهتمّ أحد بالمصير السعيد أو التعيس، للعريس أو الميت، أو يتأمل أحد في نوع العيش الذي عاشه ذاك أو هذا!

النسمة الوحيدة، الرهوة، المنعشة، كانت صداقة حسن وفهمي، هذين الرفيقين الإيرانيين اللذين كانا، في الحرمة الرفاقية، يُغليان هذه الحرمة، يعزانها، يمنحانني إيّاها بكرم ونبل، فكنت أجد في معزّتهما بعض السلوى، وفي بيتيهما الملاذ الأمين، الدافئ، في المودّة السابغة، المتبادلة، بيننا نحن الثلاثة، ولأنّ حسن كان أعزب، كان وقت فراغه أكبر، وبسماحة

نفس كريمة، راح يخصص لي أكثر هذا الفراغ، وكذلك تفعل خطيبته لينا، وكنت، وربما بقيت، في أرجوحة سؤال حيّرني: كيف سمح الصينيون لحسن بأن يخطب صينية، مع كل تشدُّدهم الحاسم في موضوع كهذا، مع كل الأجانب الذين كانوا يعملون في الصين؟ ولماذا يبعدون تشين لاو عني، كلما توهمت أنَّها تقترب مني؟ هل هذا لأنَّني على خلاف معهم؟ وهل وقفي عن التدريس في الجامعة، ينسرح على حبّي تاليًا؟ أنا لست حسن، ولن أخطب تشين لاو أو أتزوَّجها، وفي رهافة الحس الصيني، ربما أدرك الرفاق الصينيون، في قيادة الدروجبا، أن ما بيني وبين تشين لاو لا يعدو الرغبة، الشهوة، التسلية، العلاقة العابرة، ولهذا، ودون تنبيه أو تحذير، أفهموني، من خلال المراقبة الدقيقة، والمواقف المتشددة مع تشين لاو، أن ما أبتغيه غير مسموح به، وأنَّ عليَّ أن أكفَّ عنه أو أذهب ضحيته، وكان حسن يعرف هذا، ومن أجله سألني:

ـ هل تحب تشين لاو فعلاً يا أخي زبيد؟

أجبته:

ـ لم أفكِّر في هذا، بعد، يا حسن!

ـ ومتى تفكِّر أيُّها الملعون؟ افعل كمثلي!

ـ لا أستطيع!

ـ ولماذا!؟

ـ لأنَّني راحل عن الصين، غدًا أو بعده، أو بعده، أو بعده..

ضحك حسن وقال:

ـ بعده وبعده وبعده! ما هذا الكلام يا خوجا نصر الدين (جحا)؟

ـ هذا الكلام يا حسن هو كلام القيادة، الذي يأتي ولا يأتي، وأنا معلَّق في السقف أنتظر!

ـ كيف معلَّق في السقف!؟ تريد أن تنتحر!؟

ـ لا! لا أفكر في الانتحار، أنا في مرجوحة، تذهب بي وتجيء، فقط، هل فهمت؟

ـ ليس كثيرًا، ومع ذلك، يا أخي زبيد، الانتظار طال جدًّا، فلماذا لا تطلب مقابلة أيِّ رفيق صيني في القيادة؟ افعل هذا كمثلي!

ـ أنا لست، يا حسن، عضوًا في حزب كمثلك، ولا يحقّ لي أن أتحدَّث مع القيادة كرفيق!

ـ ومـاذا تريد أن تفـعل إذن؟ أنت تنتظر، تتـعـذَّب، وهذا مـا يريده الصينيُّون، كي تفهم أنَّهم أعند منك، يا أخي، يعاندون الاتحاد السوفياتي، والحركة الشيوعية كلها، وأنت تعاندهم في الصين نفسها، فكيف هذا؟ وهل هذا معقول؟ فكِّر قليلاً تجد أنَّك مخطئ، ثم لماذا لا تتكلم مع العرب الذين هم في الدروجبا؟ ولماذا رفضت مصافحة الرفيق جردق المرزوقي، بعد أن نهض عن الطاولة في المطعم، وجاء إليك يمدّ يده للمصافحة؟ «رذيل أولما قردشم»! (لا تكن رذيلاً يا أخي!) الحياة، في الصين، وفي الاتحاد السوفياتي، وفي كل العالم، الشرقي والغربي، تحتاج إلى الحركة.. لا! ليس إلى الحركة، كيف تقول؟

ـ المرونة!

ـ نعم! المرونة، لينين نفسه كان عنده مرونة، وأنت يابس الرأس كمثل الحجر، لماذا؟

نظرت إلى حسن، تأمّلته، فكَّرت، أطلت التفكير، فضحك حسن وقال:

ـ هل أعجبتُك يا ابن أمة العرب؟

ضحكت وقلت:

ـ وجهك أعجبني، ولكن كلامك لا!

ـ وماذا في كلامي حتى لا يعجبك؟

ـ فيه أنه لا يعجبني!

ـ قرناص أولما ياهـ.. ـو! (لا تكن متصلبًا!)

قلت:

ـ اسمع يا حسن، يا صديقي، لكل إنسان طريقه، وموقفه، في هذه الحياة، وأنا، أيضًا، لي طريقي وموقفي، فهل أنا مخطئ؟

ـ كثيرًا يا أخي، طريقك هي طريقي، وطريق فهمي، وطريق العرب الذين في الدروجبا، فهل أنت على حق، ونحن جميعًا على خطإ!؟

ابتسمت، عانقت حسن، ودّعته قائلاً:

ـ الكلام، في هذا الموضوع، طويل جدًا يا أخي، أنتم، جميعًا، على

حق، وأنا وحدي على خطأ، لكنّني راض بخطإي، فاعذرني، وكن، دائمًا، الرفيق الطيّب، كما عرفتك.. أنت وفهميٌ افضل أصدقاء عرفتهم، فلنبق أصدقاء وهذا يكفي!

ـ وماذا بشأن تشين لاو؟

ـ صديقة صينية جيدة، وهذا كل شيء!

ـ والحبّ؟

ـ ما هو لونه؟

ـ أخضر!

ـ أنا أفضّل الأحمر، وفي كل شيء.. إلى اللقاء يا حسن، يا صديقي العزيز جدًا.

رجعت إلى بيتي الموحش، أرتّب فيه أفكاري الموحشة، مسترجعًا، بنوع من أسى، ما قاله حسن بيجاري، حول سلوكي العام، من فقدان المرونة، إلى معاندة الصين وأنا في الصين، إلى رفضي مصافحة جردق المرزوقي، إلى مقاطعتي العاملين العرب في الصين، مع أنّهم يسكنون، مثلي، في الدروجبا، ويأكلون، مثلي أيضًا، في مطعم واحد، وقبح هذا السلوك كبير، من ناحية اللباقة، التي عليَّ أن أتحلّى بها، ثم تشين لاو، وهل أحبّها، وإذا كنت أحبُّها فلماذا لا أخطبها، أو أتزوَّجها، كما يفعل هو مع لينا؟

كنت، وأنا أتساءل، عن هذا كله، أسمع صوتي من حنجرتي، وكان صوتي، في معاناتي، يبدو غريبًا عليَّ، قبيحًا إلى درجة لا تطاق، كما لو أني أسمعه مسجلاً على شريط. هذه ليست نوبة كدر، تُغسل بصابون العتاب، بيني وبين نفسي. إنّها نابعة من الجفوة، في سياق اللاّرضى عن تشكّلي الخلقيّ، بين ما أنا فيه، وبين ما كنت أطمح إليه من كياسة، مُنحتْ، قدَرًا، للغير دوني، وإذا ما كنت، رغم هذا العيب الخلقيّ، أنال بعضًا من حظوة، عند هذه المرأة أو تلك، فذلك لسبب أجهله تمامًا، وأعجب له عجبًا غير قليل، من غير أن يتسبب هذا الجهل، أو هذا العجب، في عقدة نفسية عندي، لأنَّ عيشي متروك على رسله، وأخذي للحياة مقترن بالعفويّة، التي معها لا أبالي بأيّ أخذ وردّ، ولا أدخل، حول أيّة قضية، في مهاترات ليست من طبعي وأحسب أنّني أمجّها، وأنأى بحالي عنها.

حسن صديقي، لكنني صديق الحقيقة بقدر أكبر، حسب تعبير سقراط، وإذا كان حسن يرى رأيًا غير رأيي، فهذا حقّه، لكنّني غير ملزم، حتى مع الصداقة، أن أشرح له، لماذا أقف هذا الموقف من هؤلاء المرتزقة، الذين ليس لهم مبدأ، والذين استغلّوا الخلاف الصيني ـ السوفياتي، ليتظاهروا أنّهم مع الصين، وأنّهم أصحاب مبدأ! إنّني أحتقر مثل هذا السلوك في المسائل المبدئيّة، وحين أحتقر أنبذ الذي أحتقره، وهذا هو التطابق الذي أحرص عليه، بين قولي والفعل، ولن أحيد عنه أبدًا. أما المرزوقي، هذا الأفّاق الذي يستغل رفاقه الصينيين، ويذهب إلى الندوات والمؤتمرات، كآسيوي اللسان، صيني التمويل، وكل مهمته أن يشتم الاتحاد السوفياتي، فإنّني أربأ بنفسي، ترفّعًا، أن أردّ له التحيّة، أو ألوّث كفّي النظيفة بمصافحة كفّه القذرة! هؤلاء ليسوا عربًا، وإن كانت جنسيّاتهم عربيّة، فالوفاء شيمة الوفي، وليس من الوفاء في شيء أن نشتم الاتحاد السوفياتي، أن نعضّ اليد التي تمتدّ لنا بالمساعدات، ومن كل الأنواع، وعلى مدى أعوام طوال، وكذلك ليس من الإنصاف، أن نجحد مواقف الصين معنا، في كل المحافل الدولية، وأن نرمي على منكبيها، كل عار الخلاف وأخطائه، فالصين، كما الاتحاد السوفياتي، مخطئة في أشياء، وعلى صواب في أشياء، وهنا، في هذه النقطة، يتجلّى الحكم المبدئي، والموقف المبدئي، لمن هم في الصين، وليسوا خارجها.

تعبت حنجرتي من صوتي، نهضت أدور في فراغ الصمت، ألوب، أتخبّط، أمشي، في خط مستقيم، بين جدار وجدار من بيتي، وعندما أعياني التجهُّم، من الداخل والخارج، وجدت ألاّ بدّ من الدواء، وكان دوائي معروفًا لديَّ: القهوة والكونياك! وعندما بدأ مزاجي يطيب، رنَّ جرس الهاتف، وكانت المتكلّمة السيدة بورجرون، تسأل عن حالي، وعمّا إذا كنت وحيدًا، وما إذا كنت على استعداد لاستقبالها، فأجبتها بعبارة واحدة:

ـ تعالي، أنا في انتظارك.

بعد ذلك عدت أسمع صوتي من حنجرتي: «لا بدّ للواحد من آخر، لا بدّ للإنسان من إنسان، لا بدَّ للصدر من الضلع الذي قُدّ منه، السيدة بورجرون حواء، وأنا زبيد الشجري آدم، وقد حملت حوائي تفاحتها، فلنقتسمها إذن، ولتكن خطيئة اللّذّة، سيدة الخطايا، فبها وحدها تتبرعم

شجرة الحياة المباركة، وتورق، وتزهر، ويكون منها ثمر كثير، لنا وللذراري على السواء، وهكذا، دون الزواج ومؤسسته المتعبة، تكون الصيرورة، يكون لي، من هذا اللقاح، امتداد في المستقبل، ولئن لم يفلح التلقيح، مع هذه الكونتيسة الفرنسية البهيّة، فإنه سيفلح، من غير شك، وبإرادتها الحرة، مع الدوقة الإنكليزيّة الرائعة مارلين، وبقايا النار، بقايا اللظى، في راحتي والفم، كافية للأخذ بثأر جميع العنّينين، في هذا العالم المجنون، العالم السكّير كبنيه، أو كابنه الذي هو أنا، ولتخترق العفة، والفضيلة، والطهارة، من جهاتها الأربع، نكاية بها، أو تحدّيًا لها، ولنمت، في نشوة اللذّة الشهّاء، كي نحيا في مهد غلمتها، وبذلك نجدد، ونتجدد، عبر الموت والولادة نحن وكل خلايانا، وبذلك ننقذ الحياة من دمار العيب، الذي لم يكن في البدء، لأنّ الحب كان في البدء، والحب في بدئه والختام، في أزله وأبده، هو التاج الذي يوضع على رأس العروسين، كي يمارسا الحب، وبعده الخيانة، في طمأنينة وهناءة!».

جاءت السيدة بورجرون تتهادى، مدركة أن ثمّة وليمة لانقة بها، وأنّ الدم القاني، العربي والفرنسي، سيمتزجان في غيبوبة الافتراع، محوّمين صعودًا روحيًا ثنائيًا، ينبثق عن رعشة جسدين، هي الرعشة الأمتع، المتوفزة بالقلق، والحرام، والخطيئة، وهي لذيذة بقدر ما هي متوفّزة، لم يعرف شبقها، عنفها، فحيحها، سرير الزوجية في أيّ يوم، لانتفاء الطمأنينة خارجه، وتخييمها، ببلادة مزهقة، داخله، ولأنّ، في هذا السرير الزوجي الذي لا يئن من شكاة، يكون الفصل فيه قيامًا بواجب، ومع هذا الواجب المفروض اجتماعيًا، لا يرهز السرير، لا يشكو، لا يخمر، لا يسمع، كأنّما به وقر، هو، في طبيعة البركة، يفتقر إلى اللعنة، وهذه دونها لا يغلي ماء في الصلب ولا يفور!

انحنيت، قبلت يد السيدة بورجرون كتعبير عن الاحترام، أدارت لي خدها، تعبيرًا عن المودّة، فقبّلته أيضًا، خلعت جاكتتها المخمليّة، البنّيّة، الباريسيّة الصّنع، فتناولتُها وعلقتُها على مشجب مدخل الصالون، قالت لي ضاحكة:

ـ أعرفك جنتلمانًا، ولكن ليس على الطريقة الإنكليزية التقليديّة!

قلت وأنا أدعوها إلى أخذ مكانها في صدر الصالون:

ـ هذه الطريقة، يا سيدتي الكونتيسة، تعلمتهامن الدوقة مارلين تشارلز، وآمل أن تكون قد أرضتك، رغم تقليديتها.. هل لك بسيكارة!

تناولت سيكارة من التبغ الصيني الفاخر، أشعلتُها لها، فعلت مثلها، راقبتُها وهي ترفع رأسها إلى أعلى، نافثة الدخان الرماديّ، على شكل حلقات حلزونية، ترتفع إلى أعلى، تنفلش، تتبدّد، تتلاشى في الفضاء لتصير منه، تتخذ لونه، بانتظار تواصل حبل الحلقات الدخانية، بانتظام، مع تواصل النفثات من الفم القرمزي، ذي الشفتين الشهوانيّتين، بينما الرأس يرتفع، ينخفض، يتحوّل، متخذاً وضعية تأمُّل عصبي، راقبته خفية، ولم استغربه، لأنّني أعهده، وأتعهده بصبر وأناة، لا بدّ منهما في مثل هذه المواقف!

سألتُ:

ـ هل هذا الصمت، هذا التأمُّل، هذه الوداعة البوذية، مدخل إلى النرفانا؟

ابتسمت السيدة بورجرون، نفضت رماد سيكارتها بسبّابة رخصة، تتناسب، وتتناسق، مع أصابع الكف الأرستقراطية، الملكية، ذات البياض المشرب باللون الوردي، كأنّما هي على مسرح التياترو الكبير في باريس، في حركاتها والدلال. ومجاراة لها، ابتسمت بودّ، واضعًا رجلاً على رجل، في صمت ساخر إلى حد ما، متوقّعًا هبوب العاصفة في كل لحظة! غير أن العاصفة لم تهبّ، لأنّ السيدة بورجرون، في محاولة للضغط على أعصابها، تقمّصت دور مايا، أم بوذا، التي تتصف، في الفلسفة الهندوسية، بصفات كثيرة، منها معرفة الغيب، في سحر الوهم، والتصعيد به إلى أعلى، لبلوغ درجة الألوهيّة كما عند الاغريقيين، أو هذا ما استنتجته تقريبًا، من بعض قراءاتي. لذلك أجبت عن سؤال، فيه سخرية مبطنة، حول ما اذا كنت أعرف معنى النرفانا، التي زعمت، على نحو ما، أن السيدة بورجرون تكاد تدخل فيها، قلت:

ـ هل هذا امتحان؟

قالت بورجرون:

ـ على المرء أن يكتسب المعرفة من العارفين أمثالك.

قلت ضاحكًا:

ـ قبل قليل خيل إليَّ أنَّك دخلت النرفانا وخرجت منها، متقمِّصةً شخصية مايا، أمّ بوذا المبجل! أمّا أنني من العارفين، فهذه نكتة مقبولة منك، ومنك فقط، وبحسب علمي أن النرفانا، كما عرفها هرمان هسه، الكاتب الألماني الشهير، هي الهدف الأسمى من التأمُّل، ولعلمك، وكذلك للأمانة، أنا لا أعرف اللغة الألمانية، وقد قرأت هذا الكتاب، الذي عنوانه «سدهارتا» باللُّغة الفرنسيَّة، وبترجمة ركيكة إليها، أو غير واضحة، أو أنَّني لا أفهم ما أقرأ، لا فرق، وفي هذا الكتاب، إضافة إلى ما قلته عن النرفانا، يقول الكاتب: إن النرفانا هي التجاوز، وحالة الانتشاء القصوى، وبها يتم تخطِّي الوجع بقهر الجسم وكبح الشهوة[1].

قالت السيِّدة بورجرون:

ـ مع أنني لم أفهم جيِّدًا، ومثلك تمامًا، فإنَّني أحبّ أن أعرف شيئًا عن مايا، أم بوذا، اذا أردت.

ـ بطيبة خاطر سيدتي، إلاَّ أنَّني، مع الأسف، لا أعرف عن مايا هذه، سوى التحليق في ضباب الوهم، ومع أنها حلَّقتْ عاليًا جدًا، فهذا لم يمنعها أن تكون على الأرض، وأن تعطي نفسها، ككل امرأة، كي تحبل وتلد.. ما رأيك أن نجرب، نحن أيضًا؟

ـ التحليق؟

ـ ثم الهبوط، والاستلقاء، وإعطاء النفس بوقار ومهابة عظيمين.

ـ فاسق!

ـ هذا هو.. فهل تأذنين، لفاسقك العزيز، أن يعدّ القهوة والكونياك؟

ـ أنت فاسق، لكنَّك لست فاسقي، ولست عزيزي، ولست وفيًا لحبّي، أو مقدّرًا لعاطفتي.. أنت بصراحة، ذكر يريد أن يلهو، أن يتسلَّى، بالأنثى، لا فرق لديه إن كان اسمها مارغريت أو مارلين أو سوزان.. وهذا عيب كبير فيك، عيب عليك أن تخجل منه.

---

١ ـ تُرجم هذا الكتاب الى اللغة العربية، في ما بعد، ترجمة جيّدة من قبل الشاعر ممدوح عدوان، وعنه أخذت هذه المقتطفات.

قلت:

ـ سأخجل، هذا وعد، وبسبب خجلي لن أعض كتفيك البضّتين، مع أنّني مولع بذلك، ولن أترك عليهما، أو على أيّ مكان من جسمك، أيّة بقعة زرقاء، فهذا الجسم الذي خلق، في تكوينه البديع، للفرجة لا للاستهلاك، سيخرج من السرير سليمًا، كأنّه لم يمسّ، على شرط ألاّ تكوني عنيفة، أو تعضّي، لأنّني سأتعرّى، غدًا، أمام المحكّمين، في مباراة لجمال الأجساد.. مرة أخرى أستأذن في إعداد القهوة والكونياك، ما دامت التهيئة لا تتم دونهما.

ـ أعرف طقوسك في التهيئة، لكنّني لا أحتاجها، لأنّني غير مريضة، نفسيًا، أو مصابة بالبرود الجنسي، مثل تلك الإنكليزية العاهرة مارلين.

ـ انت على خطإ، يا سيدة بورجرون، فالإنكليزيّات باردات خارج الفراش، دافئات جدًا، بل ناريّات، في الفراش، وهذا ليس رأيي وحده، إنّه راي الكثيرين، ومنهم بلزاك، هل تقرإين بلزاك؟ إنّه رائع، أوصيك بقراءة «الأب غوريو» وغيره.

ـ سأفعل، كرمى لك، وليس لأجل معرفة ما يقوله بلزاك، أو غيره، عن الإنكليزيات، هذا أمر لا يهمني في شيء، ولست مغرمةً بعلم الأجناس أو السلالات!

أعددت، بشكل متقن، القهوة، أتيت بالكونياك، وبكأسين غير فاخرتين، مثل كل شيء في شخصي أو بيتي.. جلست قرب ضيفتي المشعّة، في نضج أنوثتها، إشعاع النضارة المطيّبة بعطر باريسي يفوح، يتضوّع، يستعجل مَنْ يشمّه، إلى لثم العنق، الصدر، في مجرى النهدين، وما يليه، وبعد أن شربنا القهوة، وتذوّقنا الكونياك، سألتني:

ـ يُقال إنّك ستغادر الصين، لأنّك متصلّب في موقفك من تدريس البرنامج الجامعي، هل هذا صحيح؟

ـ هو وحده الصحيح، والمسألة، في جوهرها، ليست التصلّب، وإنّما التمسّك بوجهة نظر حياديّة، في الخلاف المعروف، لا يرتاح لها الرفاق الصينيّون، وهذا، في رأيي، تشدّد لا مبرّر له، لو كان هناك مجال للحوار، للنقاش، للتعدّديّة، ولو أنّ النظام التوتاليتاري، في شموليّته الصارمة،

يفسح، أو يتساهل قليلاً جداً، بتنفس الفرد، المواطن، نسمة ما، غير ملوّثة، من رئتيه لا من سرّته.

ـ هل أفهم من هذا، أنّك تريد التنفُّس من رئتيك لا من سرّتك كما يريدون هم؟

ـ في هذا السؤال، على سخريته، بعض من حقيقة، أنا أتنفّس من سرّتي، وأتكلّم من حنجرتي، دون صوت، وكل ما أريده، أن أتنفّس من رئتي، وأتكلم بصوتي، وبحرية الحبال الصوتية، كما هو الشأن في النظام غير الشمولي، هذا الشمولي النمطي، المقولب، كما هي الحال هنا، ولكي لا أفهم خطأ، أحب لك أن تبحثي، عن الموقف مني، في غير أُطُر الأنظمة، فلست أنا، ولا أنت، ولا أي أجنبيّ يعمل في الصين، يبيح لنفسه أن يحشرها في موضوع النظام، وهل هو شمولي أو تعدُّديّ، وفي المقابل فإنّ هذا النظام، هنا، لا ينبغي أن يُرغم أمثالي على تدريس، أو ترجمة، شتائم ضد الاتحاد السوفياتي.. هل عرفت، الآن، لماذا سأرحل عن الصين، ولماذا لا أرحل، بانتظار تعليمات القيادة؟ الجواب بسيط: لا جواز سفر لديّ، ولا أيّة وثيقة، تثبت شخصيّتي، وفي وسعك أن تتصوّري طيرًا بغير جناحين، وأن تضعيني مكان هذا الطير.. يكفي، يا مارغو، كلامٌ حول هذا الموضوع، فالقهوة تكاد تبرد، والكونياك، في كأسينا، يتثاءب، وهذا يجعل لقاءنا غير بهيج، بأيّ معيار.. لنشرب، لنكن قريبين، أحدنا من الآخر، سواء مارسنا الحب أو لم نمارسه!

شربنا، كل ما في كأسينا، جرعة واحدة، ملأت الكأسين من جديد، وضعت ذراعي على كتفيها، جذبتها نحوي، رفعت فستانها، بانت الركبة، الفخذ، الساق، بان البهاء، قلت:

ـ جميلة أنت يا مارغو، وحق «سان اندريه»، و «سان جورج» أيضًا!

ـ تقول هذا لمجرد ان انكشف لك جزء من فخذي.. لماذا تعطي الساق، والركبة، والفخذ، كل هذه الأهميّة؟

فكرت، تردّدت، بحثت، في صمتي، عن دليل، قلت:

ـ ولماذا أمّنت آفا غاردنر، على ساقيها، بمبلغ كبير، كان مثار دَهَشِ هوليوود؟

ضحكت وقالت:

ـ لو كـان في الصـين شـركة تأمين، لأمّنت على ساقيّ أنا الأخرى، ألا تستحقان؟

ـ كل الاسـتحقـاق، ولا بدّ أن يكون في الصـين شـركة تأمين، لكنّني لا أدري ما إذا كانت تؤمّن على السيقان، وعلى كل فإنّ السيد جاك، زوجك العزيز، شركة تأمين قائمة بذاتها، وإلاّ كان مغفّلاً!

ـ جاك ليس المغفّل، لكنّ الجمال لا يُرى عن قرب.

ـ أنا معك في هـذا، الجمال في البعيد يكون دائمًا، وقد عبرت عن هذه القناعة مرات عـديدة، وأخطأت في ذلك مرات عديدة، لأنّه، كـمـا قيل «على المرء الا يرمي بدرره إلى الخنازير»! وبعض الرجال، الذين لا يكتشفون من ساقي المرأة تناسق جسـمـهـا، هم خنازير فعـلاً، تصوّري أن بعضـهم لا يلتفت إلى مكمن الجمال هذا، مع أنّ قدم المرأة، ساقهـا، فخذها، مرآة جمالها، حتى إنّ شـاعرًا كبيرًا، مثل ناظم حكمت، تنبّه إلى هذا، فـقال لزوجته وحبيبته بيرابيه، في قصيدة من أجمل قصائده: «قدماك اللتان تمشيان على روحي!»

قالت السيدة بورجرون، ظاهرة البهجة:

ـ كم انت قوي الملاحظة يا حبيبي، اسمعك وأكاد لا أصدق، فليس ثمّة سواك من لفتني إلى هذا، وليس سواك، بين كل الرِّجال الذين التقيتهم، من فطن إلى جمال ساقيّ، وقدميّ..

وتوقفت عن الكلام، متحرّجة، فابتسمتُ وقلت:

ـ وجمال فخذيك؟

قالت:

ـ هل هما جميلتان أيضًا؟

ـ اسألي السيد جاك!

ـ لا تكن خبيثًا، دع جاك خارج اللعبة!

ـ اذا كان فعلاً خارج اللعبة، فالسؤال يصبح نافلاً، لكنّه مشترك في اللعبة، بطريقة شرعية تمامًا، وهو، إذن، سعيد مثل سعادتك.. ألست مع الشرعية الزوجية؟

ـ لتذهب إلى مجاري نهر السين.

تناولت قدحها بعصبية، كرعته كاملاً، قالت بنزق:

ـ لماذا تصادر اللحظة الجميلة في حياتي؟ أنا لست مع الشرعية الزوجية، إنّني أكرهها، أمقتها، أغتالها بالخروج عليها، هل تفهمني؟ مجرَّد وجودي هنا، كافٍ كي تعرف كل هذا دون أن يُقال!

وجمت أمام النزق غير المبرّر، قلت مشاكسًا:

ـ أعرف، نعم أعرف، كل هذا دون أن يقال..

قاطعتني بانفعال أكبر:

ـ ماذا إذن؟ تريد أن تمتحنني؟ أن تطبِّق عليَّ تحليلاتك النفسيَّة؟

أجبت بهدوء:

ـ لا هذا ولا ذاك، ما أرغب فيه هو: لماذا الأزواج لا يرون جمالات بعضهم بعضًا، بعد الزواج؟

صاحت:

ـ وهذا تعرفه، أنا متأكّدة مما أقول، إنَّه من ألف باء الثقافة!

أمعنت في سخريتي، كأنَّما ركبني قرد الشمبانزي، قلتُ وأنا أهزّ رجلي الموضوعة على الرجل الأخرى:

ـ الثقافة الجنسيَّة!؟

أضفت:

ـ اذا كنت تقصدين هذه الثقافة بعينها، فآسف أن أخبرك، أو أصارحك، بأنَّني جاهل بها، والسبب أن المدارس الثانوية، وحتى الجامعات، في بلادنا الشرقية، لا تدرّس، بل لا تسمح، بالكلام على هذه الثقافة، رغم أن هناك، تحت وسائد الطلاب، كتاباً اسمه «رجوع الشيخ إلى صباه» وهو، لعلمك، كتاب بذيء جدًا، ومقرف أيضًا! بينما أنتم، في الغرب، مقرّر عليكم الجنس، كمادة دراسية!

نظرت اليَّ شزرًا وقالت:

ـ قد يكون صحيحًا ما تقول، لكنَّك، أنت، لا تجهل هذه الثقافة، وكلامك على الشرعيَّة الزوجيّة، وتأكيدك بأن جاك زوجي، داخل اللعبة، لهما غرض واضح: تذكيري بأنَّني أخون هذه الشرعيَّة، أخون زوجي، وأنَّ زوجي على علم، ورضى بهذه الخيانة، وأنَّ مارلين تشارلز، هذه الإنكليزيَّة المصقعة،

تنقلب إلى نار في الفراش، وأنَّك تتمتَّع بها، وتحترق، نشوانَ، بنارها، ولا تعدّ تهتكها خيانة من أيّ نوع، لأنَّها غير متزوِّجة، ولا تخرق الشرعيَّة الزوجيَّة بخلافي!! كفَّ عن هزّ رجلك، لا مباليًا، ففي حضور المرأة، لا يهزّ الرجل المتحضر رجله، ولا يأتي بحركة تنم عن قلة في الذوق!

أمعنت في عدم الاكتراث، قلت:

ـ ذهبت، يا مارغريت، بعيدًا في شكوكك، وفي تأويل كلامي، وفي تحقيري المرفوض بشدّة، وكذلك في الكشف عن غيرتك، وممّن؟ من مارلين تشارلز! هذه «المصقعة» حسب تعبيرك، وهي ليست كذلك، وكان عليَّ أن أصحِّح مفهومك حول المرأة الإنكليزيَّة، وقد فعلت ذلك بموضوعيَّة تامَّة، فاذا بك تثورين فجأة، دون وجه حق، فلماذا؟ أعترف: نحن لا نتلقى ثقافة جنسية، في مدارسنا والجامعات، وهذا نقص، له ثمن مدفوع، لا مجال للإفاضة فيه، الآن، وقد شرحت لك، ما تعرفينه دون شك، عن جمال القدمين والساقين عند المرأة، واستعلان تناسق جسمها، من خلال هذا الجمال، وكان خليقًا بك أن تسعدي، في قرارتك على الأقل، بملاحظتي حول جمال قدميك، وساقيك، لو أنَّك على شيء من رجاحة العقل..

قاطعتني مارغريت، التي كانت تصغي إليَّ، وتدخِّن وتشرب بشراهة:

ـ هل وصل بك السفه إلى الانتقاص من رجاحة عقلي؟ وهل أنا، في نظرك، قليلة العقل!؟ وكيف تتطاول عليَّ بهذا الشكل، لمجرَّد أنَّني، في لحظة ضعف، أو لحظة طيش، وكنزْوة لا أكثر، أسلمتك نفسي!؟ المرأة، أيُّها المتحذلق، أوفر عقلاً، وأكثر رشدًا، من الرجل، وبما لا يقاس، افهم هذا، واحفظه جيّدًا.

نهضتُ، ملأتُ كأسي، عدت إلى مقعدي، أشعلتُ سيكارة وقلت:

ـ لا أرغب، يا مارغريت، في دخول مماحكة، معك أو مع غيرك..

نبرت مقاطعة كلامي:

ـ أنا لست مماحكة، بأيَّة حال!

ـ لكنك مراوغة، كسائر النساء، في الدنيا..

قهقهت السيدة مارغريت بورجرون وقالت ساخرة:

ـ مراوغة!؟ أنا مراوغة؟ وسائر النساء، في الدُّنيا، مراوغات أيضًا!؟

كنت أحسب أن سطل أتّهاماتك التافهة قد فرغ، وأنك دلقته عليَّ واسترحت، فاذا حسابي في غير موضعه، ما هي التُّهمة الجديدة؟

قلت محافظًا، قدر الإمكان، على هدوئي:

ـ أنت على حق، في قولك إنَّ لديَّ سطلاً من الاتّهامات، واجب أن أطمئنك إلى أنَّ هذا السطل..

ـ دلقته عليَّ واسترحت، أليس كذلك!؟

ـ مهما يكن الأمر، فإنَّ سطل اتِّهاماتي قد فرغ، ولم يبق لديَّ سوى شرح بسيط..

ـ فيزيولوجي أم سيكولوجي؟

ـ تاريخي اجتماعي..

ـ وتفهم بالتاريخ والاجتماع، والفلسفة والعلوم الإنسانيَّة وغيرها!؟ أنت، إذن، موسوعة كاملة، متنقّلة، سخيّة، مفتوحة الصفحات، لمن يريد أن يطّلع وأن يتثقّف!

ـ هذا هو يا عزيزتي، اذا كان اعترافي يرضيك!

ـ وهل أنت حريص على إرضائي؟ ومنذ متى يا سيدي العلاّمة؟

ـ منذ هدوئك قليلاً، كي أشرح لك رأيي في المرأة.

ـ المرأة المراوغة؟

ـ أحيانًا!

ـ ولماذا أحيانًا، فقط!؟

ـ دائمًا!

ـ إذا كنت أفهم ما تقول، فإنّني، في رأيك، امرأة مراوغة!

ـ نعم! مراوغة المرأة سببها تاريخها الاجتماعي.

ـ أنت تهينني أم تهين المرأة؟ وهل هذا لأنّني جئت بنفسي إليك؟

ـ أفهميها كما تشائين!

تناولت منفضة السكائر وقذفتني بها، لم يكن تسديدها جيّدًا، لم أصب، تحطمت المنفضة الزجاجية وتناثرت شظايا على البلاط من حولي، تنمّرت عليَّ، ارتدتْ جاكتتها، اتجهتْ نحو الباب، خرجتْ، أغلقته بأشدّ ما تستطيع من قوة، دوّى اصطفاق الباب، انداح، تلاشى رويدًا، رويدًا، رويدًا!

- ٢٩ -

الإنسان الوحيد الذي لا تستطيع أن تهدّده بالسجن هو السجين ذاته. النقيب فن يان، رئيس حرس السجن، لم يكن ممن يدركون حالة نفسيَّة كهذه، وإلاَّ لما قال لزبيد: «انتظر تر!» يرى ماذا؟ تهمة «إثارة الفتنة»؟ كان السجناء جياعًا، وكانت مع زبيد نقود، فأعطاهم إيَّاها كي يأكلوا، فأين أركان الجريمة في هذا التصرُّف؟ وعلى فرض أن التُّهمة هذه تشكِّل جرمًا، فما الحكم فيها؟ السجن؟ زبيد سجين بطبيعة الحال، إنَّه مبلَّل الثياب، فما خشيته من البلل؟ ولئن كان راكبًا بحر المخاطر، «فمن يركب البحر لا يخشى من الغرق!» وهذا ما لم يفهمه «التونجي» النقيب، حين قال قولاً غبيًا، قابله زبيد بالهزء، بينما اغتاظ عبد القادر، لقولة هذا النقيب «الفتنة؟ هذه هي المساعدة التي جئت لتساعدنا بها!؟» «لا! فكر عبد القادر، مساعدة الأستاذ زبيد، مساعدة فعليَّة، غير عاديَّة، وهو كريم، ومشفق، وقد أشفق على السجناء فأعطاهم نقوده، وهذا عمل يستحق الشكر عليه، لا توجيه تهمة ملفقة له! عربدة السجناء، في طلب المال الذي استولى عليه الحراس، مصدرها النقمة، وهم في نقمتهم على حق، فقد لا حظ الرفيق ماو، في بعض مقالاته «أن الثورة الصينيَّة أيقظت ملايين الصينيين، فانتفضوا من رقاد دام ثلاثين قرنًا، ولن يعودوا إليه أبدًا!»

سأل زبيد عبد القادر:

ـ فِيمَ تفكر؟ ولماذا تفكِّر، وتسهر، وتصر على البقاء معي، ولا تذهب كي تستريح كما طلبت منك، يا رفيق عبد القادر؟

كرَّر عبد القادر لازمته المعتادة قائلاً:

ـ ولكن كيف هذا يا أستاذ؟ أنا مرافقك بأمر من قيادة الحزب في الجامعة، فكيف أتركك؟

ـ وبماذا ينفعني بقاؤك؟

ـ ينفعني أنا!

ـ تخاف لأنّك لم تبلغ القيادة في بكين، بخبر سجني؟

ضحك عبد القادر في العتمة وقال:

ـ ولكن كيف هذا؟ أبلغت القيادة، في بيتاخو بكين، وسيأتي، في قطار الليل، محقّق آخر، للنظر في قضيتك!

ـ وهل صارت هناك قضية خاصة بي!؟

ـ لا بأس! لا بأس!

ـ لا بأس بماذا؟

ـ بأن تكون لك قضية، وأن يُعاد التحقيق فيها، هناك سوء تفاهم!

قال زبيد بنبرة حاسمة:

ـ ليس هناك سوء تفاهم، هناك خطأ، خطأ فظيع!

قال السجين تان كو:

ـ أشمّ رائحة، رائحة غريبة، رائحة موت!

ـ عن أيّ رائحة، وأيّ موت تتحدّث أنت يا أرنب؟

قال ذلك سجين يقف على الشبك الحديديّ بقربه، فأجابه تان كو:

ـ أنفي لا يخطئ، وعيناي تريان في الظلام، أنا لست بأرنب، لكنني أشمّ مثله..

أضاف السجين تان كو:

ـ إذا كنت خائفًا يا فأرة، فارجع إلى وراء، وادخل هناك وكرك حتى لا ترى!

ـ أرى ماذا؟

ـ عمليّة الشنق!

ترجم عبد القادر لزبيد ما قاله السجينان، ثم غاب قليلاً وعاد صامتًا، عاد خائفًا، لأنّه لم ير عملية إعدام قبل هذه الليلة، فأدرك زبيد، من صمت عبد القادر، أن ما قاله تان كو صحيح، أنّ هذا الأرنب الشمّام يعرف، من تجاربه، ومما رأى في السجون، أنّ عملية شنق ستتم، إلاّ أنّه لم يقل من هو الذي سيشنق، وعندما سأله، قال تان كو:

ـ يا صاحبي، أيُّها الرفيق العربي الغريب، أنت سيّئ الحظ!

وبعد أن شتم السجن، والسجّانين، والسلطة، ربّت على كتف زبيد قائلاً:

ـ ارجع إلى وراء، أرجوك، لا أريد أن ترى عملية وحشية كهذه، أما من هو الذي سيُشنق فلا أعرف، ففي هذا القاووش، الذي نسميه «قاووش الموت»، عشرة محكومين بالإعدام على الأقل، فلماذا أتوا بك إلى هناك؟ أرجح أنَّهم يريدون إرهابك، أو الانتقام منك، فالذي أمر بهذا ابن عاهرة! نعم! صدِّقني، ابن عاهرة! إنَّني، أنا تان كو، الذي كان يعمل في إحدى السفارات، وهناك تعلَّم الانكليزية قليلاً، محكوم بالإعدام أيضًا، لأنَّني متَّهم بالسرقة، كما سبق وقلت لك، ومتَّهم بالقتل، ولقلبك الطيّب أقول، الآن: إنَّني لص، لص لا قاتل، إلاَّ أنَّ القدر شاء، أو المحكمة الظالمة شاءت، بذريعة توفر الأدلة، وشهود الإثبات، أن تحكم عليَّ بالإعدام، وهذا من حسن حظي، تعرف لماذا؟ أنا أقول لك: أن أموت مرة واحدة، أفضل من أن أموت كل يوم مرة، على مدى عشرين عامًا مثلاً، ولو أبدلوا حكم الإعدام بالسجن المؤبّد، لكانت الكارثة، إنَّني أؤمن، بخلاف الآخرين، بالتقمُّص، هل تؤمن بالتقمُّص أنت؟ لا!؟ جيّد، التقمُّص، وهو السبيل إلى الحياة ثانية، يمنحني السعادة، والشجاعة، والرغبة في الموت، لعلي، في حياتي الأخرى، أكون إنسانًا آخر، غنيًا، أو عالـمًا، أو وزيرًا، أو موظفًا كبيرًا، وعندئذ أنعم بالمسرّات، التي حرمت منها في حياتي هذه، عندئذ أكون سيّدًا لا عبدًا، أكون حاكمًا لا محكومًا، ما رأيك؟ لا رأي لك؟ إذن أنت خامة طيِّبة، قابلة للإيمان بما أؤمن به أنا، وحين تؤمن، وهذا ما أدعوك إليه، تصبح سعيدًا مثلي، يتساوى عندك الموت والحياة!

تابع تان كو بعد أن أعطاه زبيد سيكارة وأشعلها له:

ـ اسمع يا صديقي، أنا بوذيّ في الأصل، والبوذية تدعو إلى نكران الذات، إلى الزهد والتقشُّف، أي إلى لا شيء، لمن هم أمثالي، من الفقراء والمعدمين والمنبوذين، لأنَّنا، في عيشنا الراهن.. انتظر! عليَّ أن أبحث عن الكلمة المعبِّرة ـ في عيشنا الراهن، نحن فقراء ومعدمون ومنبوذون خلقةً، فلماذا الإيمان، إذن، بما نحن فيه؟ البوذيَّة، والهندوسيَّة، تبشِّر بالسلام

السماويّ، طيّب! والسلام الأرضي!؟ لماذا ينسون السلام الأرضيّ!؟ قل أنت، لماذا ينسون أنّنا بحاجة إلى الطعام والشراب والكساء والصحة والمسرّة، أنّنا بحاجة إلى عيش فيه كفايتنا على الأقل؟ وماذا ينفعني إذا كان، على الأرض، حقل من «البيتساي» لغيري، وأنا محروم من «بيتساية» واحدة في بيتي؟ وبماذا أفادتني الكونفوشية، في وعدها بأن تكون لي، في السماء، عشرة رؤوس من الحمير، أو من الأبقار أو الخراف، وأنا أفضل عليها، في هذه الدُّنيا، حمارًا واحدًا، أو بقرة واحدة!؟ قلت هذا، في أحد السجون، فضربني المساجين! ضربني الذين يتعلّقون بحبال الوهم السماوي، لأنّ بوذا وعدهم بهذا، وعدهم بالوهم، بينما هم بحاجة إلى الحقيقة، وما هي الحقيقة التي يحتاجونها؟ إطلاق سراحهم، تمتُّعهم بالحريّة، توفر الأرزّ والخبز والرداء والحذاء لهم، هؤلاء الحيوانات الذين ضربوني، وسيّحوا دمي، لذلك، ومن أجل النكاية وحدها، رويت لهم الحكاية التالية: بالقرب من أحد الخنادق العميقة، في معبد بوذيّ ناءٍ، كانت ثلاثة تماثيل خشبيّة لـ «بوذا» تقف في شموخ وكبرياء.. وكان رجلان قد جاءا إلى مكان الخندق، قرب المعبد، ولم يستطيعا العبور، ففكّرا طويلاً، إلى أن هداهما التفكير إلى اقامة جسر على الخندق، ولم يجدا سوى التماثيل التي أوحت إليهما بفكرة جديدة.. صاح السجناء:

ـ ما هذه الفكرة يا تان كو!؟

«قلت لهم:

ـ أعطوني سيكارة أوّلاً، ودعوني أتذكّر بقيّة الحكاية.

هاجوا، ماجوا، زعقوا:

ـ يا ابن الخائبة، تروي لنا حكاية، وعند العقدة تريد أن تتذكّر؟ ماذا نفعل إذا كنت قد نسيت؟

أجبتهم متخابثًا:

ـ فعلاً نسيت!

ـ وأعجوبة بوذا؟ أعجوبة بوذا العظيم التي تريد أن تتناساها، تذكّر وإلاّ حطّمنا رأسك بأحذيتنا يا ابن العاهرة!

ضحكت في سروالي، قلت لهم:

ـ أنتم تعرفون رأيي في التقمُّص، أي في الحياة الثانية التي أشتاقها، فاذا كنتم جادّين في تهديدكم بقتلي، فنفذوا كي تسعدوني، ومن أجل إرغامكم على التنفيذ، فإنّني لن أروي لكم بقية الحكاية!

صرخوا:

ـ وأعجوبة بوذا العظيم يا كافر؟

ـ ما دمت كافرًا فلن أحدثكم عن هذه الأعجوبة!

عندئذ همدوا، تصاغروا، توسّلوا قائلين، وأيديهم مضمومة على الطريقة البوذية.

ـ نعتذر إليك يا تان كو، سامحنا على تصرُّفنا معك، وليسامحنا بوذا الطيِّب، لأنّنا خالفنا وصاياه وهددناك بالقتل، وهذا، في ذاته، ذنب كبير، لن نستحق من أجله السلام السماوي، اذا لم تسامحنا، هيا، قل: «إنّني سامحتكم» وأكمل بقيّة الحكاية.

عبست، تجهّمت، أظهرت انزعاجي، أبديت استيائي الشديد، قلت:

ـ لا أستطيع أن أسامحكم يا إخواني، فاعذروني، إنّني أشعر بالبرد، وبالجوع، وليس لديَّ شيء، بينما أنتم لديكم الكثير، وتبخلون عليَّ بما يستر جسمي، ويسدّ رمقي، ويعيد إليَّ صفائي، كمدْمن على التدخين، ولا سكائر لديَّ!

نظر السجناء بعضهم إلى بعض، وجدوا أنّني على حق، وأن مسامحتهم لا تتمّ إلاّ باتّباع طريق بوذا، بالعطف على المساكين أمثالي، وبعد ذلك بال عليَّ بوذا، صاحب القلب الشفيق، وكان بولُه قمصانًا، وسراويل، وسكائر، وقصعة من الأرز، وأخرى من حساء البيتساي، فأكلت، وشربت، واكتسيت، ودخّنت، وبقيت صامتًا، إمعانًا في تعذيبهم، وتشويقًا لهم، وراحوا هم، أولاد الزنى، ينتظرون بقية الحكاية، لمعرفة الأعجوبة العظيمة، التي صنعها بوذاهم العظيم، وأنا أتأنّى، متظاهرًا بعصر دماغي، لتذكّر ما نسيته، إلى أن شفيت قلبي تمامًا منهم، وعندئذ تنحنحت وقلت:

ـ تذكرتُ، يا اخوتي، بقيّة الحكاية، فاسمعوا!

صفّقوا، التفّوا حولي، لزموا الصمت، فخيّم السكون، وطابت نفسي فسألتهم:

ـ إلى أين وصلت بالحكاية؟

ـ إلى أعجوبة بوذا العظيم!

ـ لا! ليس إلى الأعجوبة، بوذا العظيم لا يستعجل مثلكم في صنع أعاجيبه، افهموا هذا، صلّوا، اركعوا، ضمّوا أيديكم؛ ابتهلوا إلى بوذا أن يمنحكم نعمة سلامه السماوي!

صاح أحدهم:

ـ وسلامه الأرضيّ أيضًا!

قلت:

ـ سلامه الأرضيّ أيضًا، وهكذا تنعمون بالسلامين، اذا ما كانت قلوبكم ملأى بالإيمان، أيُّها الاخوة المحسنون!

ركعوا، ضمُّوا أكفّهم، تمتّعوا بالصلاة، وبالدُّعاء، ابتهلوا إلى بوذا العظيم، أن يتعطّف عليهم، ويمنحهم بركته، نعمته، عذوبته، محبته، وأخيرًا سلامه السماوي، وبعد أن قاموا بالطقوس المعتادة، المقدّسة، وحلت عليهم السكينة، قلت لهم:

ـ لماذا لم تحلقوا رؤوسكم، كرهبان بوذا، ومريديه؟

أجابوا:

ـ سنحلقها!

ـ ولماذا لم تدْعوا لي؟

ـ سندعو!

ـ ولماذا لم تقبّلوا الأرض المباركة؟

ـ سنقبّلها!

ـ لماذا..

قاطعني أحدهم صائحًا بغضب:

ـ وبعد!؟

قلت:

ـ السكينة التامّة، في الجو من حولكم، في القلوب داخل صدوركم، في الضمائر والمشاعر في سرائركم!

قال:

ـ السكينة التّامّة، في كل ما ذكرت، وبعد؟

ـ السكينة!

ردد:

ـ السكينة!

ـ ثم السكينة!

ـ ثم السكينة!

ـ ثم السكينة!

ـ ثم السكينة!

قلت:

ـ الآن أنصتوا جيّدًا..

أنصتوا خاشعين، كدت، للحظة، أن أضحك، كتمت ضحكي بصعوبة، عضضت على شفتيّ لمنع لساني أن يخرج من فمي، اتخذت سمة الجدّ الشديد، مسّدت ذقني، تخلّلتها بأصابعي، رفعت رأسي، تفرّست في الوجوه من حولي، أطرقت، أطلت الإطراق، انتشرت الرهبة من حولي، حان الوقت، حانت المنيّة، تدافعت خوفي وقلت:

ـ الفكرة الجديدة، التي طرأت على الرجلين، وهما يحدقان إلى الخندق العميق أمامهم، وإلى تماثيل بوذا الثلاثة إلى جانبهم، هي معرفة أيّ تمثال، من التماثيل الثلاثة، يصلح لأن يكون جسرًا، سواء من ناحية الطول أو المتانة.. لذلك دققا النظر في المنحوتات الخشبية للتماثيل، فوجدا أنَّ التمثال الأول، ذا الوجه الأخضر، والأسنان الطويلة، يقف شامخًا، كأنَّه يعبر عن قوّة بوذا وجبروته، ووجدا أنَّ التمثال الثاني ينتصب غضوبًا، والشرر يتطاير من عينيه، لذلك لم يجرؤ الرجلان على لمس التمثالين!

صاح أحد السجناء:

ـ المجد لبوذا العظيم يا إخوتي!

ردد الآخرون بصوت واحد:

ـ المجد لبوذا العظيم!

صاح آخر:

- طوبى لبوذا، كلّيّ الاحترام!

ردد الآخرون:

- طوبى لبوذا، كلي الاحترام!

رفعت يدي، آمرًا بالصمت، فائتمروا جميعًا، وصمتوا بغير نأمة، عدت أتفرّس في الوجوه فوجدتها مشرقة، متهلّلة، مستعدّة لتلقّي النبأ العظيم، نبأ الأعجوبة، التي لا قبلها ولا بعدها، لأنّها من صنع إرادة تعلو على إرادة البشر، فقلت متابعًا الحكاية:

- بقي التمثال الثالث، وكان يبدو عطوفًا، رحيمًا، تعلو وجهه ابتسامة وادعة، طيّبة، ومن النظرة الأولى، تأكد أن هذا التمثال هو الأنسب للقيام بدور الجسر، لأنّه على الأقل، بوذا الطيّب، المتسامح، الذي سيعفو عنهما، فحملا التمثال خارج المعبد، ووضعاه بين حافتي الخندق، ثم عبرا عليه إلى الناحية الثانية بسلام، وأمان، وشكر جزيل، وفي هذه اللحظة، راح بوذا المستلقي يبكي، قائلاً: «يا لها من أيّام تلك التي مكنت أمثال أولئك الرّجال من أن يحكموا ويتحكّموا، في الأرض، ويا لها من أيّام تلك التي حرمتني من القدرة على ردّ الإهانة، لمجرّد أنّ لي قلبًا رحيمًا، ووجهًا عذبًا، طيّبًا، تشعّ منه روح السماح الذي لا يستحقّه الجاحدون.. انتهت الحكاية![1]

صرخ السجناء البوذيّون:

- وأين أعجوبة بوذا يا ابن القحبة؟

قلت:

- الأعجوبة العظمى هي في التواضع، تواضع بوذا العظيم، الذي جعل من جسمه جسرًا، يمر عليه الرجلان إلى التخم الثاني للخندق، هاتوا لي أعجوبة إنسانيّة أكثر نبلاً من هذه الأعجوبة، وأنا أنحني احترامًا لكم.

فكر السجناء، تأمّلوا في أعجوبة بوذا، سألوا:

- هل التواضع أعجوبة يا تان كو؟

قلت وأنا أتظاهر بالاندهاش من السؤال:

---

١ - لا أذكر اين قرأت هذه الحكاية أو ما هو شبيه بها كنواة.

ـ هل تمازحونني!؟ وحول من!؟ حول بوذا العظيم!؟ هذا عجيب، هذا لا يصدق، هذا يجعل بوذا يأسف لأنكم لم تفهموا تعاليمه، لم تفهموا ديانته المقدّسة، التي جوهرها التواضع، ثم التواضع.. اخجلوا إذن.. التواضع، يا أحبّائي، جوهر المسلك الإنساني، وخاصة في هذا الزمن، زمن التكبُّر، والتجبُّر، والتبجُّح، وما يلي ذلك من أنانيَّة، ومن نرجسيَّة، إذا لم أقل الأذى، والتسيُّد، والاستبداد! إذن التواضع هو قدس الأقداس، هل تفهمون؟ لا تسألوا سؤالاً بهذه السذاجة، حتى لا تخرجوا على تعاليم بوذا العظيم، وحتى لا أزعل منكم أنا!

قال السجناء:

ـ لا! لا تزعل، نحن نسأل فقط، وقد أجبتنا إجابة قاطعة، مانعة، نشكرك عليها، ونطلب منك السماح.

أطرقت وأنا أتمتم، راسمًا على وجهي، وفي قسماته، صورة للامتعاض، فقال السجناء:

ـ ماذا جرى يا تان كو؟ قبل قليل ناديتنا بكلمة «اخوتي!» وهذه كلمة من كلمات بوذا العظيم، والآن تزعل لمجرد أن طرحنا عليك سؤالاً كي تطمئن قلوبنا!؟

قلت:

ـ أنا لا أزعل، ولا يمكن أن أزعل من إخوتي، ضعوا هذا في اعتباركم كبوذيين مؤمنين، بينكم وبين السلام السماوي مسافة لا يؤبه لها! لأنكم، مثلي، مظلومون جدًا، في هذا الحبس المظلم، الرطب، والقاتل!

قال السجناء:

ـ ألا يمكن تحديد هذه المسافة يا تان كو، أنت العليم في مسائل الدين البوذي، الذي نؤمن به، دون أن نتبحّر في تعاليمه!؟

أجبتهم:

ـ لو كنت، أنا المريد المؤمن، أعرف هذه المسافة، لكنت، الآن، أنعم بالسلام السماوي، حتى وأنا في هذا السجن الذي تعشش فيه العفونة، وتتآكل، من جرّائها، عظامنا، وتتفتّت أعصابنا! دعوني، أرجوكم، أتفرّغ لعبادتي.

انحنى السجناء، انحناءة الشكر والعرفان، وأيديهم تؤدِّي التحيَّة البوذيَّة، وتراجعوا إلى وراء دون استدارة، حتى لا يعطوني ظهورهم، من فرط الاحترام والتبجيل، إلاَّ أنَّ أحدهم، وقف فجأة وقال:

ـ هذا الرجل المحتال، يا اخوتي، يستغبيكم، يضحك عليكم، يقلب الأسود أبيض، بدهاء ثعلبيّ، قفوا في أماكنكم، أو تقدَّموا حتى يكون في متناولكم، واسمعوا جيدًا إلى ما أقول: الحكاية التي رواها هذا الكافر، قد دسَّها علينا، أعني على البوذيَّة، أعداء ألدّاء، وكان علينا، عليكم، أن تكتشفوا ذلك، فلو كان بوذا صنع أعجوبة، لأشار بيده فانتصب جسر، من خشب أو حديد، فوق الخندق، فعبر عليه الرجلان، أما أن يُنزع بوذا من مكانه في المعبد، ويصبح جسرًا يدوس عليه الرجلان بأقدامهما، فهذا تحقير لبوذا، والدليل على ذلك من الحكاية نفسها، وقد سمعتم، من هذا الدجَّال، ان بوذا المستلقي، حين رأى تمثال بوذا يُتخَّذ جسرًا، ومداسًا للأقدام، بكى قائلاً: «يا لها من أيام، تلك التي مكَّنت أمثال أولئك الرِّجال، من أن يحكموا، ويتحكَّموا، في الأرض، ويا لها من أيَّام، تلك التي حرمتني من القدرة على ردّ الإهانة!» اذن كانت هناك إهانة، وباعتراف بوذا المستلقي، الباكي من ألم أو حزن، فأين الأعجوبة؟ فكرّوا قليلاً، أنتم، وقولوا لي، أين الأعجوبة؟ هناك، أيُّها البوذيُّون الطيِّبون، إهانة، إهانة فقط، قلبَها تان كو، بخبثه، ودهائه، إلى تواضع، وأنتم صدقتم تلفيقة التواضع هذه، وتراجعتم إلى وراء، دون أن تفكّروا، ولو قليلاً، في الفرق بين التواضع والإهانة، إنَّنا، نحن البوذيِّين، متواضعون، إلاَّ أنَّنا لا نقبل، إلاَّ إذا كنا مغفَّلين، أن يدوس أحد علينا وعلى تواضعنا.. اقبضوا على هذا المحتال، واضربوه حتى يكفِّر عن خطيئته، عن إهانته التي لا تُغتفر، بحق بوذا، والدِّين البوذي، يا اخوتي!

ضحك زبيد من هذه الحكاية العجيبة، التي عاون عبد القادر في ترجمتها، عندما كانت إنكليزيَّة تان كو الضعيفة تعجز عن التعبير عن تفصيلاتها، أو لا تجد الكلمات الإنكليزيَّة الملائمة لذلك، وسأل، زبيد قائلاً:

ـ ماذا حل بك يا تان كو، عندما اكتشف السجناء البوذيُّون احتيالك، ودجلك؟

قال تان كو وهو يضحك:

ـ ضربوني بأيديهم، ركلوني بأرجلهم، داسوا عليَّ بأحذيتهم، حتى أشرفت على الموت، ولم ينقذني منهم سوى انتقالي من ذلك السجن إلى سجن آخر، وها أنا بينكم، في هذا السجن اللعين، في مدينة بيتاخو، التي تبعد مسافة نصف ساعة بالسيارة، عن مصيف بيتاخو، حيث تتنعمون أنتم، ونشقى نحن، في «قاووش الموت» هذا!

قال زبيد:

ـ ولكنّني، يا تان كو، أنا أيضًا من هؤلاء المتنعمين في مصيف بيتاخو، على شاطئ الباسيفيكي، والذين تحسدهم على حياتهم، ورفاهيتهم، وكل هذا لم يمنع أن أكون معك، في قاووش واحد، «قاووش الموت» دون أن أعرف ذنبي أو مصيري!

قال تان كو:

ـ مهما يكن! مهما يكن! أنت، أيُّها الرفيق الغريب، لست مثلنا، وغدًا يُفرج عنك، بينما أكون أنا في العالم الآخر، لأنّني محكوم بالإعدام، كالآخرين، وربما استجاب اللّه لدعائي، ووقعت القرعة عليَّ، فنُفذ حكم الإعدام بي، كي أتقمّص، في الحياة الثانية، إنسانًا آخر.. ألم تكن حكايتي مسلّية؟

ـ مسلّية جدًا، لم نشعر معها بمرور الوقت، فشكرًا لك، وبالتوفيق في رحلتك.

ضحك تان كو وهو يتناول سيكارة من زبيد، ويسحب منها بقوّة، فيخرج الدخان من أنفه، كما يخرج من مدخنة مصنع، وبعد أن طلب سيكارة أخرى، كزاد إضافيّ، أو كزاد احتياطيّ، قال:

ـ عن أيّ خط، وأيّة رحلة تتحدّث أنت؟ أقول لك إن حكم الإعدام قد يُنفّذ بي، بعد ساعة على الأكثر، وتقول لي: «شكرًا وبالتوفيق؟» أي توفيق هذا؟ أليست هذه نكتة مثل حكايتي؟ انظر هناك، إلى بعيد، إنّهم ينصبون المشنقة، ألا تراهم؟

كان الفجر على وشك الطلوع، نظر زبيد إلى المكان الذي أشار اليه تان كو، فرأى بعض الجنود من الحرس، منهمكين في نصب المشنقة فعلاً،

ورأى عبد القادر ذلك، فراح يلح على زبيد قائلاً:

ـ ارجع إلى وراء يا أستـاذ، ارجع إلى وراء أرجـوك، أنا ذاهب إلى البيت، لأنني خائف، وأعصابي لا تحتمل رؤية إنسان يشنق.

قال زبيد:

ـ اذهب يا عبد القادر، اذهب أيُّها الرفيق الطيِّب، اذهب ودعني في مكاني، فهذا المنظر ليس غريبًا عليَّ، لأنني رأيت مثله في السجون التي تكرّمتْ فاستضافتني، بين عام وآخر!

ذهب عبد القادر، أشعل زبيد سيكارة، أمسك بالقضبان الحديديّة، راح الفجر يتشقّق، والنُّور الصباحيّ يبين، أكثر فأكثر، وراح هو يحدِّق إلى المشنقة، ويتذكّر الذين أعدموا، ممن يعرف أو لا يعرف، من الرِّجال الذين أجرموا، لدوافع مختلفة، اجتماعيَّة وطبقيَّة، فشنقوا، والرِّجال أصحاب المبادئ، من رفاقه، الذين أعدموا شنقًا، من فهد ورفاقه في العراق، إلى محمد محجوب ورفاقه في السودان، إلى العاملين النقابيين، اللذين شنقا في مصر، عند بداية ثورة يوليو إلى جميع أصحاب المبادئ، في العالم كله، الذين ماتوا، وخاصة في صين تشيانغ كاي شيك، دفاعًا عن مبادئهم، وفي سبيل الاشتراكية، أو حتى العدالة الاجتماعية فقط.

فجأة تقدم بعض الحرس، شاكي السلاح، من بوابة «قاووش الموت»، وطلبوا من السجناء أن يتراجعوا إلى وراء، ونادى أحدهم:

ـ فون تو!

ردّت بعض الأصوات:

ـ إنَّه نائم!

وقال صوت ساخر من بين السجناء:

ـ ويحلم أحلامًا ورديَّة!

صاح عريف الحرس:

ـ اخرس يا كلب! سأوقظه بنفسي، ولكن على حلم أسود! أما أنت فان دورك آتٍ.

صاح تان كو:

ـ ودوري؟ متى يأتي دوري!؟ يا فون تو، يا أخي في الإنسانية، أفق،

انهض، القطار وُضع على سكّته، فسفرًا سعيدًا، وإلى لقاء قريب، يا صاحب الحظّ الطيّب!

أفاق فون تو مذعورًا، فرك عينيه، سأل:

ـ ماذا يجري؟ ما هذا الصياح؟

قال تان كو:

ـ لا شيء! حفلة وداع صغيرة، وتمنياتنا القلبيّة، بسفر سعيد!

ـ إلى أين؟

قال العريف:

ـ إلى مكتب رئيس الحرس، كن مطمئنًا!

وبعد أن وضع القيد في يديه ورجليه، قال له:

ـ دقت ساعتك يا فون تو، يا عزيزي الذي يعزّ علينا فراقه!

طلب فون تو سيكارة من تان كو، وضعها هذا في فمه، أشعلها له، قبّله، قال له:

ـ لا تخف! كنت أتمنّى لو أكون بديلاً عنك.

نتر فون تو السيكارة من فمه وقال بصوت عالٍ، كي يسمعه الجميع:

ـ لست بخائف، فون تو لا يخاف المشنقة، فون تو يبصق على المشانق والذين اخترعوها، وفون تو، يا إخوتي، لا يريد بديلاً، شكرًا لك يا تان كو، الشكر لكم جميعًا، هذه كلمة وداع، لكنني أبحث عن رجل بينكم، رجل فتح عينيّ، منحني الرؤية، جعلني، أنا المجرم، أخًا له في الإنسانيّة، وأراني، بلطف، البقعة البيضاء في قلبي الأسود، كما قلت له هذه الليلة، فإذا كان ذلك الرفيق الغريب، قد أطلق سراحه، فهذا يدعوني، في هذه اللحظات غير العاديّة، إلى الراحة، وإذا كان موجودًا، فإنّني أرغب في أن اقبّله، نيابة عنكم كلكم!

قال تان كو:

ـ إنّه موجود، إنّه هناك، عند الشبك الحديدي...

مشى فو تو مشية هادئة، بخطى واثقة، لكنّه، عندما اقترب من زبيد، عانقه والقيد في يديه، قبّله، بكى! قال وهو يخرج إلى الموت:

ـ هذه الدمعة، هي دمعة عرفان الجميل، وبعدُ، لا دمع أبدًا! أبدًا أبدًا هل تسمعون!؟

أجابوا بصوت واحد

ـ نسمع!

فقال زبيد، في نفسه، متأثِّرًا جدًا: هذا إنسان لا ينسى!

اليوميّة الثامنة والعشرون ٥ كانون الثاني ١٩٦٢

كنا، مارلين وأنا، نشرب الكونياك في بيتي كما اعتدنا، فجأة قلت لها، لا أدري لماذا:

ـ اسمعي، يا مارلين، هذه الحكاية البوذيّة الطريفة: تعرفين أن القرش كان أكثر الحيوانات البحرية وحشيّة وشراسة وأيضًا، أشدّها فتكًا، يقضي معظم أوقاته في مطاردة الأسماك الصغيرة وابتلاعها.. وفي اللحظة نفسها، أو في الوقت نفسه، كانت هذه الأسماك تهرب خائفة كلما رأته، أو شمّت رائحته، قادمًا من بعيد. وعلى عكس القرش، كان الحوت، يبدو وديعًا، شفوقًا على الاسماك الخائفة، فيفتح لها فمه، كي تدخل فيه آمنة من خطر القرش، وكان هذا لا يجرؤ على مواجهة الحوت، وعندما يراه يهرب منه، وكانت سلحفاة كبيرة (ترسة) ترقب ما يجري، قائلة في ذاتها: الحوت ينقذ الأسماك الصغيرة، إلاّ أنّها تدخل فمه، وهناك تبقى!!!

سألت مارلين:

ـ أين سمعت هذه الحكاية، وممن؟

قال زبيد:

ـ من مرافقي عبد القادر، وكذلك من الصحف.. الحكايات الصينية، وأغلبها له صلة ما بالبوذيّة، رائعة، وذات مغزى إيمائي، بعيد المدى.

ـ وما هو المغزى الذي استخلصته أنت؟

ـ إنّني هربت من القرش، وها أنا في بطن الحوت!

ـ وماذا تفعل فيه؟

ـ أفكر في الفارق بين القرش والحوت!

ـ وإلى أين قادك تفكيرك؟

ـ إلى أن الحوت سيكون رحيمًا معي، وأنّني سأخرج من بطنه سالمًا، وللحوت سابقة في هذا المجال، أي مجال حماية الإنسان، وهو في بطنه، وإبقائه سالمًا، وإيصاله إلى البر.

قالت مارلين:

ـ لنتكلم بواقعية ونترك الترميز، أنت، كما أفهم، تفضّل أن تكون هنا، في بطن الحوت الاشتراكي، على أن تكون هناك، مطاردًا من القرش، الرأسمالي، لماذا هذا التفضيل، والخطر عليك ماثل في الحالين؟

قال زبيد:

ـ لأنّني، هنا، أقوم بعمل ما نافع للمبدأ الذي أعتنقه، سواء في بناء الصين، أو في تنوير الأذهان في بلادنا العربيّة، من خلال الترجمات، أو إصلاح الترجمات الموجهة إلى الإنسان العربي، هل تعرفين مقولة غرامشي، أو أحد الفلاسفة الاشتراكيين، حول مكر التاريخ، وحول نقض المنطق الذي يقول إن التاريخ يسير بشكل مستقيم!؟ للتاريخ يا مارلين الكثير من التعرجات، والانعطافات في سيره إلى أمام! وهذا ما ينبغي علينا أن نعرفه، ونتذكره دائمًا.

قالت مارلين:

ـ أعرف شيئًا ما عن هذا، لكن إلى أين تريد أن تصل؟

ـ إلى قول واحد، بسيط وغير بسيط في آن، وهذا القول هو: الطريق في الصين غير مسدود، ولن يصل، رغم كل ما ترين من جمود عقائدي، إلى طريق مسدود، مهما يتطاول الزمن.. ستكون هناك تعرجات وانعطافات، وتقدّمٌ، وتأخّر، إلاّ أنّ الطريق سيظل مفتوحًا، ويتابع التاريخ مسيره إلى أمام!

ـ ولكن متى؟ بعد كم من الأعوام، أو العقود، أو القرون!؟

قال زبيد مبتسمًا من إشفاق:

ـ المناضل الحقيقي لا ينظر في ساعته ويعدّ الدقائق، ولا يظل مسمّرًا في مكانه وأمامه الروزنامة، إنه يرى إلى بعيد، إلى بعيد جدًا، إلى زمن يستغرق عقودًا، أو قرنًا، وربما أكثر، مَنْ يستعجل النصر يفقده، على الصعيد الشخصي، والصعيد التاريخي أيضًا! ما رأيك، يا مارلين، بكأس أخرى من الكونياك؟

ـ ولماذا، زبيد، الكونياك دائمًا؟

ـ لا تفسير لديَّ سوى اللّذة، ما رأيك في كأس من النبيذ؟

ـ واللّذة؟

ـ في النبيذ لذة مماثلة!

قالت مارلين:

ـ ما دمت قد بدأت بالكونياك، ومعك أنت، يا عاشق الكونياك، فسأكمل.. املأ الكأس من فضلك، واسمع هذه الحكاية الصينيّة ـ البوذيّة الصغيرة: «اشترى رجل دمية جميلة لابنه، ولأنَّه يعمل في مكان بعيد عن بلدته، طلب من صديق له، أن يقوم بتوصيل الدمية نيابة عنه، وعندما سأل الصديق: «لمن أعطي هذه الدمية؟» أجابه الرجل باعتداد: لأجمل وأذكى طفل في البلدة!»

سافر الصديق ومعه الدمية، وبعد مدة، عاد الرجل، صاحب الدمية، إلى بلدته، فاكتشف أن ابنه لم يتسلمها أبدًا، فراح يبحث عن صديقه، ولما عثر عليه سأله: «لماذا لم توصل الدمية إلى ابني، كما طلبت منك»؟ أجاب الصديق مستغربًا: «ألم تطلب مني، يا صديقي، أن أعطيها لأجمل وأذكى طفل في القرية؟» قال الرجل: «نعم!» فقال الصديق: «وأنا أعطيتها لابني!».

سأل زبيد:

ـ وماذا قصدتِ، يا مارلين، بهذه الحكاية العذبة؟

قالت مارلين:

ـ إذا وجدت من هي أجمل، وأكثر وفاء مني، فأعطها «الدمية»!

تأمّلها زبيد، أطال التأمُّل، دخّنا، شربا المزيد من الكونياك، مدّ يديه، أعطته يدها، أخذها بين كفيه، مَسّدها، كانت حارّة، قَلَّبَ اليد، قبّل راحتها، اشتمّ فيها كل أنوثتها، قال:

ـ ما أسرع الزمن يا مارلين، تذكرين بداية تعارفنا!؟

قالت ضاحكة:

ـ أذكرها وأذكر قصة السجّادة التبريزية.. كنت يومها ساذجة، صدقت حكاية السجّادة، وكان حسن وزوجته يضحكان، أنت من أنقذني من ورطة الغفلة التي وقعت فيها، وبعد ذلك، ومع الأيام، وبمساعدتك، عرفت رأسي

من قدميّ، تعلّمت ألاّ استعجل، وأن عالم الصين، ذا الحضارة العريقة، عالم عجيب، غريب، وأنّ هذه الرّمّانة، من الصعب معرفة ما في داخلها قبل كسرها، وكي نكسرها، أو نقطعها بسكين حادّة، لا بدّ من الصبر، لأنّها رمّانة رقيقة القشرة، تكاد تشفّ عمّا في جوفها، فإذا حاولت، وجدتها صلبة، عصية من الداخل، بأكثر ممّا هي من الخارج، وأن لكل واحدة من حباتها، قصة تتشعّب إلى قصص، وليس في وسع أحد، من غير أهل الصين، أن يزعم أنّه يعرف الصين، وأنّه قرأ هذا «الكتاب» وختمه، ألست على حق؟

ضحك زبيد، رفع كأسه وقال:

- في صحتك أيتّها الصغيرة الشاطرة، يا ابنة بوذا الضاحك!

قالت مارلين:

- يسرّني هذا الإطراء، معناه أنّني بدأت أقرأ الأبجديّة الاجتماعيّة الصينيّة.

قرع زبيد كأسه بكأس مارلين وقال ضاحكًا:

-.. والأبجديّة النفسيّة والحضاريّة والسياسيّة والتاريخيّة أيضًا.. لكنّ هذا ليس كل شيء! ما بقي، يا عزيزتي، هو الأهم: الثورة الصينيّة! كي ندرك، وبعمق، الحماسة الصينيّة في البناء، يحسن بنا أن نلمّ بظروف النضال الدامي، الذي خاضه الشعب الصيني حتى حقّق النصر.

أضاف زبيد:

- في زيارة قمت بها لمسقط رأس ماوتسي تونغ، رأيت جدران هذه البلدة المتواضعة محنّاة بالدم، وفي البيت الذي ولد فيه الرفيق ماو، والذي تحوّل متحفًا الآن، رأيت الكثير والكثير من صور شهداء النضال السرّي، الذّين أُعدموا شنقًا، أو ماتوا تحت التعذيب، وكان هؤلاء الشهداء ممن عملوا مع الرئيس ماو، وفي محيط منطقته فقط.. متحف الشهداء هذا، يا مارلين، يكاد يكون موجودًا في كل منطقة، اذا لم نقل في كل بيت.. لقد كان غاليًا ثمن تحرير الصين، وكذلك ثمن وحدتها، هي التي كانت محكومة، في مناطقها المتباعدة والمتنافرة، من قبل أمراء الحرب، وزعماء الكومنتانغ، وتوحّدت، لأوّل مرة في تاريخ الصين، بعد انتصار الثورة الصينيّة.. هذا ما قلته مرارًا، وأعدته الآن، ربما بغير سبب أو مبرر!

قالت مارلين:

ـ لماذا دون مبرر؟ هذا ما كنت أجهله، تقريبًا، قبل أن تقوله، ولكم فكرت في حماسة الشبيبة الصينيّة، وتساءلت: إلى متى؟ وما هو الباعث؟ والآن، بعد شرحك الجيّد لأسباب هذه الحماسة، أتذكّر أن رفيقًا صينيًا، يعمل معنا في قسم اللُّغة الإنكليزية، قال لي: «منذ ثلاث سنوات لم أر زوجتي!» فلمّا استغربت أوضح لي، ببساطة، أن الواجب اقتضى ذلك، وأن زوجته تعمل أيضًا، كمهندسة، في مكان بعيد عن بكين، وأنّهما سعيدان، رغم هذا البعد، لأنّ بناء الصين تطلّب ذلك!

أضافت مارلين:

ـ لم أستطع فهم هذا المنطق! أكثر من ذلك، رفضته، فقد كان، في تصوّري «احتقانًا ثوريًا مصطنعًا!» إذ كيف يفترق زوجان، بعد عرسهما مباشرة، طول هذه المدة، بذريعة الواجب!؟ وأين الحب في هذا الزواج!؟ وكيف يصبر أحدهما على هذا البعد، ولو من أجل بناء الصين!؟ صحيح هناك إجازة ما في السنة، وهناك الأعياد والعطلات الرسميّة، لكن هذا لا يكفي، لا يبرِّر ابتعاد عريس عن عروسه وهما في فورة الشباب، وها أنت، يا زبيد، تشرح ظروف الصين الشعبيّة، ذات الخصوصية الفريدة، وتفسّر، بنوع من العقلانيّة، هذا «الاحتقان الثوري»، وأنا معك في هذا التفسير، وأرغب في الاقتناع به، لو لم تضع «الواجب» في تعارض مع «الحب»، وهذا غريب عن الطبيعة البشرية!

قال زبيد مازحًا:

ـ انت على حق يا مارلين! ولكنّك، عمليًا، تعيشين نوعًا من «الاحتقان الثوريّ» المضحك، أرغب في الاقتناع به دون جدوى! لنشرب بغير فلسفة، وندخّن بغير فلسفة، ونعش حياتنا في الصين بغير فلسفة أيضًا! هذا أدعى إلى الراحة، يا فيلسوفتي الصغيرة والجميلة!

قالت مارلين نزقة:

ـ أن نشرب يا صديقي فهذا جيّد، وألاّ نتفلسف فهذا جيّد أيضًا، لكنّني، وبخلاف ما تدّعي، غير مصابة بأي نوع من «الاحتقان الثوري»، والمضحك منه خصوصًا!

قال زبيد:

ـ بلى! أنت، يا مارلين، محتقنة ثوريًا، دون أن تدري!

ـ تعني أنني غبيّة، أو مغفلة!؟ هذا ليس من اللياقة يا زبيد.. اتّهام الآخر، الأخرى، سهل، إلاّ أنّ إثباته صعب، صعب جدًا.

ـ من قال إنه صعب؟

ـ أنا!

ـ ولماذا أنت في الصين؟

ـ ليس من أجل المال أو التُّحف كما تتوهّم!

ـ من أجل ماذا إذن!؟

نبرت مارلين:

ـ هذا استدراج سيّئ! أنت لستَ محقّقًا، وأنا لستُ متهمة، فكيف فاتك هذا!؟

ضحك زبيد، قبّل يدها، سقاها جرعة من الكونياك، عاد إلى الضحك، أشعل لها سيكارة، تابع ضحكه العفوي، اغاظها ضحكه لبرهة، بعد ذلك ضحكت بدورها وهي تقول:

ـ هذا ما يسمونه..

قاطعها زبيد:

ـ قلّة أدب!

ـ نعم! أنت قلت!

ـ وإذا أثبتّ لك أنه من الأدب، ومن الأدب الرفيع أيضًا؟ أنتِ، يا مارلين، مثلي ومثل كل الآخرين، فنحن، جميعًا، نزعم أنّنا جئنا إلى الصين قيامًا بواجب، ولأنّنا كذلك، ابتعدنا عمّن نحب في بلدنا رغمًا عنّا، وهذه حال ذلك الرفيق الصيني الذي ابتعد عن زوجته، فأين الغرابة؟ وأين التناقض؟ وأين التعارض بين الحب والواجب؟ نعم! هناك «احتقان ثوري» ولكن بالمعنى الطيِّب، ليت جميع النّاس، في جميع البلدان، يصابون به، وعندئذ تتحقّق الاشتراكية بسهولة.. ودون فلسفة!

ضحكت مارلين وقالت:

ـ أنت خبيث يا زبيد، ولكن بالمعنى الطيِّب كما قلت... ما رأيك أن أعقد صلحًا بينك وبين الفلسفة؟

قال زبيد:

ـ اكون شاكرًا لو تمّ ذلك!

ـ وما سبب عدائك للفلسفة؟

ـ لأنّها زوجتي!

ـ وتريد الطلاق منها؟

ـ بالثلاثة كما يقولون عندنا!

ـ ومن تتزوّج بعد طلاقك منها؟

ـ مارلين!

ـ مارلين أم تلك الصينيّة تشين لاو؟

ـ مارلين لأجل الحبّ، وتشين لاو لاكتساب الجنسية الصينيّة!

أضاف زبيد جادًا:

ـ تعرفين يا مارلين أنّني، الآن، بلا جنسيّة، أي لا وطن لي ولا هوية، فهل يرضيك أن أبقى كذلك؟

ـ طبعًا لا!

ـ إذن ما العمل؟

ـ تتزوّج السيدة بورجرون فتأخذ الجنسيّة الفرنسيّة!

ـ أنا أرغب في الجنسيّة الإنكليزيّة!

ـ أنت لا تسعى جادًا لنيل أيّة جنسيّة، وإذا كان لا يزعلك قولي، فإنّك تتسلّى، كأنّه لا قلب لك..

ـ هذا صحيح!

ـ وأنت تريد أن تجمع بين السيدة بورجرون وبيني وبين تشين لاو!

ـ هذا صحيح أيضًا!

ـ وأنّك ابن عاهرة!

ـ هذا صحيح أيضًا وأيضًا!

ـ واين الوفاء في كل هذا؟

ـ في «الجبل العطري»!

ـ الذي زرته مع السيدة بورجرون؟

ـ زرته عدة مرات، فأي مرّة تقصدين؟

ـ المرّة التي رأيت فيها بوذا الضاحك!

قال زبيد:

ـ وكنت أنت معي!

قالت مارلين:

ـ أنا لم أكن معك في «الجبل العطري» أبدًا، مع أنّك قلت لي، اليوم، إنّني ابنة بوذا الضاحك، فماذا تقصد بذلك؟

ـ وضاءة وجهك، نضارته، فتنته، وهذا الشعر الأشقر، المتهدّل على كتفيك، وعلى صفحة وجهك، وهذا المفرق، فوق الجبين، الذي يذكّرني بصورة امرأة فائقة الجمال، لا أذكر في أيّة مجلّة رأيتها!

سألت مارلين راغبة في استشارته:

ـ هل تعشق صورة المرأة في المجلة فقط؟

ـ ولماذا في المجلة فقط؟

ـ لأنّك، في الحياة، لا تعشق أبدًا كما تدّعي!

ـ هذا ليس ادّعاء! إنّه حالة، ربما تكون نفسيّة، وأنا شقيّ بهذه الحالة أكثر ممّا تظنّين، ثم هناك الصدق، فالحب يكون صادقًا أو لا يكون، وهذا الحب الصادق، أنا محروم منه لا أدري لماذا، ربما تعلّق الأمر بوضعي غير المستقر.. إنّني، كما تعلمين، مهدّد بالطرد من الصين، وما إبقائي فيها إلا بسبب الحاجة، إنّهم بحاجة اليّ، فأنا أترجم، وأصلح الترجمات، وأتعذّب في هذا الإصلاح إلى درجة الإرهاق، وبعد ذلك يأتي القرف، كنتيجة وليس كسبب، لكنّني، وبحكم الجدلية لا غير، أفيد من عملي معرفة ورزقًا، وإلاّ فكيف أعيش؟ لا شكوى لديّ يا مارلين، لا أطلب شيئًا، وفي عدم الطلب هذا تكمن قوتي، وتكمن، كذلك، في عدم اكتراثي بالبقاء أو الرحيل، ولو كانت لديّ أوراق ثبوتية، كجواز سفر مثلاً، لرحلت غير آسف، لأنّ إقصائي عن الجامعة كان عقابًا متعمّدًا على حيادي في الخلاف الناشب، والمتفجّر بصورة أشدّ كل يوم، بين بكين وموسكو، وأحسب ان هذا قول

نافل، يعرفه الجميع، في الدروجبا وبين الصينيين خارجها.. لنشرب يا مارلين، يا صديقتي الطيبة، «فقليل من الخمر يفرح قلب الإنسان»!

قالت مارلين بعد أن شربت جرعة من الكونياك، وتذوّقت القهوة:

ـ أنت، يا زبيد، في وضع معقّد حقيقة، لكنّك، مع ذلك، تنفق بسخاء مجنون، غير منطقي، فهل تفعل هذا نكاية؟

أجاب زبيد:

ـ في هذا بعض المبالغة يا مارلين، ما عدا ذلك فإنّه طبع، أما النكاية فغير واردة، ولماذا أقترفها؟ ضدّ مَنْ؟ الصينيُّون يبعثون لي مرتبي الشهريّ كمدرّس في الجامعة، وفي هذا إهانة، لذلك أرفض.. أرفض بإصرار لأنّه حسنة، ومتى كان الإنسان الشريف يقبل الحسنة، إلاّ إذا كان فقيرًا إلى درجة الجوع!؟ سأفترض أنّ الصين تبني الاشتراكية، وهذه قضية خلافية، وشعار الاشتراكيّة، كما تعلمين «من كل إنسان حسب طاقته، ولكل إنسان حسب عمله» أنا لا أعمل في الجامعة، فكيف أتقاضى أجرًا منها؟ قولي أنت!

فكرت مارلين وقالت:

ـ لكنّك، في هذا الذي تقوله، تشكّك في أنّ الصين تبني الاشتراكيّة أصلاً، وهذا غير مقبول من أحد، لأنّه هرطقة، وترداد لما يقوله الاتحاد السوفياتي عن حرق المراحل في الصين!!!

ـ وماذا إذا قلت لك إن «هرطقتي» تطال الاتحاد السوفياتي نفسه!؟ وماذا إذا اتّهمت النظام السوفياتي نفسه؟

أجفلت مارلين وصاحت:

ـ إلى هذا الحدّ!؟

قلت:

ـ وإلى أبعد منه! الاتحاد السوفياتي قفز عن المرحلة الرأسمالية إلى الاشتراكيّة رأسًا، وهو يتّهم الصين بأنّها تقفز عن الاشتراكية إلى الشيوعيّة رأسًا، وفي حدود رأيي أن كلاً منهما على خطأ! هناك، كما هنا، حرق مراحل خطير!

ابتسمت مارلين وقالت:

ـ وبعد أيُّها المنظّر العظيم!؟

ـ أن نشرب وأن ننسى! أو، على الأقل، نتعلَّم النسيان، ونتعلَّم، كذلك، محو ما في رؤوسنا من لغو لا فائدة من تذكُّره، ولا فائدة من الاحتفاظ به.

قالت مارلين:

ـ الا تلاحظ أنَّك تنصّب نفسك ديّانًا بالنسبة إلى البلدين!؟

قلت ضاحكًا:

ـ وماذا يفعل المهرطق غير هذا!؟

ـ يصمت إذا كان كلامه غير موثوق به، وإذا كان، فوق ذلك، يزعج الآخرين!

ـ وهل أزعجتك؟

ـ أخفتني! أنت مجنون حقيقيّ!

تأمّلتها مليًا وقلت ودودًا:

ـ نعم يا مارلين.. أنا مجنون حقيقيّ!

- ٣٠ -

ادّعى المحقق تن بو أن زبيد أهانه، وبإهانته أهان العدالة، لذلك أمر بسجنه في بلدة بيتاخو، ولديه شهود على ذلك، من بينهم مدير الإدارة في مصيف بيتاخو والمترجم والحرس، وأن زبيد، كما علم، لا يؤمن بالطب الصيني، لذلك هرب من المستشفى، وهو، زبيد، لا يؤمن بالقضاء الصيني تاليًا، وهذه إساءة جزاؤها السجن، وقد نال، هذا المعادي للصين، جزاءه.

تأمّل المفتش العدليّ سن يو، بنظرة هادئة، متفحِّصة، المحقّق تن بو، وسأله:

- هل أنت واثق بما تقول؟

أجاب تن بو:

- كل الثقة!

- ما رأيك في محضر التحقيق؟

- إنّه دقيق ونظاميّ.

- محضر التحقيق يفيد أنّك استعملت مع الرفيق زبيد أسلوب الصدمة، أي توجيه التهمة قبل التحقيق، وهذا غير جائز، فماذا تجيب؟

- ربما وقع هذا، لكنّه أسلوب معروف في التحقيق، وفي قانون أصول المحاكمات أيضًا!

قال المفتش العدلي سن يو بنبرة غضب:

- معروف نعم، ولكن متى!؟ عندما تكون التهمة ثابتة، وعندما يُقبض على الجاني بالجرم المشهود، وتتوافر أدلّة الإثبات، بكل عناصرها، ومنها أداة الجريمة، أما قبل ذلك فلا، تعرف هذا يا رفيق تن بو؟

- أعرفه طبعًا.

- إذن بأيّ جرم مشهود قبضت على الخبير زبيد؟

ـ بجرم إحراق جيفرسون!

ـ والأدلة!؟

ـ زبيد كان في بيت جيفرسون عندما حدث الحريق.

ـ وحده؟

ـ معه السيدة نلسون!

ـ وبماذا أفادت هذه السيدة؟

ـ قالت إنّها كانت مع زبيد في الصالون، وكان جيفرسون يستلقي في فراشه في غرفة النوم، وفي فمه سيكارة مشتعلة!

ـ إذن أين الجرم المشهود؟ وأين الاعتراف؟ ولماذا أسلوب الصدمة!؟

ـ لأنَّ جيفرسون اتّهم زبيد بجرم الحريق، وتبيَّن في التحقيق أن بينهما عداوة، وأنَّ زبيد هو المعتدي، بدليل اغتصاب المدعوّة مارلين، خطيبة جيفرسون، وهذا ما ثبت لدى التحقيق، رغم إنكار زبيد، وإهانته لي، أنا ممثّل القضاء الصيني.. إنَّ التوقيف، أيُّها الرفيق المفتش، كان بسبب الإهانة وليس بسبب ثبوت التُّهمة، وهذا واضح في المحضر.

ـ في المحضر واضح العكس!

ـ وكيف هذا!؟

ـ بإخضاع زبيد للتحقيق تجنّيًا، مع أن السيّدة نلسون شهدت لمصلحته، وكان يجب أخذ شهادتها في الاعتبار.

ـ واتّهام جيفرسون؟

ـ دافعه العداء لزبيد، بشهادة مدير إدارة المصيف، ومدير المطعم، ومدير المستشفى وآخرين.. ما رأيك يا رفيق تن بو؟ ثم لماذا لم تسأل رجال الإطفاء، كانوا شهودًا، في الحادث؟ لقد سألتهم أنا، فهل تعرف بماذا أجابوا؟ أنا أقول لك: أفادوا أنّ إنسانًا ما أطفأ الحريق قبل وصولهم، وبذلك أنقذ جيفرسون من الموت، وهذا الإنسان هو زبيد، بشهادة السيّدة نلسون التي كانت معه في البيت، فكيف فاتك كل هذا؟ تزعم أنَّ المتَّهم زبيد أهان القضاء الصيني في شخصك، وتنسى أنَّ القضاء الصيني، في شخصك، لم يكن عادلاً، فكيف توفّق بين كل هذه المتناقضات؟

قال ذلك المفتش العدلي سن يو، وأملى على كاتب الضبط ما يلي: يطلق

سراح الرفيق زبيد الشجري، العامل في الصين بصفة خبير، إذا لم يكن موقوفًا لجرم آخر، ويحال الرفيق تن بو، المحقِّق في هذه القضيَّة، إلى التحقيق حسب الأصول.. انتهت الجلسة.

كان هناك اعتذار طبعًا، لكنَّ زبيد الذي أطلق سراحه، لم يأبه للاعتذار، ولم يبتهج لإطلاق سراحه.. كل ما فعله وهو يخرج من «قاووش الموت» كان بسيطًا، فقد رفع يديه محيّيًا زملاءه الموقوفين، دون أن يقول كلمة واحدة لهم، وفي السيارة التي أقلّته من السجن إلى بيته، وخلال نصف ساعة كاملة، لزم الصمت التام، وقبل أن يغلق الباب وراء عبد القادر قال له:

ـ اسمع يا رفيق عبد القادر، إنَّني أطلب شيئًا واحدًا منك: أن تقول إنَّني كنت، خلال هذا الغياب القصير، في رحلة بحرية نظمتها لي إدارة المصيف.

قال عبد القادر ضاحكًا كعادته:

ـ ولكن كيف هذا يا أستاذ!؟ إنَّهم يعرفون..

ردّ زبيد بنبرة جزم:

ـ دعهم يعرفوا.. قل ما أوصيتك به، واترك الباقي عليَّ.. سايجين!

أعدّ، بعد ذلك، ركوة كاملة من القهوة، جلس إلى مكتبه هادئًا، راح يستعرض ما مرّ معه، كمن يستفيق من حلم مشوّش، محاولاً أن يلملم بقاياه، كي تكتمل له صورة ما رأى في الحلم، دون أن يوفق في محاولته، ودون أن يستاء من عدم التوفيق هذا، لكونه في النقطة الميتة، كنقّال السرعة في سيارة، أو ابرة الميزان عند درجة الصفر..! الآن، أصبح زبيد، مثل كل آن، حين يفكّر ولا يفكّر، حين يصبح عقله في حالة سديمية، وأفكارُه تنزلق على حصاة ملساء من شعوره المتماهي مع لا شعوره، أو حين يتبلّد إحساسه في لزوجةِ لامبالاته. ثمّة وعي ولا وعي، زبيد لا يعرف، ولا يهتم بأن يعرف، فضاء المكان أو حركة الزمان.. كل دنياه تناثرت شظايا، أجزاء شظايا، ثم تداخلت الشظايا وأجزاؤها في كلٍّ واحد، صغير صغير يتحدد بفتحة فنجان القهوة أمامه! لقد غامت الرؤى، في تخايل الحلقات الحلزونية، لدخان سيكارته الذي يرتفع ليتبدّد، بغير اهتمام منه لارتفاعه أو تبدُّده، كأنَّما لا شيء يعنيه في كل ما حوله، وكل ما في داخله،

وكل التقابلات الناتجة عن تقاطع ما بين الداخل والخارج، من ذاته التائهة في رمال البيد تارة، وصحارى المحيطات تارة أخرى، ذاته المتروكة وشأنها، الهائمة كما الريح في تسيارها المسوق بإرادة غير منظورة، من أيّ راءٍ مفتح العينين معشيّ البصر.

قهوة، تبغ، كونياك، إنسان! عالم خاص، مشرنق، ودودة قزّ مَيْتَةٌ في شرنقة! جسد، ثياب، قمل، دبيب! سكينة، كسل، جمود، رضى! وقت يمرّ، هاتف صامت، بيت خاو، صوت مبهم! مشنقة، رجل يتدلّى من مشنقة، هتفة «لا دمع بعدُ»! خروج من حياة، دخول في حياة، عين زجاجية، فم مطبق! زبيد، راحة نفسية، قرف متبئّر، وجدان يئن، وهذا كل شيء!

قال زبيد وهو ينهض:

- نعم! هذا كلّ شيء، في الوقت الحاضر على الأقل!

ردّدت الجدران:

- في الوقت الحاضر على الأقل!

- ثم ماذا؟

قالت صورته التي على الجدار:

- صحيح.. ثم ماذا؟

قال زبيد:

- لا أدري!

وقالت زجاجة الكونياك:

- حسنًا تفعل!

خلع ثيابه كلها، وضعها في كيس. ربط الكيس، رماه في سلة الزبالة. جاء بمرهم مبيد للحشرات، طلى جسمه كله، تفحّص أثر الرطوبة على جروحه، انتظر، انتظر، انتظر، دخل الحمّام، اغتسل، ارتدى ثيابًا نظيفة، تمدّد على سريره، السيكارة المشتعلة في فمه، عيناه تقرآن مقاطع صينية مرسومة على السقف، عتم، ظلمة، ثم نوم!

أفاق زبيد، في صبيحة اليوم التالي، على قرع متواصل على الباب. تجاهل القرع، توقّف القرع، نهض فأعدّ قهوته، جلس، كما أمس، إلى مكتبه، دخّن، ارتدى ثيابه، غادر البيت إلى المطعم، جلس إلى طاولة

منفردة، قصيّة، في المطعم، كان جائعًا، أكل إلى أن توقّف ألم الجوع، لوّحت له الأيدي، من بعض الطاعمين، في هذا الركن أو ذاك، ردّ بلتويحة من يده، نهض، دار حول صالة المطعم، خرج، وضع يده في جيب بنطاله، صفّر لحنًا، تنزّه، أخذ ما يكفي من الشمس، عاد إلى بيته، طهّر جروحه، مرْهمها احتياطًا، أعدّ قهوته، مرة أخرى، فتح زجاجة الكونياك، مرة أخرى، جلس إلى مكتبه، مرة أخرى، وصل الهاتف، أخرج كتبه والأوراق، انكبَّ على العمل، كأنَّما يستأنف ما توقّف عنه منذ قليل، منذ قليل فقط!

بعد ساعة رنَّ جرس الهاتف، كان هذا عبد القادر، سأل:

ـ لماذا الهاتف مقطوع يا أستاذ؟

ـ لأنَّه مقطوع يا عبد القادر!

ـ ولماذا لا تفتح الباب؟

ـ لأنَّني لا أفتح الباب!

ضحك عبد القادر وقال:

ـ ولكن كيف هذا؟ مدير الإدارة يريد أن يكلّمك!

ـ أهلاً وسهلاً!

قال مدير الإدارة بالإنكليزية:

ـ كيف حال تونجي زبيد؟

ـ على أحسن ما يكون!

ـ كنت متعبًا أمس، لذلك لم أزعجك.

ـ بعد الرحلة البحريّة يكون المرء متعبًا أحيانًا.

ـ أيّ رحلة بحرية هذه؟

ـ الرحلة التي كنت فيها!

ـ هل تمزح؟

ـ أتكلم بمنتهى الجدّيّة!

ـ ولكنك..

ـ كنت في رحلة بحرية!

ـ وكيف تقنع الآخرين؟

ـ هذا بسيط جدًا! كنت في رحلة بحرية وعدت منها سالمًا.
ـ نحن نعتذر، وفي وسعك أن تقول ما تريد، أن تقول الحقيقة كاملة.
ـ الحقيقة الكاملة أنني كنت في رحلة بحرية!
ـ والذين رأوك في الإدارة؟
ـ رأوا شبهي لا أنا!
ـ لن يصدقوا!
ـ هذا شأنهم!
ـ وإذا استاؤوا منك؟
ـ لن أذرف الدمع بسبب استيائهم!
ـ انت مصرّ على أنّك كنت في رحلة بحرية؟
ـ كل الإصرار!
ـ أنت رفيق جيّد!
ـ أنا رفيق عربي!
ـ ما جرى كان حادثًا فرديًا!
ـ لذلك كان عاديًا جدًا.
ـ رحّلنا جيفرسون إلى بكين!
ـ لم يكن هذا ضروريًا.
ـ كيف؟
ـ جيفرسون ليس سيّئًا، وليس مسؤولاً لأنّه عاشق! وماذا تنتظرون من عاشق خائب!؟
ـ عاشق خائب أم مجنون؟
ـ كل العشاق مجانين.
ـ وأنت؟
ـ أنا محروم من هذه النعمة!
ـ نعمة الجنون؟
ـ ولم لا؟
ضحك مدير الإدارة وقال:

ـ أنت طريف يا رفيق، شكرًا لموقفك النبيل.. عليك، الآن، أن تستريح.

ـ عليّ، الآن، أن أعمل، بل إنني أعمل فعلاً، الرفاق في بكين ينتظرون كما تعلم.

ـ وماذا اذا انتظروا؟

ـ ولماذا أنا في الصين؟

ـ لا أدري ما أقول!

ـ ما قلته أسعدني، وهذا يكفي، شكرًا وإلى اللقاء.

وضع زبيد سمّاعة الهاتف وتساءل: «هل كنت في رحلة بحرية فعلاً»؟ أشعل سيكارة، فكّر، أجاب نفسه بنفسه: «يبدو أنني كنت في رحلة بحرية فعلاً!» أضاف: «يا لها من رحلة ممتعة، وبكل المعاني، عليّ أن أشكر المحقق تن بو، فقد جعلني أعرف الإنسان الصيني معرفة أوثق وأعمق «إنه إنسان لا يُنسى!» ولكن لمن قلت ذلك قبل الآن!؟ ظني أنّني قلتها، نعم قلتها، وبعد ذلك بكيت في قلبي!».

المزيد من القهوة، ومن الكونياك، ومن العمل، كذلك الانتصار! أزاح زبيد الأوراق جانبًا، بعد أن فرغ من إصلاح ترجمتها، ثم نهض فتريّض مسرورًا، لأنّه، ليلة أمس، كان يظن أن العمل سيكون صعبًا عليه بعد الآن، وها هو يعمل، ويذلل ما هو صعب، وينتصر، لذلك قال في نفسه: «الانتصار لا يكون إلاّ مع ما هو صعب! ليت جميع المكتئبين في هذه الدنيا، يتوصلون إلى هذا الاستنتاج.. ويعملون به أيضًا!».

حكّة ما، تحت الإبط الأيسر، أوقفت منولوجه الداخلي، خلع زبيد قميصه، تفحّص، أمام المرآة، ما تحت الإبط، خوفًا من أن تكون ثمّة قملة ما، لم يقتلها الدواء المبيد، لم يجد شيئًا، ابتسم ساخرًا من توهّمه، إلاّ أنّه، مع ذلك، قرر إزالة الشعر الزائد من جسمه، وزيادة في الحيطة، دهن بدنه كله، وخاصة الرأس، بالمرهم المطهّر، قوي الفاعلية، الذي أعطته إيّاه الطبيبة لودميلا، يوم زارها في المستوصف. فعل ذلك بعد أن أقفل الباب، وسحب «فيش» التلفون، وأغلق النوافذ، وراح يدور في البيت، متأمّلاً نفسه، من حين إلى آخر، في المرآة، وهو يضحك من منظره البشع، المقرف، قائلاً بغير صوت: «أنا الآن قرد حقيقيّ، قرد بغير شعر أيضًا،

يتخفّى عن أعين الناس، لأنّ الإنسان، إذا كان وحيدًا، يأتي بحركات غريبة، فطرية إلى حد ما، لا يستطيعها، أو لا يقوم بها، إلاّ إذا كان وحيدًا، آمنًا، وبدافع فطريّ أيضًا، كأنّما يعود إلى طبيعته الأولى!» أضاف: «أنا الآن حرّ كما لم أكن في أيّ يوم من حياتي، بعد أن فقدت براءتي الطفلية، حر إلى درجة تفوق حريّة الذين يأخذون بمبدأ العري، لأنّ هؤلاء، في النوادي المخصصة للعراة، يجدون أنفسهم تحت رقابة بعضهم بعضًا، فلا يأتون بحركات عفوية، مضحكة، تجانف اللياقة السلوكية للبشر!».

تصور زبيد، بعد هذا الاستبطان، الأوضاع التي يكون عليها من يمارسون الحب، ومن يمارسون الشذوذ، وكذلك العادات السرية، وتذكر حكاية مكسيم غوركي، عن الرجل الأصلع، الجالس وحيدًا في ضوء القمر، والذي راح يحاول، دون جدوى، أن يمسك هذا الضوء على صلعته بقبعته، كما تذكّر حكاية رجل ذي لحية طويلة، كبيرة، سأله أحدهم: «أين تضع لحيتك عند النوم، فوق الغطاء أم تحته»؟ فتذكّر الرجل السؤال ليلاً، وارتبك من جرائه، في وضع لحيته، تحت الغطاء أو فوقه، وضحك زبيد قائلاً: «ماذا لو رآني الناس عاريًا، مطليًا، ضاحكًا، وحدي، دونما سبب ظاهر!؟» ولم تزايله مثل هذه التصورات الهزلية، إلاّ بعد أن استحم، وارتدى ثيابه، وأعدّ قهوته، وجلس يستعرض حياته خلال الثماني والأربعين ساعة الماضية، بكل ما فيها من خير أو شر، وبكل تجربتها الفريدة والنادرة، مستغربًا أن يكون، في السجن وبعده، على مثل هذا الصفاء النفسي، كأنّما دفع جزية التطهُّر فتطهَّر، وها هو جديد في كل شيء، وعلى مزاج حسن، قلما تمتّع بمثله، حتى في اللحظات السعيدة من أيامه في الصين.

قال لعبد القادر، الذي قرع الباب ووقف على عتبته ضاحكًا، بعد أن فتح له زبيد:

ـ ماذا هناك يا عبد القادر؟ هل يطلبونني إلى الإدارة اليوم أيضًا؟

قال عبد القادر:

ـ ولكن كيف هذا يا أستاذ؟ لماذا يطلبونك في الإدارة؟

ـ كي نشرب الماوتاي!

رفع عبد القادر إبهامه على طريقة الصينيين وقال:

ـ معنى هذا أنَّك سعيد! جيد يا أستاذ جيد، كن سعيدًا دائمًا، الرفيق، مدير الإدارة، قال لي: «الرفيق زبيد رائع!» ماذا قلت له في الهاتف؟

ـ كما قلت لك يا عبد القادر في غير الهاتف: كنت في رحلة بحرية!

ـ ولكنّه يعرف!

قال زبيد وهو يدعو عبد القادر إلى الجلوس قبالته:

ـ وأنا أيضًا أعرف.. كنت في رحلة بحرية، وكنت نشيطًا، أنجزت ترجمة كتاب: «الثلج يحوّم في الفضاء» وها هو، خذه وأرسله إلى دار النشر في بكين، مع تحيّاتي للرفيق تشوتن، مدير الدار.

خفق عبد القادر كفًا بكف وقال ضاحكًا:

ـ ولكن كيف هذا يا أستاذ؟ أنا كنت معك، هل نسيت؟

قال زبيد:

ـ كنت معي في الحلم يا عبد القادر!

ـ ولكن أنا لست مجنونًا!

ـ وأنا، يا عبد القادر، لست مجنونًا.. خذ الكتاب والترجمة كما طلبت منك.

ـ ونقودك التي أعطيتها للسجناء؟

ـ نقودي في درج مكتبي.. انظر!

فتح زبيد الدرج، أخرج النقود وقال:

ـ ها هي نقودي.. مع السلامة يا عبد القادر، أيُّها الرفيق الطيّب جدًا، هل سألك أحد عنّي؟ وبم أجبت؟ قلت: لا أعرف؟ هذا جيّد أيضًا! قل لا أعرف، وهذا أسهل عليك، أما أنا فلديّ عمل، عليَّ إصلاح ترجمة بعض المقالات، وكذلك شرب القهوة، والكونياك، وتناول الغداء في المطعم، كالعادة، وربما كانت معي.. السيدة نلسون!

انهبل عبد القادر، فكّر، ضحك، أخذ الكتاب والترجمة، نهض وقال:

ـ مع السلامة.

قال زبيد:

ـ سايجين!

أغلق الباب، عاد إلى مكتبه منشرحًا، فكر: «الكذبة صارت حقيقة!» أضاف: «ولماذا لا تكون حقيقة، ما دمت أريدها أن تكون حقيقة؟ حين يقول، صاحب العلاقة، ويصر على قوله، فإنّ على سامعيه أن يصدّقوا، أو لا يصدّقوا، فهذا ليس مهمًا، وعندما لا يقول، ويصر على عدم القول، فإنّ على الآخرين أن يكفّوا عن طرح الأسئلة، لأنّ ذلك يعدّ حشريّة مرذولة، المهم أن يبقى السر سرًا، عند صاحب العلاقة نفسه، فكلمته هي المعوّل عليها، إيجابًا أو سلبًا، وما تبقّى لا قيمة له، لأنّه يدخل في باب التخمينات التي تفتقر إلى مصداقية الاعتراف، وصدقية الأدلة، لذلك تفضّل المرأة الرجل الصموت، الكتوم، على الرجل الثرثار، المتبجّح!»

بعد قليل رنّ جرس الهاتف، تناول زبيد السماعة وقال بنبرة تبرُّم:

ـ نعم!

ـ أنا مارغريت!

ـ أهلاً سيدة مارغريت.

ـ أين كنت؟

ـ في البيت!

ـ وقبل البيت؟

ـ في رحلة بحرية!

ـ ماذا!!؟

ـ في رحلة بحرية!

ـ هل أستطيع المجيء؟

ـ بأبي مفتوح للضيوف!

ـ وهل أنا ضيفة!؟

ـ أنت السيدة بورجرون العزيزة.. وبعد!؟

ـ ولماذا أنت جافّ كبلّوطة يابسة؟

ـ تحقيق!؟ وعلى الهاتف!؟ إنّني أعمل، وأنت تعرفين مزاجي حين أكون أعمل! مع ذلك، ولأجلك، لأجلك فقط، سيّدتي الجميلة، سأترك العمل، وأتفرّغ لك، وللقهوة، والكونياك.. ولشيء آخر، لا يقال في الهاتف، اتّفقنا؟

ـ ومتى اختلفنا، زبيد؟ إنّني قادمة، وفورًا!

جاءت السيّدة بورجرون، بعد دقائق، كانت مشوقة، أو هذا ما قالته اللمعة في عينيها، وكانت متشيّكة، كأنّها تستعد للخروج، ونضرة الابتسامة، كأنّها على موعد غرامي، وحارة، حارة، كأنّها كانت تبكي، وكان زبيد يعرف هذا كله، ويحبه، ويلذّ له، إنّما بغير ثرثرة، بغير إسراف في الأسئلة، ودون غيرة، دون عتاب، ودون أخذ وردّ، عما إذا كان يحبها أو لا يحبها، فقد ملّ هذا المنطق العقلاني، ومجّ التعزز المشروط، منها أو من غيرها، يكفي أن تكون، وأن يكون، وأن يرسو مركبه في مينائها، وأن يكون الميناء شديد الاهتياج، صخّاب الموج، عنيفًا كعنف العاصفة في فراش، إلا أنّ السيدة بورجرون كانت امرأة، وكانت طلعة، وكانت مراوغة، والأهم أنّها كانت تريد أن تعرف كل شيء وهذا ما لا يطيقه زبيد!

أخذته، طبعًا، بين ذراعيها، احتوته، احتواها، تبادلا القبل، في الخد، في العنق، في الفم، ونزّت الشفاه، لا دمًا بل اغتلامًا، وعندما تمّت طقوس اللقاء الاشتياقي، وهدأت الدورة الدموية، بفعل إرادة غلاّبة، أجّلت ما يجب، إلى ما بعد الوجود، أشعلت السيدة بورجرون سيكارة، وقالت:

ـ أخبرني بدقة، وبالتفاصيل الممكنة، أين كنت، وماذا جرى معك!؟

ابتسم زبيد، ملأ كأسها، شرب نخبها، قال متّئدًا:

ـ وأين أكون؟ ثم لماذا كل هذه اللهوجة؟ ولماذا التكرار؟ خذي، سيدتي، راحتك، اشربي من «ماء الحياة» المحيي هذا، الحقي بي كي يكون ثمّة تعادل بيننا في النشوة، ودعي ما عدا ذلك، لأنّه نافل!

ـ نافل!؟

ـ طبعًا! المكرور يكون نافلاً دائمًا، قلت لك، على الهاتف، إنّني كنت في رحلة بحرية، فلماذا السؤال، ولماذا الإلحاح فيه، إذا ما كنتُ، كما تعرفين جيدًا، أقول قولاً واحدًا، حول أمر واحد؟

ـ وتريدني أن أصدق؟

قال زبيد بحسم:

ـ هذا عائد لك وحدك!

قالت السيدة بورجرون:

ـ وخوفي، خوفنا جميعًا، عليك، ألا قيمة له في نظرك؟

رد زبيد:

ـ لا قيمة له اذا كان خُلّبيًا!

ركزت عينيها في عينيه وقالت:

ـ هل أنت خائف؟

ـ ممّ؟

ـ من قول الحقيقة؟

ضحك زبيد وقال:

ـ أنا خائف من شيء واحد: أن يفوتنا موعد الغداء! أنت والسيد بورجرون ضيوفي اليوم، إذا لم يكن هناك مانع! هذا، عزيزتي، كل ما عندي لهذه اللحظة، نعم أم لا؟ نعم طبعًا، إذن نكتفي، الآن، بالنشوة الصغرى، ونؤجّل النشوة الكبرى إلى ما بعد الغداء.. في صحتك!

قرعت كأسها بكأسه وقالت:

ـ في صحة حبيبي المجنون! حبيبي الذي لا يحبني، لأنّه مجنون، ومجنون، ومجنون!!!

اليوميّة التاسعة والعشرون ١١ ايلول ١٩٦٢

لامارتين قال في قصيدته البحيرة: «نطوي الحياة وليل الموت يطوينا!» طويتُ شهورًا منذ اليوميّة الأخيرة، ولم أكتب، في هذا الدفتر، كلمة واحدة. لم أكن لاهيًا، أو يائسًا، أو عبثيًا، كنت أعيش حياة الغربة، قطرة قطرة من عمري، وكانت الالتزامات لا تترك لي وقتًا للراحة، للتأمُّل، للنظر إلى وراء، أو التفكير في ما هو آت. للغربة قانونها، وللغربة أخلاقيّاتها، وللغربة فسادها وإفسادها أيضًا، وقد سرت بين هذه الدوائر الغربويّة بأناة، وحذر، وجدّ، مكافحًا، قدر الإمكان، كيلا أقع في شرك أيّة دائرة منها، وفي وسعي القول إنّني نجحت بعلامة تؤهلني لمتابعة طريقي، دون ارتهان، دون تملّق، دون استفزاز، ودون ارتكاب خطيئة الخروج عن اقتناعاتي، سياسيًا واجتماعيًا أو سلوكيًا. ليس معنى هذا أنّني راضٍ، أو أن المغريات جرفتني مع المياه التي سالت من تحت الجسور، كما ليس معناه أنني برم

بالعيش، منكّد لأكثر من سبب، فالمسألة أبسط من هذا بكثير، وهي، في آخر المطاف، القناعة مع الطموح، العيش بكبرياء الصبر، الابتعاد عن تذكر الزمن وعن نسيانه! لماذا عليَّ، وأنا لست فلكيًا، أن أرصد دوران الفلك؟ وما الفائدة من عدّ النجوم أو نخل الرمل؟ وما الغاية من التشوّق في غير موضعه؟ ولماذا المعاندة لوجه الشيطان، إذا كان الطرف الآخر، الصيني، راعى ظروفي، ورغب في أن يفيد مني، بما لا يخرجني عن الحيرة التي التزمتها في الخلاف بين بكين وموسكو؟

انتقلت من بيتي في الطرف الشرقي للدروجبا، إلى بيت في الطابق الأرضي من المبنى الرئيسي في هذه «المدينة الصغيرة» الخاصة بالخبراء الأجانب. الطلاب العرب اقترحوا عليَّ ذلك، نصحوني بالسكن في البيت الصغير القريب من المدخل الخلفي للبناء، حيث لا رقيب على من يزورني، ولا حاجة إلى المصعد، ولا ضرورة للعلالي، ما دام البيت مشمسًا، صحيًا، مريحًا، بعيدًا عن الضجيج، ملائمًا للهدوء والكتابة، بعد أن توصلت إلى حل مع الجامعة، بتدريس الطلاب المتخرجين من القسم العربي، مادة الحديث الشفهي لإغناء المفردات، وتصويب النطق، وحفظ الاصطلاحات الديبلوماسية، اللازمة لهم في عملهم خارج الصين.. كذلك واصلت، بدأب، ترجمة بعض الكتب الأدبية الصينية، وإصلاح ترجمات الآخرين، لمجلتي «الصين» و «بناء الصين» الصادرتين باللُّغة العربية، والخاليتين من البيانات أو المقالات السياسية، لأنَّهما الطبعة العربية، وبشكل حرفي، للطبعة الصينية، المترجمة إلى عدة لغات في وقت واحد.

أعترف. كنت متزمّتًا على نحو ما. رفضت التعرُّف، أو الكلام، أو حتى تبادل السلام، مع الخبراء العرب، الذين حلّوا محل الرفاق العرب، الذين سحبتهم أحزابهم من الصين. كنت مخطئًا في حسباني أن هؤلاء الجدد هُمْ مرتزقة كلهم، فقد كان بينهم بعض الطيِّبين، الذين انحازوا إلى الصِّين، في خلافها مع الاتحاد السوفياتي، عن اقتناع.. اكتشفت ذلك في ما بعد، أمّا قبل ذلك، فقد كانت قطيعتي معهم كاملة، لذلك اضطررت إلى التكلُّم بالفرنسيَّة والإنكليزيَّة فقط، خاصة بعد سفر الطلاب العرب، مع الرفاق من الخبراء الأجانب، وتوثقت صلاتي مع الرفيقين الإيرانيين حسن بيجاري وفهمي جيهانكيز، اللذين بادلاني المودة، والروح الرفاقية، وفتحا لي

منزليهما، كأنَّني فرد في عائلتيهما، مقدِّمين لي النُّصح في كثير من الأمور، وحتى الخاصَّة منها.

كان الرفيق حسن بيجاري نُزَهيًا، يعرف الينابيع في «الجبل العطري»، كما يعرف المعابد البوذية، وكان يصرّ على المشاركة في الرحلات الجماعية، وعلى اصطحابي في هذه الرحلات، وبعد أن تزوَّج الرفيقة الصينيَّة لي ناي، في عرس فخم في الصالة الكبيرة للنادي، أصبحنا، هو وزوجته وأنا، لا نكاد نفترق، وهذا ما جعل لقائي بالرفيقة تشين لاو ممكنًا، لا بحكم عملها في العلاقات العامة فحسب، وإنَّما لأنَّها صديقة لي ناي أيضًا. ومن حين لآخر، كانت تشين لاو تُكلَّف بمرافقة هذه الرحلة أو تلك، إلى هذا الموقع أو ذاك، وكنت أعلم، مسبقًا، أنَّها مكلَّفة بالمرافقة أم لا، وعندئذ أقرر، بدوري، الاشتراك بالرحلة أو الاعتذار، وأضع في حسابي، بشكل دقيق، أن الرقابة ظلّ، وأنه ليس من السهل التخلُّص من هذه الظل، إلا بالمداورة، أو المناورة، وباتِّخاذ أقصى الحيطة والحذر، كأن أجلس بعيدًا عن المكان الذي تجلس فيه، طول الرحلة، في الباص الكبير، متجنِّبًا، بإصرار، الالتفات نحوها، أو توجيه أيّ سؤال إليها كما يفعل الآخرون، والأهم ألاّ تلتقي عيناي بعينيها، حتى من طرف خفي، والأشدّ أهمية أن أصرف المرافق عبد القادر، بذريعة أنَّني لست بحاجة إليه، ما دام كل من في الرحلة يعرف اللُّغة الإنكليزيَّة!

غير أن المشاركة في رحلة واحدة، مع تشين لاو، لم تكن ناجحة في كلّ مرة، كان الإخفاق من نصيبي في أكثر الأحيان، وعندئذ أعود إلى الدروجبا خائبًا، أتداوى بالشرب، أو أذهب إلى حسن، لنلعب البليارد في قاعة النادي الكبيرة، دون أن أتوصَّل إلى مهارته في هذه اللعبة، بسبب دقَّة تسديده وقوَّة ساعده، وبعد اللعب نشرب الفودكا، وحسن يسألني، بفراسته المعهودة:

ـ ماذا هناك يا رفيق زبيد؟

ـ لا شيء يا حسن!

ـ كيف هذا!؟ أنا كمثلك يا أخي، كنت أنجح مرة وأفشل مرات! هذا يحدث كثيرًا في العشق!

ـ عندما يكون هناك عشق!

ـ وماذا هناك إذن؟

ـ هزيمة في البليارد!

ـ هذا تقوله لعبد القادر، وليس لإنسان مجرّب مثلي.. اللعنة عليك وعلى الشيرازي!

ـ ولماذا الشيرازي؟

ـ لأنّه يقول «العشق لذيذ، وآخره مشكلة!»

ـ أنا لا مشكلة لديَّ من هذا النوع.

ـ ومن أيّ نوع إذن؟ أنت لست مفلسًا كمثلي، ولست متزوِّجًا كمثلي، ولست صبورًا كمثلي، أنت تريد أن تنكح على الطريقة الفرنسيّة، وهذا خطأ يا أخي، تشين لاو ليست السيّدة بورجرون، والتسرُّع في أكل التفّاحة، لا يكون كمثل التسرُّع في أكل الهواء..

ـ وكيف يؤكل الهواء يا حسن؟

ـ بفتح الفم، كمثل جدّنا آدم، وانتظار سقوط الثمرة فيه.

ـ جدّنا ادم كان رجلاً طيّبًا!

ـ وبسبب طيبته ها نحن على الأرض!! اسمع يا زبيد «في التأنّي السلامة وفي العجلة الندامة» لا تتعجل يا أخي، السمكة لا تأكل الطعم، من أول صنارة.. كن كمثلي، اصطد على مهل، تشين لاو سمكة صينية، تذكّر هذا!

أودّع حسن وأذهب إلى البيت، ما يقوله صحيح «تشين لاو سمكة صينية!» عليَّ أن أتعلّم صيد السمك الصيني، ولكن كيف يكون صيد مثل هذا السمك؟ كيف اصطاد حسن سمكته الصينيّة «لي ناي»؟ بالحب؟ أنا لا أحب! بالزواج؟ أنا لا أرغب في الزواج! بالصبر؟ صبري نفد، اذن لم يبق سوى الكونياك، وسوى مارلين، وسوى السيدة بورجرون، وعليَّ أن أترك تشين لاو وحالها، فهذا الحصرم لن يكون عنبًا بالطريقة التي أريدها، ولكن المسألة لا تتوقّف على العنب، أيّ عنب، فأنا، من باب التذوُّق، أرغب في العنب الصيني.. ولمرة واحدة، لمرة واحدة فقط، ثم لتأمر صالوما بقطع رأس يوحنا، وترقص به وهو محمول في يدها على طبق، زيادة في الانتقام!

هكذا، مع الأيام، أدركت بعمق مقولة الرفيق ماو: «إخفاق، ثم نجاح، ثم إخفاق، ثم نجاح» وهذا هو المبدأ الأزلي الأبديّ للكفاح، وعلى جميع الأصعدة، وبينها صعيد الحبّ أيضًا. إلاّ أنّ تشين لاو كانت هي المكافحة لا أنا! تشين لاو العزيزة كانت الأجرأ، كانت حواء، بينما كنت أنا آدم، الذي يفتح فمه ليأكل الهواء كما قال حسن، وعندما، في إحدى الرحلات إلى «الجبل العطري»، فاجأتني بدس ورقة صغيرة في يدي، ارتبكت للوهلة الأولى. كانت الورقة تحمل، بالإنكليزية، العبارة التالية: «انتظرني، وقت الغداء، في معبد بوذا» ولأنّ المعابد، في «الجبل العطري» كثيرة، احترت في أيّ معبد منها أنتظرها، وزاد في حيرتي توتر أعصابي، بسبب من أنّ الرقابة شديدة، وغيابي عن جماعة الرحلة، من الزملاء الأجانب، سيلفت النظر، وقد يتعقّبني أحد الرِّفاق الصينيِّين ممّن يرافقون الخبراء، فلم يبق إذن إلاّ التذرُّع بحجة ما، يحسن بي أن أفكّر فيها جيّدًا، لتكون محبوكة ومقنعة.

كنا قد زرنا، قبل الظهر، معبدين بوذيين، يمثلان بوذا متكئًا ومتربعًا، وكان بوذا المتكئ ممتلئًا، باسمًا، سعيدًا، يمسك بإحدى يديه غصنًا ينتهي بثمرة بلّوط، وإلى قربه ضفدع وسلحفاة، وقد فهمت الرمز فورًا، فالبلوط شجر مبارك عند البوذيين، يُشوى ثمره ويُؤكل كالكستناء، والضفدع يبشّر، من خلال نقيقه، بهطول المطر، والسلحفاة مقدسة كالبزّاقة، لأنّها تحمل بيتها على ظهرها، وليس لها من متاع الدنيا سواه، وفي هذا من الزهد، والاكتفاء الذاتي، ما يجعل التقشُّف سبيلاً إلى نبذ الشهوات، وكبتها، وصولاً إلى السلام السماوي.. أما السمنة فهي رمز للوفرة، التي تأتي مع خصب المواسم، وبوذا المتربع يصالب رجليه، جاعلاً أخمص القدمين إلى الأعلى، احترامًا لطهارة الأرض، وعدم تدنيسها بالوطء عليها، كما أن الأذنين الكبيرتين، ترمزان إلى حكمة الإصغاء، طريقًا إلى اكتساب المعرفة، وفي هذا ما يشبه المثل العربي «إذا كان الكلام من فضة، فإن السكوت من ذهب» وقد شرحتُ لمن حولي دلالات هذه الرموز، التي قرأتها، أو قرأت عنها، في بعض الكتب البوذية، وعندما سألتني سيّدة إنكليزية عجوز إلى حدّ ما:

ـ هل يمكن تسجيل هذه الشروح؟

أجبتها:

ـ طبعًا، وبكل سرور.

قال رجل:

ـ هل الرفيق من هواة التحف الصينيَّة؟

سألته

ـ لماذا خطر لك ذلك؟

ردّ

ـ من المستحيل الظفر بأيَّة تحفة صينيَّة قيِّمة، دون الاطِّلاع، بشكل ما، على التعاليم البوذيَّة.

قلت:

ـ هذا صحيح جدًا!

ـ وهل تكتب يوميّات تدوِّنها في دفتر ما، وفيها أمثال هذه المعلومات؟

ـ نعم، ولكنَّني أكتبها باللُّغة العربية، لأنَّني عربيّ من سورية.

ـ هذا جيِّد، لكنه يحرمني متعة قراءتها!

أضاف:

ـ آمل أن أقرأها مترجمة إلى الإنكليزيَّة.

ـ قد يحدث هذا.

تجولّنا، بعد ذلك، في غابات «الجبل العطري»، زرنا بعض الأماكن الأثرية، توقفنا وشربنا من الينابيع، ثم عدنا إلى الباص الذي حملنا إلى فسحة في الغابة، فيها بيوت وأكشاك، وفيها مواقد فحم حجري مشتعل، وقالت تشين لاو:

ـ هنا، أيُّها الرِّفاق، سنتناول طعام الغداء، ونستريح على بعض المقاعد الموجودة، ويمكن شراء بعض التذكارات من الأكشاك، وبعد ساعتين من الآن، نركب الباص عائدين إلى الدروجبا.. خذوا حريتكم الكاملة، وشهيَّة طيِّبة!

أضافت فورًا، وبصورة متعمدة:

ـ المعذرة يا رفاق، سأبدي ملاحظة من باب الاحتياط: لا تتجولوا بين

الأشـجار والأدغـال المحيطة بنا، خذوا حـذركم من الوحـوش البـريّة، ومن الزواحف، خاصة الأفاعي!

صلّبت العجوز الإنكليزيّة على صدرها وهي تتمتم:

ـ نعم! الملاحظة في محلها... لنكن حذرين!

قالت تشين لاو:

ـ لكن ليس إلى درجة الخوف!

قالت العجوز:

ـ بل إلى درجة الخوف.. نحن في الصين للعمل لا للقيام بمغامرات.

قلت:

ـ لنجمع، يا سيدتي، بين الاثنين، وهذا أفضل!

قالت بنبرة حسم:

ـ الجمع بين الاثنين خطر! إيّاك أن تفعل هذا أيُّها الدِّيك البوذي أنت!

قلت ضاحكًا:

ـ أنا فرّوج بوذي، لا أكثر، يا سيدتي!

ـ أنت تغـامر لجمع المعلومات عن البوذيّة، وهذا ليس سيّئًا في ذاته، أنا، في شبابي، كنت أغامر مثلك.. المعرفة لها ثمن!

ـ ما رأيك أن نغامر معًا!؟

ضـحك الذين حـولنا وهم يقضـمـون سندويشـاتهم، سـأل رجل منهم بدعابة خبيثة:

ـ أي نوع من المغامرة تقصد؟

ـ النوع الطيّب، اطمئن!

قالت العجوز:

ـ غامر، أيُّها السيد، وحدك وبحذر، أنا لم أعد صالحة حتى للمغامرة الطيّبة، التي يقصدها ستيفن!

قال ستيفن:

ـ أنا لم أقصد شيئًا، ومع ذلك التجربة ممتعة يا سيدة كراو!

قالت العجوز كراو:

ـ شكرًا على هذه النصيحة ياستيفن، سأدخل في «التجربة الممتعة» كما تقول، لكن في الدروجبا وليس في الغابة.. السيد سيذهب الآن، وفي طريق العودة يقص عليَّ ما رأى!

ـ والملاحظات؟

ـ هذه يقولها لي على انفراد، وفي جو حميمي، مع كأس مثلاً.. للتسخين!

ـ ولماذا التسخين؟ هل ستلعبان كرة القدم؟

قالت العجوز كراو:

ـ أنت سخيف يا ستيفن، وقليل التجربة مع النساء! أقول لك للتسخين، يعني للتهيئة، وتقول لي: «هل ستلعبان كرة القدم»؟ حمار!

ضحك الجميع، بدأت التعليقات، نظرتُ حولي فلم أجد صينيًا واحدًا، كانوا يأكلون في المطعم الصغير، على انفراد، ولم تكن تشين لاو موجودة، نهضت وأنا أقول:

ـ إلى اللقاء قريبًا، هنا في الساحة!

قال ستيفن:

ـ هذا إذا عدت سالمًا!

ردت العجوز:

ـ ولماذا لا يعود سالمًا؟ إنَّه شجاع، مغامر، هذا الرفيق العربي، ولا يبولّ في سرواله مثلك يا ستيفن!

قال ستيفن:

ـ أنا لا أبولّ في سروالي يا سيدة كراو!

قالت السيدة كراو:

ـ هذا صحيح، فبعد هذا العمر، يا ستيفن، يبول الإنسان في جواربه، بعد أن كان، زمن الشباب، يبولّ على ربطة عنقه.. إنه حكم الزمن، يا ستيفن، ولا فائدة من التحسُّر أو البكاء، الأفضل أن تخلع جوربك وتنشره في الشمس، حتى يجفّ على مهل!

قهقه الحاضرون، وقال ستيفن:

ـ الرحمة يا رب، لسانك عقرب يا سيدة كراو، ومن النوع السامّ جدًا!

إلى اللقاء، أيُّها الرفيق المغامر، وعد سالمًا، لأنَّ هناك من ينتظرك مرفوع الرجلين إلى أعلى!

عادت القهقهة، ممزوجة بمرح صخّاب، ابتعدتُ فلم أسمع جواب السيّدة كراو، إلاّ أنَّها كانت متوفزة، مثل القنفذ الهرم، تلوك سندويشتها بما تبقى في فمها من أسنان، وربما كانت، في قرارة نفسها، تحلم بشيء ما، كما يحلم إبليس بالجنة، وهذا من حقها، فإن يتوقف الإنسان عن الحلم، في أيّة مرحلة من العمر، يكن قد انتهى، وأنا واثق بأنَّها كانت، في شبابها الغابر مغامرةً في طلب ما تريد، كما أغامر أنا اليوم، مغامرة طائشة في طلب ما أريد، في طلب تشين لاو، التي تنتظر لا أدري في أي معبد، أن أسير إليها كما يسير العاشق إلى موعده، وفي ذاته تساؤل، عمّا إذا كانت المعشوقة ستوافيه فعلاً، أم يحول بينها وبين هذه الموافاة عائق، وعندئذ يحصد خيبته بمنجل مثلوم!

توغّلت في الغابة! إنَّني أحب الغابات، البكر خصوصًا، كما غابات افريقيا، إلاّ أنَّ لقائي تشين لاو، في بحر شنتاو، وعند الشبك الحديدي، كان ممتعًا اقصى الإمتاع، رغم أنَّها تمنّعت عليَّ، بحسم رادع، وهذا ما سوف يكون الآن، لسبب بسيط، هو أنَّ تشين لاو صينية، وأنا أجنبيّ، والنظام، في الصين، صارم في هذا المجال، والتُّهمة الجاهزة هي الاغتصاب، وعقابه السجن الطويل، بغير رحمة، دون مبررات، دون مراعاة للأسباب المخفِّفة، ودون اعتبار، بأيّ شكل، للحبّ، لأنَّه، هنا، غير معترف به، في مرحلة البناء، والاندفاع الثوريّ، الحارق للأخضر واليابس على السواء. «قالت لي السيدة كراو: «اذهب غامر، ولكن احذر!» ترى كانت تحدس نوع مغامرتي؟ كانت تشفق عليَّ منها؟ وهل كان ستيفن، هذا الكهل المرح، يخاف عليَّ من افعى أم من حواء؟ وما الفرق بين الأفعى وحواء؟ هذه من أصلاب تلك، وكلتاهما مباركتان، كما في كل الكتب، إلاّ في كتاب الثورة الصينية، الثورة التي، كما قال الرفيق ماو، جاءت لتردّ للصينيين كرامتهم، بعد أن امتهنها طويلاً المحتلون الأجانب، ولتبني لهم إرادة حرة، محررة، هي الأقوى بين جميع الإرادات، لأنَّها إرادة صينيَّة، إرادة دولة عظمى، لأمّة هي الأعظم بين الأمم كلِّها!

كنت أسير وافكِّر، أسير مستنفر الحواسِّ الخمس، بين رجاء وخوف،

بين إقدام وتردُّد، مدركًا أنَّني أطرق المجهول، في محاولة طائشة لاختراقه، مقدّرًا الخطر بحجمه تمامًا، لا من وحشٍ أو أفعى، فهذا وارد، بل أن يكون أحد الصينيين يتبعني متخفيًا، لينقضّ عليَّ فجأة، وهذا وارد أيضًا، وإذ يُلقي القبض عليَّ، بالجرم المشهود، تكون التهلكة في انتظاري، والجرم هذا واسع القوس، غير محدد المعالم، شامل كل حركة، كل نأمة، من اللقاء المنفرد، إلى الإمساك باليد، من النظرة النشوى، إلى ملامسة الخنصر، من الصمت إلى الكلام، من الوقوف وجهًا إلى وجه، إلى الجلوس جنبًا إلى جنب، ففي كل هذه الحالات عناصر جرم، والعنصر الجرميّ موجود لمجرّد الشبهة، وبصرف النظر عن عقوبته المعجلة أم المؤجلة، فإنَّه جرم، عليه إشارة في إضبارة «المجرم» المفترض، لأنَّه مس الكرامة الصينيَّة، هذه النقيَّة، الطاهرة، ناصعة البياض كالثلج، المغذاة بحقن دائم من شوفينيّة الدولة الكبرى، من خلال كل وسائل الإعلام غير المنظورة.

توقفت عن السير بعد أن توغلت في الغابة. نظرت في الجهات الأربع، ارتطم نظري بجدران من الخضرة الدكناء، الفاتحة، الرصاصية اللون غالبًا، حاولت معرفة أين أنا من الساحة التي انطلقت منها، تلفّتّ إلى وراء، بحثت عن منفذ، عن درب، عن شِعْب في الجبل، بغير جدوى، استشعرت قلقًا على مصيري، وبدرجة أقلّ على مصير تشين لاو، وفي هذا المأزق الذي وجدت نفسي فيه، جاءني نبأ في حجر، سقط الحجر، الذي على شكل حصاة، قريبًا مني، التقطته متفرِّسًا فيه، فإذا حجر آخر يسقط، إلى أمام هذه المرَّة، تقدَّمت وجلاً، وتوقّفت، فإذا حجر ثالث، إلى أمام أيضًا، تقدَّمت بضع خطوات أخرى، توقّفت، تلفّت، قررت، وأنا في قلب المغامرة، أن أمضي في مغامرتي، أن أسير في الاتِّجاه الذي سلكته، مهما تكن النتائج، وكائنًا من كان الذي يترصّدني، ما دام الحجر رسالة، والرسالة وصلت، ولا يهمّ، بعدُ، أكانت رسالة خير أم رسالة شر، فراكب البحر لا يخشى من الغرق، وعليَّ أن لا أخشى من «بحر» الغابة في سكينته الباعثة على الخشوع والرعب معًا.

نظرت في ساعتي، كانت وحدها التي تتكتك، منتهكة سكينة ما حولي، دون مبالاة بمرور الوقت، هذا المعذِّب لمن هو خارجه، أو خارج الدائرة المرقمة، والعقارب المتحركة، الناطقة والصماء معًا، فالوقت، بالنسبة إلى

المعدن، لا وقت، إلاّ أنّه بالنسبة إليّ وقت، وكل دقيقة تمرّ، تخلّف تأثيرًا مزدوجًا: أحدهما سكّين تقطع حبل الأمل، وثانيهما كف تصل ما انقطع من هذا الحبل، في تناوب مرهق للأعصاب، من النوع الذي لم أعرفه من قبل، أنا الذي يزعم أنّه يعرف، عن تجربة، كل أنواع الارهاقات، وأنّه صمد لها، وانتصر عليها، بأناة من ينسج قطع الخيزران الصغيرة، سترة من خيوط تنتظم مخارم تلك القطع الدقيقة، صانعًا من هذا الحبل الغريب تحفة فنيّة، لأميرة أو ثريّة، مقابل تفاهة من عطاء الأرز الذي لا يذكر، إلاّ أنّه ضروريّ لحفظ الحياة!

بغتة اهتزّت أغصان شجرة من فصيلة الصنوبريات. توقفت، نظرت إلى أعلى، لم أر شيئًا، مع أنّني سمعت اصطفاق جناحين قويّين. لطيت وراء دغل، تحرّك جسم ما في الدغل، رجعت إلى وراء، نظرت فإذا صلّ أسود، يبلع على مهل، جرذًا رماديّ اللون، والصلّ قد تكوّر على شكل كعكة، في وضع استرخاء، بعد أن فاز بصيده، وراح يتلذّذ بابتلاعه، والجرذ يطلق صيحات زاعقة، خافتة، كمن يستنجد، أو يستغيث، بقبيلة الجرذان، وهو يكافح، للبقاء، منهزمًا، مستسلمًا لمصيره البائس، رويدًا رويدًا! جفلت للوهلة الأولى، أشحت بوجهي عن الصلّ، لم أخف منه قدر خوفي من الأفعى، لعلمي أن الصل غير مؤذٍ مثلها، وأنّه، الصل، يبتلع عدة جرذان، إذا توفق في اصطيادها، وكي يهضمها لا بدّ أن يقيل إلى دغل، أو حجر، وفي هذه الحال، لا خطر منه، لأنّه «بالع» حسب الحكايات، لا قوّة له على خفة الحركة، أو الانسياب بسهولة، وعدوّه، في مثل هذه الحال، النسر، أو الشوحة، أو الغراب، وظنّي أنّ الطائر الذي صفّق بجناحيه بقوّة، كان غرابًا، يرى إلى فريسته من موقفه على غصن، متحيّنًا الفرصة للانقضاض، وفي هذا تتوازن الطبيعة، فلولا الأفاعي لما بقيت أشجار وغابات، ولقرضت الجرذان جميع الجذوع، ولولا الطيور الكاسرة لامتلأت الجبال بالأفاعي، وانقرضت العصافير والحشرات الصغيرة، وفي انقراض العصافير والحشرات، موت للزروع، التي تفتك بها الديدان، وقد شنّت الصين، بملايينها من البشر، حملة على عصافير الدوريّ حتى أبادتها، فكان أن تكاثرت أنواع الديدان وأتت على حقول القمح والحبوب، لذلك أوقفت الصين حملتها على هذه العصافير، مانعة صيدها حتى تتكاثر من جديد.

ولئن كان لكل أمر سبب، فإن رؤية الصل كانت سببًا في وقوفي، وكان وقوفي سببًا في تفادي رؤية رجل صيني، لا أدري من أين نبق، حاملاً بارودة صيد، وهو يجول في الغابة، وما إن ابتعد حتى خرجت من وراء الدغل، فإذا معبد بوذي أمامي، على مسافة أمتار قليلة، وفي هذا المعبد كانت تشين لاو تنتظر، متوارية خلف ستار خشبيّ، عليه رسوم وزخارف، وكان قلب تشين لاو يخفق بشدّة، إلى درجة أنّها مدّت إليّ يديها، وجذبتني إلى قربها، دون أن تقول كلمة واحدة، ثم أومأت لي برأسها فتبعتها، خارجين من الباب الخلفي للمعبد، إلى أن بلغنا ما يشبه الخميلة من خضْرة نضِرة، نستطيع من خلال أغصانها المتشابكة، أن نرى كل أحد، دون أن يرانا أحد. وما إن توقّفنا حتّى فتحتُ لها ذراعي، ودهشت لأنّها ارتمت بينهما، كأنّما لتحتمي بي، في وقت كنت محتاجًا فيه إلى حمايتها، هي بالذات... سألتني:

ـ لماذا تأخرت؟

قلت وأنا أضمها إلى صدري دهشًا:

ـ وهل تأخرت!؟

نظرت في ساعتها وضحكت، قالت:

ـ مضى نصف الوقت تقريبًا، وأنا مضطربة، يا إلهي كم أنا مضطربة!

ـ من خوف؟

ـ من خوف عليك ومنك.. إنّها المرة الأولى، المرة الأولى يا زبيد، وأنت تقدّر ما تعني المرة الأولى!

قلت:

ـ أقدّر! أقدّر يا تشين لاو، تعالي إلى صدري، إلى قلبي، ادخلي قلبي وابقي فيه، وهكذا نبقى معًا، طول العمر.

أضفت:

ـ هذه هي المرة الأولى، التي تلتقين فيها رجلاً؟

ـ لماذا تسأل؟

ـ كي أعرف!

ـ الأفضل ألا تعرف.. نحن معًا وهذا يكفي، يا لها من مغامرة خطرة، مجنونة، في سبيل لقاء عادي جدًا، كان يمكن، لولا الرقابة الشديدة، أن يتم بغير عناء، لو كنا نعيش ظروفًا أخرى، ظروفًا طبيعية، خالية من مسؤولية حماية ثورة، دفعنا، لأجلها، الكثير من الدماء، ولما نزل في أوّل طريق البناء، لإنشاء الدولة العظمى التي نريد!

شعرت، أمام هذه الديباجة المتهرئة، بصدمة، فنحن هنا، تشين لاو وأنا، كي نطفئ ما بنا من شوق، لا لسماع اسطوانة مكررة، معادة، مملة، يمكن سماعها في الدروجبا، وفي بيتي بالذات، عندما تأتي تشين لاو إليّ، في مهمّة ما، باعتبارها مسؤولة العلاقات العامة، العلاقات التي تبدأ وتنتهي بسؤال واحد: «هل للرفيق زبيد ما يشكوهُ!؟» أو «هل للرفيق زبيد، ملاحظات على الحياة في الدروجبا، تفيدنا في عملنا المشترك؟» نعم! للرفيق زبيد الكثير من الملاحظات، وهو يعرف أنَّها لا تساوي قولها، لأنَّها من الأشياء التي تلقى، بعد إبدائها، في سلة المهملات، لكونها رواسب بورجوازية، علي، كما نُصحت مرارًا، أن أتخلَّص منها، إذا ما كنت أرغب في أن أكون رفيقًا طيّبًا.. اللعنة!

سـألَتْ تشين لاو، وهي بين ذراعي الباردتين كالثلج، بعد تلك النار المتقدة في كفّي، عندما لمست يديها فور اختلائي بها:

ـ ماذا حدث زبيد؟ لماذا هذا التحوُّل غير المبرر، والمفاجئ أيضًا!؟

قلت:

ـ لأنَّه، في الصين لا مكان للحب، فقد تزوّجتم، جميعكم، الثورة وانتهى الأمر!

ـ وأنت!؟

ـ تزوجت ذاتي، التي أنام معها مضطرًا!

ـ ومارلين؟ والسيدة بورجرون؟ والأخريات؟

ـ بعثت بهنّ إلى الشيطان، أو، ربما، إلى الريف، لأداء العمل الجسماني، كما فعلت انتِ، أو كما أرغمت على الفعل، عقابًا لك، لأنك سبحت خارج المياه الإقليمية الصينيّة! حدث هذا أم لا؟

ـ حدث!

ـ إذن؟

ـ أنتَ تعرف الجنس ولا تعرف الحب!

ـ وهذه المغامرة؟

ـ نزوة!

ـ في هذه الحال نفترق، كأنّنا لم نلتق!

نهضتُ عن الحجر الذي أجلس عليه، مددت يدي إلى تشين لاو مودّعًا، راغبًا في النسيان، أخذت يدي بين يديها وقالت:

ـ أنت مشاكس، كما يقال عنك، وأنت مجنون، كما أقول عنك أنا، لماذا كل هذا الانفعال؟ ولماذا الإهانة، وأنا لا أستحقها؟ قل لي: ماذا تريد؟

ـ أن نكمل بناء الصين، وفي هذه اللحظة بالذات!

أضفت بنبرة أسى:

ـ إنني مثلك، يا تشين لاو، أتفهم ظروف الصين، وأعمل بدأب للمساعدة في البناء، لكن الأمور مرهونة بالقدرة، التي يحسن ألاّ نبددها، كما نبدِّد دخان سيكارة، في ساعة غضب.. هناك كلمة تقول: «لجمع الحجارة وقت، ولتفريقها وقت آخر» وكنت أحسب، في طريق الخطر الذي قطعته لأجلك، أن وقت جمع الحجارة ليس هذا أوانه، فإذا بي أفاجأ بشبه الضربة على الرأس، ان لقاءنا هذا مكرَّس لجمع الحجارة، فاجمعيها وحدك، أرجوك!

ابتسمت تشين لاو، قالت وهي تعود إلى حضني:

ـ لا! لا تذهب، لا تتسرع، وإذا كان لا بدّ من جمع الحجارة، فسنجمعها معًا، وبالطريقة التي ترضيك، هيّا قبلني، ضمّني إليك، وبأعنف ما في طاقتك!

غمست نظراتي المستثارة في عينيها، قبّلتها في وجهها، في عنقها، في فمها، مددت يدي إلى صدرها فصاحت:

ـ لا! لا تفعل!

وفعلت!

ـ ٣١ ـ

في المطعم، انتقى زبيد طاولة تتّسع لخمسة أشخاص، جلس معتدًا بنفسه كما دخل، مشيحًا بوجهه عن الطاعمين الذين راحوا يتلفتون إليه! توقّعوا أن يكون لديه ضيوف، أو ضيفة واحدة هي مارلين، بعد أن تمّ ترحيل جيفرسون إلى المستشفى في بكين. وجاء الميتر مبتسمًا، قائلاً بمحبة ولطف:

ـ كيف كانت رحلتك البحرية؟

ابتسم زبيد بدوره وقال:

ـ ممتعة جدًا يا صديقي!

ـ وأين هو الصيد؟

ـ اشتراه تاجر سمك في بكين، بسعر لا يُنافس، لمصلحة المؤسسة العامة للأسماك هناك!

ـ هذا جيّد، وعكسه جيّد أيضًا، لو أردت.

ـ اخترتُ ما يناسبني!

ـ أخذت الألم لحسابك؟

ـ هذا ما أفعله دائمًا.

ـ وفعلك هذا ترك أثرًا طيّبًا، هنا وفي بكين.. ماذا تأكل؟

ـ أكبر سمكة لديك، على أن تكون بنت عاهرة!

ـ وكيف أعرف ذلك؟

ـ من الغنج، السمكة كالمرأة، تغنج قليلاً دائمًا.

ـ فهمت..

ـ إذن لن أقول شيئًا آخر.

ـ دع الآخر عليَّ.. من هم ضيوفك؟ مارلين ثم مَنْ؟
قال زبيد مازحًا:
ـ هذه المرة أخطأت في تقديرك يا ميتر!
قال الميتر وهو يكتب في دفتره:
ـ وأنا سعيد لأنَّني أخطأت! ما كان يجب ذلك.
ـ أعرف!

نهض زبيد إلى البار، لإحضار ما يرغب من مشروب.. في طريقه رأى نغوين وألدو، جالسين إلى مائدة السيدين الاويس، لم يأبه لذلك، غير أن نغوين أتت بحركة غير لائقة، عندئذ سار زبيد بين الموائد، واضعًا يده اليمنى في جيب بنطاله، قاصدًا طاولة الاويس ومن معه، فلما همّ هذا بالوقوف لمصافحته، ضغط على كتفه وأرغمه على الجلوس، ثم نظر، بغضب، إلى نغوين قائلاً:

ـ إيّاك وقلة الأدب مرة ثانية، هل تفهمين!؟ وأنت يا ألدو، أيُّها الفاشيّ القذر، تحسن صنعًا إذا وضعت رأسك في طبقك، وإلا وضعته أنا بنفسي!

حاول ألدو أن ينهض، إلا أن الميتر كان أسبق، ضغطه في كرسيّه قائلاً:

ـ ضع السكين من يدك، فهي لا تقطع أصلاً، وأنت يا آنسة نغوين، تذكَّري أنك في الصين لا في ألمانيا!
قال الاويس الأب:
ـ وماذا فعلت نغوين!؟
رد الميتر:
ـ اسألها، في البيت، تجبك، وهذا يكفي الآن!
قال زبيد:
ـ نعم يا ميتر، هذا الآن يكفي..

استدار زبيد للتوجّه إلى البار، إلاّ أنّ السيدة الاويس، الباسمة تصابيًا، قالت:

ـ نحن، يا رفيق زبيد، نكنّ لك الود والاحترام، وكنا في قلق عليك..
قاطعها زبيد:

ـ شكرًا على الودّ والاحترام والقلق، دفعة واحدة! أنت، يا سيدتي، وكذلك زوجك، من الرفاق الطيِّبين، ومن الأصدقاء أيضًا، لكنَّ الأمر يختلف بالنسبة إلى نغوين وعشيقها الدو.. هناك حساب لا بدّ أن يُصفّى.. في يوم من الأيّام!! حسنًا، إلى اللقاء.

قالت السيّدة الاويس:

ـ سمعنا أنك..

قاطعها زبيد بحدة:

ـ ما سمعته يخصك وحدك، أما أنا فقد كنت في رحلة بحرية! أكرر: كنت في رحلة بحريّة!

قال ذلك زبيد ومضى، تكدّر الاويس وقال لمن معه:

ـ زبيد غير مخطئ!

أضاف:

ـ إنّني رفيق، إنّني شيوعي قديم، وأرفض اللعب بالنار، بهذه الطريقة المبتذلة.. أنا بانتظاركم في البيت! عليَّ أن أضع حدًا لهذه المهزلة، التي ستنقلب إلى تراجيديا اذا لم أبادر، وفورًا!

أحضر زبيد الماوتاي والكونياك والبيرة، عاد إلى طاولته معتكرًا، أشعل سيكارة، صبّ كأسًا من الكونياك، تذوقه بغير شهية، جاءه الميتر قائلاً:

ـ لماذا اخترت، تونجي زبيد، الطريق الصعب؟

ـ لأنّه صعب!

ـ التحدِّي له وقت، لكننا، في الصين لا نجد الوقت ملائمًا لمثل هذا التحدِّي، علينا أن نطوِّق كل حادث يثير البلبلة بين الرفاق الأجانب، ومن أجل هذا أبعدنا جيفرسون عن هذا المصيف.. وجدنا أن ذلك أنسب، لأنّه لم يسبق، منذ تحرير الصين، ومنذ وصول الخبراء الأجانب إلينا، بعد التحرير مباشرة، إن وقع إشكال كهذا، والسبب، كما يروّج بعض الخبثاء، هو أنت، لأنّك تريد، بشهامة، أن تحمي امرأة، والحماية، كما تعرف، نحن مَنْ يقوم بها، فلماذا ورطت نفسك، وورّطتنا معك!؟ ها هم ضيوفك، إنّني آسف لما قلت، إلاّ أن الحقيقة هي الحقيقة دائمًا، وسنتحدَّث، مساءً، حول بعض هذه الأمور، دون تكليف من أحد، صدقني!

لم يصدق زبيد ما سمع، لغرابته، فهنا، في الصين، لا أحد يتكلّم في موضوع خارج دائرة اختصاصه، والميتر، الذي هو رفيق مسؤول، مكلّف بقول ما سمعه زبيد، إلاّ أنّ الذي قاله خطير، ما كان متوقعًا، في أيّ ظرف، فالتورُّط والتوريط، إذا ما كانا، في فعل جيفرسون وليس من فعله، وهذا يعرفه الجميع، إلاّ أنّ الأمور مأخوذة، حسبما فهم زبيد، من وجهة نظر الجماعة، لا من وجهة نظر الفرد، حتى لو كان هذا الفرد على حق، فالفردية، في النظام الشمولي، ملغاة، مختزلة في صفر، لا قيمة لها ولا رقم، وقد أحسن ناظم حكمت في التعبير عن هذا، حين قال: «كلنا واحدنا، وواحدنا كلنا» وكان يقصد به النضال، بينما قصد به الصينيُّون التذويب، حتى لا يكون صوت غير صوت الجوقة «ومن يدري، فقد يكونون على حق، وحتى لو لم يكونوا على حق، فإنّهم يعدّون التمايز نشازًا، ومن غير المسموح، حتى للفنان، أن يكون متميزًا، حتى لا يكون ناشزًا!»

قالت السيدة بورجرون، وهي تتقدّم من زبيد مصافحة:

ـ أنت، يا عزيزي، لا تكف عن إثارة الضجيج، بصرف النظر عن نواياك الطيِّبة!

وقال السيد جاك بورجرون:

ـ الرفيق زبيد غير مسؤول، لأنّهم هم الذين يثيرون الضجيج، كأنّما يتعاملون مع المانويّة في ثنائيّتها، بين أسود وأبيض فقط، أو بين زبيد وجيفرسون فحسب.

قال زبيد، الذي قبّل يد السيدة بورجرون، وصافح السيد جاك، وفق ما تقتضيه اللياقة:

ـ حسنًا يفعلون يا أعزائي، فأنا من هواة الضجّة لا السكينة! أو الحركة لا الثبات! هذا، كما تعلمون، من جدلية التاريخ!

قال جاك بورجرون:

ـ هذا يرضي رفاقنا الصينيِّين جدًا، ولا يغضب رفاقنا السوفييت في الوقت نفسه!

قال زبيد ضاحكًا:

ـ وأنا أسعى لإرضاء الطرفين، لذلك «أدرّس» في الجامعة، الماركسية ـ

الليننيّة فقط!

قالت السيدة بورجرون:

ـ يعني تمسك العصا من نصفها!

ـ اذا كان هذا رأيك فيّ فلا بأس!

ـ ورأي غيري؟

ـ يكون له جواب آخر، يتلاءم وقائله!!!

قال السيد جاك:

ـ مارغريت لا تقصد المعنى السيّئ!

أجاب زبيد:

ـ وحتى لو قصدته فإنّني أتقبّله، أنتما عزيزان عليّ إلى درجة الرضى بسلخ جلدي.. ماذا تشربان؟

قالت مارغريت:

ـ ما تنصحنا أنت به!

ـ لنشرب، أوّلاً، كأسًا من الكونياك، كبداية!

ـ وكخاتمة؟

ـ نشرب كأسًا من الكونياك أيضًا!

ضحك الثلاثة وهم يقرعون الكؤوس، حاولت مارغريت بورجرون أن تلتقي عيناها بعيني زبيد، كي ترى إلى وقع دعابتها عليه، إلاّ أنّها لم توفّق، كان زبيد يتجنّب النظر إليها، منصرفًا إلى الكلام مع جاك الذي سأله:

ـ ما هي حكمة البدء بالكونياك، والختْم بالكونياك أيضًا؟

قال زبيد ضاحكًا:

ـ لا تحاول، يا سيد جاك، أن تصطادني! أمامك، كفرنسي عريق، لا أحد يتكلم على فلسفة الشراب..

قالت مارغريت:

ـ لم أسمع، قبل الآن، إن للشراب فلسفة!

قال جاك:

ـ لكل شيء فلسفته يا عزيزتي!

ـ وفي أيّ جامعة تُدرّس هذه الفلسفة؟
قال زبيد ضاحكًا:
ـ في الخمّارات أو البارات، من هنا تبدأ الحياة، وإلى هنا تنتهي!
ـ وهل لهذه الحياة نكهة خاصة؟
ـ طبعًا! نكهتها النشوة! وهذا من تحصيل الحاصل، لأنّه ليس بيننا من لا يعرف عرس قانا الجليل، وليس بيننا من لا يعرف النشوة، إلا إذا كنا في حفرة «الأم» مارغريت، رئيسة راهبات الكرمل، في مقاطعة بوردو الفرنسية!
قال جاك مقهقهًا:
ـ سؤال كهذا يحتاج إلى جواب كهذا!! مارغريت، يا زبيد، «أم» كرمليّة عتيقة، لكن ذلك لا يظهر عليها إلاّ بعد أن تنام!
ضحك الثلاثة، وقال زبيد:
ـ بركاتك، إذن، أيَّتُها الأم مارغريت، وليكن الطريق إلى الجنة ممهدًا أمامك، من الآن وإلى أبد الدهر، آمين!
صاحت مارغريت:
ـ طريقي إلى الجنّة ممهَّد، لأنّني أصلي، قبل النوم، كل ليلة!
صاح زبيد:
ـ وبعد الصلاة تضربين زوجك العزيز، كي ترقدي بسلام!
صاحت مارغريت:
ـ لا! أنا لا أضرب زوجي، لأنّني لست «صناعة إيطالية»..
قاطعها زبيد:
ـ إذن صناعة مكسيكيَّة!
ـ ولا هذه أيضًا!
قال جاك:
ـ أنت، يا مارغريت، صناعة منغولية إذن!
ـ منغولية!؟ أنا منغولية!؟
قال زبيد:

ـ دون تورية!

قال جاك:

ـ لا! مع التورية الكاملة، لأنك تشبهين «الأم تيريزا» تمامًا!

ـ وماذا في ذلك؟ الأم تيريزا قديسة!

ـ وأنا قصدت ذلك فقط..

قال زبيد:

ـ إذن باركي، أيتُّها الأم كلية الطهارة، هذا الماوتاي، واغفري ذنوبنا نحن الخطأة!

قالت السيدة نلسون التي سمعت العبارة الأخيرة:

ـ مَنْ يغفر ذنوب مَنْ؟ هلو زبيد، أين كنت يا عزيزي؟

نهض زبيد مرحبًا وقال:

ـ مع المافيا، في جزيرة صقلية!! تفضلي عزيزتي، فنانتي الكبيرة، خذي مكانك!

حركت السيدة نلسون يدها حركة أوبرالية وهي تجلس، جلس زبيد أيضًا، ابتسمت له، قالت وشفتاها تلمعان:

ـ قل لي، زبيد، أين كنت فعلاً؟

ـ في رحلة بحريّة لصيد القروش!

ـ وهل اصطدت قرشًا؟

ـ اصطدت سمكة كبيرة، هي على النار الآن، ويسرني أن تتذوّقيها معنا.. ما رأيك بكأس من الكونياك مع هذه الأطباق الحارة كلها؟

ـ ولماذا الكونياك وليس الماوتاي، عزيزي؟

ـ لأنّ البارمان الذي هو أمامك، يرى أن التدرُّج في المشروبات أفضل!

قال جاك بورجرون:

ـ لصديقنا زبيد فلسفة خاصة بالشراب، لم يشرحها لنا بعد.. لكنُّها تبدأ بالكونياك وبه تنتهي!

غمزت السيدة نلسون وقالت:

ـ وما الحكمة في ذلك، عزيزي زبيد؟

ـ الراحة الجسدية والنفسيَّة سيدتي العزيزة.. الكونياك، في البدء، يفتح الشهيَّة، وفي الختام يطهِّر المعدة، من كل ما سبقه من شراب.

ـ في هذه الحال لا بأس بكأس من الكونياك، لكنَّني لا أريد، حقيقة، أن أفرض نفسي عليكم، فقد يكون هناك، بينكم، حديث خاص!

قالت السيدة بورجرون:

ـ السيد زبيد يقصّ علينا كيف اصطاد سمكته الكبيرة، في رحلته البحرية!

ـ سمعت بهذه الرحلة ولم أصدِّق، إلاَّ أنَّ صيد السمكة التي تتحدثون عنها مقنع جدًا.. لنشرب كأس المغامرة الثانية هذه!

ـ ومغامرته الأولى؟

ـ اسألي عنها، عزيزتي مارغريت، الجروح التي على جسمه، والتي رأيتها من غير شك!

ـ نعم رأيتها، وطهّرتها له أيضًا، واشترك جاك معي في تطهيرها.. صديقنا زبيد إنسان رائع، وأنا معجبة به جدًا، هل أجبتُ عن السؤال!؟

غمزت السيدة نلسون وقالت:

ـ اوه! أنتِ أيضًا رائعة، عزيزتي مارغريت، وأنتِ، أيضًا، مغامرة في البحر!

ـ وفي البر أيضًا!! لنشرب كأس هذا اللقاء، ونتوّجه بتذوُّق السمكة الرائعة، ونترك ما تبقّى!

هذه نصيحة، سيدة نلسون، لأنَّ زبيد سيخطب الآنسة إيتوال بروك في حفل كبير، قريب جدًا، وسأكون، في المستقبل، شاهدة زواجه، في الدروجبا!

ـ هذه كأس تُشرب، نعم تُشرب، وبكاملها، لأنَّ مارلين ستتحرر، وتعرف ما معنى أن يحبُّها جيفرسون المسكين، وبإخلاص نادر.. أليس كذلك عزيزي زبيد!؟

قال زبيد:

ـ طبعًا! طبعًا! جيفرسون يستحق الشفقة، لكنَّ النساء، مع الأسف، لا يحببن الرجال الذين يستحقون الشفقة، ولا أدري لماذا! ها هي سمكتي

الرائعة، المتبّلة جيدًا، وسنتناولها مع الماوتاي، ومع الأطباق الأخرى، الفاخرة، وكل هذا على شرف ضيوفي الأعزاء، الذين ذكرتهم، وتمنّيت أن يكونوا معي، في الرحلة البحرية الماتعة، «كامبي»!

شربوا كؤوس الماوتاي الحادة، بينما كان الكرسون يضع السمكة الكبيرة، الممدّدة في «جات» كبير بحجمها، والميتر يقول:

ـ هذه السمكة صيد صياد ماهر، وقد حدّثني البحارة الذين كانوا مع زبيد في المركب، أنّه كاد يخاطر بنفسه لأجلها، دون أن يذكر لي زبيد أيّ شيء حول ذلك.. تخدمون أنفسكم، أم أبعث إليكم مَنْ ينوب عنكم في تشطير السمكة، ووضع شرائحها البيضاء، الشهية، في أطباقكم؟

قال زبيد:

ـ شكرًا تونجي على هذه المائدة الفاخرة، بل على كل شيء، ولا حاجة لمن يقدِّم لنا شرائح السمكة ما دمتُ موجودًا.. لنشرب، يا أصدقائي، في صحة النساء المتحررات من عبودية حب الرجال المجانين، أمثالي!

قالت السيدة نلسون:

ـ أنا سأشرب، إذا سمحتم، في صحة جيفرسون ومارلين، صديقيّ العزيزين!

قال زبيد:

ـ لك ما تريدين، سيدة نلسون، وآمل أن أسمع أخبارًا طيبة عن صديقيك، ما دام الوفاء، بالنسبة إلينا نحن العرب، أحد أهم الصفات التي نتحلى بها.

قال جاك:

ـ أين جيفرسون ومارلين الآن، سيدة نلسون؟

ـ زبيد يعرف!

قال زبيد:

ـ نعم! أعرف ولكن لي رجاء أن نؤجل الكلام على هذين الصديقين، إلى ما بعد التهام هذه السمكة، مع هذه الزجاجة من الماوتاي، وهذه البيرة المبرَّدة، وما أعتقد أن هذا التأجيل يؤذي، أو يجرِّح، عواطفنا تجاههما!

قالت السيّدة نلسون:

ـ هذا جميل منك، عزيزي زبيد، أنت لست حقودًا كالآخرين!

استفزَّ، هذا الكلام، السيدة بورجرون، لكنَّ زبيد، أشار عليها، خفية، بألاّ تردّ، فالسيّدة نلسون تتقصّد استفزازها، وهذه الضيفة، الجالسة إلى مائدتهم، يجمل بهم أن يفوّتوا عليها فرصة هذا الاستفزاز، وثمّة وقت، بعد الطعام، للكلام معها، إذا لم تصل إلى السكر الكامل، وغالبًا تصل، ويكون الكلام معها، في هذه الحال، غير ذي نفع، لأنّها تصبح غير مسؤولة عن تصرُّفها، أو فلتان لسانها.. وهذا ما حصل فعلاً، لكنَّ زبيد، الذي حرص، بإصرار، على تركها حيث هي، أدار لها ظهره وخرج من المطعم مع السيدين بورجرون، من غير أن يلتفت إلى ما تفعله، أو تقوله، رغم أنّه يعزّها، ويقدّر نبل شهادتها، في الحريق الذي شبَّ في بيت جيفرسون، وكاد هذا الأخير يذهب ضحيته، لولا أن بادر زبيد إلى إطفاء الحريق، من منطلق الإشفاق على عاشق خائب!

عند العصر، وبعد نوم عميق، أيقظته السيّدة بورجرون برنين ملحاح من الهاتف، قالت، على الطرف الآخر للخط «إن كرامتي أهينت، وإنَّ السيدة نلسون كانت مدعوّة ثقيلة الظل، ولو عرفتُ أنّها ستلبّي الدعوة، لاعتذرت أنا، والحق، بعد كل شيء، عليَّ قطعًا، لأنّني كنت أمام حالتين: العشق، وهذا مستبعد إلى حد ما، أو الخوف لئلا تغيّر هذه العجوز المتصابية، شهادتها حول الحريق في بيت جيفرسون، وهذا أمر محيِّر! إنّني أربأ بنفسي أن أجالسها، ولم أكن أعرف أن زبيد خوّاف إلى هذا الحد!»

قال زبيد، هادئ الأعصاب، دون أثر لانفعال:

ـ وبعد يا سيدتي؟ هل أيقظتني من النوم، لتسمعيني مثل هذه الموعظة الثمينة جدًّا؟

ردت مارغريت بورجرون بعصبية:

ـ أعتذرُ على هذا الإزعاج غير المبرر من وجهة نظرك، إلا أنّه مبرر من وجه نظري.. كيف أهان وأنا من أكون بالنسبة إليك؟ ولماذا تركتها تتمادى، وتسلقنا، أنت وأنا، ببذاءتها الحارقة؟ لو كان غيرك لقطع لسانها! هناك مؤامرة تحاك ضدك.. متى تنتبه؟ متى تفتح عينيك؟ ثم متى تفهم وتنبذ الخوف؟

قال زبيد دونما اكتراث:

ـ وبعد، يا سيدتي الشجاعة؟ هل أطمع بوقوفك إلى جانبي، إنقاذًا لي من المؤامرة التي تحاك ضدّي!؟ في هذه الحال أطلب مساعدتك، أنا المستطيع بك، كيلا أؤخذ غدرًا، بسبب من غفلتي النعاميّة! قولي، تكلّمي، أشيري عليَّ بما يجب أن أفعل!

قالت مارغريت بحدَّة:

ـ أنت لا تنقصك النباهة، كونك تعرف، أن ما يجب أن تفعل، لا يُقال على الهاتف!! إنّني قادمة إليك!

تمطّى زبيد وهو يبتسم من بين أهدابه، اغتسل، تعطَّر، أعدَّ القهوة، انتظر دقائق وإذا الباب يُقرع، وإذا السيدة بورجرون على الباب، وهي في كامل أناقتها الباريسية، كأنّما تأتي لموعد مضروب، وليس لإبلاغه «شيئًا خطيرًا عن المؤامرة ضدَّه!» قال وهو ينزع عنها منديلها الحريريَّ الهفهاف:

ـ هذه القهوة معدَّة لك، بحسب طريقتي أنا ومزاجك أنت! أفضّل أن نأخذ معها قليلاً من الكونياك، كي تسترخي أعصابنا، أو تُستثار، ما دام طبق الرغبة الشّهّاء، يعربد في دمنا نحن الاثنين.. في صحّة كونتيستي الغالية جدًا عليَّ.. وللبرهنة على ذلك، أميل إلى أن نشرب هذا النخب، بعد أن تتخفّفي من هذا الثوب الأنيق، لتصافح عيني ما هو أشدّ أناقة: صدرك، كتفيك، ساعديك، وراحتيك أيضًا!

هيّا، ساعديني، أرجوك!

ـ وإذا كنت لا أريد؟

ـ وإذا كنت أنا أريد؟

ـ تغتصبني!؟

ـ وبعنف شديد!

ـ ولماذا العنف وقد جئتك برضاي؟

ـ لأنَّ الاغتصاب العنيف، ما دام الدم يغلي في الشرايين، يعدّ من أفضل الوجبات الجنسيَّة.. لنشرب، إذا سمحت، هذه الكأس من الكونياك كاملة، وبعد ذلك نشرب كأسًا أخرى، من رحيق آخر، أنت به سخيّة، كأيَّة امرأة متوسّطيّة، دافئة جدًا.

قـال زبيد ذلك باطمـئنان، كـمن يعـرف، ويثق، أن طلبـه لا يرد، لا من طاعـة، بل من اشـتيـاق شـهواني، أفـعـواني، تنقلب إليه المرأة، حين يكون قبـالتـهـا رجل على مـثل حـالهـا، على مـثل هيـاجـهـا، ومثل اندفـاعـهـا إلى الابتراد بالثلج الذي يُزهر، في داخلها، تلك الزهرة الغريبة، النادرة، التي تتـفـتح، وتُفـتّح مـعـهـا، كل مسـام الجـسـد المضـمـوم بين ذراعين قـويَّتين، فولاذيّتين، نهمتين، نهّاشتين للّحم الرخْص، البض، الذي بينهما.

أنَّ السـرير تحـتـهـمـا، أنّ، وأنّ، لا من شكاة، وإنَّمـا لأنَّه، السـرير، كـالخصـيّ الذي يرى ولا يستطيع، فيئن معذبًا، راغبًا في خرمشـة وجه الفضاء، في تمزيق لحمه أو لحم الأخرى، مدركًا، في آن واحد، أنَّه يُقْدم، ويتهيَّب أن يُقْدم، لأنَّ الشقاء كتب عليه، كما كتب على السرير، والصمت، والصبر، هما ملاذه، كما ملاذ السرير تمامًا! وماذا في وسع الجماد، أو في وسع الخصيّ، الذي صيّروه من الداخل، جذوة، ومن الخارج جمادًا؟ يبقى الفارق، رغم ذلك، كما الفارق بين الحي ـ الميّت، والميّت ـ الميّت، هذا لا يحسّ، اذن لا يتـألَّم، وذاك يحسّ ويتـألَّم، والألم يطول مـا طال العـمـر، والقهر يطول ما طال الألم، وعلى الخصي أن يتعايش وألمه، لاعنًا، كل يوم، عبوديّة الإنسان، التي أتعسُ نتاجها أن يُحرم الرجل رجولته، منذ الصبا إلى الشيخوخة إلى القبر الرحيم!

كـانا، السـيـدة بورجـرون وزبيـد، يدخِّنان وهمـا في السـرير، بعـد تلك التَّرْبيتة على الظهر، التي تعلن بها الأنثى كفايتهـا من الذكر، وسعـادتهـا بهـذه الكفـاية، وكـان زبيـد يدخِّن ويفكِّر، في الخـصـيّ والسـرير، وتلك الأكذوبة عن المؤامرة، التي أوصلت السيدة بورجرون، بأسـرع مـا يمكن، إلى السـرير، قـائلاً في ذاته: «اذا لم تكن المؤامرة أكذوبة، فـإن مـارغريت، ستتحدَّث عنهـا الآن براحـة ووضوح، لأنَّني أعرف، من تجـاربي وقراءاتي، أن على الرجل أن يهيئ جيدًا، المرأة، ويعطيها حتى ترضى، وبعد هذا، لا قبله، يسـألها عمّا يريد، أو تحـدِّثه هي بما تريد!! مـارغريت راضـيـة الآن، إذن فلتـقل، دون حـرج، ونحن في السـرير، مـا اعـتـبـرتْ أنه لا يقـال في الهاتف!»

لكنَّ مارغريت لم تتكلَّم! إنَّها تريد، كما يبدو مواصلة لعبة السرير، دون أن تتكلَّم!

اليوميّة الثلاثون ٧ شباط ١٩٦٣

وحدنا أمام القدر، وحدنا في الغابة، وراء معبد بوذا في «الجبل العطري»، ووحدنا في الشوق المتبادل، دون ريّ لشوقنا المتبادل هذا، رغم أنّ تشين لاو متزوّجة، وزوجها في سيتشوان، المقاطعة الصينيّة البعيدة، وقد أباحت لي أن أعانقها، أن أقبّلها، أن أمدّ يدي إلى صدرها! احترقت أصابعي وهي تلامس النهدين في مكمنهما! كانا مكوّرين، ناعمين، أملسين، يشرئبّان بحلمتيهما الشبيهتين بمنقار حجل بري، بعندميّته الغامقة، النهديّة اللون، وكنت مأخوذًا، إلى درجة الصَرَع، حين رأيتهما فجأة، ولأول مرّة، خارج المنهدة البيضاء، تصافحان نور النهار، ونظراتي الملتهبة، وعلى بياض لونهما تتشهّى حمرة الشفق، من ارتعاش رغبة مكبوتة، رغبة أنثى، تقاوم، بعناد صلب، أن يمتدّ النظر، أو تتغلغل الأنامل، إلى ما تحت الصدر، إلى المنطقة المحرّمة.

احترمت رغبة تشين لاو هذه، عجبت لبكارة النهدين، اللّذين لم تمسهما يد رجل، ولم ترضعهما شفتا رجل، إلاّ زوجها، ولمدة قصيرة، بعد الزواج وقبل الافتراق، إذ ذهب كل منهما إلى المقاطعة التي يعمل فيها! عجبت أكثر لملامسة الجلد، في الجسد كله، كأنّما هذا الجسد، للأنثى الصينيّة، لا زغب عليه، مع أن الزغب موجود في حواصل صغار الطير، وفي حوصلة فرخ الحمام، لحظة تفقس عنه البيضة، في العش المخصص لذلك. قبّلتها، يا ويلتي كم قبّلتها، وكم ارتعشتُ، وكم ارتعشَتْ، خلال زرع القبل، وتبادلها، دون أن نقتصد، هي أو أنا، وعندما انقلب الحوَر، في عينيها، إلى شرايين دقيقة ورديّة، وغامت هاتان العينان، في غيبوبة الانتفاضة ـ الذروة، قالت تشين لاو وهي تعانقني، واضعة ذراعيها الحارّتين حول رقبتي:

ـ كفى زبيد، أرجوك!

لم أكفّ! انتهرتني: «كفى! أرجوك!» لم أكفّ أيضًا، وعندئذ تفلتت مني وبكت، ابتعدت وبكت، جلست على حجر قريب وبكت، وأمام بكائها الذي بعضه سغب، وبعضه ندم، كففت، رحت أمسّد شعرها وأنا أداري ما بها قائلاً:

ـ هل تتزوجينني يا تشين لاو؟

ضحكت من بين دموعها وسألت:

ـ ماذا؟

ـ هل تتزوجينني؟

ـ أتزوّجك!؟ كيف!؟ هل نسيت أنّني متزوجة!؟

ـ وماذا يعني؟

ـ يعني أنّك أضعت منطقك!

فعلاً أضعت منطقي، لا أمام الحقيقة فحسب، بل أمام النزوة أيضًا! تشين لاو متزوجة، فكيف أعرض عليها الزواج، وأنا رافض للزواج!؟ كيف أعرضه عليها وبأي منطق؟ تناقض! نعم! تناقض، إضاعة عقل، تسلطنت عليّ الشهوة، استبدّت بي، وفي طريق العودة، استشعرت خطل ما قلت، وحمدت الله لأنّ قولي كان في غير محله، وأنّها رفضت، وأصرّت على الرفض قائلة:

ـ حتى لو لم أكن متزوِّجة، لما قبلت بالزواج منك!

ـ لماذا؟

نظرت إليّ مستغربة وقالت:

ـ حقيقة لا تعرف؟

قلت:

ـ أعرف ماذا يا تشين لاو!؟

ـ تعرف، أولاً، أنّني لا أترك وطني، فهذا الوطن غذّاني جنينًا، ربّاني وليدة، علّمني يافعة، فتح لي باب الجامعة شابة، وعليّ، من باب الوفاء على الأقل، أن أسهم في بنائه!

ـ وثانيًا؟

ـ أنت لا تحبني!

ـ هذا غير صحيح!

رازت قسمات وجهي وقالت:

ـ بل هو صحيح جدًا.. أنت تشتهيني فقط!

ـ دليلك؟

ـ غيابي أو حضوري سواء لديك!

ـ وهذا اتِّهام فقط!

ـ اتِّهام يستند إلى تجربة.

ـ وماذا كان في وسعي؟ أن ألحق بك إلى الرِّيف!؟

ـ لا! ليس هذا أبدًا.

ـ وماذا إذن؟ أن أطاردكِ في الدروجبا والعيون مفتّحة علينا؟

ـ ولا هذا!

ـ إذن ما هو السبب، لمثل هذا الحكم القاسي، اذا كان هناك من سبب، وما أظن!

ـ نحن لسنا في الظن! نحن في الواقع.. لو كنت تحترم لقاءنا في البحر، الذي عوقبت لأجله، لما كان عندك، الآن، عشيقتان: مارغريت بورجرون، ومارلين تشارلز!

أضافت:

ـ علينا، في هذه النقطة، أن نفترق، أنت تذهب يسارًا، وأنا إلى يمين.. واللقاء في الساحة، عند الذين ينتظروننا!

في الدروجبا، نزلت من باص الرحلة إلى «الجبل العطري»، أسرعت، دون كلام مع أحد، إلى البيت، كيلا أُسأل، فوق ما سئلت، وكيلا ألفّق الحجج، حول مغامرتي، بأكثر مما لفقت. كنت تحت وطأة ذلك اللقاء الذي بادرتْ إليه تشين لاو، ورتّبَتْه بدهاء المرأة عندما تريد أن تلتقي رجلاً، ولم يكن من السهل عليَّ، أن أفرز مشاعري المتداخلة، المتشابكة مع أفكاري، أو أسمع إلى صوت العقل بمعزل عن صوت العاطفة، أو أمتنع، بأيِّ حال، عن الإصغاء إلى ضميري، وهو الرقيب، الصامت والمتكلِّم معًا، الذي تراوحت محاسبته بين السخط والرضى: السخط على ما فعلته في غياب تشين لاو، والرضى عمّا فعلته، في آن!

كنت وسخًا كلِّي، من الداخل والخارج معًا، وكنت معجبًا بموقف تشين لاو، ومتأذيًا منه، لأنّها انتصرت عليَّ، وجعلتني أنتصر عليها، وتلك هي المفارقة بين دهائها وسذاجتي، أنا الذي أزعم أنَّ لديَّ من التجارب، ما

يجعلني متفوقًا في التعامل مع المرأة! تشين لاو عرّتني حتى من ورقة التوت، تكلمتْ من سريرتي على سريرتي، لأنَّها هي فيها، قالت: «أنت لا تحبني بل تشتهيني!» وكنت فعلاً لا أحبُّها بل أشتهيها، وذكرتني بالواجب الوطني، هذا الذي كنت، أنا المناضل المُدّعي، قد نسيته، ثم أدركتْ، بحسِّها الأنثوي، أن تسرّعي في عرض الزواج عليها، هو نزوة طيش، دافعه عدم الارتواء، فلو أنَّني مارست الحب معها، لارتويت، ولم أتقدَّم بعرض سخيف كهذا، ما دمت أعرف، منذ كنا في شنتاو، أنَّها متزوِّجة، وأنَّ زوجها في مقاطعة سيتشوان البعيدة، وأنَّهما يسهمان في بناء الصين الجديدة، ومن أجلها يضحيّان هذه التضحيَّة، التي هي قاسم مشترك بين معظم الصينيِّين، والشباب خصوصًا.

الآن، وأنا أكتب هذه اليومية، يكون قد مضى خمسة أشهر على لقائنا، تشين لاو وأنا، خمسة أشهر بنهاراتها ولياليها، والحرقُ في الراحة، هو نار فيها، أحسّ بها كلما اعتادتني الذكرى، رغم أن تشين لاو غادرت الدروجبا، دون أن أعرف إلى أين، دون كلمة وداع، دون إشارة إلى أنَّها ذاهبة، وعبثًا حاولت أن أعرف، من حسن أو لي ناي زوجته، أيّ شيء عنها، مع أنَّني أزور حسن، أو أراه، وأرى زوجته، كل يوم تقريبًا. إنَّني أتفهَّم جيّدًا حيرة حسن أمام هذا الإشكال، فهو صادق معي، ولو اطّلع من زوجته على أيّ خبر حول اختفاء تشين لاو لأبلغني به، إلاَّ أنَّ زوجته، كصينيَّة، وكشابة، مفعمة حماسة كالآخرين، وكتوم مثلهم، من غير المجدي أن أستدرجها، فالسرّ الصيني يبقى سرًا صينيًا، مهما يكن الأجنبي رفيقًا جيدًا، طيِّبًا، ملتزمًا، ومهما تكن الثقة به كبيرة، لأنَّه، في آخر المطاف، سيرحل، ويحسن ألا يعرف عن الحياة الصينيَّة الداخليَّة، إلا المقدار الضروري للقيام بالعمل الذي هو مكلَّف به، وربما كانت سريَّة النضال، القاسي والطويل، الذي خاضه الصينيُّون، إضافة أخرى إلى هذا التكتُّم، غير المفهوم من وجهة نظر الغريب، والمفهوم، لأنَّه معيش، من قبل الصينيِّين أنفسهم، الذين تلقَّوْا تربية حزبية صارمة، ونبت لديهم حذر طبيعي، خشية أن يُلحق أي كلام يقولونه للغرباء ضررًا ما بوطنهم!

في ذلك اليوم، وبعد العودة من الرحلة، لم يكن ليخطر لي على بال أن تشين لاو ستختفي بهذه السرعة، ولأنَّني عشت معها، في «الجبل العطري»

متعة لم أعرفها مع سواها، فقد شلّني تفكيري بها، وارتباكي من جرّاء هذا التفكير، عن معرفة ما عليَّ أن أعمل! تساءلت: «أين هي الآن؟ ماذا تفعل؟ بماذا تفكّر؟ تبتسم من سعادة؟ تبكي من ندم؟ ولماذا الندم؟ تبكي لأنَّها اضاعتْ، كما أضعتُ، فرصة العمر، أم تبكي لأنَّها استفاقت من نشوة اللّذّة، وهبطت من عالم الخيال إلى حضيض الواقع؟ تعدّ ما فعلته إثمًا؟ وأين الإثم؟ أين المعصية؟ أين هو العبث بحرمة الزوجية؟ لم يكن بيننا شيء من هذا، وكان من حقها أن تفخر بتمنّعها عليَّ، لا أن تبكي، فلماذا بكت إذن!؟

هذه التساؤلات، ما كانت لتطرح نفسها عليَّ، لو أن ما حدث كان مع امرأة أخرى، غير صينيّة، أو غير تشين لاو تخصيصًا، وما كنت لأكترث لو أن ما وقع كان مع مارلين، أو السيّدة بورجرون، فهاتان الصديقتان واضحتان، مقروءتان، تقريبًا، مثل حروف الأبجدية، أعرفهما، بشكل ما، كما أعرف الخطوط الجلديّة، المتشابكة، في راحة كفّي، من الخارج على الأقل، إلاَّ أنَّ الأمر ليس كذلك مع أيّة أنثى صينيّة، هذه مغلقة ككل صينيّ، يبتسم لك، يتلطّف معك، بمقدار ما يكون الابتسام ضروريًا، واللطف واجبًا، فاذا لم تكن ثمّة ضرورة لهذا أو ذاك، وإذا ما دعت الحاجة إلى خلافهما، فإنّه ينقلب من حمل إلى ذئب، ويبرز له نابان مخيفان! هناك، طبعًا، من هم غير ذلك من الصينيِّين، فبينهم اللُّطفاء حقًا، المحبُّون حبًا أصيلاً، الأصدقاء فعلاً، غير أنَّ المرحلة الصعبة، غير المستقرة، غير المتوازنة، التي تمر بها الصين، في الوقت الحاضر، تفرض كل هذا التعقيد النفسي، وكل هذا الحذر غير المبرَّر، وكل هذا الندم، وهذا البكاء، اذا ما كان هناك، افتراضًا، انزياح ما عن المسلك الانغلاقي، ومن المرأة الصينيّة خصوصًا!

حملت معي خواطري هذه إلى الحمّام، ملأت البانيو بالماء الساخن، تمدّدت فيه، غطست إلى الرقبة، أحسست بالدفء، بالراحة، بالانتعاش، بقيت على هذا الوضع مدة غير قصيرة، أزيد في حرارة الماء كلما ابترد، وفي الجوانح رغبة أن أبقى كذلك، إلى أن أهدأ، أنسى، أطفئ لاعجة الشوق إلى لقاء آخر، مماثل، في رحلة أخرى، مقبلة، ولو كانت إلى «الجبل العطري» ذاته، ومعبد بوذا نفسه، فالرحلة، أيّة رحلة، لم تعد، بالنسبة إليَّ،

للاطّلاع، بل لرؤية تشين لاو على انفراد، والتحدُّث إليها، ومعرفة سبب بكائها، وإيقاف رعشة الجلد في ظاهري كفي، حين تحتوي هذه الكف فرخ الحمام الأبيض، الهادل، في صدرها.

بعد الحمّام الساخن، وما فيه من نعيم الدنيا، أعددت قهوتي، أحضرت الكأس، وزجاجة الكونياك، كما هي عادتي، وفجأة حضرت تشين لاو، انبثقت من الجدار، اتخذت شكل تجسّد من تحفة ما معلقة، أو موضوعة، أو مركونة، وتقدّمت بخطى وئيدة، خفيفة، كأنّها تمشي في الرِّيح، لتذهب، حين تشاء، في الرِّيح، منسربة كالدُّخان، متلاشية مثله، تاركة وراءها ندًا كان يفوح منها، عابقًا في فضاء الصالون الذي أجلس فيه، متأمّلة بحيرة تامة، كل ما يحيط بها، صامتة عمدًا، كأنّها تعاقبني بصمتها، فلما وقفت لم تلتفت إليّ، وحين تقدّمت نحوها ظلّت على وقفتها، ظهرها إليّ، ووجهها إلى لوحة جدارية، تقرأ ما نقش عليها من شعر، باللُّغة الصينيّة القديمة، التي لا يعرفها في الصين سوى ماوتسي تونغ، وكوموجو، رئيس دائرة جمعيّات الصداقة مع البلدان الأخرى. كنت، حتى الآن، مأخوذًا بها، أعرف أنّها تشين لاو، رغم أنّني لم أر وجهها، فلما سألتها:

ـ من أين دخلت؟

قالت دون أن تلتفت إليّ:

ـ وماذا يعنيك في هذا؟

قلت:

ـ يعنيني أنّك في بيتي!

أجابت:

ـ هذا ليس بيتك، وليس بيتي، إنّه بيت الدولة.. هنا الملكية جماعية، وأنت تعرف هذا!

ـ أعرفه، وأعرف أن هناك ملكية فردية أيضًا، يدخل في نطاقها البيت والحديقة والبقرة والعجل والديك والدجاجة!

ـ تسخر؟

ـ قليلاً!

ـ من الملكية الجماعية؟

ـ نعم!
ـ لماذا؟
ـ لأنّها سابقة لأوانها!
ـ أنت إذن مع الملكية الخاصة؟
ـ وماذا في الملكية الخاصة؟ إنّها ضروريّة، إلى حدّ ما، في هذه المرحلة بالذات!

التفتت إليّ تشين لاو، كأنّ تيارًا محركًا، أدارها بقوة دون إرادتها، رازتني بنظرة سابرة، وعلى وجهها يرفّ ظلّ من جفوة، بعد ذلك اللقاء الحميمي الذي كان، اللقاء الذي أدخلني جنة فتنة أرضية، جاءت تشين لاو الآن لإخراجي منها، بقصد محو كل تلك المودة، أو سحبها من ذاكرتي، كي نعود إلى ما كنا عليه، قبل اللقاء عند الشبك الحديدي في بحر شنتاو، وقبل عناقنا والقُبل، ظهر اليوم، وراء المعبد البوذي في «الجبل العطري»، كأنّما الذي جرى بيننا «خطيئة مميتة» تعذبها، وقد أتت الآن لتتخلّص من هذا العذاب، وتقلب الصورة الجميلة إلى ما هو ضدها تمامًا، نافية بذلك حقيقة أنّنا كنا معًا، متقصدة، في هذا النفي، نسيان هذه الحقيقة، وبقسوة شديدة، دافعها تعطيل مخيلتي، وربما مخيلتها أيضًا!

تركت المبادرة، في الكلام، لتشين لاو، فأن تتكلم تريح نفسها وتريحني، وأن تكتفي بسبر ما في سريرتي، فهذا السبر يبدو لي لعبة متقابلة، تجعلنا، هي وأنا، نقوم بالمحاولة نفسها، وفي وقت واحد، دونما فائدة، بسبب من أن الغور الداخلي أعمق، وأعقد، مما نظن للوهلة الأولى، والقياس، هنا، لا يصح، وكذلك التعميم، لأنّ ثمّة إنسانًا واحدًا، له نفس واحدة، ومن العبث فهم هذه النفس، عن طريق المقارنة مع نفس أخرى، ومهما يكن المسلك الخارجي، المتشابه، في المسلك الاجتماعي، مع تقاليد هذا المجتمع، وبشبه إجماع في بعض الحالات، فإنّ المعوّل عليه، لفهم النفس البشريّة، أن نأخذها كمفردة، معزولة عن سواها، وأن ندرسها على هذا الأساس. وقد أدركت، بعد وصولي إلى الصين، أنّ اللباس الأزرق، الموحّد، والكلام السياسي، من منطلق واحد، والحماسة التي هي قاسم مشترك، بين الشباب الصيني، يتناول، ويتحدّد، في المظهر لا في الجوهر،

وتشين لاو هذه، التي سمحت لنفسها أن تنفلت من هذا الطوق التوحيدي، استجابة لعاطفتها، سرعان ما أطفأت عاطفتها، وعادت إلى لغة العقل، لتكون نعجة في قطيع الغنم، ولو لمدة ما، هي مرحلية بالتأكيد، وبعد ذلك، بعد عقود، قد تطول أو تقصر، لن يبقى هذا اللباس الموحد، والمسلك السياسي الموحد، والالتزام الموحد، وعندئذ سيكون هنا انفراط لهذه التوحُّديَّة، وبروز قوي للفردية، وسيكون هناك حب، وعلنيّ هذه المرَّة، يتيح للإنسان الصيني أن يعبِّر عن مشاعره، بغير خوف، أو حذر، أو تردُّد، سواء كان ذلك بين الصينيِّين ذاتهم، كشعب واحد، وكأمَّة واحدة، أو بينهم وبين الأجانب، من شعوب أخرى وأمم أخرى.

طال صمت تشين لاو، طال صمتي، والعذاب، في هذا الصمت المتعمّد، كان لديها، مثلما كان لديَّ، كلانا متألم، كلانا معاند، وكلانا له أسبابه ودوافعه إلى هذا الصمت، هذا العذاب، هذه المكاسرة. وقد رغبت، بين لحظة وأخرى، أن تذهب تشين لاو لأبقى وحيدًا، وبذلك نصون المودّة التي بيننا، مؤجلين الكلام إلى وقت آخر، يزول فيه الندم، يزول فيه الحلم، وتهدأ ثائرة كل منا! إلاَّ أنَّ تشين بادرت إلى الكلام، تنفيسًا لاحتقانها المتأزِّم، فقالت بنبرة ساخرة:

ـ هل حقًّا أنت ضد الملكية الجماعية؟ ولماذا، أنت بالذات، ترى أنَّها سابقة لأوانها؟ وكيف تفكِّر، أيُّها الرفيق المنظِّر، في أنَّ الملكية الخاصة أنفع لنا!؟

سألتها:

ـ هل نجلس ونتحدَّث، أم نبقى واقفين، مشحونين بتوتُّر سخيف وغير لائق؟

قالت بنبرة حسم:

ـ بل نبقى واقفين!

أضافت:

ـ بالنسبة إليَّ، أنا غير متوتِّرة، لأنَّه لا سبب لديَّ لمثل هذا التوتُّر.. وقد جئت كي أوصل لك هذه الحقيبة الصغيرة، التي نسيتها في باص الرحلة، ومن حسن الحظ أن اسمك مكتوب عليها، ومن حسن حظي أنَّني وجدت

بابك مفتوحًا، وكنت أنت شارد الذهن، تعدّ القهوة، وقد راقبتك للحظة، ثم خرجت إلى الشرفة، بانتظار عودتك من رحلة ضياعك!

قلت مبتسمًا:

ـ ها قد عدتُ من رحلة ضياعي!

قالت:

ـ عدت من رحلة ضياعك، لتدخل في رحلة صمتك!

ـ في رحلة الصمت، كنا معًا يا ملكتي!

ـ وفيم كنت تفكر، في ضياعك وصمتك؟

ـ فيكِ، وفي الحياة، والحب، والنفس البشريّة، واللباس الموحَّد، والكلام الموحَّد، والفكر الموحَّد أيضًا!

ـ وما هو الحكم الذي توصلت إليه، في كل هذا؟

ـ هكذا؟ بالجملة؟ وبوضع كل الأشياء في كيس واحد؟ حسنًا! ليكن! لنختزل الأسئلة في سؤال، والأجوبة في جواب، ما دمت ترين ذلك ممكنًا!

ـ وكيف تراه أنت؟

ـ غير ممكن! الكلام على الحب، يختلف كثيرًا عن الكلام على اللباس الموحد.. اجلسي يا تشين لاو، ما دمت قد جئت، وليكن، بعد ذلك، ما يكون، فالمغامرة، في العيش، تعطي للعيش نكهة ما، تخرج به عن النمطيَّة، عن الرتابة، وعن الموقف الجمعي، الذي يقتل التمايز، ويحوّل حياة الفرد إلى حياة القطيع، ولو كان ذلك، بالنسبة إلى الصين، مرحليًا، ثم تعود الأمور إلى طبيعتها، لا أدري بعد كم من العقود، وبعودة الأشياء إلى مجراها، تأخذ السلوكية طريقها إلى الفرز، إلى فك الارتباط القطيعي، إلى الفردانية التي لا تتعارض مع الجماعية، حين تكون كل منهما صادرة عن رضى، وعن وعي، وتلقائية، ينتفي منها القسر والإكراه، والامتثال للأوامر الصادرة من أعلى، ومن خارج، دون مشاركة كل منا في اتخاذ قرارها، يستوي في ذلك القرار السياسي والقرار الاجتماعي.. وحتى القرار العاطفي، كما هي الحال بالنسبة إليك الآن! اجلسي يا عزيزتي، استرخي، قولي كل ما تريدين قوله، فهذا أدعى لراحتك وراحتي، أنا الذي كنت مضيّعًا قبل مجيئك، مشتتًا، ساهيًا، حتى بلغ من سدوري مع أفكاري

أنَّني نسيت إغلاق باب البيت ورائي، وكان هذا من حظنا كلينا، فلولا ذلك لما دخلتِ، لأنَّني كنت في الحمام، أنقع أفكاري بالماء الساخن، كما ينقع الشاي الأخضر عندكم.

جلستْ تشين لاو قلقة، مشدودة الأعصاب، حائرة بين عاطفتها وعقلها، راغبةً في أن تقتنع بما قلت، خائفة من هذا الاقتناع، أسيفة لأنَّ الأمور كما وصفتها موجعة، بسبب من أنَّها عاجزة عن دحض ما قلت، فقد كانت، قبل هذا الذي قلت، تعيش كغيرها، وتؤمن بصحة ما هو سائد كغيرها، وتتعصَّب له، مدافعة عنه بعناد، تمارس الضغط على مشاعرها كأنثى، مؤجلة تفحُّص هذه المشاعر الأنثويَّة من يوم إلى يوم، ومن عام إلى عام، حتى صار هذا عادة لديها، وصار هجوع غريزتها، في الحبّ وممارسته، هجوعًا مشبوهًا، لا تنتفي معه الممارسة كلّيًا، إلاَّ أنَّها ممارسة آليّة، دون حب، ودون صدق في هذا الحب، حتى كان اللقاء بيننا، وكان سقوط حجر في الماء، انداحت إثره دوائر متتالية، استدعت أسئلة متتالية، توقفت بعدها تشين لاو عن الكلام، مخلدة إلى سكون راح يتثاءب، ليجعل من جلستنا، في تقابل مقعدينا، جلسة متثائبة، ذات كسل لا ينفع معه اصطناع النشاط، ومن الأفضل، في هذه الحال، أن ينصرف كل من الجالسين، الفاترين إلى غايته.

اقترحت على تشين لاو أن نشرب قليلاً من الماوتاي فوافقت، وقد أثارت موافقتها استغرابي، وحذري، وخشيتي عليها، لأنَّهم، في مكتب الدروجبا، يعرفون أنَّها عندي، ووجودها في بيتي، أنا الأعزب، مثار للريبة، في الليل خصوصًا، فكيف أدرأ الشبهة عنها وعن نفسي؟ وماذا أقول لعبد القادر، إذا ما جاء عمدًا أو مصادفة؟ ولئن كانت تشين لاو قد أخذت بكلامي، وقررت أن تغامر، فما عاقبة هذه المغامرة؟ عليَّ، إذن، أن أتراجع عن اقتراحي، أن ألفتها إلى الخطر، وما ينطوي عليه من ضرر بالغ، يمس سمعتها وسمعتي، وربما تجاوز مس السمعة إلى ما هو أوخم، الطرد من الصين، أو السجن، بذريعة إغواء صينية، واستدراجها إلى بيتي، وتناول الماوتاي معها بقصد إسكارها، ثم اغتصابها! قلت لتشين لاو:

ـ سنشرب القهوة أوّلاً!

سألت:

ـ ولماذا القهوة أولاً؟

ـ لأنها مفيدة في إضفاء جو من الراحة.

ـ القهوة العربية تجلب القلق لا الراحة، وقد جرّبتها مرة فلم أستطع النوم.

أضافت بعد لحظة من التفكير المتأنّي:

ـ هل أنت خائف؟

ـ وأنت، ألست خائفة؟

ـ ولماذا أخاف وأنا في مهمة؟ ثم لماذا أخاف حتى لو لم أكن في مهمة؟ إذا كنت تريدني أن أنصرف فسأنصرف، وعندئذ يتحقق غرضك من تركك الباب مفتوحًا، حتى تتمكّن التي تنتظرها من الدخول وأنت في الحمّام مثلاً!

قلت:

ـ أنا لا أنتظر أحدًا!

قالت:

ـ عدم انتظارك أحدًا صحيح بالنسبة إليّ، وأحسب أنني صنعتُ لك مفاجأة، بزيارتي المفاجئة!

ـ هل أفهم من هذا أن زيارتك غير المتوقعة، كانت لغرض في النفس؟

ـ وهل تشكّ في ذلك؟

ـ كل الشك، لأنّ مثل هذه الزيارة لها تفسيران عندي، أولهما أنّك أردت ضبطي مع امرأة، وثانيهما... لا! لا حاجة لقول ما لا يقال، لأنّني لا أصدق!

قالت مستنفرة:

ـ لا تصدق ماذا؟ أنّني أتجسّس عليك؟ ما كنت لأتوهم، مجرّد وهم، أنّ السخف يبلغ بك هذا المبلغ!

ردّ زبيد بالحدّة ذاتها:

ـ قد أكون سخيفًا يا تشين لاو، لا بسبب «مجرد الوهم» كما تقولين، وإنّما لأنّ كلينا مراقب في الدروجبا وخارجها، وقد أسعدتني زيارتك،

وليس كذلك الطريقة التي تمت بها. وحتى مع التسليم بأنّني نسيت إغلاق الباب، فإنّ المفاجأة هي المفاجأة، وكان ينبغي الإعلان عن مجيئك، فور دخولك وإغلاق الباب وراءك، وبهذا كنت تصنعين لي مسرّة لا حدّ لوقعها في نفسي، إلاّ أن الذي جرى، وفق روايتك، أنّك خرجت إلى الشرفة، وبغتة دخلت الصالون حيث أجلس، فخيّل اليّ أنّك انبثقت من الجدار، من الأرض، من وراء أيّة تحفة في البيت، وزاد في تخيُّلي هذا، انصرافك عني، تأمُّلك الأشياء وأنت تديرين ظهرك إليّ، الكلام معي وأنت على هذا الوضع، دون تحية المساء، دون كلمة تعريف، دون السماح لي برؤية وجهك، فلماذا اللجوء، عمدًا، إلى مثل هذا التصرُّف غير المألوف، في أي بيت، أيّة مدينة، أي بلد؟ ولماذا قلت لي، جوابًا عن سؤالي عن كيفية دخولك: «بماذا يعنيك هذا؟» كيف لا يعنيني هذا؟ كيف تدخلين بيتي خلسة، وتقومين بحركات غير عادية، ثم تريدينني ألا أدهش وألا أستغرب؟ مع هذا كله، تقبّلت زيارتك بما يليق بك، وحاورتك بلطف، واحتملت سخريتك وأنت تصفينني «بالمنظّر»، لمجرد قولي إن الملكية الجماعيّة، اذا لم ترافقها ملكيّة خاصة، تكون سابقة لأوانها في هذه المرحلة من بناء الاشتراكيّة في الصين! هذا، يا عزيزتي، رأيي، ولكل إنسان رأيه، والخلاف في الرأي، من وجهة نظري، ليس عداء، ليس فرية، وليس مدعاة للرفض، وهو، الخلاف في الرأي، لا يستدعي الزعل، أو الحرد، أو ينال من المودّة، ويا ليتنا، في الصين وغيرها، وفي الاتحاد السوفياتي خصوصًا، نقلع عن مصادرة حق الخلاف وحق التحاور حوله، وبحريّة تامّة، حتى لا يكون هناك صوت واحد فقط، وأمر واحد فحسب، ووجهة نظر واحدة، باعتمادها ينتفي الديالكتيك، وتُنتهك إحدى أهم ركائز الفلسفة الماديّة التي نؤمن بها، أنت وأنا والآخرون.

أضفتُ وتشين لاو صامتة، مصغية، مثقلة بهمّ يلوح في قسمات وجهها، وكبت داخلي مؤلم تعاني منه معاناة شديدة:

ـ انت، أيتُّها الصديقة الكريمة، المحترمة، الغالية، على حق في قولك «أنت خائف»! لكنّك لست على مثل هذا الحق في قولك «أنت تتوهّم أنّني أتجسّس عليك!» فالسبب الثاني لزيارتك غير المتوقعة، والذي ترددت في قوله، هو أنّ علاقتنا قد انكشفت، وأنّهم رأونا، في لقائنا الحميمي، الذي

لم يدنس بالممارسة، في «الجبل العطري» وقد جئت لإبلاغي ذلك، وتبلغتُه إدراكًا لا مصارحة، وأنا، صدقيني، آسف لهذا، لكنّني سعيد به، فقد كان لقاء لا ينسى، كان لقاء العمر، فهل أنا على خطأ في استنتاجي؟

نهضت تشين لاو مودّعة وهي تقول:

- استنتاجك في محله تمامًا! لقد رأونا رغم كل الحيطة التي اتخذناها، ونحن تحت المراقبة الشديدة، منذ لقائنا الأول في بحر شنتاو، وقد نعاقب، أو يغضّون النظر عن فعلتنا مؤقّتًا، لكنَّهم لن ينسوها، ومن أجل هذا كله، ورغبة في التحدِّي، ونكاية بالتزمت، ورفضًا لمنطق تحريم الحب بين صينيَّة وأجنبي، ملت إلى المغامرة، وافقت على شرب الماوتاي معك، وكنت عاقلاً في سحب اقتراحك، لأنَّهم، بالنسبة اليَّ، قد يبعدونني، ثانية، إلى الريف، أما بالنسبة إليك فإنَّهم قد يتهمونك باغتصابي، وهي تهمة جاهزة، عقابها السجن الطويل، ولو حدث ذلك لجننت، وربما قتلت نفسي، لأنَّني كنت المبادرة إلى ترتيب اللقاء، اليوم، في «الجبل العطري» إنّه، كما ترى، ذنبي، إلا أنَّ سعادتي بهذا اللقاء تفوق أي ذنب، مهما يكن الإحساس به، أو العقاب المترتب عليه.

قالت ذلك تشين لاو، صافحتني بحرارة، خرجت وهي تتلفت. استبطنت الليل، إلاَّ أنَّ الليل، في الصين، له عيون، ومن المستحيل، إلاَّ نادرًا جدًا، أن تخفى خافية على هذه العيون!

الشيء الوحيد الذي لم تقله تشين لاو، هو أنَّها جاءت، مغامرةً، لوداعي، فقد كانت تعرف، قبل مجيئها، أنَّها عوقبت، وأنَّها أبعدت عن الدروجبا، وعن بكين كلها، ولربما كان النفي مصيرها، أو كان السجن ينتظرها!

- ٣٢ -

لم يكن زبيد يحتاج، لمعرفة ما هناك، أن تتكلم السيدة بورجرون، وقد تدوّش، بعد انصرافها، طلبًا للانتعاش، وصفاء الذهن، والشروع في العمل، بكل ما عرف عنه من جديَّة، ومن قيام بالواجب على أتمّ وجه. كان شعاره: «السرير لا يتعارض مع المكتب!» كل منهما يكمل الآخر، ولكل منهما وقته، الآن انتهى وقت السرير، ليبدأ وقت المكتب، ليشرع بعمل ينتظره، بعد رحلته البحريَّة الماتعة، في «قاووش الموت» الذي كان فيه، وأخفى سره عن الجميع، غير مكترث بمن يصدق، أو بمن يرفض التصديق، طالما أنَّه، هو زبيد، صاحب العلاقة وكلمته هي التي تؤكد أو تنفي ما حدث.

قطع الاتصال الهاتفي، اشتغل بجد، متأنّيًا في إصلاح ترجمة مقالات مجلة «بناء الصين» التي عليه أن يسلمها اليوم، لترسل إلى بكين في قطار الليل، وبذلك يفي بوعده، وتصدر المجلة في وقتها المحدَّد. تناول، بعد ذلك، كتابًا عن تحرير شنغهاي، هذه المدينة البحريَّة الجميلة، التي كانت تحتلها أربع دول، هي فرنسا وبريطانيا واليابان وألمانيا، وقد تقاسمتها دول الاحتلال هذه، ظنًّا منها أنَّها باقية إلى الأبد، فجاءت الثورة الصينيَّة، في اندفاعها الكاسح، وكنّست المحتلّين، وضبطت الكثير من الوثائق، غن خطط الاحتلال الرباعي، وأهدافه وأطماعه ومنازعاته، الداخلية والخارجية، وما كانت كل دولة محتلة، تحاوله من إزاحة الدولة الأخرى، لتحل محلها، وعن تكاتف هذه الدول، ضد نضال الثوريين الصينيين، من عمال وحرفيِّين وصيادين، داخل شانغهاي، والفظائع التي ارتكبها هؤلاء المستعمرون ضد هؤلاء المناضلين، في داخل المدينة، أو ما يحيط بها من الضواحي والقرى.

الكتاب، في رأي زبيد، كان مهمًا جدًا، وكاتبه كان بارعًا في عرض

الصراعات الكلبيّة، بين دول الاحتلال الأربع، وما كانت تؤسس له لترسيخ احتلالها، وما تقترفه من آثام، ومن نهب وسلب وتنافس تجاري، ومن انتهاكات ضد السكان، وتقتيل وتذبيح وتكسير للإضرابات، بواسطة جنودها وعملائها، وقد عزز الكاتب كل هذا بالوثائق والصور، وكان نشر الكتاب حدثًا فجائعيًا بالنسبة إلى دول الاحتلال الرباعي، بسبب ما اقترفت من فظائع تحمل على الرعب، ثم ما في الكتاب من وثائق دامغة حول إعدامات المناضلين الصينيّين الأبطال، بقصد إبادة كلّ من يتحرك، أو تشتبه بأنّه يتحرك، ضدها، وخصوصًا بريطانيا واليابان، ثم مفاداة المناضلين الذين قدموا، بعناد وسخاء، الفوج بعد الفوج من الذين استشهدوا، تحت التعذيب الوحشي، أو على أعواد المشانق، حتى تم التحرير بانتصار الثورة.

غير أن الكتاب، في طبعته الصينيّة، ظل تأثيره محدودًا، وقد أحسنت القيادة، بعد أن استتبت الأمور، وعولجت القضايا حسب أولوياتها، بالالتفات إلى ترجمة أمثال هذا الكتاب إلى اللغات الحيّة، بواسطة الرفاق الأجانب الذين يعملون في دار النشر، وجاء الوقت الذي ينبغي أن يترجم فيه هذا الكتاب، إلى اللغة العربية، بوساطة زبيد، وعن الإنكليزية، وبالسرعة الممكنة، مع الدقّة، والإتقان، هذه الأمور التي كان زبيد يوليها اهتمامه، جديّته، دأبه، سهره، لأنّ الكتاب، في طبعته العربيّة، سيكون مفيدًا جدًا، لشعبه، لأمّته، وللمناضلين العرب بعامة. وعندما كان زبيد، يكلف بأعمال كهذه، كان يستشعر الراحة، لأنّه، حتى في منفاه البعيد، يسهم، إلى حدّ ما، في معركة التحرير العربيّة، التي يثق بانتصارها، وثوقًا كليًّا.

«يخيّل إلى الناس، فكّر زبيد، أنّني ديك في مملكة الدجاج، لا همّ لي، في هذه الغربة، سوى التنقّل من امرأة إلى أخرى، سوى ممارسة الحب، سوى التباهي بالإنفاق والشرب، وكذلك بارتكاب المعاصي من كل الأنواع، بما في ذلك إغواء هذه المرأة أو تلك، وخطف مارلين من خطيبها المزعوم جيفرسون، والتقرُّب من الآنسة إيتوال بروك، والفجور، والبطر، والطيش، بكلمة: الدونجوانية، النرجسية، الثعلبيّة، هذه الصفات المرذولة، المقرونة بأخلاق الغربة، وما فيها من فساد وإفساد، وفي الطليعة التشوُّف، للفت الأنظار إليّ، كفارس من القرون الوسطى، دأبه الخروج من مغامرة للدخول

في مغامرة، ومع النساء خصوصًا، ناسيًا، الأصحّ متناسيًا، البلد الذي جئت منه، والمبدأ الذي أعتنقه، فماذا أقول لهؤلاء؟ لا شيء! نعم! لا شيء! لأنّني غير مجبر على تقديم تقرير عن حياتي الخاصة، لأحد في هذا الكون! إنّهم يرون إلى الجروح التي على جسمي، ولا يرون الجروح التي في روحي، لا يعرفون أنّني شقيّ، معذّب، يتناهشني الألم، بأكثر مما يتناهش جيفرسون، هذا العاشق المتهالك، البائس لأنّه متهالك، الذي يحب دون أمل، لأنّه الأضعف، بينما مارلين هي الأقوى، لأنّها لا تحب، لا تستجيب لجيفرسون وحبّه، تكرهه، وهي في كرهها صادقة، وفق قانون الحياة، الذي جعل من الكراهية الوجه الآخر للحب! مسكين جيفرسون، هذا الفاقد إرادته، غير القادر على استعادتها، المتعامل مع المرأة بمعزل عن تاريخها الاجتماعي، التاريخ التعيس الذي صنعه الرجل للمرأة، منذ انتهاء عهد الأمومة، بعد معركة طويلة، اغتصب فيها الذكر عرش الأنثى، متربعًا عليه إلى أيامنا هذه، وفي يده، بالتناوب، السوط والكأس المرّة، والمرأة مضطرة إلى احتمال الضرب والمرارة، وإلى ممارسة الصبر على الأذى، وما فيه من قمع واضطهاد، لاجئة، برغمها إلى المراوغة، إلى الحيلة، إلى تقمُّص الأفعى ودورها، في الليونة وعطب السم، لأنّها أسلحتها الوحيدة، الخفيّة، المستخدمة بدهاء يفوق دهاء الرجل، هذا الأبله الذي هو قرين جيفرسون وأمثاله، من الذين يستغربون، ويستنكرون أيضًا، ثأر المرأة لنفسها، لضعفها، ولانكسارها، لذلّها، لقدرتها على الانتقام، حين يُتاح لها أن تضع سكّينها في عنق الرجل، وتذبحه تشفّيًا، وبقسوة بالغة!

«جيفرسون غبيّ، نحن الرجال أغبياء جميعًا، وحين نجهل، تاريخ المرأة الاجتماعي، وعندما نحب، أو لا نستطيع أن نحب، وفي هذا، في القدرة على الحب، وعدم القدرة عليه، أتساوى، أنا زبيد، وجيفرسون، فلماذا، إذن، يشفقون على هذا الأخير ولا يشفقون عليّ؟ ولماذا يحسبونني سعيدًا، في التنقُّل، كالعصفور الدوري، من غصن إلى غصن، دون أن أستقرّ على غصن!؟ إنّ شقاء عدم الاستقرار، يفوق، بمرّات عديدة، شقاء الاستقرار، ومع ذلك أريد أن أستقر، أن أحب، وأتزوّج، وأنجب كالآخرين، وهذا كله ليس في وسعي، من غير أن أعرف لماذا هو في غير وسعي، أنا القادر على أشياء كثيرة، الفائز في مجالات عديدة، المجابه للشدائد، المرتفع

عليها، الشجاع في النزال، الجبان أمام فكرة الاستقرار دون حب، والباحث عن هذا الحب لأستقر، دون أن أعرف لذة خفقان القلب، في حبه الذي أعرفه كبيرًا، قدريًا، وأبحث، برغبة، باشتياق، عن هذا القدر، كي ينزل بي ضربته، فأستريح، مرّة وإلى الأبد!

«أمّا ما أعانيه، في سهري، في دأبي، في عملي المتواصل، الذي يستنزف قواي، ويرهق أعصابي، ويجعلني حزينًا حتى الموت، فإن الآخرين، المفترين عليّ، الذين صلبوني على خشبة الدونجوانيّة، فإنّهم يجهلونه، أو يتجاهلونه، عمدًا أو مصادفة، وكذلك يجهلون، أو يتجاهلون، تجرُّح روحي، تشمّع كبدي، تقرّحها، من شدة ما أصابتها سهامهم، وشدّة كتماني لهذه السهام في هذه الكبد التي تئن في الليالي، وتتوجّع، وحيدة، منكفئة، لائذة بالصمت، الذي دونه الشكوى، وما اعتدتها، ولن أتحمّل ذلّها، مهما يكن، مهما يكن!».

اللعنة! قالها زبيد بغير صوت، بعد هذا التفكير الطويل، في حديث مع نفسه، حاوله، حتى الآن، مرات عديدة، ومن جوانب متعدِّدة، لكنّها، كلّها، تنبع من معين واحد، نفسيّ، قلق، وتصبّ في مصب واحد، عكر، لا فائدة منه، أو فيه، إلاّ محاكمة الذات، تجريحها، تعذيبها، كأنّما هذا التعذيب قد أصبح عقدة نفسيّة، اذا أجراها تطهّر، تخفّف مما يعانيه، متعلّمًا، دونما نجاح، نسيان هذا كله، محو هذا كله، من خلال العمل، ثم العمل، ثم العمل، لأنّه وحده يُشعره بالطمأنينة، يقنعه بأنّه يناضل، كرفاقه هناك، في وطنه العربي بخاصة، وفي العالم بعامة، ومن أجل التسريع في الخلاص المرتجى، الخلاص الذي يأتي «خلل قفل ومفتاح» كما قال بوشكين في إحدى رسائله إلى الديسبريين، الذين يموتون في «بيت الموتى»! كما في كتاب دوستويفسكي، الذي عاش في هذا البيت، وعانى فيه ما يعانيه الآخرون، زملاؤه، شركاؤه، أحبّته، مهما تكن الذنوب التي ارتكبوها، أو التُّهم الموجّهة إليهم، بحق أو بغير حق، وغالبًا بغير حق، لأنّهم ضحايا مجتمع قيصري، مجتمع موجود، وسيوجد، في كل البلدان، وكل العصور، إلى أن تنتصر الحرّيّة، وتتحقّق العدالة الاجتماعيّة، في المدى المنظور وغير المنظور في آن واحد!

أعاد وصل الهاتف، وبه شعور أنّه يعيد اتصاله بالحياة من حوله، وفي

هذا الاتصال الذي لا بدَّ منه، ما هو مريح، وما هو مزعج، وكذلك هو العيش، في وجهيه: الحسن والقبيح، إنَّما العيش مطلوب لذاته، لجدارته، لما هو فوق الحسن والقبح: استمراريّة الحياة، والكفاح فيها ولأجلها، وهذا ما هو حاصل، وكلّ ما تبقّى هامشي، لا يستحق أن نشغل أنفسنا به طويلاً، كما يفعل الذين لا أمل لهم ولا عمل، ولأنّ الفراغ ينخر الأحشاء، يسئم القلب، فإنّ أمثال هؤلاء سئمون منخورون من الداخل!

أخرج زبيد أوراقه، فتح الكتاب، ترجم العنوان، ترجم اسم المؤلف، ترجم كل ما في صفحة الغلاف الأولى، قائلاً في نفسه، ومن بين ابتسامته: «لو أحصيت الكلمات التي أقولها بغير صوت، بالنسبة إلى الكلمات التي أقولها بصوت، لكان الفارق كبيرًا ومذهلاً، ولكنت مفكّرًا من الدرجة الأولى، إنَّما بالسفاسف لا بالفلسفة، أو بالقضايا المهمّة، أو الخطيرة، شأني في هذا شأن غيري، ترى يفعل الناس ما أفعله أنا؟ يفكرون في الأشياء أم يمارسونها؟ يتأملون ما حولهم، وما بداخلهم، كما أتأمّل؟ أشكّ! ما أنا فيه نتيجة الوحدة، والناس ليسوا مثلي، وحيدين، متوحِّدين مع ذواتهم، لأنَّ لهم زوجاتهم وأولادهم، وقد يكونون، بخلافي، ضجرين من زوجاتهم وأولادهم، ومن الضجيج الذي يثيرونه، وهم يرغبون في وقت للتأمُّل فلا يجدون، وهكذا ينطبق عليَّ قول الشاعر «أنِّي بما أنا شاكٍ منه محسود!»

ترجم زبيد صفحتين من الكتاب، بحماسة وسعادة، ثم توقف ليردّ على الهاتف، ليسمع صوت عبد القادر وضحكته الأليفة، مكررًا استهلاله الدائم:

ـ كيف حالك يا أستاذ؟

ـ بخير يا عبد القادر! أين أنت؟ أين غبت؟ لماذا لا تحضر إليَّ؟ هل هي التعليمات!!؟

قاطعه عبد القادر ضاحكًا:

ـ ولكن كيف هذا يا أستاذ؟ ماذا تقصد بالتعليمات؟ هذا لا شيء، كنت في بكين، في مهمَّة تتعلق بالعمل، هل لديك أحد؟ هل أستطيع المجيء؟

ـ تعال، وبسرعة!

بعد دقائق كان عبد القادر يقرع الباب، فتح له زبيد مبتسمًا، مرحّبًا، متذكّرًا موقفه معه وهو في «قاووش الموت»، وهربه كيلا يرى عملية الشنق، شاعرًا نحوه بالامتنان، رغم هذا الضعف، أو هذا الخوف الذي انتابه، هو الشاب الصغير الذي لم يسبق له أن رأى عملية وحشية، رهيبة، كهذه، وبعفوية تامة فتح له ذراعيه، فاحتضنه، وقبّله، وقال له:

ـ شكرًا يا عبد القادر، على وفائك وإخلاصك... ماذا لديك من أخبار؟

قال عبد القادر:

ـ الرِّفاق في الجامعة، وفي دار النشر، وفي الدروجبا، حمّلوني تحياتهم إليك، وثناءهم على ما تبذل من جهد، لكنني، هنا، سمعت قصة غريبة عنك، فقد أبلغوني أنَّك كنت في رحلة بحرية!

ـ وأين الغرابة في هذه القصة يا عبد القادر؟ نعم! كنت في رحلة بحرية!

خفق عبد القادر كفيه وقال ضاحكًا:

ـ ولكن كيف هذا يا أستاذ؟ أنت كنت في السجن لا في البحر!

ـ ومن رآني في السجن؟

ـ أنا! ألم نكن هناك معًا؟

ـ أنت كنت تحلم يا عبد القادر، أو أنَّك جننت قليلاً.. أنا كنت في رحلة بحرية! والكل يعرف أنَّني كنت في رحلة بحرية، وقد اصطدت سمكة كبيرة جدًا، أكلتُها مع ضيوفي في المطعم، وإذا كنت لا تصدق فاذهب واسأل مدير المطعم، والسيدين بورجرون، والسيدة نلسون، والآخرين، الذين كانوا معي في البحر، والذين رأوا السمكة الكبيرة على طاولتي.. وكيلا تتعب، اختصر الوقت، اسأل مدير الإدارة في بيتاخو.

انهبل عبد القادر، فكر، لأوَّل مرة، دون أن يضحك، اعترف أنَّه سأل مدير الإدارة، وسأل مدير المطعم وغيرهما، فأكد الجميع أن زبيد كان في رحلة بحريَّة، وأنَّه اصطاد تلك السمكة الكبيرة، وكيلا يشك في عقله، وفي نظره، فرك عينيه وقال:

ـ هناك سر لا أعرفه، لا أفهمه، لا أصدقه، ولا أصدقك أنت أيضًا يا أستاذ!

قال زبيد:

ـ هذا لأنك شاب صغير يا عبد القادر، شاب يحلم وهو نائم، وربما يمشي وهو نائم أيضًا، ألم تسمع بالذين يمشون وهم نائمون؟

ـ سمعت!

ـ اذن أين الغرابة في قصة رحلتي البحريّة!؟ اسمع! خذ هذه الموادّ الخاصة بمجلة «بناء الصين» وأبعث بها في أوّل قطار ليلي إلى بكين، كي يسلموها إلى دار النشر، وإلاّ تأخّر صدور المجلة عن موعدها المحدد.. ما رأيك أن نتعشّى معًا الليلة؟ سأبلغ الرفيق مدير الإدارة، وأدعوه إلى العشاء معنا أيضًا، وأدعو بعض الرفاق في الإدارة، ومدير المستشفى، والرفيقة الصينيّة التي تحبُّها..

فرقع عبد القادر بالضحك وقال:

ـ ولكن كيف هذا؟ أنت تمزحني يا أستاذ! أنا ليس لي حبيبة في بيتاخو، ولا أعرف ماذا أقول بشأن الدعوة إلى العشاء، مدير الإدارة هو الذي يدعو لا أنت! هذه هي العادة عندنا!

ـ وإذا قلت لك إنّني سأخرج على هذه العادة، وأن مدير الإدارة والآخرين سيقبلون الدعوة؟

سأل عبد القادر مبهوتًا:

ـ دون إذن القيادة!؟

ـ بإذن القيادة، في بيتاخو وليس في بكين.

ـ لابدّ من إذن القيادة في بكين!

ـ هل هذه قاعدة؟

ـ نعم!

ـ إذْنٌ من القيادة في بكين، لأجل دعوة للعشاء!؟

ـ نعم!

ـ أنت تخرّف يا عبد القادر!

ـ أنا أقول ما أعرف يا أستاذ!

ـ في هذه الحال نترك لمدير الإدارة أن يتصرّف.. انتظر! سأتصل، أمامك، بمدير الإدارة، وأدعوه للعشاء الليلة، ونرى كيف يتصرّف، وبماذا يجيب!

اتّصل زبيد بمدير الإدارة، دعاه إلى العشاء، قبل هذا الدعوة، سأل عن الوقت، اقترح زبيد أن يكون العشاء في الساعة الثامنة، وافق مدير الإدارة كما وافق أن يكون عبد القادر حاضرًا، ليقوم بالترجمة، وعندئذ تهلل وجه زبيد، فأغلق سماعة الهاتف وقال لعبد القادر:

ـ هل رأيت؟ اذهب بسرعة وابعث بهذه المواد، وسيكون لقاؤنا في المطعم في الساعة الثامنة إلا ربعًا، لأنّ هذا من الأصول، فالمضيف يسبق الضيوف عادة، كي يستقبلهم بنفسه.

أجاب عبد القادر:

ـ فهمت!

وانطلق بسرعة. ظلّ زبيد، بعد ذهابه، يفكّر فيه، يقارن بينه وبين الشبيبة الصينيّة، وكيف يقوم كل شاب، بحماسة واندفاع، بتأدية المهمة التي هو موكل بها، وبالسهر على المصلحة العامة، حتى بغير تكليف من أحد، وبغير إيعاز أو استنفار، وفي السنوات الصعبة، التي واجهت الصين بها الجفاف والكوارث، عدّت هذه الشبيبة نفسها مستنفرة، فقامت بجهد فائق القدرة، للمساعدة في تجاوز المصاعب، وهكذا نجحت الصين في تجاوزها، بشكل أدهش المراقبين، في الدول التي تترصدها، وأميركا خصوصًا! قال زبيد، وهو يرى إلى هذا البلد الذي ينهض من بين الأنقاض: «الصين الشعبيّة هذه، لا تنطبق عليها المقاييس المعتادة.. إنّها بلد العجائب، بلد اختراق المألوف، وحتى بعد فتور الحماسة الملتهبة، والابتعاد في الزمن عن لهب الثورة، وتأثير المسيرة الكبرى، وانتفاضات العمال في المدن، حتى بعد هذا كله، فإن الصين ستتابع نهوضها بشكل محيِّر، مدهش، وعندئذ لن يحصل الذين يتساءلون: كيف؟ وبأية طريقة؟ وبأي تخطيط؟ على أجوبة لأسئلتهم، وستظل الصين، في نموِّها، وفي طاقتها الخارقة على التكيُّف مع المستجدات، مثار انبهار الجميع، الأعداء والأصدقاء، وستنداح دوائر هيبتها المتعاظمة أكثر فأكثر، ويومًا بعد يوم، حتى تبلغ، وتشمل العالم كله!»

في الساعة الثامنة مساءً، جاء الضيوف الصينيُّون إلى المطعم، كان زبيد قد رتّب، بمساعدة من مدير المطعم، مائدة لائقة، إلاّ أنّ الضيوف

المنتظرين لم يأتوا، ولم يحمل عدم مجيئهم زبيد على الاستغراب، فهو يعرف، من الدروجبا، أنك توجه الدعوة إلى قيادة دار النشر، أو قيادة الجامعة، أو أيّة منظمة أخرى، وتقوم قيادة هذه المؤسسات، باختيار الذين يلبُّون دعوتك، وهذا، إذا لم تكن مجربًا، يصيبك بالإحباط، لأنك دعوت فلانًا، فإذا علاّن، الذي قد لا تعرفه، يأتي إليك، ولا بدّ لك، كمضيف، من مجاملته، واصطناع الابتسامة أمامه، وربما كان عليك، أن تضحك لسؤال بليد، أو نكتة بائخة، إذا سعيت إلى تبديد الوجوم الذي يخيِّم على الجو! ولأنّ زبيد يعرف أمثال هذه التصرُّفات، ويستهجنها، ويردُّها إلى الجمود العقائدي الصارم، فإنّه تصرف، مع ضيوفه الذين لا يعرف بعضهم، تصرُّفًا كيّسًا، لبقًا، وكان مدار الحديث، وهذا من حسن الحظ، على الرحلة البحريّة، واصطياد السمكة الكبيرة، كأنّما هذه الرحلة المزعومة قد صارت حقيقة، والسمكة الكبيرة قد اصطيدت فعلاً، وأنّ كل شيء يسير وفق المشتهى! وحتى تبادل أنخاب «الكامبي» من الماوتاي الفاخر، وبالتناوب، مع عبارات المديح، والشكر، وعرفان الجميل، والثناء على المساعدة في بناء الصين، هذه كلها كانت، أو يجب أن تكون، طبيعية، لأنّها جزء من الدّعوة، ملازم للضيافة الناجحة، وقد بلغ زبيد حدّ السكين، فابتسم، وضحك، بل وقهقه وهو يتبادل الأنخاب، حسب الطقوس المعتادة في مثل هذه المناسبات، تبادلاً متكافئًا، وعندما ودع ضيوفه، وسئل عن المناسبة، أجاب:

- هؤلاء الرفاق كانوا معي في الرحلة البحريّة!

ثم خرج من المطعم، حوالى الساعة العاشرة، وسار وحيدًا، في اتّجاه البحر، راغبًا في التنزُّه، والتشرُّد، على هواه، سالكًا طريقًا جانبيًا، يمرّ، ويتعرَّج، بين الأدغال والأشجار، حيث تنفّس زبيد الهواء النقيّ، المنعش، الذي ملأ رئتيه، وكان شميم الصنوبرات، على جانب الدرب، يعطّر أنفه، وحاسة شمّه، وكلما أوغل في سيره إلى أمام، تزداد هذه الحاسة رهافة، وكان خرير البحر يأتيه أوضح فأوضح، كموسيقى فاغنرية، تصخب حينًا، وترقد حينًا، حسب اندفاع الموج على الرمل، أو ارتطامه بالصخور.. وعندما توقّف، بسبب خشخشة مريبة في دغل، لينزاح قليلاً ويبتعد، لاحظ أنّ إنسانًا ما يتبعه! تذكّر، فورًا، هذا الحدث الذي تكرر، والتحذير الذي

سمعه من مدير المطعم، داعيًا إيَّاه إلى الانتباه، وعدم التغلغل، ليلاً، في الغابة الصغيرة المفضية إلى البحر، كما تذكر هاتف السيدة بورجرون، وكلامها على مؤامرة تحاك ضده، مؤامرة لا يمكن الكلام عليها في الهاتف، حتى إذا جاءت إليه، ومارست الحب معه، شغلها الجنس، والرغبة في الاستزادة منه، عن شرح تفصيلات هذه المؤامرة، التي عدّها زبيد نوعًا من ذريعة أوصلتها سريعًا إلى سريره، وضحك، في سره، على هذا النوع من المراوغة الأنثوية.

الآن، وهو في دروب الغابة، وتعرُّجاتها، فطِن إلى أنَّه مستهدف، لكن ممن!؟ من اللُّصوص؟ هذا مستبعد، من جيفرسون؟ هذا في المستشفى ببكين، من المحقق تن بو؟ لا يمكن! اذن هذا وهم، ما لاحظه وهم، وهذه ظاهرة طارئة، ففي عمره كله، وفي تجاربه كلها، لم يكن للوهم، أو التوهُّم، سبيل إلى نفسه، ويحسن به، وهو في نزهته الليلية، المعتادة كثيرًا، الا يبالي، وأن يمضي إلى أمام، أو يكتفي ويعود، لأنَّ عليه أن يعمل بعد... استدار زبيد فجأة، فاذا ما حسبه وهمًا كان حقيقة، هناك إنسان يتبعه، يقترب منه أكثر كي ينقضّ عليه، وقد هرب هذا التابع المجهول، وراح يركض وزبيد وراءه، واذا بأحد الحراس الصينيَّين يبرز من أمام، فيسدّ الطريق، ويقبض عليه.. يقبض على من؟ على لص؟ على قاطع طريق؟ لا! على ألدو، الفاشيّ الإيطالي! ولكن ماذا يريد ألدو هذا؟ وبماذا تفيده شفرة الحلاقة التي يحملها؟ وماذا وجدوا عنده في البيت؟ وكيف انقلب من اشتراكي إلى فاشي؟ وهل الحزب الشيوعي الإيطالي، الذي هو عضو فيه، مخترق أيضًا، كغيره من الأحزاب؟ وبأيّ أسلوب تسلل إلى الصين؟ وما علاقته بنغوين الاويس، النازيَّة الحقود؟ وما علاقة الاثنين: ألدو ونغوين بجيفرسون؟ وهل كان الصينيُّون يراقبون هذا الثلاثي، ويتتبعون تحركاته، ويعرفون اللِّقاءات التي كانت تجري في بيت ألدو؟ ولماذا قبضوا، في الوقت نفسه، على ألدو ونغوين؟ وأين كانت نغوين، عندما كان ألدو يلاحق، أو يقتفي، أثر زبيد؟ وبأيّ شيء كانت شفرة الحلاقة، تنفع ألدو؟ زعم أنَّها كانت معه مصادفة، فهل زعمه كان صحيحًا؟ وماذا وجدوا في بيته، بيت ألدو هذا الذي اتَّخذ منه الثلاثة وكرًا لهم؟ وأي رابط كان بين نازيةٍ وفاشي

وشابٍ ينتمي إلى الجيش السري الإرلندي؟ الإرهاب؟ قرّر المحقِّق الصيني، وفق ما قاله عبد القادر لزبيد، أنَّه الإرهاب! خلية إرهاب، وفي الصين الشعبية؟ وما هي الأهداف التي وضعها هؤلاء الإرهابيون لأنفسهم؟ إثارة القلاقل؟ الإساءة إلى سمعة الصين خارجيًا؟ مجرَّد التحريض؟ نشر الفكر النازي؟ التبشير بعودة الفاشية؟ الارتباط بالمركز النازي في المانيا الاتِّحاديَّة؟ الارتباط بالمركز الفاشي في إيطاليا؟ الاتِّصال بالشبيبة الصينيَّة؟ العلاقة مع تايوان؟ اللِّقاءات في هون كونغ؟ تلقي المال، والنشرات باللُّغة الصينيَّة، من تايوان أم من هون كونغ؟ لماذا الأوراق والأعلام الصغيرة التي تحمل الصليب المعقوف؟ كم عدد أعضاء هذه الخليَّة؟ هل بين أفرادها صينيُّون؟ من هم هؤلاء الشباب الصينيُّون المضلَّلون؟ ما هي الوثائق التي ضبطت في بيت ألدو؟ منذ متى انضمَّ جيفرسون إلى ألدو ونغوين؟ ماذا وجدوا في بيت جيفرسون في بيتاخو؟ ماذا وجدوا في بيوت هذا الثلاثيّ في الدروجبا ببكين؟ هل خططوا لقتل زبيد، أم لقتل أيّ أجنبيّ يعمل في الصين، بغية إثارة الضجة في الصحف المعادية للصين في الغرب؟ وأخيرًا ما هي العلاقة مع أميركا، وعن أي طريق!؟ وهل يمثِّل ألدو ونغوين شباب أوربا؟ قطعًا لا!

استمرَّ التحقيق مع ألدو ونغوين إلى الصباح، كان التحقيق مع جيفرسون، يجري في الوقت نفسه، في المستشفى، أما التحقيق مع الشباب الصينيِّين المتورّطين فلم يعرف عنه شيء، ومع ثبات التُّهمة على ألدو ونغوين، فإن إخلاء سبيلهما تم في الصباح الباكر، وفي قطار الظهر سافرت عائلة ألاويس، وسافر ألدو، بذريعة أن الإجازة قد انتهت، وفي اليوم التالي، قبل الظهر، طار الثلاثة: ألدو ونغوين وجيفرسون، إلى براغ، ومنها إلى حيث شاؤوا، دون ضجة، دون لغط، دون سجن، وبذلك طُوّق الحادث، فلم يدر الأجانب الذين في بيتاخو شيئًا، ولم يرشح إلى مسامعهم أيّ شيء، وعاودت الحياة طبيعتها، والأمور مجراها، واستأنف زبيد عمله، من غير أن يتكلَّم، من غير أن يشير، ولو تلميحًا إلى ما جرى معه، وهذا استحسنه الصينيُّون، كما استحسنوا، قبله، فكرة الرحلة البحريَّة، التي غدت، بعد أيَّام، من المسلَّمات تقريبًا!

اليوميّة الحادية والثلاثون ٦ تموز ١٩٦٢

أحسست، بعد اختفاء تشين لاو، أنّ الحياة في الدروجبا، فقدت الكثير من بهجتها، عاقبوها بقسوة، دونما اعتبار لكل ما قدمته، في أي عمل كلفوها به. أنا، الآخر، عوقبت؛ فرضوا رقابة شديدة عليّ، راحت عيونهم، كلّما رأوني، ترزّ حقدًا مموّهًا بابتسامة مصطنعة، أعرفها جيّدًا، لأنّها، كما يخيّل لي، ابتسامة موحّدة، ترتسم بفعل إرادي، ذي دربة طويلة، أبعد من زمن التحرير، إلاّ أنّها، بعد التحرير، غدت علامة فارقة، كما العصبة البيضاء، التي تكمّ الأنف والفم، في الشتاء خاصة. وقد كان، بعض الخبراء الأجانب، يروون في سهراتهم قصصًا غريبة، غير قابلة للتصديق، غير أنّها، كما يؤكد هؤلاء الرواة، قصص حقيقية، جرت، وتجري، كل يوم، من فرط حماسة الشبيبة الصينيّة، التي ألهبتها الثورة، ولا يزال هذا اللّهيب متّقدًا، منبعثًا من جذوة لا تترمّد، حتى يتم بناء الصين الجديدة، وهذا البناء لا تاريخ محدّدًا لإنجازه، لكونه يطال كل المرافق، تجديدًا وإعادة، وقد عاهدت الشبيبة قائدها، الرفيق ماو، أن تقوم بمهمة التجديد هذا، ولو أفنت في ذلك عمرها كله.

ومن القصص التي كانت تروى، دونما سند من حقيقة، ان طلائع الشبيبة الصينيّة، في اندفاعها الحماسي، كانت تقيم السدود بأيديها، لافتقارها إلى المعدّات، وأن بعض أعضاء هذه الشبيبة، كانوا يثبتون صور الرفيق ماو، على أجسادهم، بالدبابيس، اذا لم يكن هناك صمغ لاصق، وأن فريقًا من الأطبّاء الحديثي التخرُّج، نجح في إجراء عملية القلب المفتوح، بعد قراءة أحد كتب الرئيس ماو، وأن المزارعين، في منطقة كانتون، توصّلوا إلى استنبات قمح يعطي عشرة أضعاف ما يعطيه القمح العادي، وأن القصر الكبير، أو قصر المؤتمرات، في ساحة «تيأنْ مِنْ» تعهد العمال ببنائه كاملاً خلال شهر واحد، وبنوه وكسوه وأثثوه خلال شهر واحد فعلاً، وقد سألت تشين لاو، عن هذه القصص، فقالت «إنّها مبالغات!» وكانت وسائل الإعلام الصينيّة، ومنها القسم العربي في إذاعة بكين، تبث مثل هذه المبالغات، وأكد الرّفاق العرب الذين يعملون في هذا القسم، أنّهم، فعلاً، يترجمون ويذيعون قصصًا وأخبارًا من هذا القبيل، ولم يكن هذا كله في مصلحة الصين، أو في مصلحة إذكاء روح الحماسة،

الموجودة، والملتهبة، أصلاً، إلاَّ أنَّ الجمود العقائديّ، وانعدام الحرّيّات، ومنها، وفي رأسها، حرّيّة النقد، وكذلك التوجيهات الصادرة من القمّة إلى القاعدة، وغباء الإعلام، كل ذلك أسهم في نشر هذه الخزعبلات التشويهيّة، التي أضرَّت بأكثر مما نفعت، بل إنّها أضرت كثيرًا، واستغلها أعداء الاشتراكية، من الصينيين أنفسهم، فألفوا فيها كتبًا، وزايدوا فيها ما استطاعوا، فألّهوا ماو، وكانت هذه المزاعم، وتأليه القادة، وكمّ الأفواه، إرهاصات لثورة ما مدمّرة، لا بدّ أن تقع في المدى غير المنظور بعد[١]!

كانت هذه الأفكار، تراودني في ليالي وحدتي، كانت تتلبّسني في حالة شبه عصابية، وكنت ألجأ إلى الرفيق حسن بيجاري، لأحدِّثه بما أفكر فيه، ناقلاً إليه ما يقوله الخبراء الأجانب، حول مبالغات الإعلام، وكان حسن يعرف، ربما، أكثر مما أعرف، بحكم زواجه من «لي ناي» الصينيّة، إلاّ أنّه صارحني، ونحن في قاعة البليارد نشرب الفودكا، أنَّ زوجته لا ترى رأيه، القريب من رأيي، وهي، كعضو في الشبيبة الصينيّة، تتّقد حماسة، وتؤكّد له أن ما يُنشر من أخبار وقصص صحيح كل الصحة، وكان هو، بخلافي، لا يأبه كثيرًا بما يقوله الآخرون، ولا يأبه حتى بأقوال زوجته، وعلى علاقة طيِّبة بالرفاق الصينيِّين، في قيادة الدروجبا، نافيًا، بقطع، أنّني مراقب، قائلاً لي وهو يضحك:

ـ لماذا أنت مهتم كثيرًا بهذه الأمور يا أخي؟ هل أنت الرفيق تشوته؟ اذا كنت الرفيق تشوته، فتولّ عنه وزارة الدفاع، وحرِّر تايوان من حكم تشيانغ كاي شيك، وعندئذ يقيمون لك تمثالاً في ساحة تيأنْ مِنْ، وأصبح أنا نائبك! ما رأيك في هذا؟

---

١ ـ حدثت هذه الثورة المدمرة، بعد خمس سنوات من كتابة هذه اليومية، وبلغ من عنفها أن القائمين بها، جرجروا، دون رادع، رئيس الجمهورية ليوشاوشي، وغيره من القادة الصينيين، الذين أفنوا حياتهم في النضال حتى تحررت الصين، في شوارع المدن الكبرى، مثل بكين وشانغهاي وكانتون، وحطموا كنوزًا من الآثار الصينية التراثية، بذريعة التخلص من القديم والتمسك بالجديد، وأطلقوا على هذه الثورة، تعسّفًا وتضليلاً، اسم «الثورة الثقافية».

ـ رأيي أنَّك تهتم بالنِّساء أكثر من اهتمامك بالسياسة!

ـ وهذا جيد يا زبيد، افعل، أنت أيضًا، كمثلي، تزوَّج مارلين، وأعشق بورجرون!

ـ وهل تزوجت أنت «لي ناي» لتعشق عليها؟

ـ وماذا أفعل إذن؟ زوجتي في عملها، من الصباح إلى المساء، والبيت غير مراقب كبيتك، والفردوسي كان كمثلي، يحب الجمال، وعندما كنت أعزب، وكان الخبراء السوفيات هنا، كان لي عشر عشيقات، دفعة واحدة! النساء السوفياتيات كالفستق التبريزي، ألا تحبّ الفستق التبريزي؟

ـ أحب الفستق الحلبي يا حسن.. ولكن ما علاقة الفستق بالمرأة؟

ـ المرأة، يا زبيد، فستقة، والفستق أنواع، وعلينا أن نتذوَّق كل الأنواع، هل مارلين حارّة أم باردة؟

ـ وما أدراني؟

ـ كيف ماذا أدراك يا ملعون؟ أمس كانت مارلين عندك ليلاً، وماذا تعمل المرأة عند الرجل في الليل؟ هل كنت تقرأ معها الأنسكلوبيديا بريتانيكا!؟

ـ كنت أقرأ معها المسرحيات الشكسبيرية!

ـ لم أفهم! ما معنى مسرحيات؟

ـ لا ضرورة للفهم يا حسن!! أنا أتحدَّث معك عن الوضع في الصين، وأنت تتحدَّث عن الوضع في تبريز.. ماذا جرى!؟ هل التبريزيات جميلات؟ يقولون إن المرأة التبريزيَّة قويَّة، ملساء، مثل حبة القمح الذهبيَّة، هل هذا صحيح؟

ـ ما معنى حبَّة القمح؟

ـ معناها «البغضا»[(١)]

ـ تقصد ماذا؟ أنَّها قويَّة؟

ـ نعم! قويَّة ولذيذة وأنيقة جدًا جدًا! لكنَّها.. كيف أقول؟

ـ لعنة الله عليك إذن؟ لا تقل شيئًا، وهذا أفضل! متى كنت في تبريز!؟

---

١ ـ البغضا: القمح (والكلمة تركيّة).

ـ عندما كنت أتاجر بالسّجاد التبريزيّ، وأهتم بالفولكلور التبريزيّ، وبالتقاليد الشاهنشاهية!!!

ـ وماذا في ذلك؟ هذا، يا أخي، يعني المحافظة على الموروثات الشعبيّة! أنا أشكرك!

ـ وأنا أقوم بواجبي لا أكثر! خدمة الفولكلور العالمي ضرورية، لأنّه لم يبق في العالم سوى الفولكلور!

ـ هذا صحيح جدًا، وأنا أفهمك جيدًا.. نحن، يا زبيد، فولكلوريون كلنا! فما رأيك أنت، أيُّها الملعون؟

ـ أنا أختنق في البيت يا حسن! أفكر كل الوقت بما يجري، بما أرى، بما أسمع.. بأولاد الكلب الذين ينافقون، ويتملقون الصينيِّين، وبالخلاف السوفياتي الصيني، ونتائجه الرهيبة علينا.. لماذا، هؤلاء المنافقون من الأجانب، يغشُّون الصينيِّين؟ اسمع! كنت في رحلة، العام الماضي، وكانت معنا عجوز أميركيّة، ومعها دفتر سميك، تكتب فيه كل ما تسمع، وهذا طبيعي، لكنَّ غير الطبيعي أن تزعم أنَّها ستؤلف كتابًا عن الصين، وأنَّها تثني على كل ما ترى، وتتأخَّر في أيّ مكان نزوره، وتؤخِّرنا معها، حتى إنَّها، في معمل قديم لصنع المسامير، سألت: كم مسمارًا ينتج المعمل في اليوم الواحد؟ فأعطوها رقمًا، وعندئذ صاحت: VERY NICE، وظلت تردِّد هذه العبارة في كل مكان، حتى أزهقت أرواحنا، وفي طريق العودة إلى بكين، جلستْ قرب نافذة القطار ودفترها على حافة النافذة، وعندئذ انتقمت منها، تعرف كيف؟ أنا أقول لك: كنت قد اشتريت عصا كتذكار، فمددت العصا ونقرت الدفتر الذي طار في الهواء، دون أن يراني أحد، فلمَّا أفاقت العجوز ولم تجد الدفتر، راحت تبحث، تسأل، تطلب إيقاف القطار، إرجاعه إلى الوراء، للبحث عن الدفتر، الذي لا قيمة له، لأنَّه يتحدَّث عن المسامير، وعن الحديد الصدئ، وأنابيب المراحيض، وأشياء أخرى مماثلة، فهل تتصوّر يا حسن إلى أين بلغ النفاق!؟ وإلى أين بلغ التزوير؟ وهناك، في معمل للصناعات الثقيلة، رأيت عددًا من المخارط والمقاطع والمحركات وغيرها، وعلى كل منها كلمة: «صنع في الصين» وكنت قد رأيتها سابقًا، في الجناح الصيني في معرض دمشق الدولي، وعليها العبارة نفسها، مع

إضافة عبارة: «وفق النموذج السوفياتي» التي حذفت بعد الخلاف، ولأنَّني سألت عن سبب الحذف، انبرت تلك العجوز، صاحبة الدفتر إياه، تناقشني بحدّة، وتكذّبني، وحتى تشتمني، حتى أسكتها مدير المصنع، معترفًا بأنَّ الحذف تمَّ، لأنَّه أصبح معروفًا، نافلاً، لا ضرورة له، وكان كلامه مقنعًا.

ضحك حسن لطرافة قصة العجوز، وقال وهو يشرب ما تبقى في كأسه من الفودكا:

ـ أنت يا زبيد، يا أخي، تحمل السلّم بالعرض، وعليك، اذا أردت أن ترتاح، أن تحمله بالطول!

قلت:

ـ فعلاً يا حسن، ولكن في تبريز وليس في بكين!

قال حسن:

ـ اسمع يا أخي، أنا كمثلك يا زبيد، أمزح بشأن حبّة القمح الذهبيَّة في تبريز، فلا تكن متزمتًا، ولا تصدِّق ما قلته لك عن العادات التبريزيَّة.. نحن طيِّبون، مخلصون لزوجاتنا!

ضحكت وقلت:

ـ أنتم التبريزيُّون طيِّبون جدًا، ولكن.. في القطب الشمالي!

قال وهو يصافحني مودعًا:

ـ اللعنة عليك يا أخي.. وعلى القطب الشمالي أيضًا! قلت لك لا تكن شقيًا، ولا تقرأ الأنسكلوبيديا بريتانيكا مع مارلين في الليل..

صحت وراءه:

ـ ماذا أقرأ إذن؟ وماذا أفعل!؟

التفت إلى وراء وقال:

ـ اقرأ رباعيات الخيّام، وافعل مثله، بعد أن تطفئ الكهرباء في غرفة النوم!

ـ وهل كان الخيّام يفعل هذا؟

ضحك حسن وقال:

ـ الخيّام كان رومانتيكيًا كمثلي، يفعل ذلك الشيء في الهواء الطلق.. وفي ضوء القمر!

ـ وفي الشتاء؟

ـ كان يجلس على إصبعه كمثلك.. مع السلامة وإلى اللقاء!

افترقنا، بعد هذه المداعبة السفيهة، والتي أحبّها لأنّها سفيهة، ذهب هو إلى بيته وذهبت أنا إلى «مزرعة دمشق» الواقعة خلف العمارة الكبيرة، في الطرف الغربي من الدروجبا، حيث كنت أسكن أولاً، قبل سفر الخبراء الروس وانتقالي مع كل الخبراء الأجانب إلى المبنى الرئيسي.. هذه المزرعة ورثتها عن رفيق إيراني غادر الصين، تضامنًا مع الاتحاد السوفياتي، واسمه خَزَنْبري، وقد أوفده حزبه إلى إيران، في مهمة سريّة، فقبض عليه وأعدم شنقًا. كانت المزرعة صغيرة، لكنّها مخطّطة بشكل هندسي جيد، فيها أقنية للريّ، وفيها خيمة من البامبو، مسقوفة بالسعف، ترتفع عن الأسقف مقدار متر ونصف، وتصلح لناسك بوذي متعبّد، مثل آتمان الذي اكتسب صفة الخلود، والذي سيبقى خالدًا بعد الموت، يتقمّص في حياة أخرى، جديدة، أو يتحرّر، بصومِه، ونحوله الشديد، من قيود الوجود!

ولأنّني أجهل، في شؤون الزراعة أكثر من بستاني مبتدئ، فقد قرأت كتابًا عن البستنة، وأحضرت من لبنان غرسات الزهور، وبذور البامياء والكوسا والفليفلاء، زرعتها، هي وغيرها، في مساكب، وفرحت عندما نبتت فرحًا غامرًا، إلاّ أنّها لم تثمر، بل ارتفعت، وخاصة الكوسا، كأدغال صغيرة، بسبب من السماد الكيميائي الغزير، أيّ إنّها «جهلت» من «الجهل» الذي هو العشق، ولم أكن أعلم، قبل ذلك، أن النبات يعشق أيضًا، أو يجهل حسب التعبير العامي في سورية ولبنان. أما البقدونس فقد اصفرّ واحترق، وسلمت الزهور، فتبرعمت وتفتّحت، وصار للمزرعة شأن يذكر، وعندئذ وضعت، في مدخلها، لافتة عليها العبارة التالية: «مزرعة دمشق» وإلى جانب هذه اللوحة، المكتوبة بثلاث لغات، هي العربيّة والفرنسيّة والإنكليزيّة، لوحة أخرى، مكتوبة باللّغات الثلاث: الفارسية والفرنسية والإنكليزية، وفيها هذه العبارة الطنانة: «تكريمًا لروح الرفيق خرنْبَري، مؤسس هذه المزرعة».

ولأنّني غرائبيّ الطبع، زادت المزرعة من غرائبيّتي، اشتريت أسلاكًا حديديًّة، سيّجتها بإتقان، عرّشتُ الدالية على الخيمة، تفنّنت في ذلك،

صارت الخيمة أشبه بخميلة، اشتريت سلة كبيرة من قش، حفرت الأرض، أنزلت السلّة في الحفرة، أحضرت أنواعًا من المشروبات، الكونياك الفاخر، النبيذ الأبيض والأحمر خصوصًا، وضعتها في السلّة، طمرت السلة بالتراب، كتبت فوقها، بعدة لغات «خمور معتّقة»! استعنت بخبير ألماني في الكهرباء، قيل إنّه هو الذي هندس التمديدات الكهربائية في قصر الشعب، مدّ لي يد المساعدة، هندس الكهرباء في المزرعة، جعل الأضواء ملوّنة، تشتعل، تنطفئ، آليًا، عثرت على ثلاّجة صغيرة، أخفيتها وراء عريشة من الزهور الحمر، يقال لها في دمشق «المجنونة»! ابتعْت صحونًا وأقداحًا من أصناف مختلفة، لائقة، ابتعْت كذلك مقاعد خشبيّة، مع طاولة خشبيّة أثريّة، رحت، كل يوم، أضيف أثاثًا جديدًا، أدخل تحسينات جديدة، حتى صار لمزرعتي «مزرعة دمشق» شهرة، يتحدّث عنها سكّان الدروجبا، ويستأذنون، وفق مواعيد مسبقة، لزيارتها، فأنظر إلى المستأذن، أو المستأذنة، متفحّصًا، انتقائيًا، ثم أسمح أو لا أسمح، حسب غرائبية طبعي! وكي تكتمل الأمور، فرشت أرض الخيمة بسجادة، ونصّبت السيدة بورجرون ملكة على المزرعة، واخترت مارلين وصيفة لها، وكتبت على لوحة، علقتها في مكان بارز «ممنوع اللمس»!

باختصار صرت بستانيًا صينيًا، صاحب مزرعة دمشقيّة الطراز، ولم أكن فطنًا بما يكفي، كي أحسب حساب الإزعاجات، ومن النساء خاصة، فوقعت في شرّ أعمالي، لأنّ الخيمة، حوالى منتصف الليل من كل يوم، كانت تتحوّل عشّ غرام، وسجادتها الفاخرة سريرًا، وأعمدة هذه الخيمة تكاد تتخلخل من الرهز، وفضاء المزرعة يضج بالضحكات الصغيرة، والتأوّهات الصغيرة، والصرخات الصغيرة أيضًا، في مأمن، كما كان يُظن أو يظن الآخرون، من رقابة الصينيِّين، إلى أن كانت ذات ليلة صيف، وكنت غائبًا عن المزرعة، فاغتنم الفرصة رجل، كان يخون زوجته في خيمتي، لا أدري منذ متى، مع امرأة أخرى، وإذا السماء تمطر، والمطر المفاجئ، في الصيف، يحدث بكثرة، فانتظر العاشقان انقطاع المطر، وعبثًا انتظرا حتّى تبللا، وعندما خرجا من الخيمة، وجدا رفيقًا صينيًا منتصبًا، قدّم لهما شمسية اتّقاء للمطر!

وعندما علمت السيدة بورجرون بالخبر، ثارت لأنّ خيمتها، خيمتنا،

تُنتهك حرمتها من قبل رجل سافل، وهدّدت بفضح الزوجة والعشيقة، قالت وهي تدخّن بعصبيّة:

ـ كيف ترضى بهذا؟

ـ ومن قال لك إنّني راض؟

ـ إذن أبلغ قيادة الدروجبا!

ـ بأنّهم يستخدمون مزرعتي لأعمال مريبة؟

صاحت:

ـ لأعمال معيبة، فاسقة!

قلت لا مباليًا:

ـ أنت مخطئة يا عزيزتي! الأفضل أن نسكت، أن نطوّق الحادثة، وإلاّ أصبحت فضيحة!

أضفت:

ـ لي صديق عزيز، قال لي صراحة: أحب ممارسة ذلك الشيء في الهواء الطلق.. وفي ضوء القمر! وهذا العاشق، الذي خان زوجته في مزرعتي، ربما كان مثل صديقي، يحب أن يفعل ذلك الشيء بين الورود والزهور والخضرة.. وفي الهواء الطلق أيضًا! لكنه، المسكين، نسي شيئًا واحدًا، مهمًا جدًا، وهو أنّ العين الصينيّة ساهرة على سلامتنا، حريصة على راحتنا، حتى ونحن نمارس الحب في الهواء الطلق!

قالت بنبرة غضب:

ـ وماذا بشأني أنا؟ كيف أكون ملكة المزرعة، ويتجرّأ أحد من هؤلاء الأوغاد على تدنيس مملكتي!؟

ـ الحق، يا مليكتي، ليس على هؤلاء الأوغاد!

صاحت من جديد:

ـ على من إذن!؟

قلت ببرودة أعصاب:

ـ الحق على الهواء الطلق!

ـ وضوء القمر!؟

ـ وضوء القمر أيضًا!

ـ ثم ماذا؟

ـ حبّة القمح الذهبيّة التبريزيّة!

ـ ماذا تعني؟

ـ الذي أعنيه لا يمكن شرحه بسرعة.. إنه نكتة!

ـ ولماذا تقوله؟

ـ لزيادة معارفك في ممارسة الغنج من جهة، ونقل معلومة عن الغنج التبريزي اليك من جهة أخرى.. أما الشرح فيمكن الاطّلاع عليه في الانسكلوبيديا بريتانيكا، مادة «غَنَج».

وقفت السيدة بورجرون، كانت ترتجف من الانفعال، قالت:

ـ دع هذه العاهرة التي اسمها مارلين، تبحث عن شرح يفيدها وحدها، وبعد ذلك طبّقه معها!

ـ مارلين لديها صديق جديد اسمه جيفرسون، وصل حديثًا إلى الدروجبا!

ـ عظيم! صار لمارلين هذه صديقان: أنت وجيفرسون!

أضافت:

ـ كيف تقبل هذا على نفسك، اذا كنت شهمًا كما تدّعي؟

قلت باسترخاء:

ـ الذي يدّعي الشهامة قولاً، لا يكون شهمًا فعلاً، وهذه خطيئة لا أرتكبها.. ثم إنّني أرفض مبدأ استملاك المرأة، لمجرد أنّها كانت صديقتي، وهذا القول افتراض، لسبب واحد: مارلين هذه شابة صغيرة، وتفضّل، كما قالت لي، الشباب الصغار مثلها، وهذا جيّد، من وجهة نظري، وقد شجّعتها عليه.. هل هذا جواب كافٍ؟ اجلسي، اذا كان هذا يطيب لك، كي نشرب شيئًا من الكونياك، ونتحدّث في شؤون المزرعة، لأنّ هناك من يطلب شراءها، وسأبيعها بعد حادث الخيمة!

جلست مارغريت، خلعت عنها ما يستر كتفيها، كانت تلبس فستانًا حريريًا معلّقًا بكتفيها بشريط حريري، من القماش نفسه، شريط ناعم،

أنيق، يكشف كل مفاتنها، من الصدر وإلى أعلى، وكانت فيها خصلة ترضيني، هي عدم التكلُّف، عدم التعفُّف، عدم الغنج والتدلُّل، فإذا كانت بها رغبة في شيء، تبدي ذلك صراحة، تعرف ما تريد، وتطلب ما تريد كما الطفل، وقد صارحتني أنَّ الكونياك ليس شرابها المفضل، وأنَّها تشربه لأنَّني أؤثره، وكان هذا لطفًا منها، ومجاملة فيها لباقة السيدة الباريسية، وبعد الكأس الأولى، عادت تسألني:

ـ هل ستبيع المزرعة حقًّا؟

قلت مؤكّدًا:

ـ نعم يا مارغريت.

ـ ولكنَّك لم تشترها حتى تبيعها، الملكية، في بلد اشتراكي كالصين، ملكية جماعيَّة، والبيع مخالف للقانون.

ـ وماذا لو خالفت القانون؟ هناك ملكيَّة خاصة أيضًا.. ثم إن لي دالة على الرِّفاق الصينيِّين.

ـ وهل تجيز لك هذه الدّالة أن تخالف القانون؟

ـ تجيز!

ـ هذا ما يتحدَّث عنه الرِّفاق الأجانب في الدروجبا، منذ أن أنشأت هذه المزرعة.

ـ أنا لم أنشئها، ورثتها عن غيري كما تعلمين، ولن أبيع الأرض طبعًا، وإنَّما الأثاث الموجود عليها.

ـ وذكرياتنا المشتركة فيها؟ يهون عليك أن تنسى هذه الذكريات، أو أن تمحوها؟

ـ لا! الذكريات تحفظ في الصدر، إذا ما كانت حقيقية، وليس في الأماكن التي تذكّر بها.

ـ وماذا ستفعل بثمن الأثاث؟

ـ أشتري به تحفًا، أو أنفق بعضه كما هي عادتي.. وبالمناسبة! إليك هذا المغلف الذي لم أفتحه بعد.. وصلني أمس من دار النشر، ولست بحاجة إلى المبلغ الذي فيه.

ـ وهل أنا بحاجة؟

ـ لا أقول هذا، ولست بالذي يتقصَّد الكرم، أو يتباهى به، افهميني يا مارغريت، اشتري بهذا المبلغ المتواضع تذكارًا ما، من الأشياء التي تخصّ المرأة، كوني طيِّبة كما عرفتك دائمًا، ضعيه في محفظتك، وسنشرب كأسًا أخرى، ثم نذهب إلى العشاء.. مع السيد بورجرون.

قالت مارغريت:

ـ ولماذا لا نذهب قبلاً إلى الخيمة في المزرعة؟

ـ زمن الخيمة انتهى!

ـ بالنسبة إليّ فقط؟

ـ بالنسبة إلى الجميع!

ـ لا! أنا لست غبيَّة، زمن الخيمة لم ينته بالنسبة إلى تلك العاهرة مارلين.

تفرّست فيها، ابتسمت لها، داعبت شعرها وقلت:

ـ ما دمت سأكون معك، فكيف أكون مع مارلين في الوقت نفسه؟

قالت مارغريت:

ـ ستكون مارلين مع عشيقها الجديد جيفرسون.. إنَّني أعي ما أقول!

ـ وماذا نفعل؟ نذهب ونحرس الخيمة؟

قالت بانفعال:

ـ نذهب ونهدمها! نعم! نهدمها فورًا، حتى لا تدنسها تلك الإنكليزية القذرة.

قلت بهدوء:

ـ مارلين ليست قذرة، وجيفرسون ليس عشيقها، وحتى لو كان عشيقها فإن له بيتًا، فما حاجتهما إلى الخيمة؟

ـ الهواء الطلق كما قال صديقك الذي لا أعرف اسمه!

ـ صديقي هذا كان يمزح، فهل تصدقين مزحة كهذه؟

ـ ولماذا لا أصدِّق؟ هل تحسب أنَّك تستغبيني؟ أنا، كما قلت أنت، ملكة المزرعة، فاذا كنت صادقًا، دع الملكة تهدم مملكتها! هدمُها أفضل من

تدنيسها، وبمن؟ بتلك العاهرة التي تبدل عشاقها كما تبدل ثيابها الداخلية!

- مجنونة!

- وأنت أيضًا مجنون، لكن على طريقتك، طريقة إسكات الآخر، أو الأخرى، بالمال، لكنّني أنا..

قاطعتها بغضب، وأنا أمسك بيدها التي امتدّت إلى محفظتها:

- ماذا أنتِ؟ ومتى كانت النقود، في الصين، تنفع لغير شراء التحف؟ أنا شبعت من التحف، بشمت منها، ولا حاجة لي بها، كوني عاقلة إذن، كوني عاقلة! دعي المحفظة، ما فيها لا يستحق الذكر، الأصدقاء يتبادلون الهدايا دائمًا، وسبق، أن تبادلنا الهدايا، أنتِ وأنا، وهذا طبيعيّ جدًّا.. هيًا! سأهدم الخيمة، اذا كان هذا يرضيك، سأهدمها غير آسف عليها. انهضي ولنذهب إلى المزرعة مباشرة، عندئذ، وبعد هدم الخيمة اللعينة، تعرفين أنّك عندي أثمن وأغلى، من كل مزارع الدُّنيا، وكل خِيَم الدنيا.. هيّا.. انهضي!

لم تنهض مارغريت، سكبت كأسًا من الكونياك، شربتها كاملةً، ودفعة واحدة، وبعد إشعال سيكارة، انفجرت باكية، بكت وهي تقول:

- لا! لن نهدم الخيمة، لن نهدم الخيمة، إنّها قطعة منا، نحن الاثنين، فقد بنيناها معًا، وتمتّعنا بها معًا، ويعز عليَّ، على يديّ هاتين، هدم ما بنينا، هدم ما بنيتَ، بمالك وعرقك يا زبيد، يا حبيبي، سامحني إذن، أنت كريم، كما عرفتك دائمًا، وأنت تفعل ما تقول، وقد قلت: «هيّا لنهدم الخيمة!» وأنا متيقنة أنّك تهدمها، لكنّني، أنا، أشفق عليها، أرغب في الاحتفاظ بها ولن تبيع المزرعة، أبدًا لن تبيعها، تعرف لماذا؟ لأنّها «مزرعة دمشق» وسبق أن قلت لي، ذات ليلة مقمرة، ونحن نجلس فيها: «دمشق عيوني» ولا أصدق أنّك تبيع عيونك، أو أن يومًا سيأتي وتُنزع هذه اللوحة من مكانها، فقل للرِّفاق الصينيِّين، اطلب منهم، توسّل إليهم، أن يبقوا هذه اللوحة في مكانها، حتى بعد رحيلك من الصين كلِّها.. عدني بذلك، أرجوك، عدني..

ووعدتها!

لم يكن زبيد سعيدًا أو شقيًا بترحيل الذين رُحّلوا عن الصين. كان، في خلافه مع الآخرين، من أنصار الحوار، إلاّ إذا مال الذين يختلف معهم إلى العنف، كما فعل ألدو بتحريض من نغوين ألاويس، هذه النازيّة الحقود، التي تنطوي، هي وبعض الشبيبة الألمانية، على حقد شديد ضدّ دول المعسكر الاشتراكي، والاتحاد السوفياتي خصوصًا، في رغبة عمياء، جهنّميّة، طائشة، هادفة للثأر، بكل الوسائل الممكنة، لهزيمة ألمانيا الهتلرية في الحرب العالمية الثانية. نغوين نازية، ألدو فاشي، وفي انبعاث النازية والفاشية، في ألمانيا الغربية وإيطاليا، ثمة صلة ما مع انبعاث المكارثيّة في أميركا، وهذه الحلقة الخبيثة إحدى ظاهرات الحرب الباردة، الحرب التي يستعمل فيها الغرب، وفي المقدمة الولايات المتحدة الأميركية، كل الأسلحة القذرة، ومنها إذاعة أوربا الحرة، والبؤر الصغيرة، للفكر النازي والفاشي، التي أخذت تستعلن، بدفع وتمويل من الرأسمالية في بون وروما، مستميلة الشباب المضلل إلى صفوفها، بشكل موازٍ لحركة مكارثي، وقوانينها الرهيبة، في واشنطن!

وكان زبيد، الذي يعرف هذا كله، يحسب أن الأمر يتعلق بأوربا وأميركا وحدهما، وربما نبت، هذا الغرس الشيطاني، في اليابان مستقبلاً، أما أن يصل إلى الصين، أو يجتذب ولو أفرادًا قلائل من الشباب الصيني، فإن هذا مما يدعو إلى العجب الشديد، لذلك كان ماوتسي تونغ على حق، في اهتمامه الاستثنائي، بالشبيبة الصينية، وخشيته عليها! إنّما، في ظروف القمع، وعندما لا يكون هناك مجال للنقد، ولممارسة حق الاشتراك في اتخاذ القرار، عن طريق ضمان الحريّات ووسائل ممارستها، فإنّ المناخ الفكري، الاجتماعي، السياسي، لا يكون صحّيًا، ويصبح من

الصعب معرفة العشبة السامة، واقتلاعها في الوقت المناسب. لقد أطلقت القيادة الصينيَّة شعار «لتتفتح مئة زهرة» في الآداب والفنون كافة، إلاّ أنَّ هذا الشعار بقي على الرفوف العليا، لم ينزل، أو يلامس، سجادة أرض الحياة، والخوف على الشبيبة وحده لا يكفي، كما أن الخوف على الزرع، من العشبة السامة، لا يكفي، إذا لم نجد للأمرين كليهما، العلاج اللازم، وما من علاج سوى حرية الفكر، وحرية الزرع!

قال السيد جاك بورجرون:

ـ هذه المخاوف، رفيق زبيد، مبالغ فيها!

قال زبيد:

ـ المبالغ فيه، رفيق جاك، هو الاطمئنان الزائد، ورؤية الأمور بمنظار حسن، من مرصد الدروجبا فقط!

قالت السيدة بورجرون:

ـ نحن هنا لنتذوق القهوة والكونياك، لا لنصدع رؤوسنا بأمور لا تعنينا.

قال جاك:

ـ زبيد غارق حتى أذنيه في السياسة، وهذا عائد إلى أنَّ الشعب في سورية، مسيَّس كما قال لي ذات مرة. لماذا، يا عزيزي، لا ندع ما يخص الصين للصين ونرتاح؟

قال زبيد:

ـ على طريقة إعطاء ما لقيصر لقيصر، وما للّه للّه؟

قال السيد بورجرون:

ـ تمامًا!

قال زبيد:

ـ إذن في صحتكما، ولنترك، جانبًا، الحديث في السياسة! لنطلّقها، كما ترغبان! ولنتحدَّث عن تبريز!

ضحك الثلاثة، شربوا النخب، قال السيد جاك:

ـ لم نصل بعد، صديقنا زبيد، إلى الطلاق، ولكن لا يجوز أن يكون زواجنا بالسياسة زواجًا كاثوليكيًا!

قالت السيدة بورجرون:

ـ انا من هذا الراي، وفي بيتاخو خصوصًا، حيث جئنا لنستريح ونستمتع، لا لنقيم مناحة، كما اقمتها يا زبيد عند رحيل الخبراء السوفييت، ماذا جرى؟ انت تستمتع بوقتك في غيابنا، اما في حضورنا فإنَّك تبدو مهتمًا بأمور هي من الشؤون الداخلية للصين، الشؤون التي علينا ألا نتدخل فيها!

قال جاك ضاحكًا:

ـ وماذا يفيد تدخُّلنا في هذه الشؤون؟ أنت يا زبيد، لم تستمتع بوقتك في هذا المصيف الجميل، وقد حرمت من السباحة بسبب جروحك، فكيف هي الآن؟

ـ أندملت نهائيًا.

سألت السيدة بورجرون:

ـ وهل نسبح معًا اليوم؟

رد زبيد:

ـ سأفكر في هذا عصرًا.

ضحك جاك وقال:

ـ وهل السباحة تحتاج إلى تفكير كما لو أنَّك تكتب دراسة أدبيّة؟

قال زبيد:

ـ أنا أكتب دراسة فعلاً، ولكن ليس عن الأدب بل عن الكومونات الشعبية!

ـ معها أو ضدها؟

ـ معها وضدها في آن واحد، الرّفاق الصينيّون يحرقون المراحل بتسرُّع سيندمون عليه، إلاّ أنَّهم قادرون على التكيُّف دائمًا، وهذا ما يعجبني فيهم.

هتف جاك:

ـ هذا شيء جديد، الذي أعرفه أن الأمور في الصين لا تعجبك كلّها!

قال زبيد:

ـ لا تعجبني كما تعجبك، وبالجملة، لماذا تنفي المفرّق من هذا الإعجاب؟

ـ لأنّني راض عن الأمور في الصين بالجملة والمفرق معًا!

قال زبيد:

ـ الحقيقة، يا عزيزي جاك، أنّك راضٍ عن حياتك الخاصة في الصين كل الرضى!

صاحت السيدة بورجرون:

ـ ولِمَ لا؟ الحياة في الصين أفضل من الحياة في فرنسا نفسها!

قال جاك وهو ينهض:

ـ لا تجوز هذه المقارنة يا مارغريت، فرنسا تبقى فرنسا.

قالت وهي تنهض أيضًا:

ـ والصين تبقى الصين يا جاك، وصديقنا زبيد يكسب كثيرًا، ويتمتّع بامتيازات لا يتمتّع بها غيره، وفي وسعه أن يعيش منعّمًا الآن، بعد أن رحل جيفرسون إلى بكين أو..

قاطعها زبيد ضاحكًا وساخرًا:

ـ وبقيت مارلين هنا!

أضاف:

ـ نعم يا سيدتي، بعد أن بقيت مارلين هنا، وبعد أن استخدمت نفوذي في ترحيل جيفرسون!

قالت مارغريت:

ـ أنا لم أقصد!

ردّ زبيد:

ـ اقصدي!

قال جاك وهو على العتبة:

ـ نعم! قصدي!

خرجا مودّعين، بلطف زبيد المعتاد، وبغمزة من عين مارغريت، وابتسامة مبتسرة والباب يغلق وراءهما، بعد هذه الزيارة المقصودة، بعفويّة من جاك، وقصديّة من مارغريت، ودهاء من زبيد، لأنّه لم يقل حرفًا

واحدًا ممّا كان يفكّر فيه، حول ترحيل نغوين والدو وجيفرسون، هذا الأخير، المتورط لغير سبب معلوم، إلاّ أن تكون عضويته في الحزب الجمهوري الإيرلندي، ومشاركته في الإرهاب، قد نمّت لديه غريزة الإرهاب، فوجد في انتمائه إلى حلقة نغوين وشركائها بعضًا من تعويض!

«هذه أخلاق الغربة، همس زبيد في سريرته، الأخلاق التي تُنسي الإنسان وطنه، وما بعد الوطن من شيء! السيّدة مارغريت تعيش أميرة، ومن يرضى بالتنازل عن إمارته؟ وأنا أتمتّع بامتيازات، وفي وسعي أن أعيش منعّمًا، وأن أستخدم نفوذي في ترحيل جيفرسون، كي تبقى مارلين لي وحدي، وقد فعلت كل ذلك لأنّني بوجهين، أحدهما عليه صورة خروتشوف، والثاني عليه صورة ماو، وهذا من أخلاق الغربة أيضًا، فبكم من الوجوه يعيش الّذين يتملّقون الصينيّين، ويتنكّرون لمواقف أحزابهم التي بعثت بهم إلى هنا؟ مالرو يقول «من الصعب أن يكون الإنسان إنسانًا، خارج تعميق صلاته بالآخرين» فأيّ آخرين يقصد؟ المناضلين طبعًا، وقد كان في الصين، وفييتنام، وكمبوديا، لكنّه كان في إسبانيا أيضًا، يحارب مع الجمهوريين ضد الفرنكويين الفاشيين، أما السيِّدة بورجرون فإنّها، في الصين، تنعم بالماء الساخن، في «بانيو» بيتها المليء بالتحف، وتفعل ذلك مرتين في اليوم، وبعد ذلك تغسل قدميها بالكولونيا، المجلوبة من هونغ كونغ، وترتدي فساتينها الموصى عليها من باريس، وتجمع ثروة صغيرة، تنمو، وتكبر، مع كل شهر يمر عليها وهي هنا!!! وبينما تكون، صباحًا، على كرسيّ التواليت تتشيّك، يكون الخدم الصينيُّون في غرفة النوم، يغيّرون فرش الأسرة، مرّتين في الأسبوع، ويلّمعون أرضية البيت الخشبية، وكذلك البانيو والمغسلة والتواليت، كل يوم، فاذا ما طرأ أيّ عطل، يكفي أن ترفع سمّاعة الهاتف وتطلب من يصلحه، فيصلح العطل بأسرع ما يمكن، ولهذا، وحرصًا على هذا الفردوس، ترى الصين أفضل من فرنسا، وأنا لا مأخذ لي عليها، ولا يعنيني من هي الأفضل: بكين أم باريس، إلاّ أن السيدة بورجرون تعرف كم أعمل، وبدأب، وكم أسهر حتى الفجر أحيانًا، وتنسى، مع هذا، ان ما أتمتّع به من دخل هو نتيجة الجهد والعرق، ولي مطلق الحق، ومطلق الحرّيّة، أن أنفق ما أكسب بالطريقة التي تروق لي، وأمّا استدراجي، أو استفزازي، للكلام على رحيل جيفرسون،

أو ترحيله، فإنّه باء وسيبوء دائمًا، بالفشل، وستدفع ثمن اتِّهامي، بأنّني فعلت ذلك لأنفرد بمارلين، غاليًا جدًّا!»

ـ أيُّها الكونياك! يا باخوس، إله الخمر! إنّني أبارك خمرك، أبارك كونياكك الذي هو ملك الخمور، كما البحر ملك الماء، وكما الغابة ملكة الخضرة، وأبارك الأرض، التي من ترابها خرجنا، وإلى ترابها نعود، وأبارك الحياة، لا ثلاث مرّات، بل ثلاثين مرّةً!»

كذلك هتف زبيد بغير صوت، ولماذا الصوت، تساءل!؟ ليكن صمت، لتكن سكينة، ليكن هدوء يعمّ العالم، الذي يصرخ من الألم، ولتتنزّل زرقة السماء، حتى تمتزج بزرقة البحر، فنحصل من ذلك على دنيا من الزرقة، كل ما فيها أزرق، من القلب إلى القمر، ومن جسد المرأة إلى جسد الحلم، وليمنحني اللّه القدرة على الحب، لأنّني، دونه، أتعذّب، وفي كل صباح ومساء، تخفق الكرة الملوّنة، الزجاجيّة، تحت الثدي الأيسر، لتشعرني أنّها قدري، فإلى متى يا قدري، أيُّها القدر، الذي وحدك تعطي الأشياء أن تكون، والمسافات أن تقتصر، والمصير أن يتحدّد، والرحلة أن تسوقنا، من أقصى الأرض إلى أقصاها، إلى متى، أيُّها القدر الذي أخطأنا عندما سمّيناك صدفة، وأنت من يجعل الصدفة حقيقة، في حلوها ومرّها، صدقها وباطلها، خيرها وشرِّها، إلى متى، إلى متى، إلى متى!؟

وقال لي قدري:

ـ آمن أن ما كتب على الجبين، قد كتب وانتهى الأمر!

أجبته بعناد وحزم:

ـ أمّا هذا فلا!

ـ تتمرَّد؟

ـ بالتمرُّد يكون الإنسان إنسانًا!

صاح بي:

ـ بقدَره يكون الإنسان أو لا يكون، هذا ناموس الحياة!

قلت لقَدَري:

ـ بكَ يولد المخلوق، وبك يموت، وبك يؤمن، وهذا حسبك! أما ما كتب على الجبين فإنّه خرافة من صنع البشر، وهذه الخرافة ترجمة للمثل

القائل: «القناعة كنز لا يفنى!» فكيف نقنع ونحن نختنق في بركة البؤس ومائها الآسن؟

ـ وإذا كان هذا حظّكم؟

ـ وهذه ترجمة أخرى للخدعة القائلة «مكتوب على الجبين!» يكفي ما تحاورنا اليوم، والآن إلى العمل!

جلست إلى مكتبي، كففت عن الأخذ والردّ مع نفسي، عملتُ فنسيتُ نفسي، العمل وحده يخلص الإنسان من خواطره، من هواجسه، من وساوسه، لأنَّه ينسيه إيّاها، وكم كان الإنسان شقيًا لولا نعمة النسيان!؟ حكمة! غير أنَّ الحكمة كالطيبة، بحاجة إلى من يدفع عنها الأذى، الأذى الأكبر هو التذكُّر، وثمَّة، في هذه الحياة، من يضطرك إلى قطع رحلة النسيان، ويعيدك إلى النقطة التي انطلقت منها: التذكُّر في الواقع، وهذا ما فعلته بي السيدة نلسون، التي أخرجتني من هناءة العمل، إلى شقاء العطالة، وما فيها من ثرثرة، صادرة عني، أو عن الآخر، أو الأخرى!

قالت بعد أن جلست قبالتي، إلى جانب المكتب:

ـ الإجازة تكاد تنتهي، ولم نحسّ كيف انقضت أيَّامها الجميلة الماتعة.

قلت:

ـ أنت على صواب سيدة نلسون، نحن جميعًا نركب سفينة العمر، وهذه تمضي دون أن تتوقَّف، ولا سبيل إلى إيقافها، رغم أنَّنا نتمنَّى ذلك، وأمنيتنا هذه في المستحيلات، فهل من حل لديك لهذه التراجيديا البشرية، تراجيديا أن نأتي دون أن نُستشار، وأن نذهب دون أن نُستشار، كما تقول إحدى رباعيات عمر الخيّام!؟

قالت السيدة نلسون:

ـ الحل هو أن نستمتع، عزيزي زبيد!

ـ إذا استطعنا!

ـ ولماذا لا نستطيع إذا كان كل شيء متوافرًا لنا؟

ـ أنا أتكلَّم على العامّ وليس على الخاص.. تسعون في المئة من البشر محرومون حتى من أبسط مقوِّمات الحياة، فكيف تتوافر لهم وسائل الاستمتاع!؟

ـ نلسون هو من يفكر بهذا وليس أنا!

ـ السيد نلسون رفيق طيِّب، وإنسان رائع.. الحديث معه يشعرني بالسعادة!

ـ والحديث معي، ألا يشعرك بالسعادة؟

ـ نعم! ولكن.. تريدين الصراحة؟ الحديث يطيب معك، حين لا تخوضين في مشاكل الغير.. هل لك بكأس من الكونياك؟

ابتسمت السيدة نلسون، حركت يدها برشاقة وقالت:

ـ كنت سأطلبها بنفسي، لأنَّك تأخَّرت فيها! قلت في سري: «هل يعقل ألا يقدم لي عزيزي زبيد كأسًا من الكونياك، هو الرائد في هذا المجال؟ هذا لا يصدَّق! أنت نشرب الكونياك في الفصول الأربعة، بينما يشربه غيرك في الشتاء فقط! اذن أنت ملك الكونياك يا عزيزي، فاسقني منه، صالحني، قل لي كلمات بكرًا، وبهذا ينتفي إحساسي بالخيبة معك.

قدم لها زبيد ما طلبت، سأل ربه ألا تعود إلى حديث الحب معه، قال لها:

ـ ما هي الكلمات البكر، في قاموسك اللغوي؟

شربت نخبه وهي تبتسم، تأملته بنظرات ملتمعة، فيها قدر من المراودة، قالت:

ـ الكلمات البكر هي التي لم تدخل قواميس اللغات بعد!

ـ ومن أين آتيك بها؟

ـ هذه ليست مشكلتي! فكِّرْ تجد، الجم نفاد صبرك، عيب بعض الناس، والمثقفين خصوصًا، أنَّهم متسرِّعون، مستعجلون، يقطفون الثمرة قبل أوانها، لا ينتظرون الخوخة حتى تنضج، حتى تصفرّ، حتى يشفَّ غلافها الرقيق عما في داخله. اعترف! أنت لست من هذا الصنف، أنت تعرف كيف تنتظر، كيف تنقضُّ ومتى، لكنَّك تسطو على ملك غيرك، وهذا لا يجوز، عزيزي زبيد!

قال زبيد:

ـ أنا مثلك سيدة نلسون، أبحث عن الكلمات بحكم عملي كمترجم، أو مصلح ترجمات كما تعلمين! الكلمات البكر نعم، لكنَّها مشكلة. لا، سأبحث

وسأجد، ثقي من ذلك، إنَّما هذه ليست مهمتي وحدي، وبدّقة الكلمة أقول: إنَّها مهمة الكتّاب! المجامع اللغويَّة، في أكثر البلدان، مصابة بالعقم، وفي بلداننا العربيَّة خصوصًا. الشاعر بوشكين كان شاعرًا عظيمًا، كان ثروة قوميّة بإجماع، وكان، بما أدخل من كلمات إلى اللغة الروسية، وبما أحيا من كلمات روسية بحكم الميتة، لغويًا بأعظم مما كان شاعرًا، على الناطقين الروسي والعالمي، لكنَّك، سيدتي، جئت إليَّ لا لتقولي هذا، وهو معروف، بل لاتِّهامي بأنَّني أسطو على ملك غيري، فمن هو هذا الغير!؟ إنَّه جيفرسون، أليس كذلك؟ وأنا أسألك: هل تعرفين من هو جيفرسون حقيقة؟ وماذا فعل جيفرسون هذا؟ وأيّ إثم اقترف بحق الصين؟ وهل أنت شريكة في إثمه؟ ومتى كانت مارلين ملكه؟ وكيف سطوت على هذه الملكيَّة المزعومة!؟

قالت السيدة نلسون:

- اوه! عزيزي زبيد، لماذا هذا الغضب كله؟ ولماذا تريد إخافتي؟ جيفرسون يستحقّ صداقتك، هذا المسكين الذي دمّره الحب!

رد زبيد:

- هل أنت جادة في ما تقولين؟ إذا كنتِ جادة فاسمعي ما أقوله لك: جيفرسون هذا لا يستحق صداقتي، وقد جاملتك في أمره مرارًا، كان آخرها عندما طلبت مني أن نذهب إليه، أنت وأنا، في بيته، وكان الحريق المعروف، وكان اتِّهامه الكاذب، النذل، بأنَّني من أحرق فراشه، بقصد إحراقه هو، وجاءت شهادتك الموضوعية، الصادقة، في محلها، وقد شكرتك عليها، وأكرر الآن شكري، لكنَّك، في المطعم، كنت استفزازية ونحن نتناول السمكة التي اصطدتها في رحلتي البحرية..

قاطعته السيدة نلسون:

- إنَّني أشكّ في هذه الرحلة البحرية!

أجابها:

- شكك لا يقدم ولا يؤخر! لقد احترمتك كفنانة كبيرة، وجاملتك، وصبرت على بعض نزواتك، فماذا كانت النتيجة؟ محاولة إحراجي، باقتراحك أن نشرب نخب جيفرسون ومارلين، أمام ضيوفي!

ـ قل أمام عشيقتك!

ـ أمام عشيقتي إذا كان هذا يرضيك!

ـ لا يرضيني ولا يزعجني، أنت حر في علاقاتك، وكذلك تصرفاتك، الشخصية!

ـ إذن لماذا الاستفزاز؟ هل أنت عشيقة جيفرسون؟ لقد فات أوان العشق بالنسبة إليك، ومنذ زمن بعيد!

قالت وشفتها السفلى ترتجف:

ـ أعرف! أعرف زبيد، عزيزي، لا تكن قاسيًا عليَّ إلى هذا الحدّ، أنت تدمّرني كامرأة! كفنانة، لماذا تنسى أنَّني فنانة؟

رقّ قلب زبيد، ندم على كلامه الجارح، نسي الحقيقة الأولى والأخيرة، بالنسبة إلى هذه السيدة التي تعيش حاضرها بالاتِّكاء على ماضيها كفنانة! زبيد أخطأ، فاته أن الفنان لا تنطبق عليه أحكام المجتمع الوضعية، الأحكام التي تسلبه تميزه، تفقده فرادته، تقضي على وهمه بأنَّه غير الآخر، العادي، تنكر عليه حقه في أن يخرج على المألوف، وماذا يبقى للفنان إذا أصبح، مهما يتقدَّم في العمر، داخل دائرة المألوف؟ ماذا إذا انتفى قلقه، كانتفاء وهمه؟ الفنّان يلعب مع نفسه لعبة الخداع، يتواطأ معها على نسيان الحقيقة، فإذا جاء من يذكّره بهذه الحقيقة، وإذا صدّق، ووعى هذه الحقيقة، فإنَّه يتهدَّم، يفقد توازنه، يحسّ بأنَّ الأرض غارت تحت قدميه، وبأنَّه لا شيء، لا شيء باطلاق، وعندئذ يبقى عزاؤه في الموت وحده!

ندم زبيد، حاول تدارك الموقف، فكّر في تحوير ما قال، فطن إلى عبث محاولة كهذه، كل تحوير في الكلام يعيد إنتاجه، الأفضل أن يصمت، أن يدخل في ثوب الصمت، أن يدع غيمته حيث هي، معلقة بين السقف والأرض، ألا يقول شيئًا للعزاء، السيدة نلسون لا تحتاج إلى عزائه، إلى إشفاقه، إلى تحنانه، فقد احترقت، ترمَّدت، بكت، ثم نهضت، ومن غير كلام، انسحبت، فتحت الباب وخرجت، دون تحية وداع، الميت لا يودّع، والأحسن له ألاّ يُودّع، أن يترك وشأنه، وقد ترك زبيد السيدة نلسون وشأنها، اكتفى بالنظر إليها من وراء ستارة النافذة، كانت بائسة، يائسة، متهدِّمة، كانت جثة، تتحرَّك ببطء، تمشي بونًى، قدماها تبحثان عن الطريق،

تهتديان، بحكم العادة، إلى الطريق، وعندما غيبها الطريق، بكى زبيد أسفًا لأنَّه أجهز عليها، الكلمة ليست خنجرًا، لكن من ينفي أن الخنجر كلمة أحيانًا؟ كلمات زبيد كانت رصاصات. زبيد قتل السيدة نلسون بكلماته الرصاصية، قال لها: «لقد فات أوان العشق بالنسبة إليك، ومنذ زمن بعيد» فات؟ مات؟ لم يعد هناك عشق أو من يعشق؟ وهي؟ هل كانت تعشق أم تعيش على وهم العشق؟ ولماذا وهمها العشقيّ، كان يمدّها بالعزم؟ كان يمنحها الفرحة، الابتسامة، القدرة على الغناء، وعلى تحريك يدها برشاقة أوبرالية؟ غيرها، لو سمع ما سمعتْ، ما كان ليبالي هذه المبالاة، وغيرها، لو سمعَتْ ما سمعْته هي، لضحكت للنكتة، لكن هذا الغير ليس فنانًا، ليس حساسًا، لا يحيا على خُلُبِيّة الظن بأنَّه لا يزال كما كان: ذلك الفنان، أو تلك الفنانة، والشباب، والشهرة والتصفيق، والرسائل، والإعجاب، ورنين الهاتف، وكلمات المديح، وتنهّدات العشاق، وملاحقات المعجبين، والصبا الريّان، والعطور الفاخرة، والملابس الأنيقة، وباقات الزهور، وبطاقات مرسليها، والذهب والماس، والمجوهرات، والأحجار الكريمة، كل هذه الأشياء ضاعت؟ كل هذا المجد خبا؟ كل تلك الفتنة تلاشت؟ لا! الفنان لا يصدق أنه انتهى، الفنانة لا تستسلم لواقعية الراهن، السيدة نلسون تأمل، حتى وهي في الصين، أن تعود تلك الأيام الخوالي، أن تُبنى دار للأوبرا الحديثة، أن تُدعى، بكل الحفاوة اللائقة، كي تؤدّي، من جديد، أدوارها القديمة، أن تنال الإعجاب، تسمع التصفيق، تتناثر الزهور على الخشبة، تتساقط الورود على هامتها، على قدميها، أن تجد المتيّمين بها في الكواليس، ينتظرون إطلالتها، ينحنون لها، يقبلون يدها، يقدمون لها بطاقاتهم الشخصيَّة، يرجون نظرة عطف، يلتمسون موعدًا ما، في يوم ما، وهي تبتسم، تجامل، تنسحب، تغيب، تزيل المكياج في غرفتها الخاصة، ترتدي ثوبها المفضّل، تتدثّر بالفرو، تخرج من الباب الخلفيّ للأوبرا، تركب عربتها التي تجرها الخيول المطهمة، الأصيلة، تصل بيتها وقد سبقتها إليه أكاليل الغار، تتويجًا للملكة المتربعة على عرش الفن!

من يزعم أن هذا لن يحدث؟ من يدّعي أنَّه لن يعود؟ من يسرق الحلم، من يقتل الأمل؟ من يتجرأ على القول: «لقد فات أوان العشق بالنسبة إليك، ومنذ زمن بعيد»؟ زبيد فعلها، قالها، قطع الشريان الأبهر في صدرها،

ردها إلى الواقع، إلى الحقيقة، أسلمها إلى خواء الحياة، إلى صقيع الشيخوخة، إلى اليأس الذي وضعها على حافة العدم، جرّدها من سلاحها الوحيد: الوهم!

«لماذا يا زبيد، يا عزيزي زبيد، وجهت إليّ طعنتك الغادرة!؟ جيفرسون أفضل منك، له قلب يخفق، له عضلة تضخ دمًا، عاطفة تتّقد حبًا، له صدقه في عشقه، له وفاؤه في هذا العشق، ومن أجله كاد يضحّي بحياته، بينما أنت، يا زبيد، تحمل، في صدرك، كرة زجاجية، كرة بكماء، كرة صماء، لا تضخ دمًا، لا تشعل عاطفة، لا تبعث حرارة، لا تنير جوارح، لا تعرف الحب، لا تسعد بالحب، لا تبتهج به، لا تفي له، لا تضحّي بشيء من أجله، شيء صغير: اسمه الإخلاص! أنت شقي يا زبيد، شقي أكثر من الشقاء نفسه، ولهذا تكره جيفرسون، وما تفعله لأجله، ليس إلاّ ستارة تخفي هذا الكره!»

السيدة نلسون لم تقل هذا الكلام، فمها لم ينطق به، عيناها قالتاه، نظراتها رزّته، قسمات وجهها نطقته، معاناتها كتبته، وعندما أدارت ظهرها الذي احدودب، ومشت وئيدة الخطى، مترنحة القوى، متهدمة الجسم، قرأ زبيد، على ذلك الظهر، كل ما انكتب عليه، بعد أن نفذ سهمه إلى كبدها، وكتمته في كبدها، وخرجت من بيته، دون عودة إليه.

في اليوم التالي، غادر السيد نلسون وزوجته، مصيف بيتاخو، وفي بكين لزمت السيدة نلسون بيتها، فرضت على نفسها الإقامة الجبرية في بيتها، راحت تذبل، وظلت تذبل، والغضون، في وجهها وصدرها، تتكاثر، تتعمّق، ووطأة الكهولة تشتدّ، إلى أن أوهنها الضعف، ولم يجد معها دواء الأطباء، ولا نفعت نصائح الزوج، فانطرحت في فراشها، رافضة أن يزورها أحد، حتى أقرب المقربين إليها. زبيد فكر أن يزورها، وجبن لمجرد التفكير في زيارتها، خاف أن يراها، أن تلتقي نظراته بنظراتها، أن يخاطبها فتصرخ في وجهه: «أيُّها القاتل!» وكان، في سريرته، يعترف أنّه القاتل، انما بغير قصد، فلم يكن زبيد فنّانًا، ولا مر بتجربة الفنان، ولا استشعر يومًا شعوره، أو أدرك شفافيته، أو قدّر حساسيته، وخصوصًا عندما يتقدّم به العمر، ويعيش على وهم: أنّه الفنان الذي كانه، ذات يوم، ولم يستطع، بعد ذلك، أن يصدِّق أنّ هذا اليوم قد مضى وانقضى.

بعد أشهر ماتت السيدة نلسون، شيّعها كل من كان في الدروجبا، وزبيد بينهم، وبكى عليها زوجها، وبكى محبوها، وبكاها زبيد كالآخرين، لكن بغير دموع تبدو في المآقي، أو تسيل على الوجنات، فقد غار دمعه، سال في داخله، في أحشائه، في ضميره المعذّب، وروحه المجرّحة! وكان هذا آخر العهد بإنسانة، بفنانة، فهمته أكثر من كل الآخرين، وأحبته بأصدق مما أحبّه كل الآخرين!

اليوميّة الثانية والثلاثون ١٠ آب ١٩٦٢

لم أبع المزرعة، كانت، كما قالت السيدة بورجرون، «مزرعة دمشق» ودمشق، كما قلتُ لها ذات ليلة مقمرة، عيوني، فمن يصدق، يا زبيد «أنّك تبيع عيونك»؟ نعم! من يصدِّق أنّني أبيع عيوني!؟ أضافت السيدة بورجرون: «قل للرفاق الصينيِّين، اطلب منهم، توسّل إليهم، أن يبقوا لوحة «مزرعة دمشق» مكانها، حتى بعد رحيلك من الصين كلّها.. عدني بذلك» ووعدتها، ووفيت بوعدي، غير أنّني كابدت كثيرًا في هجرانها، مثلما كابدت كثيرًا في فراق السيدة نلسون، فقد كانتا، المزرعة وهذه السيدة الفنانة، جزءًا من حياتي في الدروجبا، جزءًا عزيزًا، فائق الأهمّيّة، فائق الأثر في نفسي، وقد طلبتُ السلوان في الخمر، وطلبته في المرأة، وطلبته، دون جدوى، في العمل، وكي أتعزّى، اكثرت من الخروج، في زياراتي للصديقين حسن وفهمي، وفي استقبال الطلاب العرب الذي يدرسون في جامعة بكين، وفي المشاركة بالرحلات إلى «الجبل العطري» وإلى «سور الصين» العظيم، والمعابد البوذيّة، والأمكنة الأثريّة، وكذلك في الإقبال على المطالعة، وعلى البحث، في أحياء بكين القديمة، عن التحف الصينية، التي أصبحت على إلمام كاف بها، من ناحية القدم، والتاريخ، وأماكن الصنع، والأسر التي تحدرت منها، أو كانت في ملكيتها.

كنت أخرج صباحًا باكرًا من بيتي، لأقوم بنزهة هي ذاتها، كل صباح ومساء، وهذه النزهة هي الدوران حول الدروجبا، في الدرب الذي هو محيطها، وبعده العودة إلى نقطة البدء، لأنّه من غير المسموح، ومن غير الممكن، تجاوز الشريط الحديدي الشائك الذي يلتف حول هذه المدينة

الصغيرة: مدينة الخبراء الأجانب، الذين يعملون في الصين، ويسكنون جميعًا ههنا! ولشدّ ما بحثت عيني، في محيط الدروجبا وداخلها، عن أثر لتشين لاو، التي تبخّرت كالضباب، ولكم توقعت، وأنا في البيت، أن يرنّ الهاتف، وأن تكون المتكلمة تشين لاو، أو يطرق الباب، فتكون هي عليه، أو أفتح هذا الباب فأجد رسالة ما، كلمة ما، منها، أو يتحدّث عبد القادر عنها، أو يأتي حسن بأي نبأ عن مصيرها، وفي ليالي الوحدة، والشوق، والمسكن الفارغ، كانت ذكرى تشين لاو تعتادني، فأنهض لأدور في فراغ الصالون والغرف، ثم أجلس، ثم أنهض، وأمل انبثاقها، من مكان ما، في الداخل أو الخارج، يتدرج نزولاً نحو الخيبة، نحو اليأس الكامل، الذي أصبح مع الأيام يقينًا، بأنّ تشين لاو غابت مرة وإلى الأبد!

موظفة العلاقات العامة، التي جاءت بعد تشين لاو، أو حلّت محلها، كانت تدعى توبو، وقد زارتني، في بعض المهمّات، مرات كثيرة، وسرني أنّها تجيد الإنكليزية، إلاّ أنّها، المسكينة، اصطدمت دائمًا بشرودي، بالجفاء القسري الذي ما كنت أريده، بالإصغاء الأصمّ الذي يعذبها ويعذبني، بفقدان الحوار الضروري لمعرفة رأيي في المسألة التي تعرضها عليّ، وأحسب أنّها شكت من حالي هذا إلى قيادة الدروجبا، فكان الجواب، كما يخيل اليّ، الابتسام الاستغبائي، لأنّهم أبلغوها سلفًا بغرابة أطواري، وطلبوا منها أن تدعني وشأني، أن تقول لي ما تريد قوله وتنصرف، سواء فهمتُ ما قالته أم لم أفهم، عملت بما تدعوني للقيام به أم لم أعمل، إلى أن عرضت عليّ، ذات يوم، أن أشترك في رحلة إلى سور الصين، فأجبتها، باقتضاب:

ـ أعرفه!

ـ وماذا تعرف عنه؟

ـ كل شيء!

ـ مثلاً؟

ـ وهل هذا امتحان؟

تلعثمت توبو، أطرقت وأوراقها على ركبتيها، أدركت، من نبرتي، أن جفائي معها هو نفسه، استشعرت نوعًا من إهانة، عذرتني على جفائي، غفرت لي إهانتي، إلاّ أنّ جوابي القاسي، الذي يفتقر إلى الحس السليم،

سد عليها منفذ الحوار الذي رغبت في إدارته معي، فلما لحظت ارتباكها ندمتُ على ضيق خلقي، على سوء تصرُّفي، فقلت مبتسمًا:

ـ ما رأيك بفنجان من الشاي الأخضر تونجي بو؟

نظرت إليَّ باستغراب وقالت:

ـ لا بأس تونجي زبيد، اذا كان ذلك لا يضايقك، أو لا يأخذ من وقتك أكثر مما يجب!

ضحكتُ وقلت:

ـ وقتي!؟ المهم هو وقتك أنتِ!

ـ أنا في مهمة لديك، إذن وقتي غير ضائع، وفيه متَّسع لذلك.

شربنا الشاي الأخضر، شفني نوع من سرور، زال حرج توبو، أحسّت بتبدُّلي المفاجئ، سألتني على استحياء:

ـ لماذا أنت حزين؟

هتفت:

ـ أنا!؟ ولكن هذا طبعي! إنّه هو هو منذ وصولي إلى الصين، والرِّفاق، في قيادة الدروجبا يعرفون ذلك، والأمر ليس بيدي، صدقيني!

قالت توبو:

ـ الرِّفاق في قيادة الدروجبا يعرفون طبعك هذا، لكنَّهم يعرفون، أيضًا، دأبك في العمل، وحجم المساعدة التي تقدمها لبناء الصين. من أجل هذا، وبسبب تنبيهات من الجامعة ودار النشر، يتساهلون معك في أمور كثيرة، وأنا أفعل الشيء نفسه.. لنعد إلى موضوع الرحلة، هل تعرف السور العظيم حقيقة؟

ضحكتُ وقلت:

ـ أعرفه مجازًا!

فطنت إلى التورية فقالت:

ـ آسفة، قصدت تعرف السور كله! إنَّه طويل جدًا! طوله يقارب السبعة آلاف كيلومتر، وهو يمتدّ فوق سلسلة جبليَّة وعرة جدًا، ترتفع وتنخفض، ويحتاج من يريد أن يقطعه كله إلى ثمانية أو عشرة شهور، حسب سرعة السير أو بطئه، لذلك..

قاطعتها:

ـ أنصحك بالإقلاع عن هذه المغامرة اللعينة!

ضحكت بو وقالت:

ـ أبدًا! أنا لم أقل هذا، العكس هو الصحيح... مهمّتي إقناعك بهذه المغامرة التي تستحق تعبها.. رؤية السور، إحدى عجائب الدنيا، ليس بالمغامرة اللعينة، صدقني!

ـ وإذا كنت قد قمت بهذه المغامرة مرتين؟ ورأيت السور من أعلى نقطة فيه، ولدي كتاب عنه أقوم بترجمته الآن؟

ـ خن خاو (جيّد جدًا) تونجي زبيد، لكنّني أرغب في أن تشارك معنا في الرحلة، وهكذا نتعارف أكثر!

ـ وإذا كنا قد تعارفنا وانتهى الأمر؟

ـ نتعارف من جديد!

ـ وماذا في هذا الجديد؟

ـ مفاجأة!

وقفت لأودّع توبو وأنا أقول:

ـ ليس من مفاجآت في الصين.. الأيام متشابهة، والرتابة ذاتها!

سألت وهي تهم بالانصراف:

ـ هل أنت واثق بما تقول؟ ما أظن! تذكّر شنتاو والجبل العطري.. سايجين (إلى اللقاء).

ـ سايجين!

أضفت:

ـ تونجي بو! سأغامر، مرّة أخرى، سجّلي اسمي!

ـ واسم مَنْ أيضًا؟

ـ اسم مَنْ يريد!

قالت وهي على الباب:

ـ وأنتَ!؟ ألا تريد أحدًا بعينه؟ مارلين مثلاً؟ أو السيدة بورجرون؟ أو..

ضحكنا! تصافحنا! توادعنا بمودّة! انصرفت توبو، أغلقت الباب،

تســاءلت: «او..؟» من تكون «أو» هذه؟ ولماذا أمــسكت بو عن الكلام؟ هل كانت تقصد؟ ربما! هؤلاء الصينيُّون رمزيُّون بطبعهم، دلالة الرمز عندهم علامة استفهام! علامة ترتسم في فضاء الكون، ولولا المبالغة لقلت: «إنَّهم يعرفون الكون، لكنَّهم يغلِّفون هذه المعرفة السرِّيَّة بأوراق البردي!»

بعد عودتي من الجامعة، اتَّجهت مباشرة إلى المزرعة. أخرجت زجاجة من النبيذ، ابتسمت وأنا أنظر إلى حفرة «المشروبات المعتقة»، جلست على مقعد قريب، أنشأت أشرب متذوِّقًا الخمرة بغير قليل من التأني، كأنَّما خدعتي قد جازت عليَّ، وأنَّ هذا النبيذ معتَّق حقًّا! تذكَّرت قصة جحا الذي قال للصبيان: «في ذلك البيت تُوزع الحلوى!» ركض الصبيان في اتجاه البيت وجحا ينظر إليهم ضاحكًا، فلما غابوا عن نظره، قام وركض مثلهم، قائلاً في نفسه «قد يكون صاحب هذا البيت يوزع الحلوى فعلاً!» أنا أيضًا، في الخدمة التي صنعتها لغيري، خُدعت بدوري، صار النبيذ معتَّقًا بالوهم، وصرت ضحيَّة وهمي، أشرب جالسًا، واقفًا، متلفتًا، متأمِّلاً، أنظر إلى ما حولي نظرة غريب، يرى الأشياء مندهشًا، كأنَّما لا عهد له بها من قبل، مع أنَّها كانت مألوفة لديه، فهنا كانت تجلس السيدة نلسون، تشرب وهي تقول: «أوه! زبيد، عزيزي، ما أطيب مذاق هذا الخمر المعتَّق!» وهناك كانت تقف تشين لاو، متستِّرة بالظلمة وهنالك، في الخيمة، كانت السيدة بورجرون تجلس على العرش، باعتبارها ملكة المزرعة، وعلى مقعد مستطيل، كانت تتمدَّد مارلين، مستمتعة بحمَّامها الشمسي، وفي هذه المزرعة تعرفت، لأوَّل مرَّة، بجيفرسون الإرلندي، الجمهوري، وفيها، أيضًا، استقبلت السيدين ألاويس، وحتى نغوين جاءت مدفوعة بفضولها، وهذه الأقنية من الاسمنت، صنعتها يدا الرفيق خزنبري، الذي أوفد بمهمة حزبية إلى طهران، وهناك أعدم شنقًا، فوقفنا، حسن وفهمي وأنا، دقيقة صمت حدادًا على روحه التي جاد بها على مذبح المبدأ!

ذكريات، ذكريات، ذكريات! حزن، حزن، حزن! دمع تحيِّر، دمع سال، دمع على الوجنتين، دمع في الصدر، وزجاجة بعد أخرى، ومرة، ثم مرة، ثم مرَّة، وقفت، جلست، طوَّفت، وبعد ذلك جننت، اتخذت قرارًا مجنونًا، نفَّذت قرارًا أكثر جنونًا، أخرجت زجاجات الخمر، حطمتها، نثرت حطامها، فعلت هذا بالكؤوس، بالصحون، بفناجين الشاي، والقهوة، وبكلِّ

ما طالته يدي، وبسكين خزّقت سجادة الخيمة، وجئت بفأس، رفعت الفأس، وإذا بحسن بيجاري يقبض على الفأس، وبغير كلام ارتمى أحدنا في حضن الآخر، بقينا كذلك دقائق، ظللنا صامتين، لم يكن هناك ما نقول، العيون وحدها كانت تقول، ورويدًا رويدًا خرجنا من «مزرعة دمشق» بقيت اللوحة وحدها، وإلى جانبها اللوحة التذكاريّة للرفيق الإيراني الشهيد، الذي أبّنه حسن بهذه الكلمات: «نم في مثواك هانئًا، استرح طويلاً طويلاً، بعد تعب طويل طويل، ولأنت في قبرك، اسعد منا في غربتنا!» ثم قرأ الفاتحة، وقبّل اللوحة التذكاريّة، وفعلتُ مثله، ومشينا صامتين إلى أن افترقنا، كأنّما هذا الافتراق، بعد ذاك الالتياع، كان مقرّرًا، كان ضروريًا، كي يخلو كل منا بنفسه، ويهدهد نفسه، ويمسح على جراحها المدمّاة، لا من أسى فقط، بل من شعور بالإحباط أيضًا!

هتفت إليّ السيدة بورجرون عصرًا، صاحت وهي على الطرف الآخر من الخط:

ـ ماذا فعلت أيُّها المجنون!؟

أجبت بهدوء:

ـ ما يفعله العقلاء يا مارغريت!

ـ والوعد؟

ـ وفيت به، اللوحة في مكانها وكذلك اللوحة التذكاريّة!

ـ ولماذا إلى جانب لوحة دمشق، لوحة تذكاريّة أيضًا؟

ـ لأنّ دمشق خير من يكرّم الشهداء، هذا من تقاليدها.

ـ هل أستطيع المجيء، لزيارة قصيرة؟

ـ الأفضل لا! دعيني مع نفسي!

ـ لكنّك تتألّم!

ـ الألم يطهّرني، وهذا ما أنا في حاجة إليه.

ـ أفهمك تمامًا! يا إلهي كم أنت حساس!

ـ هذا هو تشكّلي النفسي، وإني لراضٍ به.. مع السلامة يا مارغريت!

أقفلت سماعة الهاتف، نقعت جلدي الخشن في الماء الساخن، استعدت ما جرى معي، لم أندم على ما فعلت، كان ذلك مناسبًا، المزرعة ليست وكرًا

للأوغاد، ليست مكانًا للدنس، أنا نفسي لم أدنسها، لم أتخذ منها مرتعًا للمجون، احترمت كل ما فيها، وفي المقدمة اسمها، وكذلك ذكرى الذي أنشأها، احترمت الأرض، والرفاق الصينيِّين الذين هم أصحابها، والذين يسهرون عليها، وقد أجازوا لي استخدامها، وقدموا كل ما يلزم لتنظيمها، لإنباتها، لجعلها نموذجًا للحدائق الصغيرة، الملأى بالخضرة والزهر والورد، أفيء إليها في طلب الراحة بعد عناء العمل، الراحة في العمل البدني، بعد التعب من العمل الفكري، وهذا لا علاقة له في الاختلاف، نحن مختلفون في وجهات النظر السياسيّة، لكنَّنا، رغم ذلك نتّصل، ومع الاتصال يكون الاختلاف، وفي هذه النقطة تتوازن المعادلة يصبح لها طرفان: اتصال، اختلاف، ودون أيّ منهما يكون نقص، والنقص ينفي الكمال، ينفي الطموح، ومعه التقدُّم، إذن الاختلاف ضروري كمحرض للاتفاق، فلولا ذاك ما كان هذا، ولو لم يختلف الناس لما اتَّفقوا، لما بحثوا، في اختلافهم، عن نقطة التقائهم، والبحث مطلوب في ذاته ولغير ذاته، وكل بحث ينبني على جدليّة سالب وموجب، وأين السالب والموجب في اتفاق لا اختلاف قبله أو بعده!؟ وهل أخرجُ للناس مناديًا: أيُّها البشر اختلفوا لكي تتفقوا؟

السيدة بورجرون لها رأي آخر في موضوع الحديقة، خلاصته أن السماح بانشائها هو امتياز لي، وكل امتياز له ثمن مدفوع، ولا بدّ أنّني دفعت هذا الثمن مسبقًا، اذن أنا غير صادق في ما أدّعيه من اختلاف مبدئي مع الصينيِّين، ثم إنّني أتّخذ الحديقة وسيلة للإيقاع بالنساء، وللسكر وممارسة الحب مع مارلين، وقد قصصت عليها الحكاية التالية: كان لينين يجلس إلى طاولة أمام بيته مفكِّرًا، فمرّ به فلاح وسأله: «هل ترتاح يا رفيق لينين»؟ أجابه: «لا! أشتغل!» وبعد مدة مر هذا الفلاح فرأى لينين يعزق بمنكاش حديقة بيته الصغيرة، فتوقَّف وسأله: «هل تشتغل يا رفيق لينين»؟ أجابه: «لا! أستريح»!

علّقت السيدة بورجرون قائلة:

ـ وماذا يعني هذا؟ ما مغزى الحكاية التي رويتها؟ وما علاقتها بك أو بحديقتك؟

أجبتها:

ـ لا شيء!

ـ هل تسخر منّي؟

ـ قليلاً!

ـ وتجرؤ على قول هذا؟

ـ ماذا أفعل إذن؟

ـ كن لطيفًا وعاقلاً!

لم أستطع، طبعًا، أن أكون هذا اللطيف، أو هذا العاقل، قررّت بيع الحديقة فعارضت، خربت الحديقة وحطمت كل ما فيها فاتهمتني بالجنون، وعندما أقفلت الهاتف، ونشدت الانتعاش بالماء الساخن، جاءت تقرع الباب، إلى أن يئستْ فانصرفتْ، وعندئذ لجأت، كعادتي، إلى القهوة والكونياك، وفي اليوم التالي ذهبتُ مع الرحلة، وذهبتْ مارلين أيضًا، وكانت المسافة بين بكين والسور العظيم، حوالى التسعين كيلومترًا، قطعناها بالباص، بعد أن انجزت مسؤولة العلاقات توبو، كل الأوراق اللازمة.

توقفنا عند بوابة بادا لانغ، نزلنا من الباص ومادلين تمسك بيدي، كانت هذه أول مرّة تزور فيها السور، وكنت أتفهَّم دهشها، إعجابها، سرورها، نشاطها، لأنَّ هذا ما كنت عليه أنا أيضًا، في زيارتي الأولى للسور، من نقطة عبور أخرى، ومثل كل الذين يزورون السور، خصوصًا من السيّاح والأجانب، كانت مارلين تحمل آلة التصوير وهي مشرقة الوجه، موردة الوجنتين، باسمة الثغر، راغبة في التقاط الصور ونحن لمّا نبدأ الصعود، تنظر اليَّ بفرحة طفل، قائلة:

ـ ما أروع ما أرى.. أكاد لا أصدق!

تضيف:

ـ كيف أكتب وأصوِّر في وقت واحد؟ ألا تساعدني قليلاً يا زبيد، يا صديقي؟

وكنت أجيبها:

ـ هذه، يا مارلين، رحلة للرياضة والمتعة، تمتّعي بما ترين، دون تفريط

بقواك، لأنَّ أمامنا صعودًا صعبًا، مرهقًا، تمارسين فيه رياضة شاقة، وتلتقطين صورًا رائعة، وفي وسعك، اذا ما هدأتِ، اختزان قواك، وتوفير الفيلم في آلة التصوير هذه، لما هو أهم، حين نصير، بعد قليل، وسط السور، في امتداده الأفعوانيّ فوق سلسلة جبال شاهقة جدًا، نرى منها إلى ما تحتنا من انحدارات مخيفة!

إلاَّ أنَّ مارلين، في الرؤى البكر لما حولها، لم تكن قادرة على الهدوء، على الاقتصاد بقواها، على عقلنة فرحتها، وعلى عدم تدوين أشياء وأشياء في دفتر يوميّاتها، هي، من وجهة نظري، نافلة، لأنَّ الدليل لم يصل بعد، والمسيرة، في المرتقى اللولبي، لم تنطلق، وأمامنا وقت فيه متسع لكل هذا النهم الذي يتمرأى في حركاتها! لذلك تركتها وشأنها، مبتعدًا عن لغوها الذي لا ينقطع، متأملاً، مفكّرًا، مسترجعًا ما أعرفه عن السور، وهو، في رأيي، أصح وأشمل في الكتاب، ممّا يعرفه وسيشرحه الدليل لمن يصطحبهم في هذه الرحلة، التي شاركت فيها لأن توبو أثارت فضولي بما قالته عن المفاجأة المنتظرة خلالها.

المفاجأة!؟ رفعت رأسي إلى السماء، كانت صافية، فاتحة الزرقة، موشّحة بتشكيل من الغيوم، يشبه رأس حصان، مغيّب الجسم في السحب البيض العالية، وإلى جانبه رقاقات من الغمام المنخفض، في ثناياه انبثاقات نورانيّة، تعطيه تهاويل أضواء محجّبة، مبعثرة، تسمح للشمس أن تحدث، بقوة أشعّتها، انقشاعات فيه، لا تلبث أن تحتجب، ثم تبين، ثم تحتجب، فوق ذرى الجبال التي نقف قبالتها. لقد فكرت يومًا، وأنا أجلس في المزرعة، أن أحاول الرسم، فكّرت، كذلك، أن أحاول الشعر، أن أخرج من داخلي ما يعذبني، دون أن أتوصّل إلى معرفة هذا الذي يعذبني، غير أن خواطري، التي ترفّ حولي كفراشات، كانت تتطاير هباء ما إن أحاول القبض عليها. كنت، كما وصفتني السيدة بورجرون، صيّادًا فاشلاً، بسبب من نفاد صبري، الذي لا سبيل إلى لجمه، ولا سبيل إلى تحمله، أو دفعه، فنسيانه، لأنّني، كما كانت تضيف ضاحكة: معطوب في الجهة اليسرى من صدري!

انتشلني من هذا الاستغراق السرابي، صوت مارلين صائحًا:

ـ زبيد هيّا، أسرع، إنّنا نتحرّك إلى أعلى.

خطوت في اتِّجاه جماعة الرحلة، وإذا بالآنسة توبو تقترب مني هامسة:

ـ ها هي المفاجأة!

نظرت إلى أمام، إلى مرتفع تقف عليه امرأة، تتكلّم الإنكليزيّة بطلاقة، فاذا بي أمام تشين لاو، وجهًا لوجه، كأنّما الانبثاق الذي كنت أرقبه في السماء، قد حدث بغتة على الأرض. حاولت التقدُّم أكثر، ارتقاء المرتفع بشكل أسرع، الا أنّ تشين لاو التي رأتني، جمّدت حركتي بقولها:

ـ لا تزاحم!!

أضافت:

ـ ليبق كل منكم في مكانه، أرجوكم! دعوني أكمل شرحي، وبعد ذلك نصعد بالدور، فالممرّ ضيّق جدًا!

صاح صوت من بين الحاضرين:

ـ كيف أنت تونجي تشين لاو؟ دعينا نقترب منك أكثر، كي نسمعك جيدًا.

قالت تشين لاو:

ـ إنّني بخير، لكن تشين لاو التي في الدروجبا أصبحت غيرها الآن، أنا، هنا، دليلتكم فقط، وسأرفع صوتي بأكثر ما أستطيع، كي تسمعوني جيدًا، هل ترغبون في شيء آخر؟

تعالت الأصوات:

ـ هذا يكفي، إنّنا نسمعك جيّدًا، ولكن متى نصعد إلى السور؟

أجابت تشين لاو:

ـ بعد قليل، أمامنا أفواج من السياح والزوّار، وسأعطيكم الآن فكرة عامة عن السور، هل نسيتم شيئًا في الباص؟ حقائب الكتف مثلاً، والكاميرات، وكذلك الطعام والماء، نحن، الآن، في نقطة الصعود، لكننا لن نعود إليها، سيكون النزول في نقطة أخرى، بعيدة نسبيًا، وسيكون الباص هناك، بانتظاركم!

نظرتُ إليها من قرب، أشاحت بوجهها عني، ارتبكتْ قليلاً، شعرتُ

بارتباكها، المفاجأة كان لها تأثير فيها، إلاّ أنَّها تماسكت بسرعة، حولّت نظرها عنِّي، بقيت على هذا الوضع، أدركت فورًا الحرج الذي سببته لها، تشين لاو التي أعرفها خُطفت في السحب، اندغمت بها، صارت جزءًا منها، تبخَّرت كما الضباب الصباحي، على هذه القمم العالية، هذه تشين لاو أخرى، هذه دليلة سياحية فقط، تمامًا كما قالت عن نفسها، وتمامًا كما أرادت أن أفهم، وقد فهمتُ ما أرادته، كل شيء صار واضحًا، المغامرة انتهت، هذه هي المغامرة الأخيرة، لا فائدة من إنعاش الذاكرة، الأفضل إخمادها، لقد كنتُ أنا زبيد، وكانت هي تشين لاو، ولكن متى!؟ في أي يوم، أي شهر، أي عام!؟ ربما في الحلم، والآن أفاق كلانا، والحلم سفته الريح، ومن المستحيل أن تعيد الريح ما أخذت! ما تبقّى هو الذكرى، الذكرى فحسب، وفي هذا بعض إيلام، لكن فيه، بعض شفاء أيضًا، ترى شفيت تشين لاو من الحب، أم أرغمت على الشفاء!؟ الأرجح أرغمت، أجبرت، كغيرها، على حذف اسمها من قاموس الحب، اذا كان قد بقي، في غمرة الحماس الثوري، قاموس للحب، وهذا ما أشكّ فيه، أشك مؤقتًا، ما دام إلغاء الناموس الطبيعي الغاء للطبيعة، وليس من سلطة، الآن وفي المستقبل، في هذا القرن أو القرون المقبلة، بقادرة على الغاء الطبيعة البشريَّة، على وضع غرائز الناس في قمقم، ثم الختم عليه بخاتم أيّ نظام، اشتراكيًا كان أم رأسماليًا، فالأنظمة تتغيَّر، إلاَّ أنَّ مشاعر القلوب، تبقى مشاعر قلوب، أزلاً وأبدًا!

انسحبت كالطيف إلى وراء، تسلّلت دون أن يدري بي أحد، حتى مارلين وتوبو، وقفت في المؤخِّرة، مكتفيًا بسماع الصوت، منتشيًا، بقدر ما يسمح الموقف، بالنبرات، وجاءني صوتها من بعيد، من الشبك الحديديّ في بحر شنتاو، من العرزال وراء معبد بوذا في الجبل العطري، من بيتي، في زيارتها الأولى لي، ومن جدرانه، في زيارتها الأخيرة لي، وقام الرمز مقام الواقع، إلى أن غدا الترميز هو الواقع كله.

قالت تشين لاو:

ـ الغاية الأساسية لهذا السور محض دفاعية، ضد الغزاة الطامعين في الصين، يوم لم تكن هناك طائرات ومدافع بعيدة المدى، وصواريخ، وكان القتال يجري بالنبال والسيوف وراجمات النار من فوق السور ومن

فتحاته ذات المسافات المحددة.. وهو يمتد من بوابة شانغهايغون على الساحل الشرقي للمحيط الهادي إلى بوابة جيايوغوان في صحراء غوبي، المعبر الأساسي لقوافل طريق الحرير. لكن هذا السور لم يحل بين الغزاة القادمين من الشمال، أيّ من جهات منغوليا، وبين اجتياحه مرات عديدة، كما فعل جنكيزخان عام ١١١٣، عندما تخطى السور، وغزا الصين، وحكمها حوالى قرنين من الزمن، إلى أن جاءت أسرة مينغ الصينيَّة عام ١٣٧٠ تقريبًا وقامت بترميم السور الذي خرب المغول بعض أجزائه.

أضافت:

- السور العظيم هذا بني فوق مناطق جبلية، وأقيمت عليه حصون منيعة، على امتداد قمم الجبال، وقد عمل في بنائه، ملايين العمال والمعماريين، وعُدَّ، زمن إقامته، أعجوبة الدنيا، وهناك رسالة من أحد العمال إلى زوجته، يقول فيها إنَّه جنِّد للعمل فيه وهو شاب، ومات وهو كهل ولما ينته البناء، فتأملوا هذا الجهد الإنساني الخارق الذي بُذل لإقامة هذا السور.

قال أحدهم:

- قصة بناء هذا السور تشبه قصة بناء الهرم الأكبر، هرم الملك خوفو في مصر، إذ اشترك في بنائه مئات ألوف العمّال، ونقلت أحجاره على طوافات من أسوان إلى الجيزة، فوق مياه نهر النيل، وتدل هندسته على معلمية معمارية دقيقة، تجعله إحدى أعاجيب الدنيا أيضًا.

قالت تشين لاو:

- أسمع بأهرام مصر، لكنَّني لم أزرها، وقد تكون إحدى عجائب الدُّنيا، إلاَّ أنَّ السور يبقى فريدًا في عظمته! أرجوكم! دعوا الأسئلة والتعليقات إلى أن نصعد، ونصبح فوق السور، ونطل منه على ما حوله.. إنَّنا، الآن، أمام تجربة نادرة، فالحماسة وحدها لا تكفي، لأنَّ الصعود يحتاج إلى قوّة بدنيَّة، وإلى عضلات متينة في الرجلين، و..

قاطعتها سيدة:

- كان يجب أن يكون هناك تلفريك يا عزيزتي الدليلة!

ردت تشين لاو:

ـ هذا سيصير مستقبلاً.

ـ متى؟

ـ ليس خلال زيارتك هذه للصين على كل حال!

ضحك بعض الحاضرين، صفق آخرون، صاحت تشين لاو:

ـ أرجوكم! أرجوكم! دعوني أكمل شرحي الذي لم يبق منه إلاّ القليل، وبعد ذلك نبدأ الصعود، ويصبح لدينا وقت طويل للأسئلة والاستفسارات، وسأجيب عنها كلها، كلها، هل تسمعون؟

ـ نسمع! هيّا، أكملي، ولكن كيف نقف على حدّ السور؟

قالت تشين لاو:

ـ للسور حدان، جداران، وهو أشبه بطريق، نمشي فيه، ونتجمع، ونتفرّق، بكلّ راحة، الصعوبة في الصعود فقط، وعندما نصل ستكون هناك فترة للراحة والتقاط الأنفاس، لا تتعجّلوا، أرجوكم! السور أشبه بطريق عريض نسبيًا، وقد تم الشروع ببنائه في القرن السابع قبل الميلاد، وهو يمتد فوق سلاسل من الجبال، يرتفع بارتفاعها حينًا، وينخفض بانخفاضها حينًا آخر، وستجدون أنه مبنيّ من الحجارة الضخمة، ويبلغ ارتفاع كل من جداريه حوالى التسعة أمتار في بعض الأماكن، وسماكة كل جدار حوالى ثلاثة أمثال، وعلى هذا السور، وبطول امتداده وتعرّجاته، أبراج للمراقبة وقلاع للدفاع، وبوابات واسعة، وفتحات ضيّقة لإطلاق النبال، وكان الحراس الذين يتولون المراقبة يعطون إشارة الإنذار بإشعال النيران ليلاً، أو بإثارة الدخان الأبيض نهارًا، وهذا كل ما لديّ من شرح موجز، فمن أراد التوسع في الاطلاع، عليه أن يشتري بعض الكراسات أو الكتب الصغيرة، قبل الصعود، أو عند النزول، شكرًا لكم، ولنستعدّ جميعًا للصعود.. هيّا، وراحوا يصعدون، ومارلين ملتصقة بتشين لاو تقريبًا، تحمل كيس زوادتها بكتفها، ممسكة آلة التصوير بيد، ودفتر اليوميات بيد، مندفعة بفرح وحماسة إلى أمام، مصعّدة في الجبل دون أن تلتفت إلى وراء! دون أن تتذكرني، أو تفتقدني، أنا الذي تسمرت في مكاني، ثم عدت إلى البوابة، وفي النفس جيشان من الخواطر والذكريات، أحاول السيطرة عليها شيئًا فشيئًا، وفي فمي، من الداخل، مشروع ابتسامة، لهذه المصادفة السعيدة وغير السعيدة في آن واحد.

عند البوابة الصغيرة نظروا إليَّ باستغراب، حسبوا أنَّني تهت عن جماعتي في الرحلة، او قصّرت عن اللّحاق بهم، وأن عليهم أن يفعلوا شيئًا لأجلي، لكنَّني اهتديت إلى من يتكلَّم الإنكليزيَّة، وهو شاب يلبس الرداء الأزرق، وعلى أرنبة أنفه نظارة طبيَّة بيضاء، اقترب مني وقال:

ـ هل في وسعي أن أقدِّم لك خدمة ما؟

قلت:

ـ شكرًا تونجي! كل ما أريده، لهذه اللحظة، أن أستريح، وأن أبلغ سائق الباص الذي جئت فيه، ألاَّ ينساني عندما سيتحرك إلى نقطة نزول رفاقي في الرِّحلة.

ـ وهل جئت في رحلة؟

ـ أجل!

ـ ولماذا لم تصعد إلى السور معها؟ هل تشكو شيئًا؟

ـ أبدًا، لكنَّني أعرف السور جيّدًا، فقد زرته سابقًا، وقرأت عنه، وأنا بصدد ترجمة كتاب حوله لدار النشر في بكين.. إنّني عربي، من سورية، أعمل في الصين كمدّرس في الجامعة، منذ سنتين ونصف تقريبًا، وأترجم بعض الكتب الصينية إلى اللغة العربية، اسمي زبيد، تونجي زبيد.

تصافحنا بحرارة، أبدى استعداده للقيام بما أسماه واجبه حيالي، ابتسمت له، شكرته، لكنني لم أحفظ اسمه، قادني إلى غرفة جانبية، وجدت فيها ما أنشد: طاولة وبضعة كراسيّ، أرسل من مسح لي الطاولة، وأعدّ الكراسيّ، وأرسل اليَّ ترمسًا من الماء الساخن، وفنجانًا فيه شاي أخضر، وبعد حديث بسيط، اعتذر قائلاً:

ـ نحن، الآن، في موسم السياحة، ولديّ شغل كثير، وفي إمكانك أن تستريح، وأن تطلب ما تريد مما هو موجود، مثل البيرة، السندويش، وغير ذلك..

شكرته، طلبت زجاجة بيرة مبردة، أخرجت بعضًا مما معي، من طعام رحلة كهذه، وكذلك زجاجة الكونياك وترمس القهوة، ووجدتني سعيدًا بأشد مما كنت أظن، فاتكأت على كرسي، مسافرًا على جناح أفكاري، غير مكترث بما جرى، أو سيجري، متناسيًا وقائع سوء الحظ، التي لا فائدة

من تذكُّرها، أغزل الضوء غلالة، تليق بتشين لاو، المرأة التي أحبَّتني لتنكرني، وأنكرتني لتحبني، متفحصًا، بحيرة تامة، عاطفتي نحوها، العاطفة الناضجة، المشرنقة كدودة القز، الماسيّة كحريرها، وفي داخل الشرنقة دودة ميتة: اسمها الحب! حبِّي الذي ليس حبًا، لأنَّه لم يكن يومًا، ولن يكون يومًا، ولا حيلة لي في ذلك.

شربت، كالأخطل، ثلاث زجاجات من البيرة، هذه البيرة لا هدير لها، لأنَّها ليست من العنب، وإنَّما من الشعير! الأخطل، بعد أن سكر، خرج يجر الذيل تيهًا، حتى على أمير المؤمنين نفسه، أما أنا فلم أسكر، ولم يكن لي ذيل موشى أجره، أو أمير مؤمنين أتيه عليه، كنت غريبًا، في مكان غريب، بعيدًا في مكان بعيد: سور الصين العظيم! هذا وحده، إذن، يستحق الاحتفال، وسأحتفل به وحدي، دون غناء، أو رقص، أو نديم، وفي مكان يجهلني كجهلي له، لكوننا غرباء هنا، غرباء جبلاً وحجارة وتربة، وليس من قبر لأي مخلوق، أقول له ما قاله امرؤ القيس لجارته: «إنا غريبان ههنا، وكل غريب للغريب نسيب!».

فتحت زجاجة الكونياك، ترمس القهوة، طلبت كأسين، طلبت فنجانين، لي ولتشين لاو! لم أكن ساحرًا، أو مهلوسًا، لكنَّني استحضرت طيفها، أجلسته قبالتي على الكرسيّ، سألته، بعد أن تبادلنا الأنخاب:

ـ هل عرفتني؟

تفرَّس الطيف في وجهي وقال:

ـ لست بالغريب عني! لكنَّني نسيت متى تعارفنا، وأين التقينا!

قلت:

ـ هذا طبيعي! في كل بلدان العالم يتعلَّم الإنسان ألاَّ ينسى، لكنَّهم، في الصين، يعلمونه أن ينسى، وربما كان هناك معهد للنسيان، في بكين أو غيرها!

قال الطيف:

ـ أعرف هذا المعهد، وقد تخرَّجت حديثًا منه.

ـ وما هي المادة الأساسية في الدراسة؟

ـ عدم الوثوق بغير الصيني، والابتعاد عن الأجنبي ما أمكن ذلك!

ـ الابتعاد أم الإبعاد؟
ـ هذا يتوقف على كل حالة بمفردها!
ـ وفي مثل حالي؟
ـ أعتذر عن الجواب!
قال زبيد:
ـ تعتقد أنَّني لا أعرف الجواب؟
ـ اذا كنت تعرفه فلماذا تسأل؟
ـ نفيًا للشك!
قال الطيف:
ـ الشك، يا زبيد، لا يُنفى في الصين، إنَّه مادة دراسية أيضًا!
سأل زبيد:
ـ والحب!؟
ـ والوطن!؟
ـ وأين التعارض؟
ـ لا تعارض هناك من حيث المبدأ، إنَّما الحب ليس للحب دائمًا! هناك الحب وهناك الواجب، وأنت لا تحب ولا تقوم بالواجب، لأنَّك نسيت لماذا أنت هنا!
أضاف الطيف:
ـ أنا أيضًا نسيت، لفترة ما، ما نسيته أنت، فد شغلني الحب عن الواجب، وهذا معقول، ومقبول إلى حدّ ما، غير أن الحب لا يكون من طرف واحد! هذا ما يسمونه وهم الحب، وغايته التسلية.. ثم ماذا؟ أنت تريد أن تتسلى معي، كما تتسلى مع غيري، وعرضُك الزواج كان غسلاً للوجدان، كان سبرًا لمشاعري، لا أكثر، لأنَّ من لا يحب لا يتزوَّج، وحتى لو احببت، افتراضًا، فلن تتزوَّج، ولديك أسبابك في ذلك، ولا مجال لمناقشتها الآن.. في البدء استشعرت الأسى، لاعتقادي أنَّهم أبعدوني عنك، لأنَّهم فرّقوا بيننا، لكنَّني، بعد ذلك، فهمت أنَّهم أيقظوني من غفلتي في الوقت المناسب! كن سعيدًا! انْسَ! النسيان هو الدواء، فإذا لم يكن فاليأس.. اليأس مع الحب راحة!

قال طيف تشين لاو ذلك واختفى، غار كما انبثق، كنت أحسب أنَّني استحضرته، فإذا بي اكتشف أنه هو الذي استحضرني، لإسماعي ما أرغب في سماعه، فلما أدى مهمته في الدفاع، خرج من دائرة تصوُّري كما يخرج المحامي من قاعة المحكمة، بعد إنهاء مرافعته.

عدت، من جديد، وحيدًا كما كنت، فوجئت أن الكأس الأخرى لم تمس، وأنَّ فنجان القهوة الآخر لم يشرب، ومن يشربهما اذا لم أفعل أنا؟ الوهم يبقى وهمًا، وتشين لاو جاءتني على أثير الوهم، وعليه نفسه غادرتني، لكنَّ الحوار الذي دار كان حقيقة، كان واقعًا، كان موضوعيًا ومقنعًا، فأنا خارج دائرة الحب بالكرة الزجاجية التي في صدري، وأنا خارج دائرة الزواج بالطمأنينة التي تلازمه، وهي كفنه ونعشه وقبره، وأنا خارج دائرة الحياة في المقبل من الأيام، لأنَّ لي فلسفة خاصة حول نعمة الانتحار إذا ملكتُ الشجاعة الكافية لذلك، ومع أنَّني أؤمن بالتقمُّص عن طريق الرجعى، فأنا لست بوذيًا ولن أكون، وأكره النرفانا لأنَّها طريق الخلاص من الألم، وأنا أحب ألمي وأداريه وأحنو عليه، لأنَّه يشعرني بأنَّني حيّ، ثم إنَّني لا أخاف الحياة، وعندما لا أخاف منها، فإنَّها هي التي تخاف مني، وهذا جيّد، يجعل الحياة جميلة ومباركة، وأخيرًا فإنَّني أكرِّس حياتي للعدالة الاجتماعية، وهذا التكريس هو الكفاح، وما في الكفاح من مسرّة، تجعل الإنسان يأخذ قيمته من ذاته، عبر الصراع الذي يعلو على البلادة والكسل!

هكذا، وأنا في سفح السور العظيم، مارست رياضة الصعود إليه، فلما انتهت الرحلة، وراحت مارلين، في طريق العودة، تروي بإعجاب بالغ، كل ما شاهدته، قلت لها:

ـ خبرت ذلك قبلك!

أضفت:

ـ أشعر بصوت يناديني من المجهول، ولسوف ألبِّي النِّداء.

وضعت يدها على كتفي وقالت:

ـ أيّ نداء وأيّ مجهول؟ مع من كنت في السفح، بينما أنا كنت في القمّة؟

- مع تشين لاو!

- تشين لاو كانت معنا!

- كان ذاك طيفها لا هي!

- وهل هي من المجهول الذي تزعم أنَّه يناديك؟

- ربما نعم! وربما لا! تشين لاو صارت من الماضي!

- ومن هي التي في الحاضر؟

- الكرة الزجاجية!

- لا تكن مجنونًا! لا تجعلني أخاف عليك.. متى نلتقي؟

نظرت إليها نظرة امتنان وقلت:

- لقاؤنا المقبل في مصيف بيتاخو، على الباسيفيكي.. أنا مسافر بعد غد إلى هناك!

- سألحق بك!

ولحقت بي فعلاً!

اليوميّة الثالثة والثلاثون ٢٠ آب ١٩٦٢

في محطة قطار بيتاخو، كان بانتظاري الرفيق حسن بيجاري وزوجته «لي ناي» وأحد موظفي إدارة المصيف، وكان هناك بعض الزملاء الأجانب أيضًا، يستقبلون أصدقاءهم القادمين لقضاء إجازاتهم السنويّة، على شاطئ المحيط الهادي، الذي يكفي اسمه فقط لاجتذاب المصطافين إليه. كنت أعرف مصيف شنتاو، ولم أسر فيه كما كنت أتوقّع، فالبحر فيه جميل، إلاَّ أن الشاطئ الرملي كان واسعًا، والماء ضحلاً يصلح لسباحة الأطفال، وللذين لا يجيدون السباحة. تعانقنا، حسن وأنا، قدمت لي زوجته باقة من الزهور، تكفّل عبد القادر، الذي رافقني، بنقل حقيبتي، عدنا جميعًا من محطة القطار إلى المصيف بالسيّارات، أصرّ حسن و«لي ناي» على تناول الغداء معًا، تواعدنا على اللقاء عصرًا في المسبح، وهو قريب من المساكن الحديثة، بحدائقها الأنيقة، ذات الخضرة والزهور، وأسيجتها التي تذكّر بحدائق البيوت الإنكليزيّة.

كان مسكني في الطابق الأرضي، بناء على اختياري، وكان مؤثّثًا

بشكل جيّد، تطلّ نوافذه على الحديقة، وعلى الأبنية المجاورة، وطرقاتها المتقاطعة، وينفتح فضاؤه على أمداء بعيدة، تشرف على المزارع، وعلى عرض البحر، وعلى السماء الموشّحة بالسحب، عند التقائها بالأفق، كما تشرف على هضبة الصنوبر من وراء، وما فيها من المساكن الموزّعة، بشكل هندسيّ بديع، على بعض الروابي، ذات الأشجار الباسقة، الظليلة، ولقد ارتحت، بل فُتنت، بكل شيء: البيت والحديقة والمطعم والنادي وشمس الأصيل، وفتنت أكثر «بالبلاج» وما فيه من تنظيم، وبالمسبح الواسع جدًا، المحوط بالشبك الحديدي، اجتنابًا لخطر سمك القرش، المتواجد بكثرة في الباسيفيكي.

سبحنا عند الغروب، أنا وحسن ولي ناي لما يوفّره من متعة خاصة، لا تتوافر في الأوقات الأخرى، فالماء يكون أكثر دفئًا، وأهدأ موجًا، ومنظر الغروب يصبح خلّابًا، عندما تتدلّى الشمس من السماء، مسبوقة بأشعّتها الذهبيّة، ملحوقة بحمرة السحب، وهي، كعروس الجن، تنزلق ببطء، منحدرة عن صفحة السماء، لتلامس صفحة الماء، ثم تغيب فيها رويدًا رويدًا، راحلة نحو المغرب، لتعود فتطلع صباحًا من المشرق، مكمّلة دورتها المعتادة كل يوم.

كان حسن سبّاحًا ماهرًا، وعندما قال لي: «هيا إلى الشبك الحديدي» تذكّرت تشين لاو، واللقاء الغسقي عند الشبك في شنتاو، ومن بعيد لوّحنا بأيدينا إلى «لي ناي» التي تفضّل السباحة قرب الشاطئ الرملي، وقد عرفت من حسن، ما كنت أعرفه عن أهميّة تسوير المسبح بالشبك الحديدي، وعن ضرورة التقيُّد بالمعلومات، وأهم ما فيها عدم تجاوز الشبك، بالقفز من فوقه، لأنّ القروش وراءه، وكان حسن، على مهارته وشجاعته، يخاف هذه القروش، وبعد غياب الشمس، وهبوط العتمة، خرجنا من البحر، فتدوّشنا بالماء الساخن، وحملنا ثياب البحر والمناشف في حقائبنا الصغيرة، عائدين إلى بيوتنا، ومنها، بعد تبديل الثياب، إلى قاعة البليارد في النادي، لنلعب مع بعضنا بعضًا، أو مع سوانا، على رهان ما، وكان حسن يكسب دائمًا، ومع كل من يلعب معه، الرهان، بسبب من مهارته بالبليارد، التي تتساوى مع مهارته في السباحة.

عندما عدت إلى البيت، في ساعة متأخرة من الليل، وجدت إشعارًا من

مارلين، تقول فيه إنَّها تصل بيتاخو في قطار الساعة الحادية عشرة، وتأمل أن أكون في انتظارها. فتحت حقيبتي، علّقت ثيابي الصيفية القليلة، جلست إلى المكتب لأشتغل، وإذا بالهاتف يرن، والسيدة بورجرون على الخط. كانت مبتهجة مثلي لوجودها في هذا المصيف، أخبرتني أنَّها وصلت اليه مع جاك قبل يومين، وأنَّها تسكن في البناية رقم ٩، الطابق الثاني، ورقم هاتفها ٩٢٧، وأنَّها علمت بوصولي من السيدة ألاويس، وحصلت على رقم هاتفي من السنترال، وسألتني ما اذا كنت مرتاحًا، ما إذا كانت الرحلة إلى سور الصين قد خفّفت من توتّري، وأنَّها افتقدتني كثيرًا، وخصوصًا عندما زارت «مزرعة دمشق» ورأت ما آلت اليه من دمار، وللمرة الثالثة أو الرابعة سألتني:

ـ لماذا كنت على هذا القدر من الهياج، ولماذا خرّبت ما بنيته، وأنفقت عليه الكثير من المال؟

قلت:

ـ لا أدري يا مارغريت، أحيانًا أخرج عن طوري بغير إرادتي!

قالت:

ـ هذا لأنَّك مجنون! ولأنَّ مارلين كانت مع جيفرسون في خيمة المزرعة ليلاً!

ـ ربما!

ـ بل هذا مؤكّد!

ـ لا شيء مؤكّد!

ـ تتستر عليهما؟

ـ وما هي مصلحتي في ذلك؟

ـ إذن تغار من جيفرسون!

قلت بتروٍّ:

ـ اسمعي يا عزيزتي! الغيرة، كما هو معروف نفسيًا، حارسة الحب، وأنا لست بحاجة إلى الغيرة، أو إلى حراستها، لسبب بسيط هو: أنَّني لا أحب مارلين أو غيرها.

ـ وإذا قلت لك إنَّك تحب وتخون من تحب؟

ـ تكونين أدرى بنفسي مني.

ـ المسألة لا تحتاج إلى دراية خاصة أو فراسة خاصة.. هناك دلائل قاطعة!

ـ مثل ماذا؟

ـ لقاءاتك مع مارلين في المزرعة.. رأيتكما بعينيّ الاثنتين.

ـ هذا صحيح! لكنَّني ألتقي في المزرعة مع كثيرين.. الرفاق الأجانب يبحثون دائمًا عمّا هو طريف، وقدّ وجدوا في المزرعة نوعًا من الطرافة، وكذلك نوعًا من.. الجنون!

ـ الكلمة الأخيرة هي الأصح.. أنت مجنون وعاقل، مجنون عندما تنفعل، وعاقل عندما تنصب الفخاخ للنساء، فيقعن فيها بسهولة.. كان عليك أن تحترم اسم المزرعة على الأقل، لو كنت هاويًا لإنشاء المزارع فقط!

قلت بحدة:

ـ لا تتنمَّري عليَّ يا مارغريت! دعي هذه السخافات جانبًا وإلاّ أقفلت الخط! إنَّني أحترم المزرعة واسمها وخصوصًا اسمها، دمشق غالية عليّ كنور عينيّ، وقد تحدثنا مطوَّلاً حول هذا، وكنت مثلي، وربما أكثر، حريصة على المزرعة، ومن أجلك لم أبعها، لكنَّني حطمتها لأنَّها أصبحت ملقى العشاق، والصينيُّون يعرفون هذا، ويراقبون حتى النملة، ولولا إصرارهم على التكتُّم، وعلى تطويق الأمور، لحدثت فضيحة، فهل يرضيك أن يمارس الحب في خيمتي؟

قالت مارغريت:

ـ لا يرضيني طبعًا، لكنَّك، أنت، تمارس الحب في خيمتك اللعينة.. الصياد، يا عزيزي، يتلذَّذ بأكل صيده، وأنت لم تقصر في الاصطياد وفي التلذُّذ، وإلاّ فلماذا ابتكرت لعبتك الشيطانية، وأسميتها «حفرة الخمور المعتَّقة»؟ تذكر ما قلته لي عن الشاعر الفارسي حافظ الشيرازي، وبيته المشهور جدًا، حول «الماء والخضراء[1] والوجه الجميل!» هذا البيت الشعري ينطبق على مزرعتك، وعليك، تمامًا! ففي المزرعة ماء وخضرة

---

١ ـ كلمة «الخضراء» بدل الخضرة مقصودة.

وامرأة.. فيها خمر معتق حسب زعمك، وفيها خيمة وسجادة، وفيها الإغراء من خلال الإطراء، وما من فتاة مثل مارلين، أو سيدة متصابية مثل ألاويس، إلاّ وتقع في الفخ المنصوب!

قلت بسخرية:

ـ لماذا نضرب الأمثال بالثعالب لا بالذئاب؟ أنت، الذئبة، وقعت في الفخّ أيضًا، وزدت فأوقعتني معك، والهواء الذي يقال إنّه يحتفظ بما يسمع، لا بدّ أن يكون قد حفظ فحيحك على السجادة ذاتها، وفي الخيمة ذاتها. لماذا، يا مارغريت، نذكر الآخرين وننسى أنفسنا؟ الأرواح، أحيانًا كثيرة، تضيق بالجدران، وتنشد الهواء الطلق، وهذا من حقها، كما هو من حقنا.. والآن انتهينا من كل هذا، هدمنا المزرعة واسترحنا، فماذا تريدين أكثر؟

ـ أن تفهم أن مارلين تلعب على الحبال!

ـ شكرًا لهذه المعلومة!

ـ وأنّها تحب جيفرسون كأساس، وتتظاهر بحبّك كاحتياط!

ـ هذا أعرفه!

ـ إذا كنت تعرفه، فلماذا تجشّمت عناء السفر في الرِّحلة إلى السور معها؟ تحسب أنّني غبيّة، وأنّ الماء يجري تحت جسري دون علم مني؟ قل! تكلّم! دافع عن نفسك إذا استطعت! كل ما أريده هو الآتي: ذهبت معها أم لم تذهب؟

ـ ذهبت في رحلة هي فيها.. هذا هو الأصح!

ـ المهم أنّك ذهبت، وأن جيفرسون كان يبحث عن مارلين هنا.. أي عشيق في الرِّحلة وعشيق بعد الرِّحلة، فما رأيك أيُّها العاشق المخدوع؟

ـ رأيي أنك متجنِّية، وأنّ الذي حدث لم تنقله باي لي إليك بأمانة، فأنا لم أذهب مع مارلين أو لأجلها، ذهبت لغاية أخرى، هي النزهة بقصد النزهة، والدليل على ذلك أنّني افترقت عن مارلين فور وصولنا إلى بوابة السور، فصعدتْ هي مع جماعة الرحلة، وبقيت أنا أعد نجوم الظهر من داخل البوابة، بقيت أشرب، أتأمّل، أفكِّر، أتذكّر، بقيت كما تريدين أن أبقى، فهل هذا أيضًا كافرٍ ومرض؟ إلى اللقاء، عزيزتي، فقد تعبت من الكلام، والكلام لا يجدي إذا أكثرنا منه، إذن لنقتصد فيه قليلاً!

قالت السيدة بورجرون:

ـ لم أقتنع عزيزي، كما ينبغي، ولأنَّك تعبت فإنَّني أؤجّل ما تبقّى إلى الغد.. سأزورك في الساعة العاشرة والنصف صباحًا، ما رأيك؟

ـ أرحب بزيارتك، لكنَّني لن أكون في البيت، في هذا الوقت، بل في محطة القطار، طلبت مني مارلين أن أكون في انتظارها، ومن اللَّياقة أن ألبِّي الطلب، أليس هذا من الجنتلمانيَّة، عزيزتي مارغريت؟ تصبحين على خير!

ـ ليلة سعيدة وغير سعيدة إذن!

ـ هذه سفسطة!

قلت ذلك وأقفلت الهاتف، رنّ من جديد، تركته يرنّ، توقّف قليلاً، عاد يرن، لم أرفع السماعة، تواصل الرنين، انقطع فحمدت اللّه، إلاَّ أنَّه رنّ بإلحاح شديد، وكانت المتكلمة السيدة بورجرون، تعاقبني بقسوة، على قلة ذوقي في إغلاق الهاتف بوجهها، قالت:

ـ مَنْ يكن جنتلمانًا، كما تحاول أن تظهر غدًا، لا يفعل هذا.. أنت حرّ في أن تستقبل من تشاء، أو تودِّع من تشاء، لكنَّني وجدت من اللياقة، يا سيدي العزيز، إخبارك أن جيفرسون في بيتاخو، وأنَّه سيكون في استقبال هذه العاهرة الإنكليزيَّة، ومعه باقة مناسبة من الزهر، فلا تتعب نفسك، ولا تصدم إذا رأيته في المحطة!

حاولت المحافظة على برودة أعصابي، قلت:

ـ سيدتي العزيزة! حاولي أن تفهميني، أرجوك! هذا هو يومي الأول في بيتاخو، وقد سعدت بوجودك في هذا المصيف الجميل، وأحسب أنَّنا سنقضي فيه أيّامًا ماتعة، إذا أقلعت عن هذا النكد غير المبرَّر..

قاطعتني بغضب:

ـ عن أي نكد تتحدَّث، وأنت مَنْ بدأ به؟ لماذا إغلاق الهاتف في وجه سيدة، أيُّها العزيز المهذَّب جدًا!؟ ثمَّ لماذا اتِّهامي بالسفسطة، لمجرَّد رغبتي في أن تكون على علم بأن جيفرسون هنا، ومن المؤكد، باعتباره عشيقها الأول، أن يكون في انتظارها؟ إنَّني، أيُّها السيد المبجّل، أعرف اللياقة فطرة، وليس اكتسابًا كغيري! كن في استقبالها باعتبارك عشيقًا ثانيًا،

احتياطيًا، وخذ باقة كبيرة من الورود أيضًا.. هذا، يا عزيزي، لا يهمني في شيء، هل تسمع؟
قلت متأنيًا، مسالمًا:
ـ أسمعُ جيّدًا يا سيدتي السفيرة..
ـ أنا لست سفيرة، كما أنت لست سفيرًا، فلماذا هذه السخرية البليدة؟ نحن، في الصين، خبراء لا سفراء..
قاطعتها:
ـ كل إنسان سفير لبلاده في غيرها، فكوني، لأجل فرنساكِ المجيدة، سفيرة لائقة، وفوق العادة أيضًا، ومطلقة الصلاحيّة، وتعاملي مع الآخرين بغير هذه الطريقة الفجّة.. أنا لست عشيقًا أوّلَ أو ثانيًا لمارلين، ولست عشيقًا أصيلاً أو احتياطيًا لها، لكن ماذا أفعل اذا كانت قد أبرقت إليّ، طالبة أن أكون في المحطّة، باعتباري الأقدم هنا، والأكثر معرفة في التصرُّف مع الصينيين من جهة، ومع المصطافين مثلك من جهة أخرى؟
ـ دعها تتعلم من تجاربها، إذا كان الحس السليم، والتصرُّف بكياسة، يمكن تعلُّمهما بهذه الطريقة، لكن مارلين لن تتعلم شيئًا، تعرف لماذا؟ لأنّها إنكليزيّة، بينما أنا فرنسية، والفرق هنا شاسع!
ـ وماذا بعد؟
ـ خذ بنصيحتي، دع جيفرسون يستقبلها، ثم لماذا الاستقبال؟ هل هي الملكة فيكتوريا؟ وعلى كل حال، ستكون هناك سيارة بانتظارها، ورفيقة صينيّة من إدارة بيتاخو، وهذا يكفي، حتى لو افترضنا أن جيفرسون، هذا السكّير، لن يكون غدًا في محطة القطار!
ـ وماذا يهمني أنا من كل هذا؟ لو كان السيد جاك مكاني، لفعل كما سأفعل، ولانتظرها أيضًا!! هذا ما يسمّونه أدب العلاقات الاجتماعيّة.. والآن إلى اللقاء غدًا، في البلاج أو المطعم، كوني عاقلة يا مارغريت، وأعدك أن أكون مثلك، وأن أخلّي بين الناس وما يريدون، لأن عليَّ أن أستجمّ وأن أعمل، في حقيبتي أكثر من عمل يحتاج إلى إنجاز، لأنّهم هناك، في دار النشر، ينتظرون مساعدتي، ولن أبخل بها، لأنّها من بعض الواجبات المترتّبة عليَّ، تجاه بلد اشتراكي، ومضيف أيضًا.. ما رأيك؟ هل أستطيع

أعادة سماعة الهاتف إلى مكانها؟ إنَّني متعب جدًا، وكفى ما تكلمنا الليلة.. كوني كيّسة، رقيقة، شفافة كما عرفتك دائمًا، وتصبحين على أحلام ورديّة.

أطفأت الضوء فوق السرير، تمدَّدت طلبًا للراحة والنوم، أجّلت ترتيب أفكاري إلى الغد، نمت مباشرة، وبعمق، وفي الصباح عملت قليلاً، بعد القهوة والكونياك، وفي الموعد المحدد كنت في محطة القطار، فلم أجد جيفرسون، ولم آبه لذلك، وكان استقبالي لمارلين وديًا وحارًا، وما إن دخلت الشقة المخصّصة لها، حتى تركتها واتّجهت إلى البحر، وهناك وجدت الرفيق حسن بانتظاري، كي نسبح في العمق، وقد سبحنا، وتناولنا طعام الغداء معًا، وقلت لحسن ونحن خارج المطعم:

ـ هناك، يا صديقي، انقلاب في الطقس!

قال:

ـ هذا يحدث كثيرًا في بيتاخو، تمطر فجأة، تشمس فجأة، والسباحة لذيذة في الحالين، فاذا لم نسبح نلعب البليارد، سأراهن لأجلك على زجاجة من الكونياك وأكسب الرهان، تمتَّع يا أخي زبيد، كن كمثلي، محبًا للحياة، وكن كالشيرازي، ممّن يحبُّون الوجوه الحسنة.. هل ستستريح بعد الغداء؟

قلت:

ـ لا بدّ يا حسن من الاستراحة قليلاً، ثم العمل إلى المساء، وربما إلى وقت متأخر، أنت تعرف دقة التزامي مع دار النشر.. أين أجدك ليلاً؟

ـ في البيت أو في النادي، إنَّني متزوِّج، ولست حرًا كمثلك أيُّها الملعون.. أين صديقتنا التي ستشتري السجادة التبريزيَّة؟

ـ تستريح من السفر في بيتها، أو تجلس على السجادة التبريزيَّة التي بعتها إيّاها!

قال حسن ضاحكًا:

ـ لعنة اللّه عليك إذن، تبيع «السجاد التبريزي» وأنا موجود في الدروجبا؟

ـ وماذا أفعل يا حسن؟ أقضي أكثر أيامي في البحث عن التحف الصينيَّة في أحياء بكين القديمة.. صرت خبيرًا في كل شيء، حتى في

السجاد التبريزي، تصور أن أنجلو الإيطالي، صدّق كمارلين، أن هناك سجادًا تبريزيًا في مخازن التحف في الصين! أمس عثرت، في بيتاخو البلد، على سجادة بغل، وسأبيعها لانجيلو على أنّها سجادة تبريزيّة!

قال حسن جادًا:

ـ لا تفعل هذا يا أخي! أنت تسيء إلى سمعة تبريز، وسيغضب عليك الشاه كمثلي، ويطلب من الصين تسليمك إلى إيران، وهناك تعرف ماذا يعني حكم الشاهات!

قلت بأسًى:

ـ عرفته يا حسن! ولماذا أنا في الصين إذن!؟ لننسَ هذا، ولنشرب الماوتاي حتى ننسى بشكل أفضل! نحن مطاردون، يا أخي، منذ خلقنا، وسنبقى مطاردين حتى نموت! هذا يعني أن تكون «اشتراكيًا» في زمن «الاشتراكيات» هذا، الذي تخوزقنا لأجله مرّة، وسنتخوزق مرّة ثانية، عندما «نتزوّج كمثلك». اذهب يا حسن اذهب؛ الخازوق في البيت بانتظارك!

ضحك حسن وقال:

ـ المشكلة، يا أخي، أنّ هذا الخازوق لا بدّ منه.. إن لم يكن في هذه الدنيا، ففي الآخرة إن شاء اللّه.

ـ هل هذا رأيك الأخير؟

ـ الأوّل والأخير.. إلى اللقاء!

سرت في طريقي إلى البيت وأنا أضحك من طرافة حسن، ابن تبريز الذي خرج منها مرّة وإلى الأبد، ترى يكون خروجي من دمشق، مثل خروج حسن من تبريز! وهل كتب على الذين يناضلون لأجل سعادة الآخرين، أن يعيشوا هُم في شقاء مؤبّد!؟ وهل تزوّج حسن ليخلص من هذا الشقاء، فوقع في شقاء أكبر؟ لا! حسن أحبّ لي ناي فمن أُحبّ أنا؟ ومتى، متى، متى!؟ آه أيّتها الكرة الزجاجيّة! أما آن الأوان لكي تصبحي من لحم ودم؟ وكيف تُعاش الحياة، لو لم تكن هناك إمكانية الانتحار؟ وماذا يعني، حسب عمر الخيّام، ألاّ نعرف لماذا جئنا ولماذا نرحل؟ أنا لن أكون مثل مجانين «آلام فرتر» هؤلاء كانوا من المراهقين وأنا تخطّيت مرحلة المراهقة، ومنذ زمن بعيد جدًا!

في البيت استلقيت على سريري وأفكاري، هذه زوجتي، أفكاري زوجتي، وكان زواجنا هذا «كاثوليكيًا» من الطراز الرفيع جدًا، فلا أنا قادر على الانعتاق، ولا هي. إذن لا بدّ من قضاء العمر معها، ولا بدّ، فوق ذلك، من محاولة الرضى بما هو «مكتوب على الجبين» بين الجلد والعظم، ولا شيء يكبح جماح أفكاري سوى العمل، ولكن بعد ترتيب هذه الأفكار، ووضعها، قولةً تشيكوف، في «دولاب المحفوظات» إلى أن يأتي زمن التعامل معها، بطريقة ما مناسبة! العقبة الوحيدة، الصغيرة والكبيرة معًا، أنّني أجهل أفكاري، وأجهل، تاليًا، المربع الذي أضعها فيه، في «دولاب المحفوظات» الذي أوصى به المايسترو الأعظم، والسؤال الذي يقف جدارًا، أو سورًا صينيًا، بيني وبين هذه المعرفة، هو أنّني لا أدري ما أريد، إذا ما وضعنا القضيّة جانبًا! ففي القضيّة أنا اشتراكي، وزواجي بها من «النوع الكاثوليكي» أيضًا، إلا أن هناك دائمًا، ما هو موضوعي وما هو ذاتي، والجمع بينهما اندغامًا، يبطل جدلية الأشياء في الوجود، ولست من الغفلة، أو من الحمق، بحيث أصدق، الآن أو في المستقبل، أن دور الذاتيّة ينتهي، وفي دائرة الذات يبقى السؤال قائمًا: ماذا هناك؟ لماذا عدم التلاؤم مع المحيط؟ ولماذا الميل إلى الانعتاق الروحي، من أسر الجسد المادي، هو همٌّ أكبر من همومي ولماذا الإنصات، قسرًا، إلى نداء المجهول الذي لا أتوصّل إلى فهمه، مكانًا وزمانًا؟ «كل ذلك، قالت لي نفسي يومًا، يحدث في حال انتفاء المغامرة، فمن يغامر لا يخفْ، وعدم الخوف نسبيّ في الوجود، وفي إطار هذه النسبيّة، لا بدّ من التغلُّب على الجبن، بالصمود له!» إذن الصمود للخوف، هو ألف باء الشجاعة، ومع الشجاعة تتّسق المغامرة، وكل من لا يغامر، في طلاب هذا أو ذاك من آماله، يُعدّ في القَعَدَة، والقاعد عن نيل أمانيه، في إطار الطموح الممكن، هو عاجز، عاجز، عاجز!

مجيء مارلين إليّ، ودون موعد مسبق، انتشلني من بئر هواجسي! فتحت ذراعيها، وهي على الباب، وعانقتني بحرارة.. بعد ذلك طافت في البيت، أثنت على ترتيبه، مدحت دأبي في العمل، وكعادة الأوربي، الذي يمدح طعامك وهو يتذوقه، ويعدّ ذلك من اللياقة، أبدت مارلين إعجابها بمقتنياتي القليلة، وكانت هذه أولى الخطى في مشوارنا القصير معًا في مصيف بيتاخو.. سألتني:

ـ هل الجو، هنا، غائم بشكل دائم؟

قلت:

ـ غالبًا يا مارلين! الجو الغائم، على الشاطئ، هو الأساس، وإلا فلماذا نحن جيران البحر؟ أحيانًا تحدث انقشاعات، تشرق الشمس ليوم، ليومين، لأيام، ثم تغيم السماء، وتمطر أحيانًا، الا تحبين الغيم والمطر على الساحل؟

ـ أحب أن يصبح جلدي برونزيًا.

ـ سيكون لك هذا!

ـ متى؟

ـ ليس هذا العصر، ولا غدًا صباحًا.. هناك، في الجوّ، أمائر غريبة!

ـ تتوقَّع عاصفة ما؟

ـ العاصفة غير مستبعدة!

ـ تحبُّها؟

ـ إذا كنت أنتِ من يرقص فيها!

ـ مجنون!

ـ بشكل نصفيّ فقط.

ـ أحيانًا تكون مجنونًا بالكامل! ماذا فعلت بالمزرعة؟

ـ هدمتها!

ـ هدم ما ينشئ الإنسان، وبيديه الاثنتين، هو الجنون الكامل!

قلت:

ـ الهدم ثم البناء، ثم البناء والهدم، يعني إنشاء عالم آخر، من حلمنا، من تصوُّرنا، من رغبتنا في أن نكون مبدعين لما نريد!

ـ لكنَّك، أنت، لست فنانًا تشكيليًا!

ـ ولست مبدعًا أيضًا..

ـ مع أن لك سمات المبدعين.. وجنونهم أيضًا!

ـ يحدث هذا أحيانًا.

ـ في رحلتنا إلى سور الصين لم تكن مجنونًا.. كنت، فقط، غريب الأطوار، وغير مفهوم!

ـ كنت أنا، وأحبّ، دائمًا، أن أكون أنا وليس غيري.. مع أن اناي ليست متورّمة جدًا.

ـ أناك العليا؟

ـ والسفلى أيضًا!

ـ لكنَّك عزيزي، وستكون على ما يجب أن تكون عليه في بيتاخو: عاقلاً على الدوام، أليس كذلك؟

ـ آمل!

ـ والآن؟

ـ هبطت عليَّ من السماء، أنقذتني من أفكاري.. غير البيضاء طبعًا!

ـ ولماذا غير البيضاء؟

ـ اسألي إبليس!

ـ ولماذا لا أسأل الملاك؟

ـ ليس لي شأن مع الملائكة.. إبليس يفهمني أكثر!

ـ لكنَّ إبليس نفسه غير قادر على فهمك.. نسيت ماذا فعلت في رحلة السور؟

ـ كنت على انسجام مع نفسي، وهذا حسبي!

ـ نفسك لعينة يا زبيد، اسمح لي بقول ذلك.

ـ أنتِ على حقّ.

عانقتني مارلين قائلة:

ـ في مثل هذه الأمور، لا أريد أن أكون على حق! متى نخرج؟

ـ عندما تشائين!

ـ هكذا؟ بمثل هذه البساطة؟

ـ لا! نشرب شيئًا أوّلاً..

غمزت بعينها وقالت:

ـ نشرب فقط؟

ابتسمتُ وقلتُ:

ـ الجواب عن هذا السؤال يكون بعد الشرب، أو خلاله!

ـ هذا يرضيني! أنت تفهمني! لنشرب اذن قليلاً من الكونياك والقهوة.

شربنا، سررنا لوجودنا معًا في هذا المصيف الجميل، زاد الغيم الساحليّ من نشوة الكونياك، نصحت مارلين بأن تسبح وقت الغروب، وفي الصباح الباكر، سألتني: «لماذا لا نسبح معًا» أجبتها: «لديَّ عمل ينبغي إنجازه» قالت محتجَّة:

ـ العمل وأنت في إجازة؟ لماذا هذا الإفراط في تأدية الواجب كما تردِّد دائمًا؟ كن كغيرك، أعمل وقت العمل فقط، ما دمت، كما تقول وكما أعرف، لا تقيم وزنًا للمال! أم أنَّ هذا من بعض غرائبك أيضًا؟

ـ من بعض غرائبي!

ـ لا أصدِّق، هناك ما هو أهم من الغرائبيَّة التي تتبدَّى بها، أودّ لو أعرف ماذا يدور في رأسك؟

قلت:

ـ دعي رؤوس الناس وما فيها، معرفة هذا مؤذية، تسبّب المتاعب.. والفضائح! تصوَّري أن يعرف الناس ما يدور في رؤوس الناس، وأن تكون هذه المعرفة هدفًا بذاتها، في هذه الحال نقع في الهلوسة، ندهش إلى حدّ الصدمة العصبيَّة، فالكشف هذا، لو تمَّ، لدارت بنا الأرض دون توقُّف، ولما بقي لنا أصدقاء! لدينا حديث يقول: «النفس أمّارة بالسوء» ولو حدث أن عرفنا ما تأمر به نفوس الأصدقاء قبل الأعداء، لفجعنا وتألّمنا جدًا، وقد نكفر بكل ما نرى وما يقال، لأنَّه غير ما كنّا نحدس أو نقدر، فعالم الناس الداخلي مباءة دود، نتستَّر عليها جميعًا، ونجمّلها كلنا، حتى لا تبين على حقيقتها، حتى تبقى محجوبة بجلودنا، بثيابنا المخمليَّة أو الحريريَّة، ببريق الخارج، وكلماتنا المنمّقة، الصادرة عن الشفاه لا عن القلب، والتي هي غلاف خارجي لما في حقيبة الداخل: النفس!

قالت مارلين:

ـ ولكن هذا، يا زبيد، فيه تعميم، وفيه استبطان بودليري قبيح، أنت، في ما تقول، متأثِّر «بأزهار الشرّ» ولا انسجامية المحيط، وربما النقمة على هذا المحيط، الذي في دائرته أنا وأنت والآخرون! هل يعقل أن نكون، من الداخل، على مثل هذه الطويّة الخبيثة؟ إنَّك تبالغ، تعكس مرآة تشاؤمك

على الجميع، مع أنَّك، في حياتك، في سلوكك، في تصرفاتك، تعطي انطباعًا عن التفاؤل والمحبَّة..

قلت:

ـ وعن الازدواجيَّة!

هتفت مارلين:

ـ لا أصدِّق! لا أريد أن أصدِّق، الناس، كما سمعت منك، طيِّبون.

ـ وهل نفيت هذه الطيبة في الذي قلته؟ الازدواجيَّة فينا تلبس «طاقية الإخفاء»، إلاَّ أنَّ اختفاءها لا يلغي تمظهرها، من حين إلى آخر، في هذا الموقف أو ذاك، في هذه الهاجسة أو تلك.. نحن نتحدَّث عن عالم الانسان الداخلي، عن اختلافه عن عالمه الخارجيّ، وعن رؤوس الغير، والرغبة المستحيلة، ومن الخير أنَّها مستحيلة، في معرفة ما يدور فيها، وقد أبديت رأيًا خلافيًا، يحتمل الخطأ والصواب، وأفضل ما نفعله في هذه الحياة القصيرة، حياتنا، أن نجسِّر الهوّة ما بين الداخل والخارج في نفس الإنسان، أن نحاول تغييره من الداخل، فالإنسان، في الأصل، فاضل بالفطرة، إلاَّ أنَّ الفطرة إلى زوال، والتشكُّل النفسيّ اللاحق، يرتبط بالتاريخ الاجتماعي، وهذا يعود إلى نوع النظام الذي نحن أبناؤه، ونوع المفهوم، المادي أو المثالي، الذي نستوعبه، ويعود هو فيستوعبنا، يشكلنا وفق معطياته النظريَّة، التاريخيَّة، الاجتماعيَّة، البينيَّة، وصدّقيني يا مارلين، أن التغيُّر النفسي، يأتي تاليًا للتغيُّر الاقتصاديّ، فهذا يسبق كثيرًا، وبمئات الأعوام، التغيُّر النفسي، وفهم هذا الواقع الموضوعي، البعيد عن الرغبات، يجعلنا نفهم أنفسنا، ونفوس الآخرين، بشكل أقرب إلى الصحة.. المملكة الفاضلة، وبالمصطلح العلمي، الجمهوريَّة الفاضلة، تبقى حلمًا بعيدًا، لكنَّه ممكن التحقيق! كفى! لنشرب! واذهبي أنت، بعد ذلك، إلى البلاج، بينما أنصرف أنا إلى العمل، ونتعشى الليلة مع بعض الأصدقاء..

قالت مارلين:

ـ علمت أن السيِّدة بورجرون هنا!

ـ وجيفرسون هنا أيضًا!

ـ ولماذا هذا التقابل؟

ـ لتكتمل اللوحة!

وقفت مارلين بنزق وقالت:

ـ أنت لا تفهمني إذن!

قلت:

ـ أفهمك يا مارلين، المرأة ليست لغزًا بالقدر الذي يتصوّره الرجال، المرأة مراوغة، بسبب من ضعفها، وهذا الضّعف ناتج عن اضطهاد الرجل لها، وتحت كلمة المراوغة تنطوي كلمات.. المراوغة قوس واسعة الحدّين، وتدرُّجاتها عديدة جدًا، متنوِّعة جدًا.

سألت مارلين بغضب:

ـ أنا مراوغة اذن في نظرك؟

ـ برغمك!

ـ ومن الذين يرغمني؟

ـ تاريخك الاجتماعي كأنثى!

ـ هل هذا التاريخ قدر؟ وأين التغيير مع العصر الصناعي الذي غيّر المرأة، بعد أن تعلّمت وعملت؟

وقفت، ابتسمت، قلت:

ـ الكلام هنا، على المرأة بعامة، باعتبارها أنثى، لا تزال، وستبقى زمن طويل، مضطّهدة من الرجل، أي ضعيفة حياله، وضعفها هو قدرها التراوغي.. إنّني لا أقصد امرأة بالذات، وأنت خصوصًا، هذا كلام عام، أما في التّخصيص فأنت عزيزتي مارلين.. هل حصلت على سجادة تبريزيّة؟ لا؟ اذن لنواصل البحث.. وإلى اللّقاء مساءً، مع بعض الأصدقاء في المطعم.

ـ هل بينهم تلك البورجرون؟

ـ لا بالتّأكيد!

ـ جهد شجاع، مثمر، قبّلني، وهذا كل شيء.

قبّلتُها، لمت نفسي على تماديَّ في كلام يطفئ النشوة، اعترف: أنّني غبيّ أحيانًا، بذريعة التوعية، كان عليَّ، في هذه الزيارة الأولى، أن أدع التفلسف الذي يزهق الرُّوح، ثم من الذي قال: إنّني واعٍ بما يكفي، حتى

أتصدَّى لتوعية غيري!؟ التعويض في المساء، سأعوِّض مارلين ما فاتها من تدليل، وسيكون حسن و«لي ناي» معنا، لكن ماذا بشأن بورجرون وجيفرسون؟ الترحيب، وهذا كل ما لديّ.

أفقنا، في الصباح التالي، على غير ما أمسينا، العشاء في المطعم كان مناسبة للمرح، وللمجون قليلاً، وللمداعبة حول نهفات السيدة نلسون، واللقاء بآل ألاويس والأصدقاء الآخرين، وقد كان رأي حسن ورأيي، متَّفقين حول عاصفة متوقَّعة، وها هي العاصفة المجنونة، وفي جنونها ستلفّ النوارس المذعورة، إلاَّ أنَّها ستبهجنا كمصطافين، رأوا الباسفيكي العظيم بوداعته، واليوم يرونه في شراسته، في عنفه، في ثورته، هذا المعلم الكبير للثورة والثوار.

شربت قهوة الصباح مع بعض البسكويت، تدفّأت بالكونياك، لبست المايو وألقيت بالمنشفة على كتفي، مع شحّاطة بلاستيكيَّة، بحريَّة، في القدمين، اتَّجهت نحو المسبح فوجئت بالناس يعودون، أغلبهم بثياب السباحة، ينصحون غيرهم بالرُّجوع، لأنَّ المسبح مغلق، تابعت طريقي غير مبالٍ، أتقدَّم فأهتاج، أهتاج فأتقدَّم، أمشي في خريطة الرِّيح، أمتنع عليها، أستفزُّها في سرّي، تحاول اقتلاعي، أحاول اختراقها، أنظر إلى السماء المجلببة بغيم أسود، أرغب أن تمطر، اسمع دويّ الرعد، تدحرجه، كما على لوح من زجاج، أطرب، تبرق صاعقة عند الأفق، تغوص في مفرق الشمس ساعة الغروب، أودّ لو أكون هناك، لو أقبض على وميضها، لو أملأ راحتي بضوء البرق، احمله، كما الثلج، دليلاً على أنَّني كنت هناك، أُبقي، في الراحتين، بقيَّة نار، أشعلها سراجًا في بيتي! أركع لأصلّي أمامه، كما لو أمام شمعة، في معبد بوذيّ، طالبًا البركة من «كوشي يين» العذراء البوذيَّة في طهرها والجلال، أسجد أمام المحيط، وثنيًا ينشد عماده في العناصر الأربعة، لهذا الكون الذي يَحَارُ بِهِ، يهابه، يتقحمه، يجترئ عليه، وبعد ذلك يضمّ يديه، ينحني انحناءة الاحترام، وينهض مفعمًا براحة سرمديَّة!

بلغت الشاطئ، المسبح مغلق فعلاً، أردت الدخول إلى حرمه فمنعت، قال لي الحارس الصيني:

ـ ممنوع الدخول!

ـ لماذا؟

ـ ألا ترى؟

ـ وماذا في الذي أرى؟

قاسني الحارس الصيني، من فوق إلى تحت وبالعكس، رازني، شكّ في أنّني إنسان عاقل، سألني:

ـ هل كنت في مثل هذه العاصفة يومًا؟

ـ لا!

ـ اذن أنت فيها الآن!

ـ وماذا يعني هذا؟

ـ يعني جنون الطبيعة!

ـ وجنون الإنسان؟

ـ اسأل عن هذا في المستشفى!

ـ ولماذا لا أسأل البحر؟

ـ لأنّ سمك القرش سيجيبك.. هل تعاملت مع هذا النوع من السمك؟ أرجوك، لا وقت لديَّ، المسبح مغلق والسباحة ممنوعة بأمر الإدارة.. تفضّل بالذهاب إليها، إذا كنت مصرًا على معرفة لماذا المسبح مغلق!

لم يعد ثمّة مجال للكلام، لكنّني لم اقتنع، وقفت أتفرّج، النزول إلى البحر مستحيل، حتى بالنسبة إلى الصينيِّين، فكيف بالأجانب المسؤولة عن سلامتهم الصين نفسها!؟ ان تنتحر ففي مكان آخر، أفضل الأمكنة لمثل هذا التهوُّر البيت، فهناك سقف وحبل، وعليك صنع الأنشوطة الملائمة بنفسك، لكنّني، أنا، لن أنتحر، أنا أصغي إلى نداء المجهول، قد يكون هذا المجهول اللّجّة، وهي مغرية، إنّما الإغراء يؤدي إلى الموت، والموت غير مسموح به، وفي ذلك منطق، وفيه صواب، لو ترك هذا المنظر الرهيب، بفتنته وشوقه، للصواب فسحة للإقناع أو الاقتناع، للإقدام أو التراجع، للحذر أو التهيُّب، فأمام جبال الأمواج، المحمحمة، المندفعة، كارزدلاف الخيل، نحو الشاطئ، استشعرت الضياع، استلاب الإرادة، الافتقار إلى قوّة التقرير، بين سلب وإيجاب.

وقفت على الرّمل كمن به خبل، كمن مسّه فرح عاصف، فأنا ثابت

متحرّك، ميّال إلى التروّي، نزّاع إلى الركض، بأقصى ما أستطيع، وثوبًا على واحد من خيول الموج المصطخب، في قفزة أعتلي معها سرج الزبد، لمعانقة هياجي الداخليّ، في سكون ما قبل المروق بحدق المجهول، الكامن نداؤه وصمته في سمع الهول البعيد، المتمثّل بتهاويل غريبة، تبتسم فيها أنثى، يكشّر شدق، يُرى عرس الحياة، ومأتم الموت، في متواليات بين شفة لمويّة، شهّاء وناب أسود، كفحمة الليل، بين عجز التردُّد، وبهجة الاقتحام، بين الجلوس على عرش الماء، أو الهبوط إلى جحيمه الأبديّة، كأنما في انغراسي حيث أقف، أنتظر إشارة ما، من مكان ما، تحسم هذا الصراع النفسي، المعذِّب ما دام في دائرة الحيرة.

كان الناس، عبر رؤية ضبابيَّة، يأتون، يذهبون، يتكلَّمون لغات لم أسمع بها من قبل، يتحرّكون، يدورون، يلوبون، ينخطفون في الأعاصير، دون أن يبالي بي أحد منهم وكنت أضحك، أكاد أصفِّق، حين يجلس رجل، تجلس المرأة، طفل، طفلة، على الرمل المخرّم بالرغاء الزبديّ، فيأتي الموج، في اندفاعات، هادرة، متلاحقة، ويحمل الجالسين، يكنسهم، يقذف بهم مسافات إلى وراء، وهم يقهقهون، يعاودون الكرة، كما في لعب مسلٍّ، ليعاود الموج، في لعب مماثل، قذفهم إلى وراء، دون أن يجرؤ أحد على الذهاب إلى ما هو أبعد، لأنَّه مخيف، وممنوع، في آن واحد!

تحركت عائدًا من حيث جئت، تردَّدت، توقفت، رجعت إلى البحر، ورجع الصمت يعانق الصمت، على شفتيّ، على يدي، على جسمي المرتعش انفعالاً، وكلما تقدَّمت نحو حوض المسبح، ردّني إلى وراء، حارس أو منقذ، والعند، في داخلي، يزداد، يمور، يقترب من الانفجار، فأضغط عليه، ألجم انفجاره، أهدأ بانتظار ما سوف يكون، أداري مشاعري المتوثِّبة في صدري، هياجي الناغر بنفاد صبر طال وطال، إلى أن جاء حسن، جاءت لي ناي جاء آخرون، فرادى، لا للسباحة بل للفرجة، صارت العاصفة فرجة، صارت بهجة، وصار المحيط، في اصطخابه، دويّه، رنينه، انفلاته، جنونه، أعجوبة أخرى، صينيَّة هذه المرَّة، كأعجوبة السور العظيم.

وضع حسن يده على كتفي وقال:

ـ لماذا أنت هكذا، كالمجذوب؟ «نا أولدي»؟ (ماذا جرى؟) بماذا تفكّر؟ وثياب البحر هذه لماذا يا أخي؟

التفتّ إليه، راح يضحك منّي، كان في ثيابه الخفيفة، ومثله لي ناي والآخرون، قال وهو يمسك الطرف الأدنى، المدوّر، من ذقني:

ـ منذ متى أنت هنا؟

ـ منذ الصباح الباكر!

ـ ولماذا في ثياب السباحة؟

ـ كي أسبح طبعًا!

ـ ولماذا لا تسبح؟ تخاف؟

ـ يمنعونني من السباحة، وأخاف قليلاً!

ـ ليس قليلاً يا أخي، كثيرًا جدًا، سمك القرش مخيف أكثر مما تتصوّر.

قلت:

ـ أين هو هذا القرش والمسبح مسوّر بالشبك الحديدي؟

ـ والأمواج التي تقفز فوق الشبك، ألا تحمل القرش معها؟

ـ من يدري؟

قال حسن:

ـ كيف من يدري يا أخي زبيد؟ المسبح سيظل مغلقًا إلى ما بعد العاصفة، عندئذ يفجِّرون الديناميت فيه، لقتل القروش الموجودة، وبعد ذلك يسبح الناس.. لا تكن مجنونًا! هيا نلعب البليارد.

ـ العاصفة أهم لديَّ من البليارد، لن أغادر الشط يا حسن.

قال حسن بحدَّة، ونبرة إيرانيّة:

ـ لماذا؟ كل الناس يأتون ويرجعون، كن عاقلاً! أنت لست أكثر جسارة مني، ولا أقوى، أو أمهر في السباحة، أم تريد أن تكون بطلاً بالمجّان؟

قلت بصدق:

ـ أعرف ما تقوله يا حسن! أنت أكثر جسارة، وأمهر سباحة، وأقوى عضلاً، وأنت بطل رياضي، لكنّك لست «كمثلي».

ـ مجنونًا!

ـ إذن دعني!

قالت لي ناي:

ـ لا تدعه يا حسن! إنَّه مريض.. تونجي زبيد أصفر الوجه، يرتجف، لنأخذه إلى البيت.

ضحك حسن وقال:

ـ وفي البيت نعالجه بالماوتاي.. ما رأيك!؟

قلت بحسم:

ـ عالج نفسك يا حسن بما تريد، دعني هنا... سأسبح!

ـ والقرش؟

ـ أنا لا أخاف القرش!

ـ ومنع السباحة؟

ـ هذا لا يهم..

قالت لي ناي:

ـ بلى! يهم! سأنْده للحارس أو المنقذ.

قالتْ ذلك وندهتْ، ضاع صوتها في الرِّيح، ذهبتْ بنفسها، سبقتُها، قذفت نفسي في الموج، غصتُ فيه، اخترقته، ابتعدتُ، أطلق الحارس صفَّارته، أشار اليَّ أن أرجع، لكنَّني أمعنتُ، لا تحدّيًا بل هوسًا، نزل المنقذ ورائي بفلوكة، قلب الموج الفلوكة، حطمها، قدف بأشلائها إلى الخارج، خفت! غطست تحت الماء، كان القاع عميقًا، وكان التيّار قويًا، وقعت في الفخ! المحيط العظيم وجدني فريسة حقيرة، رغم ذلك تشفّى، مال إلى الانتقام، لماذا أيُّها الهادئ تثور؟! ولماذا تنتقم!؟ ضعت فيما أنا أقاوم الضياع، حاولت، بكل طاقتي، الرجوع إلى الشاطئ، وحاول المحيط، دون اكتراث، أن يسحبني إلى الداخل، سحبني ببساطة شديدة، غصت من جديد، فشلت من جديد، التيار تحت، كما فوق، لا يُقاوم، خابت مقاومتي، خبت، صحت، أكل الهدير صياحي، أكل صمتي، أكل فكري، وكي يجهز عليَّ، دفعة واحدة، رفعني موج المحيط إلى أعلى، يا إلهي! كم رفعني الموج إلى أعلى، كم رجّني، كم وضعني على ذروة جبل من الماء، وكم خلع قلبي وهو يحطّ بي في هوّة من الماء، وراء الشبك الحديديّ، الذي جرح، لا أدري كيف، صدري... أين المفرّ؟ ساح دمي، رأيت دمي يطفو أمامي، إذن

النهاية، فالقرش يشم الدم، يستثيره الدم، والعودة إلى داخل الشبك بدت صعبة، المحيط جعلها مستحيلة، الداخل ليس كالخارج، دخول المحيط ليس كالخروج منه، ماذا أفعل؟ أستسلم؟ أفوز براحتي في موتي؟ هذا، في هولة ما أنا فيه، ما كنت أبحث عنه! لا أدري ما أريد، كنت أسرّ في نفسي، طول عمري، الآن فقط فهمت ما أريد: الراحة بالموت، الانتحار على يد الآخر، هذا الآخر هو المحيط، إذن بلغت ما كنت أرجو، أدركت الغاية، وفي إدراكها النصر، انتصرت!

بعد معاناة نسيتُ، أو أُنسيتُ، أنَّها معاناة، حملني الموج، بمقاومة واهنة، إلى يمين الشبك الحديدي، إلى صخرة عالية، ورغم علوِّها، يرتفع الموج عليها، ينساح عنها، وكانت هذه فرصتي الأخيرة: أرتطم بالصخرة فأتمزَّق، أو أرتفع مع التيار إلى ما فوقها فأنجو، وكنت أريد النجاة، لا أريد الموت، أيُّها المحيط، أيُّها العظيم، أيُّها القادر أمام عاجز، لا أريد الموت، لا أريد أن أموت، والصراع بيني وبينك على غير كفاء، إلاَّ أنَّني، أنا الإنسان، سأصارع، صار الصراع قدري، تقبّلت، على مضض، حكم القدر، استنفرت ما بقي من عزمي، ارتفعت مع الموج إلى فوق، هبطت معه إلى تحت، رأيت هامة الصخرة وجذرها، حاولت التمسُّك بنتوء الحجر، خانني الحجر، تجرّحت، التهبت بالملح جروحي، أبصرت، وأنا أرتفع، أشباحًا على الصخرة، سمعت أصواتًا على الصخرة، امتدّت إليّ الأيدي من على الصخرة، لم أفلح، مرَّة ومرَّة ومرَّة، ظهر القرش في البعيد، اندفع في اتِّجاه الصخرة، صراخ! انتبه! القرش، القرش، القرش! ماذا أفعل، يا أحبَّائي، مع القرش؟ اصعد إلى فوق.. كيف!؟ لا تنحدر إلى القاع.. كيف!؟ القرش من ورائي، والصخرة من أمامي، وطارق بن زياد غاب عن بالي، لكن فكرة برقت، الهام ومض، الخروج من تحت الصخرة، الابتعاد عنها، بضربات قوية، أخيرة، للساعدين، فعلت، ابتعدت، نجحت، ركبت موجة شالت بي على منكبيها، هوت، ارتفعت، هوت، ارتفعت، وفي ارتفاعها، فجأة، وجدت نفسي على الصخرة، تمسكت جيدًا، أظافري غرزت بمادة صلبة، بالحجر، وامتدَّت اليَّ بالأيدي، وكان فرح!

أدخلت، بسرعة، إلى المستشفى، أسعفوني، ضمدوا جراحي، ابتسموا في وجهي، ابتسمت في ونًى، بوجوههم، أفقت في اليوم التالي، كان هناك

حسن، فهمي، لي ناي، بورجرون، مارلين، جيفرسون، لم يؤنّبني أحد، لم يذكر المغامرة أحد، لم أقل: هذه هي المغامرة الأخيرة لأحد، زارني كثيرون، غمروني بعواطفهم، بورودهم، قالوا كلمات وديّة، تشجيعيّة، طيِّبة، عطرة، وقال مدير المستشفى:

ـ بعد أسبوع، أو عشرة أيام، تندمل الجروح، تشفى، وتخرج، تونجي زبيد، من المستشفى!

لكنّني، في اليوم الثالث، هربت من المستشفى!

مغامرة أخرى!؟

شيء من هذا القبيل!

ـ انتهت ـ

ليل ١٤ شباط ١٩٩٧

عنوان المؤلف

دمشق ص.ب. ٣٠٣٩٣ هاتف: ٥١١٥٣٢٢ ـ سورية

SYRIA - DAMASCUS P.O.BOX 30393 TEL: 5115322

مؤلفات حنّا مينه

المصابيح الزرق
الشراع والعاصفة
الثلج يأتي من النافذة
الشمس في يوم غائم
الياطر
بقايا صور
المستنقع
القطاف
الأبنوسة البيضاء
المرصد
حكاية بحّار
الدقل
المرفأ البعيد
الربيع والخريف
مأساة ديمتريو
حمامة زرقاء في السحب
نهاية رجل شجاع
الولاعة
فوق الجبل وتحت الثلج
الرحيل عند الغروب
النجوم تحاكم القمر
القمر في المحاق
المرأة ذات الثوب الأسود
حدث في بيتاخو
عروس الموجة السوداء
المغامرة الأخيرة
الرجل الذي يكره نفسه
الفمّ الكرزي
حارة الشحادين
صراع امرأتين
ناظم حكمت: السجن، المرأة، الحياة
ناظم حكمت ثائراً
هواجس في التجربة الروائية
كيف حملت القلم؟
البحر والسفينة... وهي!

دار الآداب
هاتف ٨٠٣٧٧٨ - ٨٦١٦٣٣
ص ب ٤١٢٣ - ١١ بيروت
تصميم الغلاف ريم الجندي